*

1700030

*

كتاب
تاريخ مصر الحديث

مع

فذلكة في تاريخ مصر القديم



تأليف

جرجي زيدان

الجزء الثاني

طبع بالرخصة الرسمية (نمرة ٦٢)

طُبع بمطبعة المقتطف بمصر سنة ١٣٠٦ هجرية او ١٨٨٩ مسيحيّة

دولة المماليك الاولى

من سنة ٦٤٨ ــ ٧٨٤ ه او من ١٢٥٠ ــ ١٣٨٢ م

منشأ المماليك ومبدأ أمرهم في السلطنة

منشأ المماليك في قفجاق من شمالي اسيا وكانت من المستعمرات الاسلامية فكانوا يجعلون عليها ولاة من امراء السلاف الذين كانوا من حكام روسيا فلما غزا المغوليون تلك الاصقاع تحت قيادة باتوخان حفيد جنكيز خان اخرجوا منها سكان الولايات القسبينية والقوقاسية فتشتتت قبائلهم وتفرقوا في القارة فالخوارزميون نزلوا اعالي سوريا وما بين النهرين وحطوا رحالهم هناك اما ما بقي من تلك القبائل التائهة فلم يجدوا لهم مقرًّا يقيمون فيه فجعلوا يطوفون البلاد باولادهم ونسائهم لا يستقرُّون على حال . وكانت تجارة الرقيق في ابانها فاغتنم تجارها فرصة ثمينة وجعلوا ينتقون من ابناء اولئك المساكين اجملهم صورة واقوامهم بنيةً وانورهم عقلاً ويبيعونهم بيع السلع اما الضعفاء وقبيحو الصورة فكانوا يذبحونهم فاكثرَ امراء سوريا وملوكها من اقتناء اولئك الارقّاء البيض ودعوهم بالمماليك . فالملك الصالح كان قد ابتاع منهم نحو الالف حتى جعل منهم امراء دولته وخاصة بطانته والمحيطين بدهليزه ودعاهم بالحلقة اشارة الى انهُ لا يبرح محاطًا بهم كيفما توجه وكانت مماليك الملك الصالح صنوفًا يميَّز كلٌّ منها بعلامات خصوصية يجعلونها على ثيابهم او اسلحتهم فكانت علامة بعضهم الورد وعلامة البعض اشكال الطيور وكانوا يتمنطقون بمناطق جميلة مختلفة الالوان فتألف منهم جيش مخصوص تسبب عنهُ قلاقل في سائر المملكة المصرية

وقد كانوا بالواقع ميّالين الى الاستقلال بالحكم لا يمكنهم الرضوخ لسلطان من السلاطين باختيارهم لانهم كانوا كثيري العدد والعِدد وكانت اهمّ مصالح الدولة في ايديهم وامنع حصون البلاد في قبضتهم قد اتخذوها مستقرًّا لهم حتى اذا ضاقت ذرعًا عن الاحاطة بهم ابتنوا بامر الملك الصالح قصورًا عظيمة متقنة البناء منيعة الجانب في جزيرة الروضة قرب المقياس وقد زادها مركزها الطبيعي مناعةً وجمالاً لان النيل يتفرع هناك الى فرعين وكان يدعى عند نقطة تفرعهِ بالبحر لعظم اتساعهِ فسمّي هؤلاء المماليك بالمماليك البحرية ومنها اسم دولتهم تمييزًا لها من دولة اخرى ستأتي بعدها وتدعى بدولة المماليك الشراكسة

وكانت سطوة المماليك البحرية تنتشر يومًا فيوم الى انهم طمعوا بخلع السلطان وتولّي الملك مكانهُ . فلما تولى الملك المعظم وكان على ما كان عليهِ من الاستبداد انفت نفوسهم من اعمالهِ فسعوا بما سعوا الى ان قتلوهُ على ما تقدم . وكان الملك لويس التاسع والذين معهُ لا يزالون اسرى في البرج الخشبي الذي التجأ اليهِ الملك المعظم قبل قتلهِ . ولما لعبت النار بالبرج فرّ الملك لويس ومن معهُ ومروا بين المصريين وهم يقتلون ملكهم ثم نزلوا على مراكب كانت في انتظارهم واقلعوا بعد ان شاهدوا مقتل الملك المعظم ثم جاءهم رجل من المصريين يدعى الفارس اقطاي حاملاً قلب الملك المعظم واعطاهُ للملك لويس وطلب اليهِ ان يكافئهُ على قتل عدوّهِ . وقال بعض المؤرخين ولا اراهُ في مكان الثقة ان الامراء المصريين بعد قتلهم ملكهم طلبوا الى لويس المذكور ان يتولّى زمام الاحكام مكانهُ فرفض

سلطنة شجرة الدرّ

سنة ٦٤٨ ﻫ او ١١٥٠ م

فلما قتل الملك المعظم اختلفت الاحزاب على من يبايعون بعده وكانت كل فئة منهم تحاول استبقاء الحكم في يدها وعلا الخصام حتى كاد يفضي الى الحرب فتداركت الامر شجرة الدرّ ام الملك المعظم (وعلى قول بعضهم مربيتهُ) بعد ان رأت ما حلّ بابنها تاركة الحنو الوالدي جانبًا وتبصرت في امر من يجب ان يخلفهُ فرأت حزب المماليك اعزّ جانبًا من الجميع . ونظرًا لكونها من ابناء جلدتهم وافقتهم على رأيهم وكانت قبل ذلك قد تمكنت بطريقة غريبة لم يسبق لها مثيل في الاسلام ان تستلم زمام الاحكام باقرار الجميع . وكيفية ذلك انها تواطأت مع ايبك عز الدين وكان من اعظم الامراء المماليك واقواهم نفوذًا وكان بينهما علاقات ودية منذ ايام الملك الصالح ويقال انهُ من قتلة الملك المعظم فتمكنت بذلك التواطئ من مبايعة جميع الاعيان لها ولُقبت بعصمة الدين ام خليل في ١٠ صفر وكانت توقع بما مثالهُ « والدة خليل » ونقشت اسمها على النقود بما هو « المستعصمة الصالحية ملكة المسلمين والدة المنصور خليل خليفة امير المؤمنين » وعيّنت عزّ الدين اتابكًا عندها . ثم اخذت في التقرب من ارباب الدولة ووجهاء البلاد فجعلت تخلع عليهم الخلع الثمينة وتمنحهم المناصب والرتب وتخفض الضرائب الّا ان جميع هذه المساعي لم تأتها بفائدة لان الناس لم يرتاحوا الى طاعتها فانفذ السوريون الى الخليفة العباسي في بغداد يستفتونهُ في امر هذه الملكة فكتب اليهم ما مفادهُ « اذا لم يكن بينكم من يصلح للسلطنة اقدمُ اليكم فاقيم عليكم من يحكم فيكم اما قرأتم ما قالهُ النبي (صلعم) عليهنّ » فاستمسك مماليك مصر بهذه الفتوى وثار رفقاؤهم في دمشق وخلعوا طاعة

شجرة الدر وبايعوا سلطان حلب الملك الناصر يوسف الايوبي في ٨ ربيع اول وقتلوا كل من كان في دمشق من المماليك على دعوة شجرة الدر ومثل ذلك فعل اهل بعلبك وشميمس وعجلون فنشأ بسبب ذلك خصام بين مماليك سوريا ومماليك مصر آل الى مواقع حربية فتمكن عز الدين ايبك في هذه الانقسامات من الاستقلال عن صديقته والجأ الامراء شجرة الدر على الاستقالة فاستقالت

سلطنة ايبك الجاشنكير

سنة ٦٤٨ ﻫ او ١٢٥٠ م

وفي سنة ٦٤٨ ﻫ بويع عز الدين ايبك على مصر ولُقب بالملك المعزّ الجاشنكير التركماني الصالحي وتزوج بشجرة الدر فانضم حزبها الى حزبهِ . وبعد قليل انقسم المماليك الى قسمين عظيمين عُرفا بالمعزّيين نسبة الى الملك المعز ايبك والصالحيين نسبة الى الملك الصالح نجم الدين وتنازعا النفوذ ففاز الصالحيون

سلطنة الملك الاشرف بن يوسف

من سنة ٦٤٨ ــ ٦٥٥ ﻫ اومن ١٢٥٠ ــ ١٢٥٧ م

فاجبروا ايبك ان يقبل بمبايعة شاب من العائلة الايوبية لم يبلغ الثامنة من العمر وكان في اليمن واسمهُ موسى مظفر الدين بن يوسف انسز ملك اليمن فبايعهُ في ٥ جمادى الاولى وبايعهُ الناس ولقبوهُ بالملك الاشرف وتعين عز الدين اتابكًا لهُ غير ان ازمّة الاحكام ما برحت في يدهِ ولم يكن الاشرف الاّ اسمًا بلا رسم ومن الغريب تألُّف هذه السلطة المزدوجة من احد سلالة العائلة الايوبية واحد مماليكها والاغرب من ذلك ان يُخطب لهما معًا

وفي خلال ذلك نهض سلطان دمشق الجديد ناصر الدين يوسف الايوبي للأخذ بثار الملك المعظم فدعى اليهِ اقرباءهُ امراء العائلة الايوبية للتعاضد على ذلك وتأكيدًا لنجاح مسعاه استمد لويس التاسع ملك فرنسا وكان اذ ذاك في عكا على ان يعيد لهُ مقابلةً لذلك بيت المقدس فارسل ملك فرنسا الى ناصر الدين راهبًا لعقد المعاهدة وانفذ الى المماليك في مصر مندوبًا يطلب اليهم التعويض على نكث المعاهدة التي عقدوها مع الصليبيين وكان من صالحهم الاتفاق مع الصليبيين على سلطان دمشق فاجابوا مطاليبهُ واطلقوا عددًا كبيرًا من الاسرى المسيحيين بعثوا بهم الى عكا وارفقوهم بمندوبين لتجديد المعاهدة فاقترح لويس التاسع ان يضاف اليها البنود الثلاثة الآتي ذكرها وهي

اولاً . ارجاع رؤوس الصليبيين التي كانت مغروسة على متاريس القاهرة

ثانيًا . ارجاع جميع الاولاد الذين كانوا قد أُجبروا على الاسلام

ثالثًا . التنازل عن المائتي الف دينار التي تعهد الصليبيون بدفعها بمقتضى معاهدة المنصورة

فرضي المماليك بجميع ذلك واهدوهُ فوقها فيلاً جميلاً وكان هذا اول فيل أُرسل الى فرنسا وتبرعوا ان يعيدوا اليهِ بيت المقدس اذا تغلبوا على سلطان دمشق . فاتصل امر تلك المخابرات بسلطان دمشق فانفذ فرقةً من عشرين الف مقاتل تحول دون اتحاد الجيشين فعثروا بالمصريين في غزة فناهضوهم حتى ارجعوهم الى الصالحية فانجدهم الفارس اقطاي فاعادوا السوريين على اعقابهم الى سوريا ثم تشدد السوريون وعادوا بمدد كبير تحت قيادة شمس الدين لولو حاكم مملكة دمشق ومعهم سلطان دمشق نفسهِ فالتقوا بالمماليك تحت قيادة ايبك والفارس اقطاي يوم الخميس ١٠ ذي القعدة سنة ٦٤٩ ھ في العباسة ونقاتلا فانكسر المصريون اولاً فتعقبهم السوريون فجعل ايبك والفارس اقطاي انهزامهما نحو سوريا ومعهما

جماعة من الفرسان فالتقيا بشمس الدين لولو في شرذمة من رجالهِ فقتلاهُ وشتّتا رجالهُ فاشتدّ ازرهما فعادا لمهاجمة سلطان دمشق وكان في معسكره مع شرذمة قليلة من الجند . اما باقي الجيش فكانوا يتعقبون الجيوش المصرية المنهزمة فاضطر السلطان الى الفرار بنفسهِ فتبعاه فلم يدركاه فعادا الى مصر فرأيا الجيوش السورية قد دخلت القاهرة وخاف اهاليها ظنًا منهم ان النصر لناصر الدين فبايعوهُ وخطبوا لهُ . الّا ان الائمّة لم يوافقوا على تلك المبايعة تخصيصًا على انهم لم ينجوا من انتقام ايبك . فلما علم المصريون ان النصر لهم فرحوا جدًا وابطلوا مبايعة ناصر الدين اما هذا لما رأى امر انكساره على ما تقدم لم يعد يمكنهُ اعادة الحرب ثانية فصالح المصريين على ان يخلي لهم عن مصر وغزة واورشليم وقد ربح من الجهة الثانية ما كان يرومهُ من فساد المعاهدة بين المصريين والصليبيين فاتفق مع المماليك على محاربة الصليبيين

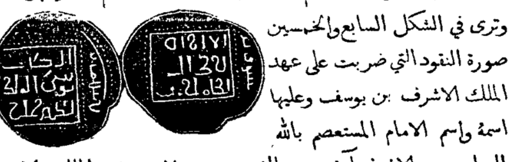
ثم اتفق المماليك البحرية على تخريب مدينة دمياط خوفًا من مسير الافرنج اليها مرة اخرى فسيروا اليها الحجارين والفعلة فوقع الهدم في اسوارها يوم الاثنين ١٨ شعبان سنة ٦٤٨ ﻫ ومحيت آثارها ولم يبقَ منها سوى الجامع ويعرف بجامع الفتح واخصاص ابتناها بعض الفقراء للسكن في قبليها ودعوا ذلك المكان المنشية اما دمياط الباقية الى هذا العهد فابتنيت على انقاض تلك فبلغت جمالاً فائقًا وقد ساعدها على ذلك حسن مركزها الطبيعي واهميتهُ للتجارة وقد بالغ المقريزي في وصفها لانها كانت في ايامهِ (في القرن التاسع للهجرة) ازهى واعمر مما هي الآن فنظم في مدحها قصيدة ٣٢ بيتًا اقتطفت منها هذه الابيات

سقى عهد دمياط وحيّاهُ من عهدِ ... فقد زادني ذكراهُ وجدًا على وجدِ
وبشنينها الريّان يحكي متيّمًا ... تبدّل من وصل الاحبّة بالصدِّ
فقام على رجليهِ في الدمع غارقًا ... يراعي نجومَ الليل من وحشة الفقدِ

وظلّ على الاقدام تحسب انهُ لطول انتظارٍ من حبيبٍ على وعدِ
كان التقاء النيل بالبحر اذ غدا مليكان سارا في الجحافل من جندِ
وقد نزلا للحرب واحتدم اللقا ولا طعن الّا بالمثقّفة الملدِ

وعظم الفارس اقطاي في عيون المصريين لما اظهرهُ من البسالة والاقدام في الحروب الاخيرة فلقبهُ احزابهُ بالملك وتزوج اخت المنصور سلطان حماه واسكنها في القلعة لاتصال حبل قرباها بالعائلة الملوكية فاوجس ايبك شرًّا من انتشار نفوذ الفارس المذكور حتى خشي مناظرتهُ في الملك فاخذ يسعى للتخلص منهُ وكان الفارس زعيمًا لحزبٍ من المماليك الصالحيين وكانوا يطلبون لهُ المشاركة في الملك مع الملك الاشرف وما زالوا حتى نالوا مطلوبهم فرقّى كثيرين منهم وفي جملتهم سيف الدين قطوز الذي صار بعد ذلك ملكًا اما الفارس اقطاي فقتلهُ ايبك وهو داخل سراي القلعة ثم خشي الوقوع في شرّ اعمالهِ فامر بقفل ابواب القلعة وابواب المدينة ولبث يتوقع الحوادث فلم تمضِ برهة حتى جاء الامراء الصالحيون برأسهم بيبرس وتجمهروا على ابواب القلعة وطلبوا الفارس اقطاي ظنًّا منهم انهُ كان مأسورًا فرمي اليهم برأسهِ من على السور فلما علموا بقتلهِ ارتاعت قلوبهم فعمدوا الى الفرار قاصدين باب القراطين ففتحوهُ وساروا قاصدين سوريا وبقي منهم شرذمة قبض عليهم واُودعوا السجن

فلما تخلص الملك المعز ايبك من طائفة الصالحيين قبض على الملك الاشرف والقاهُ في سجن مظلم فمات فيهِ تعيسًا بعد ان حكم سنةً وشهرًا



وترى في الشكل السابع والخمسين صورة النقود التي ضربت على عهد الملك الاشرف بن يوسف وعليها اسمهُ واسم الامام المستعصم بالله العباسي - والاشرف آخر من ملك

ش ٥٧ نقود الملك الاشرف

في مصر من الايوبيين . وحكم بعض افراد هذه العائلة في دمشق وحلب وحمص وميافركين الاَّ ان هولاء لم تمض عليهم عشر سنين حتى انقرضوا ولم يبقَ منهم الاَّ فرع واحد في حماه بقي حاكمًا فيها قرنًا بعد انقراض جميع الدولة وكانت سلطتهُ ضعيفة لانحصارها في تلك الامارة الصغيرة وقد جاء من نسلهِ ابو الفدا المؤرخ المشهور سنة ٧١٨ هـ . وقد نسي كثيرون منا ذكر الدولة الايوبية وفتوحاتها العظيمة ولكنا لم ننسَ ابا الفدا لانهُ ترك لنا ذكرًا لا يُمحى بتاليفهِ المشهور

واستوزر ايبك شخصًا من نظار الدواوين يدعى شرف الدين هبة الله ابن صاعد الفائزي احد كتاب الاقباط وكان قد اظهر الاسلام من ايام الملك الكامل وترقى في خدمة الكتابة وكان طبيبًا للسلطان الايوبي الخامس مشهورًا بالطب والسياسة فلما صار وزيرًا قرر على التجار وذوي اليسار وارباب العقاقير اموالاً ورتب مكوسًا وضمانات سموها حقوقًا ومعاملات وهو اول قبطي وُلّي الوزارة

ولما استتب المقام لايبك وتخلص من المماليك الصالحيين وغيرهم ممن كانوا ينازعونهُ الملك حسب الجو قد خلا لهُ وما درى ان شجرة الدرّ لا تزال واقفة لهُ بالمرصاد بعد ان صارت لهُ زوجة فكانت تحول دون كثير من مقاصدهِ ولم يكن يجسر على مقاومتها مع علمهِ باستقالتها من مهام الملك على انهُ لم يستطع احتمال هذا التقيُّد والسلطان في يدهِ فجعل يبحث عن طريقة تنقذهُ من هذه القيود مع علمهِ ان مكايد النساء اشد وطأةً من ملاقاة ابطال الرجال . فادعى انها عقيمة لا يرجو منها نسلاً فاقتنى عليها سراري اخريات فولدت لهُ احداهنَّ ولدًا دعاهُ نور الدين علي ثم بلغها انهُ ساعٍ الى التزوج بابنة بدر الدين لولو ملك الموصل وكان قد امسك عن زيارتها فاشتعلت حسدًا لعلمها ان هذه الزوجة الاخيرة من بنات الملوك فخافت ان تحل محلها من العظمة فاقرَّت على الكيد بهِ

فبينما كان مارًّا في ٢٣ ربيع اول سنة ٦٥٥ ﻫ في الدهليز السرّي الى دار الحريم وثب عليهِ خمسة خصيان بيض كانوا قد كمنوا لهُ هناك وخنقوهُ بعمامتهِ وكان ذلك بدسيسة شجرة الدرّ فاشاعت انهُ مات مصروعًا وكان ايبك ظلومًا غشومًا سفاكًا للدماء

ولم تجسر شجرة الدرّ تعاطي الاحكام بنفسها خوفًا من الايقاع بها فجاءت بخاتم الملك الى اميرين من كبار الامراء وهما جمال الدين عضوغدي وعزّ الدين الحلبي وطلبت اليهما امام جثة زوجها ان يستلما زمام الاحكام فابيا . وكان قتل ايبك في داخل السراي ليلاً ولم يشع الخبر في القاهرة حتى الصباح التالي . فلما علم اصحابهُ من المماليك بما حلّ بهِ اضمروا على الانتقام وكان سن ابنهِ نور الدين علي ١٥ سنة فبايعوهُ ولقبوهُ بالملك المنصور

وكانت مدة ايبك في الاحكام عشر سنوات واحدى عشر شهرًا شاد في خلالها بنايات عظيمة وفي جملتها مدرسة دعاها المدرسة المعزية نسبة اليهِ بناها على ضفة النيل في مصر القديمة وربط لها دخلاً مخصوصًا للنفقة عليها . وهو اول من اقام من ملوك الترك بقلعة الجبل

سلطنة نور الدين علي بن ايبك

من سنة ٦٥٥ ــ ٦٥٧ ﻫ او من ١٢٥٧ ــ ١٢٥٩ م

فالملك المنصور حالما بويع قبض على قاتلة ابيهِ وعهد بها الى نساء بيتهِ فاماتوها ضربًا بالقباقيب على رأسها وطرحوا جثتها في خندق القلعة فاكلت الكلاب نصفها ودفن النصف الباقي قرب مدفن السيدة نفيسة .

فانتهت حياة هذين الخادعين شجرة الدرّ وايبك كما رأيت فجوزي كل منهما بما فعل لانهما قتلا الملك المعظم

اما نور الدين علي فلم يحكم الأمدة قصيرة تحت مناظرة وصيّهِ شرف الدين هبة الله المتقدم ذكرهُ . ولم يلبث حتى استبدلهُ بسيف الدين قطوز مع لقب اتابك اي وصي الملك ونائبهُ ولما تولّى سيف الدين هذا المنصب استقدم اليهِ المماليك الصالحيين من سوريا وعقد معهم مجلسًا اقروا فيهِ على عدم لياقة نور الدين للاحكام نظرًا لصغر سنهِ واذاعوا ذلك فانزلوا نور الدين في ٤ ذي القعدة سنة ٦٥٧ ه بعد ان حكم سنتين وبايعوا سيف الدين قطوز

سلطنة المظفر سيف الدين قطوز

من سنة ٦٥٧ — ٦٥٨ ه او من ١٢٥٩ — ١٢٦٠ م

وسيف الدين هذا شريف الاصل من عائلة ملوكية خلافًا لسلفهِ فهو ابن مودود شاه ابن اخ ملك خراسان فتح التتر بلادهُ فتشتت عائلتهُ ولما تولّى سلطنة مصر لُقب بالملك المظفَّر وحالما استوى على السلطنة قبض على نور الدين وامر بقتلهِ فحاول العلاّمة شرف الدين المدافعة عنهُ فصلبهُ على باب القلعة

ثم لاح لهُ ان دمياط بعد ان دكّت اسوارها لم يعد ثمّ ما يعيق مراكب العدو عن المرور في النيل فامر بردم مصب النيل هناك وبعث بفرقة من الحجارين فمضوا وقطعوا كثيرًا من الحجارة والقوها فيهِ حتى ضاق وتعذر سير المراكب منهُ الى دمياط وهو على ذلك الى اليوم فان المراكب الكبيرة لا تستطيع المرور فيهِ فتنقل البضائع منها الى الجروم والمتواتر على السنة البعض ان سبب ذلك وجود جبل او رمل متجمع هناك

وفي خلال ذلك جاء القاهرة قائد تتري ناقلاً منشورًا من هولاكو

ملك المغول حفيد جنكيز خان وكان التتر قد انتشروا في جميع اسيا الشمالية والشرقية وكان هولاكو قد غزا العراقين بجيش عظيم واستولى على مدينتي الموصل وحلب وفتح بغداد عنوة سنة ٦٥٦ هـ وقتل الخليفة المستعصم بالله وبقتلهِ سقطت الدولة العباسية وبعد هذه الفتوحات نزل هولاكو الى سوريا ففتح دمشق وجميع السواحل البحرية حتى قدم مصر فبعث اليها منشورًا ونصهُ «من ملك الملوك الحاكم من الغرب الى الشرق اعظم الخانات هولاكو خان فاتح الفتوحات الغريبة صاحب الجيوش العديدة الى اهل مصر. فيا اهل مصر لا تخاطروا بانفسكم في محاربتي لانكم ان فعلتم اذًا انتم مخذولون فاقتدوا بغيركم من سكان حلب والموصل»

فلما قرأ قطوز ذلك المنشور وعلم ما كان من امر فتوحات هذا التتري وما هو عليهِ من القوة والمنعة اوجس خيفة غير ان جيوشهُ كانوا قد حاربوا الجيوش الصليبية وانتصروا عليها ولم يزل في نفوسهم عزة الظفر وانفة النصر فاستخفوا بقول هولاكو واصروا على القتال فحشدهم قطوز وجهزهم بما يلزم من العدة والسلاح واستقدم اليهِ قبائل العربان وفرّق فيهم وفي سائر جيشهِ نحوًا من ستماية الف دينار جمعها من الضرائب التي اقامها على المصريين مما دعاهُ تصقيع الاملاك وزكاتها واحدث على كل انسان دينارًا يوخذ منهُ واخذ ثلث التركات الاهلية فكان يجمع منها ٦٠٠٠ دينارًا سنويًا. ثم سار من القاهرة لملاقاة التتر في غاية شعبان سنة ٦٥٨ هـ وما كاد الجيشان يلتقيان حتى اتصل بهولاكو خبر موت ابيهِ منجوخان ملك التتر فاضطر الى العود حالًا ليطالب بحقوق الوراثة فعاد تاركًا في سوريا نحوًا من عشرة آلاف من نخبة فرسانهِ تحت قيادة نسيبهِ ونائبهِ كتبوغا لمحاربة قطوز فالتقيا في فلسطين في عين الجالوت فالتحم الجيشان وحصلت بينهما موقعة كبيرة شفّت عن هلاك كتبوغا وكل رجالهِ والقبض على ابنهِ . وغنم المصريون غنيمة كبيرة تكفي لاغناء كل المشرق لانها تحتوي على اثمن

ما نهبهُ هولاكو من اغنى المدن اثناء فتوحاتهِ . فعاد الملك المظفر الى القاهرة ظافرًا ولم تتم سعادتهُ لان المنية كانت في انتظاره على الطريق فقتلهُ بعض رجالهِ الذين كانوا يترقبون فرصة لقتلهِ فتمكنوا من ذلك يوم السبت في ١٧ ذي القعدة سنة ٦٥٨ هـ بعد ان حكم ١١ شهرًا و١٢ يومًا

وتفصيل ذلك انهُ بينما كان عائدًا بجيشهِ الى القاهرة مرَّ من امامهِ ارنب برّي وكان مولعًا بالصيد فسار على اثرهِ في عرض الصحراء حتى امعن فيها ثم عاد وحدهُ ولا صيد معهُ فتقدم لملاقاتهِ احد امرائهِ المدعو ركن الدين بيبرس البندقداري فلما دنا منهُ همَّ الى يدهِ كانهُ يريد تقبيلها فامسكها باحدى يديهِ وطعنهُ بالاخرى في قلبهِ فسقط صريعًا يخبط الارض فجاء باقي الامراء وكانوا متواطئين معهُ على هذه الفعلة فرفعوا جثة سلطانهم ودفنوها في قبر صغير قرب قبر خَلَف فخشي ذوو الفقيد ان تبلغ الموسى لحاهم فتفرقوا في مصر السفلى لا يظهرون على احد وكان الاتابك اذ ذاك في الصالحية مع السواد الاعظم من الجيش فسار اليهِ قتلة قطوز واخبروهُ بما فعلوا فقال لهم «من منكم ضربهُ الضربة الاولى» فاجاب بيبرس انا هو فقال لهُ احكم اذًا مكانهُ

فبويع بيبرس للحال ولُقب بالملك القاهر ثم تشاءم من هذا اللقب فابدلهُ بالملك الظاهر واضاف اليهِ ابا الفتوح وكان يلقب ايضًا بالعلي وبالبندقداري نسبة الى سيدهِ الذي كان يدعى علاء الدين بندقدار

سلطنة الظاهر بيبرس البندقداري

من سنة ٦٥٨ — ٦٧٦ هـ اومن ١٢٦٠ — ١٢٧٧ م

ولما تم لبيبرس امر السلطنة سار الى القاهرة وجعل بهاء الدين وزيرًا

وبيلي بك وهو من اعز اصدقائهِ من المماليك خزندارًا واستقدم من بقي من عائلة قطوز فأمنهم وضمهم اليهِ واطلق من في السجون جميعًا بغير استثناء وأكثر من العطايا لرجالهِ وابطل كثيرًا من الضرائب التي كان قد ضربها سلفهُ كتصقيع الاملاك وتقويمها وأخذ زكاة ثمنها في كل سنة وجباية دينار من كل انسان وغير ذلك واعلن امرهُ هذا على لسان الخطباء في المنابر

على انهُ مع ذلك لم ينل رضاء كل الرعية لا سيما السوريون فانهم شقوا عصا الطاعة وبايعوا الامير سنقر حاكم حلب ولقبوه بالملك المجاهد وعضدهم على ذلك التتر تحت قيادة هولاكو فسار بيبرس حالًا الى دمشق لاخماد الثورة فحارب التتر وتغلب عليهم في ٣ مواقع متوالية فقنط الدمشقيون من المساعدة فسلموا المدينة فدخلها وانتقم منها اشر الانتقام وما زال حتى اخضع سائر بلاد الشام . ولما عاد الى القاهرة اخذ في اصلاح الداخلية

وفي سنة ٦٦٠ هـ قدم اليهِ من بقي من الدولة العباسية منهزمين من وجه التتر بعد ان وقعت بغداد في يدهم فالتجأوا اليهِ وفي جملتهم ابن الخليفة الظاهر بامر الله الذي ذبحهُ التتر فاكرم وفادتهُ ولم يبخسهُ شيئًا من حقوق الخلافة بل اقامهُ خليفة في القاهرة ولقبهُ بالمستنصر بالله فاصبحت القاهرة من ذلك الحين مقرّ الخلفاء العباسيين غير ان سلطتهم لم تكن تعتبر الَّا من وجهها الديني فقط وكانوا يلقبون بالائمة . وقد رافق نزول العباسيين في القاهرة قحط عمَّ سائر القطر فتشاءم الناس بحلولهم . اما بيبرس فلم يألُ جهدًا في استجلاب الاقوات من سائر جهات سوريا وغيرها وتفريقها في الناس فانقذ بلادهُ من ضيق عظيم

ثم اراد بيبرس ان يسترجع بغداد للخلفاء العباسيين فانفذ مع الخليفة المستنصر بالله جندًا كبيرًا لاخراج التتر منها وتسليمها للخليفة المستنصر

فلاقاهم التتر في الطريق فحاربوهم وشتتوا شملهم وقتلوا الخليفة ولم يجلس على كرسي الخلافة الأخمسة اشهر وعشرين يوماً فبايعوا في القاهرة الخليفة الحاكم بامر الله . ثم أُلجئ بيبرس الى تجريدة اخرى انتقاماً من فتح الدين رئيس قلعة الكرك . وسبب ذلك ان بيبرس قبل توليهِ سلطنة مصر كان قد ترك امرأتهُ عند فتح الدين وقاية لها مما كان يقاسيهِ من الاسفار والعذاب وعهد اليهِ رعايتها فلم يحترم هذا حرمة الدين والشرف فتنك بها بغير وجه الحق فاتصل ذلك ببيبرس وكان قد تولَّى امور مصر فثار فيهِ حب الانتقام فجرد الى الكرك وحاصر قلعتها وكانت منيعة الجانب طالما امتنعت على كبار الفاتحين ومنهم السلطان صلاح الدين . ثم تمكن بيبرس من القبض على فتح الدين احتيالاً وسلمهُ الى امرأتهِ فقتلتهُ على مثل ما قُتلت عليهِ شجرة الدرّ فامست الكرك بغير رئيس فسلّمت وصارت جزءًا من مملكة مصر

ولما عاد بيبرسُ الى القاهرة حشد جيشاً كبيرًا لمناهضة الصليبيين وكانوا لا يزالون حاكمين في اماكن كثيرة من فلسطين وما زالت الحرب بينهما سجالاً مدة سنتين (سنة ٦٦٣ و٦٦٤) وانتهت باستيلاء بيبرس على قيصرية . وفيما هو محاصر عكا الجئ الى المسير لمحاربة التتر وكانوا قد استولوا على دمشق بمساعدة اهل ارمينيا وتهددوا سائر سوريا فاغفل حصار عكا وسار فلما وصل الى دمشق لم يجد عدوًّا لان هولاكو كان قد مات وتشتتت جيوشهُ فسار بيبرس الى ارمينيا وكان عليها ملك مسيحي يقال لهُ هيتون فاستولى على عاصمتها سيس وعلى سائر مدنها وتابع فتوحاتهِ الى الاناضول فهاجمهُ ربكا خان بن هولاكو ووليّ عهده فاعاده على اعقابهِ فرجع الى سوريا وفتح صفد وذبح اهلها . ثم رجع الى عاصمتهِ بعد ان فتح ايلة على البحر الاحمر

وقضى بيبرس سنة ٦٥٦ هـ في القاهرة يستعد لحرب جديدة وينظم

داخليته فابطل ضمان المزر وجهاته وامر باراقة الخمور وابطال المنكرات وتعفية بيوت المسكرات ومنع الخانات والخواطئ بجميع اقطار مملكة مصر والشام فطهرت من ذلك البقاع وعادت البلاد الى الهدوء والرغد فقال احد الشعراء المعاصرين

ليس لابليس عندنا ارب   غير بلاد الامير مأواهُ
حرمتهُ الخمر والحشيش معًا   حرمتا ماءهُ ومرعاهُ

ثم رأى ان بعض الرعية لا يزالون على ما كانوا قد اعتادوهُ من الفواحش فامر بمنع النساء الخواطئ من التعرض للبغاء ونهب الخانات التي كانت معدة لذلك وسلب اهلها جميع ما كان لهم ونفى بعضهم وحبس النساء حتى يتزوجن وكتب بجميع ذلك توقيعًا قُرئ في المنابر . وعلم بعد ذلك ان الطواشي شجاع الدين عنبر المعروف بصدر البازانة يشرب المسكر فشنقهُ تحت قلعة الجبل . ولا شك ان الملك الظاهر لم يتشدد في ابطال جميع هذه المنكرات الا لعلمهِ يقينًا ان استعمالها يورث الفقر والذل ويخمد الهمة ويضعف عزة النفس ويغضب الله

وفي سنة ٦٦٢ ﻫ بنى الملك الظاهر دار العدل القديمة تحت القلعة وصار يجلس بها لعرض العساكر في كل اثنين وخميس وكان ينظر في امر المتظلمين بنفسهِ فاذا كان لاحد مظلمة يأتي رأسًا ويشكوها للسلطان وهو يأمر بالحال بصرفها بوجه الحق

وفي سنة ٦٦٦ ﻫ استأنف الحرب مع فلسطين فاستولى على يافا والشقيف وطبرية وارصوف وانطاكية وبغراس والقرين وصافيتا ومرقية وابياس وختم ذلك بفتح بغداد ثم احب بطريقهِ الى مصر ان يمر بالحج الى مكة مع ابنهِ برقة خان فمر بحلب فطرد التتر منها ثم زار قبر ابراهيم في حبرون وسار لزيارة بيت المقدس ثم عاد الى مصر وقد اتم سياحتهُ الجهادية والدينية معًا

وقد كانت طريق الحج من مصر الى مكة المشرفة عن طريق صحراء عيذاب بركبون النيل من ساحل الفساط الى قوص بمصر العليا ثم بركبون الابل من قوص فيقطعون صحراء عيذاب الى البحر الاحمر حيث ينزلون فيه الى جدة ساحل مكة وهكذا بعودهم الى مصر . وكانت قوافل التجار من الهند واليمن والحبشة تأتي مصر على هذه الطريق ايضًا وكانت صحراء عيذاب اذ ذاك آهلة بالسكان امينة المسلك . وبقيت طريق الحج على مثل ذلك الى السنة التي زار فيها السلطان الملك الظاهر مكة المشرفة وكساها وعمل لها مفتاحًا فصارت طريق الحج برًّا من ذلك الحين اما التجار فما زالوا يقدمون مصر عن طريق الصحراء الى سنة ٧٦٠ﻫ ومن ذلك الحين قلّت اهمية مدينة قوص فصارت في حالة تشبه حالتها في الوقت الحاضر بعد ان كانت مدينة زاهرة بالتجارة والعمارة

وفي سنة ٦٧٠ ﻫ سار بيبرس لمحاربة من بقي من طائفة الباطنيين وكان هولاكو قد اهلك السواد الاعظم منهم في جهات العراق فافتتح بيبرس قلعة الاكراد وقتل من فيها من الباطنيين فتفرقت جموعهم وهكذا كان انقراض دولتهم

وفي خلال ذلك عاد التتر الى سوريا وحاصروا بيرا فتجهز اليهم بيبرس وسارت معهُ فرقة تحت قيادة الامير قلاون الالفي فالتقى الجيشان عند بيرا واشتدت الحرب بين المسلمين والتتر وانتهت بانتصار المسلمين فاستولوا على بيرا . ثم ساروا الى ارمينيا ففتحوها وغنموا منها غنائم كثيرة . ثم عاد بيبرس الى مصر ففرشوا لهُ القاهرة بالبسط والسجاد الثمين احتفالاً بعودهِ ظافرًا وقد قرض الباطنيين وغلب التتر

ثم ان اباكا خان بن هولاكو خان قدم سوريا وحاصر بيرا ثانية فلاقاهُ الامير قلاون بفرقة من الجيوش المصرية وارجعهُ على اعقابهِ فسرَّ بيبرس من بسالتهِ واتخذ ابنتهُ زوجة لابنهِ ليكون ابهُ في المستقبل آمنًا

في حمى حميو . فأمست سوريا بعد هذه الانتصارات ولم تعد تخشى اغنيا لاً فانفذ بيبرس الامير اق سنقر الفرغني سنة ٦٧٤ ﻫ لافتتاح نوبيا فافتتح اصوان بعد ان استولى على جميع مصر العليا . وفي هذه السنة حارب بيبرس برقة وافتتحها وعاد التتر على اثر هذه الفتوحات لافتتاح سوريا العليا فسار بيبرس الى حمص يريد دفعهم بنفسه فاتفق خسوف القمر خسوفاً تاماً فتشاءم بعض الذين يصدقون الخرافات وقالوا ان ذلك دليل على موت امير كبير وكان بيبرس يعتقد مثل اعتقادهم فلاح له ان هذا التشاؤم يصح عليه ولكنه قال بنفسه « يجب عليَّ قبل موتي ان اميت من اخشى ان يتولى الحكم بعدي ممن يسوء على دعواي » فلم يجد الاَّ الامير داود ناصر الدين بن طوران شاه آخر سلالة الايوبيين فامر باحضاره ولما حضر اعطاه كأساً فيه سمٌّ وامره ان يشرب فشرب بعضه واعطى الكأس لبيبرس فملأه وشرب هو ايضاً فسقطا معاً قتيلي الخرافات قبحها الله ما اضعف حجتها وما اشد وطأتها

وكانت وفاة الملك الظاهر بيبرس في ٢٧ محرم سنة ٦٧٦ ﻫ بعد ان حكم ١٧ سنة وشهرين وعشرة ايام . وكان ملكاً جليلاً عجولاً كثير المصادرات لرعيته ودواوينه طويل القامة مليح الشكل سريع الحركة فارساً مقداماً . وترك من الذكور ثلاثة وهم السعيد محمد برقة خان وقد ملك بعده وسلامش وهذا ملك بعده ايضاً والمسعود خضر . وترك من البنات سبعاً . ومما فتح الله على يده من ايدي الصليبيين قيسارية وارصوف وصفد وطبرية ويافا والشقيف وانطاكية وبغراص والقصير وحصن الاكراد والقرين وحصن عكا وصافيتا ومرقية وحلب وقد ناصفهم على المرقب وبانياس وترسوس وادنة والمصيصة وغيرها من المدن في بر الاناضول وصار الى يده ما كان في يد المسلمين دمشق وبعلبك وعجلون وبصرى وصرخد والصلت وحمص وتدمر والرحبة وتل باشر

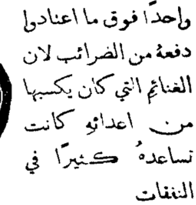
وصهيون و بلاطس وقلعة الكهف والقدموس والعليقة والخواني والرصافة ومصياف والقلعة والكرك والشوبك وفتح بلاد النوبة و برقة . ومن اعماله المأثورة انهُ عمر الحرم النبوي وقبة الصخرة ببيت المقدس وزاد في اوقاف الخليل وعمّر قناطر شبرامنت بالجيزة وسوّر الاسكندرية ومنار رشيد وردم فم بحر دمياط ووعر طريقهُ وعمر الشواني وعمر قلعة دمشق وقلع الصبيبة و بعلبك والصلت وصرخد وعجلون و بصرى وشيزر وحمص وعمّر المدرسة بين القصرين بالقاهرة والجامع الكبير بالحسينية وقد جعلهُ الفرنساويون عند مجيئهم الى مصر قلعة وهو البناء القديم في سكة الظاهر جعلتهُ الحكومة مخازن للاقوات . وحفر خليج الاسكندرية القديم وباشرهُ بنفسهِ و بنى هناك قرية سماها الظاهرية وحفر بحر اشمون طناح وجدّد الجامع الازهر بالقاهرة واعاد اليهِ الخطبة وعمر بلد السعيدية من الشرقية بمصر و بنى القصر الابلق في دمشق . ومن آثارهِ في القاهرة ايضًا قناطر السباع وهي عبارة عن سلسلة من قناطر ممتدة عرضًا من جوار فم الخليج الى قلعة الجبل ولا بد للتوجه من القاهرة الى مصر القديمة من ان يقطعها هذا اذا لم يمر عند فم الخليج فانهُ اذ ذاك يمرُّ بجانب منشأها . وهي تنتهي من طرفها الغربي بالسبع سقايات بجانب فم الخليج . والسبع سقايات بناء قديم فيهِ سبع دواليب (سواقي) لرفع المياه من النيل وتحويلهِ الى قناة على ظهر هذه القناطر ليجري الماء فيهِ الى قلعة الجبل وجعل عليها سباعًا من الحجارة ولذلك قيل لها قناطر السباع والقناطر المذكورة بعضها مهدوم و بعضها باقٍ وفي الحالين لا فائدة منها لانها لا تستخدم لشيءٍ . وكان محبًا لركوب الخيل الجياد ورمي النبال فانشأ ميدانًا دعاهُ ميدان القبق ويقال لهُ ايضًا الميدان الاسود وميدان العيد والميدان الاخضر وميدان السباق وكان شاغلاً بقعة من الارض تمتد بين النقرة التي ينزل اليها من قلعة الجبل و بين قبة النصر التي هي تحت الجبل الاحمر و بنى فيهِ مصطبة

سنة ٦٦٦ هـ للاحتفال برمي النشاب والتمرين على الحركات العسكرية . وكان يحثُّ الناس على لعب الرمح ورمي النشاب ونحو ذلك فكان ينزل كل يوم الى هذه المصطبة من الظهر فلا يركب منها الى العشاء وهو يرمي ويحرض الناس على الرمي والنضال والرهان فما بقي امير ولا مملوك الاّ وهذا شغلهُ وما برح من بعدهِ اولادهُ ومن بعدهم يمارسون هذا الميدان بجميع انواع الالعاب الحربية

وكان يقوم بنفقات جميع هذه الاعمال بدون ان يسلب الاهالي درهمًا واحدًا فوق ما اعتادوا دفعهُ من الضرائب لان الغنائم التي كان يكسبها من اعدائهِ كانت تساعدهُ كثيرًا في النفقات

هذه هي اعمال الملك الظاهر بيبرس قد تركت لهُ اثرًا يبقى ذكرهُ دهورًا طوالاً

وترى في الشكل الثامن والخمسين صور نقود الملك الظاهر بيبرس وعليها صورة اسد







ش ٥٨ نقود الملك الظاهر بيبرس

سلطنة برقة خان بن بيبرس

من سنة ٦٧٦ ــ ٦٧٨ هـ او من ١٢٧٧ ــ ١٢٧٩ م

فلما توفي بيبرس اقر الامراء على مبايعة ابنهِ البكر محمد ناصر الدين برقة خان . ولكنهم كانوا قد اجمعوا بعد المشورة طويلاً على ان يكتموا وفاة بيبرس لئلا يطمع فيهم العدو فارسلوا جثتهُ سرًّا الى دمشق واشاعوا هناك انهُ مريض فنقلوهُ الى القاهرة في هودج ثم استقدموا الجيوش جميعها الى مصر فقدمت وحالما ادخلوا الجثة الى القلعة بايعوا ابنهُ البكر برقة خان ولقبوهُ بالملك السعيد . واقاموا الامير بلباي (بيلي بك) اتابكًا وكان بلباي في الاصل مملوكا ابتاعهُ بيبرس بثمن بخس الاَّ انهُ ارتقى في خدمتهِ حتى صار امين خزائنهِ . ثم استحق بعد طول الخدمة الصادقة الامينة ان يكون وصيًّا على ابنهِ في مهام السلطنة وكان الملك السعيد ثقة كبرى في بلباي حتى انهُ القى اليهِ كل مهام الدولة فسعُدت مصر في بادئ الرأي الاَّ انها ما لبثت حتى تعكر كأس صفائها بوفاة ذلك الوصي الامين الحكيم ولم يكن الملك السعيد واثقًا باحد من امرائهِ ليعهد اليهِ مهام الامة لانهُ كان يظن انهم هم الذين سعوا الى قتل وصيّهِ ولكنهُ لم يتأكد ذلك فنفر منهم فوقع اختيارهُ على اق سنقر فاتح نوبيا فولاهُ الاتابكية وبعد يسير خنقهُ في احد ابراج الاسكندرية فتباعد الامراء عن هذا المنصب وارادوا بالسلطان سوءا لكنهم شغلوا عنهُ بثورة الدمشقيين . وذلك ان شرف الدين سنقر الملقب بالاشقر كان واليًا على دمشق تحت رعاية برقة خان فادعى الملك لنفسهِ فبايعهُ اهلها ولقبوهُ بالملك الكامل فاسرع برقة خان الى دمشق ونزل بجيشهِ في القصر الابلق الذي كان قد بناهُ ابوهُ وبعد التحري عن اسباب تلك الثورة علم انها

دسيسة من امرائهِ . فلما علم هولاء بانكشاف امرهم عادوا بمن كان على دعوتهم من المماليك الى القاهرة وتحصنوا فيها فتبعهم برقة خان فامتنعوا عليهِ وعجز عن قهرهم لكثرتهم فالتجأ الى قلعة الجبل فحاصروهُ فيها وشددوا عليهِ الحصار فسلم فانحط اعتبارهُ عندهم وهموا بقتلهِ فمنعهم الخليفة الحاكم بامر الله العباسي لكنهم اصروا على خلعهِ فخلعوهُ في ربيع اول سنة ٦٧٨ ه بعد ان حكم سنتين وثلاثة اشهر فبعثوهُ الى قلعة الكرك منفيًا وحبسوهُ فيها ثم عادوا الى قتلهِ فانفذوا اليهِ من يقتلهِ ثم بلغهم انهُ سقط عن جوادهِ ومات

سلطنة سلامش بن بيبرس

من سنة ٦٧٨ ــ ٦٧٨ ه او من ١٢٧٩ ــ ١٢٧٩ م

فبايعوا اخاهُ بدر الدين سلامش وسنّهُ سبع سنوات وبضعة اشهر ولقبوهُ بالملك العادل واقاموا الامير سيف الدين قلاون الالفي وصيًّا عليهِ ولم يكن همُّ هذا الوصي الاَّ خلع ذلك السلطان الرضيع . وفي رجب من تلك السنة تمكن من مرادهِ فبعثهُ الى قلعة الكرك منفيًّا واستلم هو زمام الاحكام وطلب المبايعة فبايعهُ الناس ولقبوهُ بالملك المنصور وهو لقب ثاني سلاطين هذه الدولة

سلطنة الملك المنصور قلاون

من سنة ٦٧٨ ــ ٦٨٩ ه اومن ١٢٧٩ ــ ١٢٩٠ م

ولما استوى قلاون على كرسي السلطنة استوزر فخر الدين وكان كاتب سرهِ الخصوصي وبعث الامير طرطباي الى دمشق لاخماد ثورة

اهلها . فسار في فرقة من الجند فلاقاهُ الملك الكامل ودافع دفاعًا حسنًا ولكنهُ الجئ في سنة ٦٨٠ ه الى التسليم فقبضوا عليهِ وجاؤُوا بهِ الى القاهرة واودعوهُ سجنًا مظلمًا وولّوا على دمشق وسائر الشام الامير حسام الدين لاجين

وفي سنة ٦٨١ ه عاد التتر الى الشام بجيشين الواحد تحت قيادة اباكه خان والآخر مؤلف من ثمانين الف فارس تحت قيادة اخيهِ منجو تيمور فحاربهم المصريون وفازوا بهم وقتلوا منجو تيمور وفرّ اباكه خان الى حمدان فاسمَّهُ اخوهُ الثالث نيكودار اوغلان وتولى الحكم بعدهُ ثم اعتنق الاسلام ولُقّب باحمد خان وكان اسلامهُ وسيلة لحقن الدماء لانهُ تخابر مع قلاون مخابرة سلمية وتعاهدا على حفظ الولاء . وما زال ذلك مرعيًّا حتى بعد قتل احمد خان وتولية ارغون مكانهُ . فكانت مصر في خلال ذلك مطمئنة في خارجيتها فنشأَت القلاقل في داخليتها بسبب تمرد المماليك فانهم نبذوا الطاعة فغضب السلطان غضبًا اعمى بصرهُ حتى لم يعد يميز المجرم من البريء فساق الجميع بعصا واحدة واعمل فيهم السيف ثلاثة ايام متوالية حتى غصَّت الاسواق بجثثهم رجالًا ونساء واولادًا . فجاء العلماء الى السلطان واخذوا يخففون من غيظهِ ويبدون لهُ وجه عسفهِ فانتبه لما جاءهُ من الاستبداد الفاحش فندم ندمًا لا مزيد عليهِ وتكفيرًا لذلك امر بانشاء البنايات والتكايا رحمة بالمساكين وذوي الاسقام ومن اجل ذلك ايضًا بنى ابنهُ الملك الناصر المستشفى الشهير المعروف بالبيمارستان . وكان المماليك الى ذلك الحين يلبسون لباس الزينة بما يناسب جمالهم . ففي سنة ٦٨٣ ه امر قلاون ان يغير المماليك ملابسهم فمنعهم من استعمال الوشي والزينة بالذهب وعن الضفائر الطويلة التي كانوا يجعلونها في اكياس من حرير وجعل حالتهم من اللباس وغيره كما تقتضيهِ حالة رجال الحرب . ثم سار الى حصن مرقد فحاصرهُ ٣٢ يومًا فسلَّم . وفي سنة ٦٨٤ ه افتتح قلعة الكرك وقبض على سلامش لانهُ كان يحاول

الاستقلال عن مصر فقادهُ الى القاهرة واودعهُ سجنًا مظلمًا مكث فيهِ الى ما بعد وفاة قلاوون

ولما اطمأن بالهُ في داخليتهِ عكف على تنظيم الوزارة وما زال يعزل ويولّي حتى اقر على وزارة شمس الدين سنة ٦٨٥ هـ فبقي على دستها زمنًا طويلاً . ثم اوصى قلاوون بولاية العهد لابنهِ علي ولقبهُ بالملك الصالح (الثالث) واخذ منذ ذلك الحين في تدريبهِ على الاحكام وادارتها على نية ان يستخلفهُ عليها اذا طرأ عليهِ ما يستدعي غيابهُ عن مصر في حرب او غيرها فلم يصح تدبيرهُ لان عليًّا أُصيب بحمّى شديدة ذهبت بحياتهِ سنة ٦٨٧ هـ فحزن قلاوون حزنًا شديدًا وكثرت هواجسهُ حتى كره الاحكام ثم رأى ان يجرّد حملة لافتتاح طرابلس الشام تسليةً لهُ عن هواجسهِ وكانت في حوزة الصليبيين منذ مائة وثمانين سنة لم ينازعهم احد عليها فسار اليها قلاوون وافتتحها وذبح من فيها واخربها ثم أعاد بناءها وجعل عليها حامية

ولما عاد الى القاهرة جاءهُ وفد من قبل ملك اراغون الفونس عقدوا معهُ معاهدة في ١٢ ربيع اول . غير ان كل ذلك لم يكن ليشغلهُ عن احزانهِ وما زال كئيبًا حتى قضى يوم السبت في ٦ ذي القعدة فاحتفل بجنازتهِ احتفالاً حضرهُ جمعٌ غفير من جهادية وملكية وشيعوهُ الى البيمارستان حيث واروهُ التراب ولا يزال مقامهُ هناك الى هذا العهد وكانت مدة حكمهِ ١١ سنة و٣ اشهر و٦ ايام

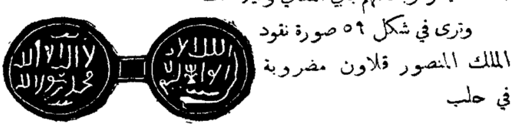
ومن آثارهِ الباقية الى هذا اليوم جامعهُ الشهير ومقامهُ وكلاهما داخلان في بناء البيمارستان الذي يشاهدهُ المارُّ في شارع النحاسين شمالاً بعد ان يتجاوز خان الخليل ولا تزال هذه الابنية رغمًا عن تكرار السنين قويمة العماد تتجلّى فيها العظمة والقوة الاّ البيمارستان فانهُ اصبح اقرب الى الاثر من العين . وقد زرتُ مقام هذا السلطان فرأيت فيهِ كما رأيت في غيره من مثلهِ جماعات من النساء والاطفال هم في الغالب من ذوي الامراض قد جاؤا يطلبون

الشفاء وهم يأتون غالبًا في ايام السبوت ولهم في ذلك اساليب مختلفة فرأيت بعضهم يضع الطفل المريض تحت المحراب ويجلس مصلّياً متضرعًا وآخر يأتي بشيء من الليمون الحامض يمرح بهِ جدار المحراب او ما يقاربهُ ثم يلحسهُ بلسانهِ طالبًا الشفاء ورأيت آخرين يفعلون غير ذلك

ومن اعمالهِ ميدانهُ الذي عرف بالميدان السلطاني جعلهُ في موضع بستان الخشاب حيث موردة البلاط وكان يتردد اليهِ كثيرًا . ولا يمرُّ عليهِ من قلعة الجبل حتى يركب قناطر السباع فتضرر من علوّها وقال لمن حولهُ اني عند ما اركب الى الميدان وامرُّ بهذه القناطر ينألم ظهري من علوها واشاع بعضهم انهُ اراد بالحقيقة نزع آثار من كان قبلهُ ليبقى الفخر لهُ فامر بهدمها جميعها وسائها ثانيةً فبُنيت ولكن السباع لم توضع عليها فعندما رأى السلطان ذلك امر باعادتها فاعيدت السباع الى اماكنها . ومما يحكى عنهُ انهُ كان يجعل في بناياتهِ اماكن مخصوصة يضع فيها الحبوب طعامًا لطيور السماء

وقد كان قلاون سببًا لاخراج السلطنة من يد نسلهِ كما كان الملك الصالح الايوبي باستكثارهِ من المماليك الشراكسة حتى جمع منهم نحوًا من ١٢ الفًا جعل منهم بطانتهُ وكان يلقب بعضهم بالالاني اي المبتاع بالف دينار وبعضهم بابي المعالي وغير ذلك

ونرى في شكل ٥٩ صورة نقود الملك المنصور قلاون مضروبة في حلب



ش ٥٩ نقود الملك المنصور قلاون

سلطنة خليل بن قلاون ثم الملك القاهر بيدرا

من سنة ٦٨٩ ـــ ٦٩٢ ه او من ١٢٩٠ ـــ ١٢٩٢ م

وتولّى بعدهُ على سلطنة مصر ابنهُ البكر صلاح الدين خليل ولقب بالملك الاشرف فاستوزر بدر الدين وجرّد للجهاد على الصليبيين فسار في سنة ٦٩٠ ه حتى اتى عكا فحاصرها وكانت الحصن الوحيد الذي بقي للصليبيين فحصنوهُ تحصين اليأس لكنهُ لم يمتنع على جيوش الاسلام فهدموهُ ودخلوا المدينة وامعنوا فيها قتلاً ونهبًا . وفي سنة ٦٩١ ه عاد الى القاهرة واخرج سلامش منفيًّا الى القسطنطينية لانهُ كان سببًا للقلاقل . ثم سار الى ارمينيا ففتح ارضروم فذاع صيتهُ حتى ارهب اعداءهُ فعاد الى القاهرة ليستريح من الاسفار ففاجأتهُ المنية على فراشهِ . وسبب موتهِ ان احدى نسائهِ تواطأت مع مملوك لهُ يدعى بيدرا فقتلاهُ بخنجر في جوفهِ في شهر محرم سنة ٦٩٢ ه بعد ان حكم ثلاث سنوات وشهرين واربعة ايام . واليهِ ينسب الخان المشهور بخان الخليل او الخان الخليلي في السكة الجديدة في القاهرة وكان في مكانهِ قبل بنائهِ مدافن الخلفاء الفاطميين فبني على انقاضها واضاف الغوري الى بنائهِ في القسم العلوي كما يفهم ذلك مما هو مكتوب فوق مدخلهِ وفي هذا الخان تباع الآن جميع انواع الاقمشة السورية والهندية وما شاكل من طنافس ومطرزات واواني نحاسية وغيرها

وبويع بيدرا ولقب بالملك القاهر الاّ انهُ لم يحكم الاّ يومًا واحدًا ثم قتلهُ المماليك اخذًا بثار سلطانهم السابق وبايعوا اخا الملك الاشرف المدعو محمد بن قلاون وسنهُ ٩ سنوات ولقب بالملك الناصر

سلطنة الملك الناصر بن قلاون (اولاً)

من سنة ٦٩٣ ــ ٦٩٤ ه او من ١٢٩٣ ــ ١٢٩٤ م

وسلطنة هذا الملك اكثر اهمية من سلطنات سلفائهِ لكثرة ما حصل فيها من التقلبات السياسية والثورات المتعددة المتوالية . ونظرًا لصغر سن هذا الملك اقاموا لهُ وصيًّا يدعى زين الدين كتبوغا الملقب بالمنصوري لانهُ كان من مماليك الملك المنصور قلاون فما استتبت لهُ الوصاية حتى تاقت نفسهُ الى السلطة وكان معهُ وزير آخر يقال لهُ علم الدين سنقر وكانت تحدثهُ نفسهُ بمثل ذلك ايضًا فاختلفا وتخاصما وانتهت المخاصمة بقتل سنقر ولما خلا الجو لكتبوغا ولم يعد من ينازعهُ عمد الى الملك الناصر فخلعهُ وتولى مكانهُ سلطانًا على مصر ونفاهُ الى الكرك ولم يكن حكمهُ هذه المرة الاَّ سنة واحدة

سلطنة الملك العادل كتبوغا

من سنة ٦٩٤ ــ ٦٩٦ ه او من ١٢٩٤ ــ ١٢٩٦ م

وفي شهر محرم سنة ٦٩٤ ه بويع كتبوغا ولقب بالملك العادل وهو اللقب الذي لقب بهِ قبلهُ سلامش بن بيبرس الاوَّل واستوزر فخر الدين وزير قلاون . ولم يكن هذا الاختلاس الاَّ داعيًا لتراكم المصائب على مصر وتداخل الاجانب فيها فداهمها الطاعون ثم القحط فاهلك جزءًا كبيرًا من اهلها ثم جاء الحرب تتمة لهذه الضربات

وذلك ان قبيلة المغل (المغول) التي كانت تحت قيادة بيدو بن طرغاي بن هولاكو اصبحت بعد وفاتهِ تحت قيادة الملك غازان محمود بن خربنده

ابن ايغاني فتخوفت منهُ طائفة من رجالهِ عرفوا تحت اسم الاويرانية وفرُّوا عن بلاده الى نواحي بغداد فنزلوا هناك مع كبيرهم طرغاي وجرت لهم خطوب آلت بهم الى اللحاق بالفرات فاقاموا بها هنالك وبعثوا الى نائب حلب يستأذنونهُ في قطع الفرات ليعبروا الى ممالك الشام فاذن لهم وعبروا الفرات الى مدينة بهنسا فاكرمهم نائبها وقام لهم بما ينبغي من العلوفات والضيافات فاتصل ذلك بالملك العادل زين الدين كتبوغا فاستشار الامراء فيما يفعل بهم فاتفق الرأي على استقدام اكابرهم الى الديار المصرية وتفريق باقيهم في البلاد الساحلية وغيرها من بلاد الشام فجيء بثلاثماية من اكابرهم الى القاهرة وفرّق الباقون بالبقاع العزيزية (لبنان) وبلاد الساحل ولما قرب الجماعة من القاهرة خرج الامراء بالعسكر الى لقائهم واجتمع الناس من كل مكان حتى امتلأ الفضاء للفرجة عليهم فكان لدخولهم يوم عظيم فساروا الى قلعة الجبل فانعم السلطان على مقدمهم طرغاي بامرة طلبخانة واجرى عليهم الرواتب وانزلهم بالحسينية وكانوا على غير الملة الاسلامية فشق ذلك على الناس وبلوا مع ذلك منهم بانواع البلاء لسوء اخلاقهم ونفرة نفوسهم وشدة جبروتهم وكان اذ ذاك في مصر والقاهرة غلاء عظيم فتضاعفت المضرّة واشتد الامر على الناس وقال في ذلك شمس الدين محمد بن دينار

ربنا اكشف العذاب عنا فانّا قد تلفنا في الدولة المغلية
جاءنا المغل والغلا فانصلقنا وانطبخنا في الدولة المغلية

وفي اول رمضان سنة ٦٩٥ هـ لم يصم احد من الاويرانية فأُعلن السلطان بذلك فابى ان يكرههم على الاسلام ومنع من معارضتهم ونهى ان يشوش عليهم احد. وكان مرادهُ ان يجعلهم عوناً لهُ فبالغ في اكرامهم فشق ذلك على امراء الدولة وخشوا ايقاعهُ بهم لان الاويراتية كانوا من مواطني كتبوغا وكانوا مع ذلك جميلي الصورة فافتتن بهم الامراء وتنافسوا

فيهم وبالغوا في تقريبهم حتى بعثوا الى البلاد الشامية استجلبوا طائفة كبيرة منهم فتكاثر نسلهم في القاهرة واشتد التحاسد والتشاجر بسببهم بين اهل الدولة الى ان آل الامر بسببهم وباسباب اخرى الى خلع السلطان الملك العادل كتبوغا وذلك في صفر سنة ٦٩٦ ﻫ

سلطنة الملك المنصور لاجين

من سنة ٦٩٦ — ٦٩٨ ﻫ او من ١٢٩٦ — ١٢٩٩ م

وبويع حسام الدين لاجين المنصوري ولقب بالملك المنصور كما كان لقب سيده قلاون فاذن لكتبوغا ان ينسحب الى صرخد في سوريا وقبض على طرغاي مقدم الاويرانية وعلى جماعة من اكابرهم وبعث بهم الى الاسكندرية فسجنهم بها . ثم قتلهم وفرّق جميع الاويرانية على الامراء فاستخدموهم وجعلوهم من جندهم فصار اهل الحسينية لذلك يوصفون بالحسن وما برحوا ايضاً يوصفون بالزعارة والشجاعة وكان يقال لهم البدورة فيقال البدر فلان والبدر فلان وكانوا يعانون لباس الفتوة وحمل السلاح ويؤثر عنهم حكايات كثيرة وكانت الحسينية قد فاقت عمارتها على سائر اخطاط مصر والقاهرة

وكانت ارض مصر ٢٤ قيراطاً يختص السلطان منها باربعة والاجناد بعشرة والامراء بعشرة وكان الامراء يأخذون كثيراً من اقطاعات الاجناد فلا يصل الى الاجناد منها شيء وكان يصير ذلك الاقطاع في دواوين الامراء ويحتمي بها قطاع الطريق وتثور بها الفتن وتمنع منها الحقوق الديوانية وتصير طعمة لاعوان الامراء ومستخدميهم ومضرة على اهل البلاد التي تجاورها . فعند ما تولّى الملك المنصور لاجين راك البلاد ورد تلك الاقطاعات على اربابها واخرجها باسرها من دواوين

الامراء وجعل للامراء والاجناد احد عشر قيراطًا وافرد تسعة قراريط
ليخدم بها العسكر او يقطعهم اياها . ثم رتب اوراقًا تكفية الامراء والاجناد
بعشرة قراريط ووفر قيراطًا لزيادة ما عساه يطلب زيادة لقلة محصل
اقطاعه وافرد لبطانته عدة اعمال جليلة . فنكرت قلوب الامراء وحقدوا
عليه وما سكتوا حتى قتلوهُ في ١١ ربيع آخر سنة ٦٩٨ ه فبقيت كرسي
السلطنة خالية ٤١ يومًا تمكن في خلالها الامير سيف الدين طغجي من
دعوة الناس الى حزبهِ فالتف عليهِ جماعة كبيرة فبايعوهُ ولقبوهُ بالملك
القاهر كما لقب بيدرا قبلهُ وكان حظهُ من الملك كحظ سميّه فلم يحكم الّا
يومًا واحدًا ثم ذبحهُ المماليك

سلطنة الملك الناصر بن قلاون ثانية

من سنة ٦٩٨ ــ ٧٠٨ ه او من ١٢٩٩ ــ ١٣٠٨ م

فكر المماليك في انتخاب سلطان يحكم فيهم فاقرروا على استقدام
الملك الناصر بن قلاون من منفاه وقد بلغ الخامسة عشرة من العمر
ليبايعوهُ فبعثوا اليهِ وفدًا يبلغهُ ذلك القرار فقدموا اليهِ في الكرك . وكانت
والدتهُ عندهُ فلم تسمح بسفرهِ معهم لئلا يكون تحت اقوالهم هذه مقاصد
خطرة فالحوا عليها واكدوا لها صدقهم ثم جثوا امام الملك الناصر وبايعوهُ
فتأكدت اخلاصهم فسمحت بسيرهِ معهم فساروا حتى اتوا القاهرة فحاول
بعض دعاة لاجين الايقاع بحياة الملك الناصر لكنهم تهددوا فبايعوهُ
وكان غازان خان ملك التتر قد عاد ثانيةً الى افتتاح سوريا فجرد اليهِ
الملك الناصر سنة ٧٠٠ ه جيشًا جرارًا واسرع حتى التقى بهِ في حمص
فتقهقر الناصر ثم جمع رجالهُ وامدهم بالعدة والرجال واستأنف الحرب .

وكان التتر قد حسبوا ان الفوز قد تقرر لهم فوضعوا يدهم على سوريا وضربوا عليها الضرائب واخذوا في ادارة احكامها . وبينما هم في ذلك وصل الملك الناصر في جيشهِ الى مرج الصفر بقرب دمشق فخرج اليهم التتر وانتشب القتال بين الفريقين فانغلب المصريون في بادئ الامر ثم ارتدوا على صفوف التتر كالسيل الهاطل بعزم اشد من الجبال ففرقوا جموعهم واثخنوا فيهم ضربًا بالسيف حتى تطهرت الشام منهم فعاد الملك الناصر الى القاهرة ظافرًا ودخلها من باب النصر باحتفال عظيم

ولما لم يعد ما يشغلهُ في سوريا عكف على اخضاع قبائل العربان الذين شقوا عصا الطاعة في مصر العليا فجرد اليهم فدانوا لهُ واغنم منهم خمسة آلاف فرس ومائة الف رأس غنم وثلاثين الف من المواشي الكبيرة كالبقر والجاموس وعددًا وافرًا من الاسلحة . فلما كانت سنة ٧٠٢ هـ داهمت الشرق زلزلة قوية اخربت قسمًا عظيمًا من سوريا ومصر واخرجت المياه من الابار الى سطح الارض وطافت الابحر على اليابسة فاغرقت خلقًا كثيرًا . والظاهر ان هذا الحادث الطبيعي أثّر في اخلاق المصريين فانقسموا احزابًا يضاد بعضها بعضًا ثم عادوا فاتحدوا على خلع الناصر فرأى انهُ لا يقوى على دفعهم وخاف على حياتهِ فترك القاهرة مظهرًا الحج وسار مع بطانتهِ الى الكرك وكان لهُ فيها ثروة تبلغ ٢٧ الف دينار ومليون وسبعماية الف درهم فاستولى عليها وحصن المدينة ثم بعث بالختم السلطاني الى المماليك مصرحًا بتنازلهِ ومفوضًا لهم تولية من ارادوا

سلطنة بيبرس الجاشنكير

من سنة ٧٠٨ ــ ٧٠٩ هـ او من ١٣٠٨ ــ ١٣٠٩ م

فوصل كتابهُ اليهم في ٢٥ رمضان سنة ٧٠٨ هـ فبايعوا الامير ركن

الدين بيبرس الجاشنكير (بيبرس الثاني) ولقوة بالملك المظفر وهو من مماليك الملك المنصور قلاون ومما يؤكد ذلك انهم وجدوا بين اسلحتهِ سيفًا منقوشًا عليهِ اسمهُ مشفوعًا بلقب «المنصوري والسيفي» كما ترى في الشكل الستين

وفي اواخر هذه السنة قدم الافرنج بموافقة صاحب قبرص لغزو دمياط بحرًا فاتفق الامراء

ش ٦٠ اسم السلطان بيبرس الثاني على سيفهِ

في القاهرة على انشاء جسر يمتد من القاهرة الى دمياط خوفًا من قدوم الافرنج بحرًا في ايام الفيضان فيتعذر الوصول الى دمياط فكتبوا بذلك الى الاعمال ان يخرجوا بالرجال والابقار لاتمام ذلك فاجتمع ستماية راس بقر و ٣٠ الف رجل وباشروا العمل وانهوهُ في شهر واحد فكان طولهُ من دمياط الى قليوب وعرضهُ اربع قصبات من اعلاهُ وست قصبات من اسفلهِ ومشى عليهِ ستة رؤوس من الخيل صفًا واحدًا ومن آثارهِ في القاهرة جامعهُ المعروف بجامع جاشنكير في الجملية مبنيٌّ على مثال جامع السلطان حسن ولا يزال مسجدًا الى هذه الغاية

ثم ندم الملك الناصر لاستقالتهِ وتخليهِ عن مقاليد الاعمال لاحد مماليكهِ فجعل يترقب فرصة لتسلُّق العرش ثالثة . وفي شهر شعبان من سنة ٧٠٩ ھ بارح الكرك مستخلفًا عليها ارغون احد مماليكهِ المتقربين وجاء دمشق فبايعهُ امراؤُها فجند الى مصر ومعهُ رجال عديدون وكان الامير برلك احد زعماء المماليك قد نبذ طاعة بيبرس ومعهُ كثيرون من نخبة رجالهِ فتشجع الناصر وقدم القاهرة . اما بيبرس فخاف ولم يرَ سبيلًا لنجاتهِ الَّا بالتنازل فاستقال في الليلة الاولى من شهر شوال بعد ان ضمَّ اليهِ مبلغًا مقداره ٢٠٠ الف دينار وكثيرًا من الجمال والخيل وهمَّ

الى مصر العليا طامعًا في الاستيلاء عليها فلاقاهُ خارج القاهرة سرب من الاسافل اوسعوهُ شتمًا ورجمًا فرشقهم بما كان معهُ من النقود وسار حتى جاء اخميم فنزل فيها

سلطنة الملك الناصر بن قلاون ثالثةً

من سنة ٧٠٩ — ٧٤١ ه او من ١٣٠٩ — ١٣٤١ م

وفي غد مبارحة بيبرس القاهرة دخلها الملك الناصر باحتفال عظيم وهي المرة الثالثة لتوليهِ وكان ذلك يوم عيد رمضان فزاد العيد بهجة. فاستتبع الهاربين وقبض عليهم وجردهم مما اخذوهُ وقتل بيبرس وكان سن الملك الناصر اذ ذاك ٢٥ سنة صرف ١٦ منها في مقاساة الاهوال حتى عرف كيف تؤكل الكتف وكيف يجب ان ترسخ قدمهُ في الملك فكان ذلك بمثابة الامثولة لهُ فمكث على دست السلطنة هذه المرة حتى توفي اي مدة ٣٢ سنة

وكان النصارى الى ايام هذا الملك يقيمون احتفالاً سنويًا في ٨ بشنس في ناحية شبرا من ضواحي النيل يسمونهُ احتفال عيد الشهيد زعمًا منهم ان النيل لا يفي الاَّ اذا القوا فيهِ تابوتًا من خشب فيهِ اصبع من اصابع ابائهم المائتين فكانوا يجتمعون من سائر القرى افواجًا على اختلاف الدرجات والنزعات ويكثرون بسبب ذلك من الغناء وشرب المسكر فكانوا ينفقون مبالغ فاحشة في هذا السبيل وكان فلاَّحو شبرا يركنون في وفاء الخراج على ما يبيعونهُ من الخمر في ذلك العيد فامرَ الملك الناصر بابطال هذه العادة كليًا. وابطل كثيرًا من الضرائب الظالمة كزكاة الدولة وهو ما كان يؤخذ من الرجل عن زكاة مالهِ ابدًا ولو عدم منهُ واذا مات يُوخذ من ورثتهِ وابطل ما كان يُجبى من اهل القاهرة وضواحيها اذا حضر مبشّر بفتح حصن او نحوهِ فانهم كانوا يأخذون من الناس كل واحد على

سنة ٧٣٤ ﻫ واقام جسور شيبين سنة ٧٣٥ ﻫ . وابنى عدا عن الجامع الناصري المتقدم ذكرهُ جامعًا آخر بجانب جامع ابيهِ في شارع النحاسين يشاهد فيهِ عند الدخول اليهِ اعمدة ملتفة يقال ان الملك الاشرف بن قلاون جاء بها من عكا تذكارًا للظفر وهناك كتابة يقول فيها ان الذي بنى ذلك المشهد هو السلطان محمد بن الملك المنصور قلاون الصالحي سنة ٦٩٨ ﻫ والمقريزي يقول ان بناءهُ تم سنة ٧٠٣ ﻫ وان الملك العادل كتبوغا هو الذي وضع اساسهُ ايام السلطنة . وشاد الناصر دارًا كبيرة دعاها دار العدل وانشأ عيونًا كثيرة ومدارس عالية متعددة واتم بناء البيمارستان الذي شرع ابوهُ في بنائهِ وزاد فيهِ كثيرًا وخصص مالاً معلومًا للنفقة عليهِ

ومن اعمالهِ الحميدة انهُ ابطل جميع الضرائب الظالمة التي كانت تؤخذ على كل ما يباع ويشترى من حيوان ونبات وعقار فاحبَّتهُ الرعية واجمعوا على طاعتهِ . فاستتبت الراحة وعمر الصعيد على وجه خاص . ولم يشب الراحة الاَّ تنازع الوزراء على منصب الوزارة فالغاهُ حسمًا للمشاكل

وفي سنة ٧٢٨ ﻫ توفي ابنهُ انوق فحزن عليهِ حزنًا شديدًا اورثهُ مرضًا رافقهُ حتى الموت فتوفي الناصر في ٢١ ذي الحجة سنة ٧٤١ ﻫ وسنُّهُ ٥٧ سنة ومدة حكمهِ ٤٤ سنة وبضعة اشهر عن ثمانية اولاد ذكور تناوبوا الملك بعدهُ الواحد بعد الآخر الاَّ ان تنصيبهم وخلعهم كانا منوطين باحزاب متضادة لا يستقرون على حال فكانت مدات حكمهم قصيرة جدًا

وترى في الشكل الحادي والستين صورة نقود الملك الناصر ابن قلاون الخاصية

ش ٦١ نقود الملك الناصر بن قلاون

سنة ٧٢٤ ﻫ واقام جسور شيبين سنة ٧٢٥ ﻫ . وابنى عدا عن الجامع الناصري المتقدم ذكرهُ جامعاً آخر بجانب جامع ابيهِ في شارع النحاسين يشاهد فيهِ عند الدخول اليهِ اعمدة ملتفة يقال ان الملك الاشرف بن قلاون جاء بها من عكا تذكاراً للظفر وهناك كتابة يقول فيها ان الذي بنى ذلك المشهد هو السلطان محمد بن الملك المنصور قلاون الصالحي سنة ٦٩٨ ﻫ والمقريزي يقول ان بناءهُ تم سنة ٧٠٣ ﻫ وان الملك العادل كتبوغا هو الذي وضع اساسهُ ايام السلطنة. وشاد الناصر داراً كبيرة دعاها دار العدل وانشأ عيوناً كثيرة ومدارس عالية متعددة واتم بناء البيمارستان الذي شرع ابوهُ في بنائهِ وزاد فيهِ كثيراً وخصص مالاً معلوماً للنفقة عليهِ

ومن اعمالهِ الحميدة انهُ ابطل جميع الضرائب الظالمة التي كانت تؤخذ على كل ما يباع ويشترى من حيوان ونبات وعقار فاحبتهُ الرعية واجمعوا على طاعتهِ . فاستتبت الراحة وعمر الصعيد على وجه خاص . ولم يشب الراحة الاَّ تنازع الوزراء على منصب الوزارة فالغاهُ حسماً للمشاكل

وفي سنة ٧٢٨ ﻫ توفي ابنهُ انوق فحزن عليهِ حزناً شديداً اورثهُ مرضاً رافقهُ حتى الموت فتوفي الناصر في ٢١ ذي الحجة سنة ٧٤١ ﻫ وسنُّهُ ٥٧ سنة ومدة حكمهِ ٤٤ سنة وبضعة اشهر عن ثمانية اولاد ذكور تناوبوا الملك بعدهُ الواحد بعد الآخر الاَّ ان تنصيبهم وخلعهم كانا منوطين باحزاب متضادة لا يستقرون على حال فكانت مدات حكمهم قصيرة جداً

وترى في الشكل الحادي والستين صورة نقود الملك الناصر ابن قلاون النحاسية

ش ٦١ نقود الملك الناصر بن قلاون

سلطنة اولاد الناصر وهم ابو بكر وقوجوق واحمد واسماعيل وشعبان وحاجي وحسن وصلاح الدين

من سنة ٧٤١ ـ ٧٥٢ ﻫ اومن ١٣٤١ ـ ١٣٥١ م

فاول من تولى بعد الملك الناصر ابنهُ البكر سيف الدين ابو بكر ولُقب بالملك المنصور (الرابع) وبعد اربعين يومًا عُزل ونفي الى قوص في مصر العليا وتوفي سنة ٧٤٢ ﻫ وفي يوم خلعهِ سطا المماليك على نساء ابيهِ واهانوهنَّ ونهبوا متاعهنَّ . فُبويع أَخوهُ علاء الدين قوجوق ولهُ من العمر ست سنوات فقط ولُقّب بالملك الاشرف .

وبعد خمسة اشهراي في رمضان من تلك السنة خُلع الاشرف وسجن في قلعة القاهرة فتوفي هناك . فبويع اخوهُ شهاب الدين احمد وكان متغيبًا في الكرك فاستُقدم وبويع ولُقّب بالملك الناصر (الثاني) وفي ١٢ محرم سنة ٧٤٣ ﻫ اعيد الى الكرك منفاهُ الاول . فبويع اخوهُ عماد الدين اسماعيل ولقب بالملك الصالح وهذا بقي على كرسي السلطنة اكثر قليلاً من اخوتهِ السابقين اي ثلاث سنوات وشهرين وبضعة ايام . واهمُّ ما حصل في ايامهِ انهُ اعاد منصب الوزارة الى حكمهِ سنة ٧٤٤ ﻫ وكان قد الغاه ابوهُ كما رأيت وانهُ قتل اخاهُ شهاب الدين احمد سنة ٧٤٥ ﻫ وكان منفيًّا في الكرك ثم انتهت سلطنتهُ بموتهِ في ٤ ربيع آخر سنة ٧٤٦ ﻫ . فبويع اخوهُ الخامس زين الدين شعبان ولقب بالملك الكامل ولكنهُ لم يكن اسمًا على مسمّى فابغضتهُ الرعية وهجاهُ الشعراء . ومكث حاكمًا سنة وبضعة اشهر وفي جمادى الاولى سنة ٧٤٧ ﻫ عُزل . فبويع اخوهُ السادس زين الدين حاجي ولقب بالملك المظفر (الثالث) وكان اكثر استبدادًا

من سلفهِ فلم تطل مدة حكمهِ اكثر من سنة وثلاثة اشهر فُذبح في ١٢ رمضان سنة ٧٤٨ ه . فبويع اخوهُ السابع ناصر الدين حسن ولقب بالملك الناصر (الثالث) وقد كان من سيرهِ في الملك ما كان لابيهِ فحكم ثلاث سنوات وعشرة اشهر بمساعدة نائبهِ الامير الطمش وخلع في غرة رجب سنة ٧٥٢ ه وسجن في قلعة القاهرة . فبويع اخوهُ الثامن صالح صلاح الدين ولقب بالملك الصالح (الثاني) وكان على وزارتهِ الامير شيخو العمري والى هذا الامير ينسب الجامع المعروف بجامع شيخون او شيخو في الصليبة غربي الرميلة اوهما جامعان واحد على كل من جانبي الطريق وكلاهما يعرفان بهذا الاسم . وبقي الصالح على دست السلطنة ثلاث سنوات وثلاثة اشهر و١٤ يومًا

وفي سنة ٧٥٤ ه دهم القطر طاعون وانتشر حتى عمَّ البلاد واختطف الامام الحاكم بامر الله (الثاني) وصي الخلافة فبويع عمهُ المعتضد بالله

وفي اوائل سنة ٧٥٥ رفع المسلمون الى الملك الصالح تقارير مفصلة بما للنصارى من الاملاك الموقوفة للاديرة فاحيلت هذه التقارير الى ديوان الاحباس فوجد ان للنصارى اوقافًا تبلغ ٢٥ الف فدانًا من الطين كلها موقوفة للكنائس والاديرة فعرضت على الامير شيخو والامير صرغتمش والامير طاز وكانوا قائمين بتدبير الدولة فقرروا ان ينعم بذلك على الامراء زيادة على اقطاعاتهم وهدموا للنصارى عدة كنائس . وفي اواخر رجب من هذه السنة خرج الحاجب والامير علاء الدين علي بن الكوراني وكان واليًا على القاهرة الى ناحية شبرا الخيام من ضواحي مصر فهدم كنيسة للنصارى واخذ منها اصبع الشهيد في صندوق واحضرهُ الى الملك الصالح فأُحرق بين يديهِ في الميدان وذرى رمادهُ في البحر حتى لا يأخذهُ النصارى فبطل عيد الشهيد من يومئذٍ كليًّا . وكان بين المترشحين للوزارة وزيران قبطيان مرتدّان هما موفق الدين وعلم الدين فتنازعا عليها وانضم الى كلٍّ

منها احزاب فانتهى الخصام بخلع الملك الصالح في ٢٣ شوال سنة ٧٥٥ﻫ وكان منشأ هذا النزاع دسيسة من اخيهِ الملك الناصر حسن باتفاق مع الامير تاج الدين وكان الناصر مسجونًا ففاز بمرادهِ وخلع اخاهُ فأُخرج من السجن و بويع وبقي الملك الناصر حسن على دست السلطنة هذه المرة ست سنوات وسبعة اشهر وبضعة ايام بمساعدة الامير تاج الدين فولاهُ الوزارة مكافأة لمسعاهُ . وفي ٩ جمادى الاولى سنة ٧٦٢ ﻫ قُتل بمكيدة من كبار امرائهِ

ومن مآثرهِ الباقية الى هذا العهد جامعهُ في الرميلة مقابل قلعة الجبل في القاهرة وهو المعروف بجامع السلطان حسن او بجامع الحسنية وهو من اجمل جوامع القاهرة واتقنها اقتضى لبنائهِ ٣ سنوات أُنفق عليهِ في خلالها ما يساوي ستماية جنيهًا كل يوم وقد جاء بالحجارة الكبيرة من انقاض الاهرام ونقش عليهِ الكتابات الكوفية والعربية فزادتهُ رونقًا وجمالاً وقد اصبح الآن وعلى وجههِ ملامح الشيخوخة لكنها لم تزدهُ الاَّ عظمةً ووقارًا

وترى في الشكل الثاني والستين صورة النقود الذهبية للملك الناصر ناصر الدين حسن



ش ٦٢ نقود الملك ناصر الدين حسن

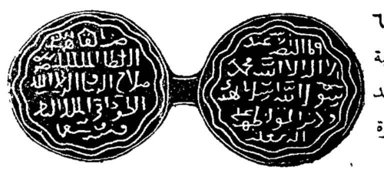
سلطنة محمد بن حاجي

من سنة ٧٦٢ ــ ٧٦٤ ﻫ او من ١٣٦٠ ــ ١٣٦٢ م

ولما قتل السلطان حسن بويع ابن اخيهِ محمد بن الملك المظفر حاجي وسنهُ ١٤ سنة ولقب بالملك المنصور (الخامس) وفي منتصف شعبان

سنة ٧٦٤ هـ اضطر الى التنازل عن الملك لابن عمهِ شعبان بن حسن وسنُّهُ عشر سنوات فبويع ولقب بالملك الاشرف (الثالث)

وترى في شكل ٦٢ صورة النقود الذهبية للملك المنصور محمد ضربت في القاهرة سنة ٧٦٤ هـ



ش ٦٢ نقود الملك المنصور ضربت في القاهرة سنة ٧٦٤ هـ

سلطنة شعبان بن حسن

من سنة ٧٦٤ — ٧٧٨ هـ او من ١٣٦٢ — ١٣٧٦ م

وحكم الاشرف شعبان ١٤ سنة وشهرين وبضعة ايام معظمها سكينة وسلام وفي السنة الثالثة من حكمهِ اصيبت مصر وسوريا بقحط ضايق على الناس حتى اكلوا الكلاب والقطط واكل بعضهم أولادهُ من شدة الجوع واستمر الامر كذلك في بعض الاماكن ٣ سنوات ولما كانت السنة الحادية عشرة من حكمهِ اصاب البلاد حروب اهلية اشد وطأةً من الجوع وسببها ان يلبغا العمري احد امراء المماليك كان نائبًا للملك . ففي سنة ٧٧٦ هـ سطت عليهِ عصبة من مماليكه في قصرهِ فقتلوهُ وساروا يريدون مثل ذلك من السلطان نفسهِ فردَّهم بعد حرب هائلة قتل فيها زعيمهم فتشتتوا فولَّى على النيابة الجاي اليوسفي وكان طماعًا مريدًا فتقرب من السلطان حتى تزوج بوالدتهِ فنال منها ثروة عظيمة فقويت شوكتهُ وكثر متشيعوهُ فطمع بالسلطة فقتل زوجتهُ المذكورة وتواطأ مع قاتلي يلبغا على

قتل السلطان فهاجموهُ فدفعهم ورئيسهم وقتل منهم جمعًا كبيرًا وتبعهم رجالهُ حتى اغرقوهم في النيل . ولم يكد يطمأن من هذا القبيل حتى اجتمع عليهِ اضداد يريدون قتلهُ فتربصوا ينتظرون فرصة حتى اذا كان عائدًا من زيارة الحرمين كمنوا لهُ في مضيق العقبة فقتلوا من معهُ من الحاشية ولم يقفوا للسلطان على اثر فظنوا انهُ قتل فعادوا الى القاهرة وعهدوا الى الخليفة المتوكل بالله العباسي وكان قد تولى الخلافة بعد المعتضد بالله سنة ٧٦٣ ﻫ ان يبايع من يشاء . فكتب اليهم «اختاروا من بينكم من تشاؤن وانا اصادق على بيعتهِ» ثم علم الامراء ان الاشرف لا يزال حيًّا مختبئًا في القاهرة فقبضوا عليهِ وخنقوهُ في ١٥ ذي الحجة سنة ٧٧٨ ﻫ

وترى في الشكل الرابع والستين نقود الملك الاشرف شعبان

ش ٦٤ نقود الملك الاشرف شعبان

سلطنة علي بن شعبان

من سنة ٧٧٨ ـ ٧٨٣ ﻫ او من ١٣٧٦ ـ ١٣٨١ م

وبايعوا ابنهُ علاء الدين علي وسنهُ ٧ سنوات فسرَّ بذلك المنصب لصغر سنهِ ولم يعلم انهُ مدفن ابيهِ ولا يلبث حتى يلحق بهِ . فلقبوهُ بالملك المنصور (السادس) واقاموا لهُ الامير لاين بك وصيًّا . ثم ابدل لاين بالامير قرطاي ثم ابدل هذا بالامير برقوق . وهو الذي سيأتي على ختام هذه الدولة وتأسيس دولة جديدة . وقد كانت هذه مقاصدهُ منذ ولي الوصاية لكنهُ بقي محافظًا على ولاء مولاه الى ان توفاهُ الله في شهر ربيع اول سنة ٧٨٣ ﻫ وكانت مدة حكمهِ اربع سنوات واربعة اشهر

سلطنة حاجي بن شعبان

من سنة ٧٨٣ — ٧٨٤ ﻫ او من ١٣٨١ — ١٣٨٢ م

فبويع اخوهُ زين الدين حاجي وسنهُ ست سنوات ولقب بالملك الصالح (الثالث) ولم تمر على مبايعتهِ سنة ونصف حتى ملَّ برقوق من اخفاء مقاصدهِ فخلعهُ ونفاهُ في ١٩ رمضان سنة ٧٨٤ ﻫ واستلم مقاليد الملك . وكان الملك المنصور هذا آخر من حكم من دولة المماليك الاولى سلالة قلاون المسماة بالبحرية او التركمانية فانقرضت دولتهم بعد ان حكمت نحواً من ماية وست وثلاثين سنة اولها امرأة وآخرها صبي وقامت دولة المماليك الثانية او الشراكسة

دولة المماليك الثانية

من سنة ٧٨٤ — ٩٢٣ ﻫ او من ١٣٨٢ — ١٥١٧ م

منشأ المماليك الشراكسة

وقد دعيت هذه الدولة بدولة المماليك الشراكسة نسبة الى منشأ سلاطينها فانهم من الشعب الشركسي ويدعى ايضاً كركس اوجركس او كرغزوهم لم ينشأوا في اسيا العليا انما جاؤا اليها من سيبيريا ونواحي بحيرة بيكال منذ الجيل السادس للميلاد ثم هاجروا الى غربي بحر قسبين فاستوطنوا هناك ودعيت تلك البلاد شركاسيا . وكان المماليك الشراكسة يُحملون من بلادهم للاتجار بهم في جهات العالم فاقتنى منهم سلطان المماليك

البحرية الاخير عددًا وافرًا فضلاً عن المماليك البحرية اقتداء باسلافهِ . وكانوا يستخدمونهم في مصالح الدولة فارتقوا فيها تبعًا لما خصّهم بهِ الطبيعة من الجمال والذكاء حتى صارت اليهم حماية الحصون والقلاع فجعلوا سكناهم في الابراج فلقبوا بالبرجية وما زالوا يزدادون عددًا وقوة ومنعة حتى تاقت نفوسهم الى تسلق كرسي الملك يجعلونها ارثًا لنسلهم . وقد رأينا انهم تمكنوا مما ارادوا فخلعوا حاجي بن شعبان وبايعوا برقوق

اما برقوق فهو ابن مرتدٍ شركسي اسمهُ أنس من قبيلة كسا استُملك في شركاسيا وقيد الى القرم فاشتراهُ رجل مسلم يقال لهُ عثمان وجاء بهِ الى مصر سنة ٧٦٢ ﻫ وباعهُ للامير يلبغا فجعلهُ في عداد مماليكهِ الآن نباهة برقوق وجمالهُ ومهابتهُ استلفتت انتباه سيدهِ فبالغ في اكرامهِ وترقيتهِ حتى ادخلهُ في بطانتهِ ولقبهُ بالشيخ اشارة الى براعتهِ بالفقه وسائر العلوم الاسلامية وجعلهُ في مصاف الامراء وكان يلقب ايضًا بالعثماني واليلبغاوي وما زال في خدمتهِ الى ان قضى الله على يلبغا بما قضى وتشتتت مماليكهُ فبقي برقوق وامير آخر يقال لهُ بركة لانهما كانا في السجن ثم اطلقا فدخلا في خدمة منجك حاكم دمشق . ثم عاد الى مصر بطلب من الملك الاشرف شعبان فتمكن برقوق بوسائط مختلفة من الحصول على رتبة باش امير ياخور وقيادة الف رجل فاصبح من الذين يطمعون في نيابة الملك فتولاها ولقب باتابك الجيوش . وتولّى رفيقهُ بركة رئاسة حكومات الاعمال (المديريات) وما زالت الحال كذلك حتى خُلع الملك الصالح حاجي فتمكن برقوق بمساعدة احزابهِ ان يتسلق كرسي الملك في ١٩ رمضان سنة ٧٨٤ ﻫ كما رأيت

سلطنة الملك الظاهر برقوق

من سنة ٧٨٤ ــ ٨٠١ ﻫ او من ١٣٨٢ ــ ١٣٩٨ م

فاقرّ الخليفة المتوكل بالله على تولية برقوق وبايعهُ جميع القضاة والمشايخ والعلماء والامراء ولقبوهُ بالملك الظاهر وهو اقب اعظم من حكم مصر من دولة المماليك الاولى نعني بهِ ركن الدين بيبرس البندقداري

وكان تيمورلنك الشهير اذ ذاك قد ملأ الارض بافتتاحاتهِ حتى سمع دويها في سوريا اذ جاء يتهدد حدودها فنهض اليهِ برقوق في جيش عظيم فاوقفهُ عند حدهِ لكنهُ لم يكد يتخلص من ذلك العدو التتري حتى ظهر لهُ عدو في بيتهِ نعني بهِ الخليفة المتوكل بالله فانهُ دعا الى خلع برقوق فالتفّ حولهُ دعاة عديدون فاجتمع برقوق بالمشائخ والائمة والعلماء واجمع معهم على خلع الخليفة فخلعهُ وحبسهُ في القلعة سنة ٧٨٧ ﻫ ونصب عمرًا اخا ابرهيم ولقبهُ بالواثق بالله . ثم توفي الواثق في ١٩ شوال سنة ٧٨٨ ﻫ فنصب ابا يحيى زكريا عمر ابن الخليفة المستنصر بالله . وهذا لم يلبث طويلاً لانهُ اساء السلطان برقوق فخلعهُ في جمادى الاولى سنة ٧٩١ ﻫ واعاد المتوكل بالله لكنهُ ندم بعد ذلك لما رأى من سعيهِ الى خلعهِ فحاول تنزيلهُ ثانية فلم يستطع لان المتوكل كان قد تواطأ مع احد الامراء المسمى منطاش على خلعهِ ووافقهما سائر الامراء ورجال الدولة فخلعوهُ بعد ان حكم ست سنوات وسبعة اشهر وبضعة ايام وارسلوهُ منفيًا الى قلعة الكرك منفى السلاطين في تلك الايام واستقدموا السلطان حاجي آخر سلاطين دولة المماليك البحرية وهو الذي خلعهُ برقوق . فبايعوهُ في ٦ جمادى الآخرة سنة ٧٩١ ﻫ . وكان يلقب بالملك الصالح فابدلهُ بالملك المنصور لكنهُ لم يهنأ بهذه التولية الثانية لان المتوكل ومنطاش بعد ان سعيا الى توليتهِ

ندما فانزلاه واعادا برقوق في ٤ صفر سنة ٧٩٢ ه فتعلم برقوق هذه المرة كيف يستبقي الملك في يده فبادر حالاً الى الملك المنصور حاجي وامانه وكلّ من كان على دعوته منعًا لدسائسهم . ثم عمد الى الخارجية فوطد الامن في انحائها ولم يكن يثق بمقاصد احزاب الخلفاء فجعل يتداخل في احزابهم فيتحد تارةً مع هولاء وطورًا مع هولاء لاستدامة الشقاق بينهم فلا يتفقون على خلعهِ

وفي سنة ٧٩٤ ه اهداهُ قرا يوسف امير الدولة المادية مدينة تبريز فبعث اليهِ برقوق خلعة وفوّض اليهِ ان يفتح ما استطاع من المدن على ان يكون واليًا عليها . لكنهُ لم يلبث حتى اتى القاهرة في السنة التالية مع احد محالفيهِ احمد بن عويس فارّين من وجه تيمورلنك وكانا قد التجأا الى منويل امبراطور القسطنطينية فلم يؤمنهما لانهُ كان في ريبة من امره مع دولة جديدة قارب صبحها من الانفجار وهي الدولة التي لقبت بعد ذلك بالدولة العثمانية نسبة الى عثمان الغازي اول سلاطينها . وكان ذلك في عهد بيازيد بن مراد رابع سلاطين هذه العائلة الظافرة وكان قد غزا معظم ايالات المملكة الرومانية الشرقية واعظمها حتى تهدد القسطنطينية فجاءهُ التتر من ورائهِ تحت قيادة تيمورلنك فاوقفوهُ عن مقصدهِ واصبحت قارة اسيًا بين مناظرين عظيمين يتنازعانها وكل منهما ذو بأس شديد وهما تيمورلنك التتري وبيازيد التركي فتلاطمت الزوبعتان فأرجفت لهما افريقيا واضطربت مصر من دونهما

وطمحت انظار هذين الناحيين الى مصر فبعث كلٌّ منهما وفدًا الى القاهرة فطلب وفد بيازيد الى برقوق ان يعاهدهم على السلم والى الخليفة المقيم في القاهرة ان يثبتهم رسميًا على سلطنة الاناضول فاجابهم الى ما طلبوهُ اما وفد تيمورلنك فاتخذوا خطة اخرى في مأموريتهم لانهم استعملوا الخشونة والفظاظة في اقوالهم ومطاليبهم وطلبوا اليهِ ان يسلم لهم قرا يوسف

واحمد بن عويس الذين قد التجأ ا اليهِ . فطيّب برقوق خاطرهم واخذهم بالملاينة فازدادوا فجورًا فامر بقتلهم فشقّ ذلك على تيمورلنك فساق جيشهُ وقدم للانتقام فمر بالرها فافتتحها وقتل من فيها ثم جاء حلب فانكى فيها ثم توقف تيمورلنك عن مسيرهِ لغرض في نفسهِ ليسهل عليهِ افتتاح مصر . فلم يغفل برقوق عن ذلك فاكثر من الجند والسلاح وتأهب للدفاع او الهجوم لكنهُ لم يكد يتم هذه التأهبات حتى ادركتهُ الوفاة بداء الصرع في يوم الجمعة ١٥ شوال سنة ٨٠١ هـ وسنهُ ستون سنة فأسف عليهِ الناس اسفًا شديدًا لما كان من عدلهِ ويقظتهِ ورفقهِ برعيتهِ . ومن ادلّة ذلك انهُ خفف عوائد الحبوب وابطل العوائد التي كانت تؤخذ على الاثمار والفواكه الواردة عن طريق بولاق وكان كثير التصدق على الفقراء محبًّا للعلم والعلماء فبنى مدرسة دعاها المدرسة الظاهرية نسبة اليهِ . وابتنى جامعًا لا يزال الى الان معروفًا باسم جامع السلطان برقوق واقعًا بجانب جامع الملك الناصر المتقدم ذكرهُ في شارع النحاسين . وكان لهُ ولعٌ خاص في اقتناء الاسلحة والخيول الجياد والاستكثار من المماليك الشراكسة ابناء جلدتهِ فنظم منهم فرقة يركن اليها عند الحاجة . وجعل في مصالح الدولة مراتب هذه اهمها

(١) اتابك العساكر
(٢) رأس نوبة الامراء
(٣) امير السلاح
(٤) امير المجلس
(٥) امير الياخور
(٦) دوادار
(٧) رأس النوبة الثاني
(٨) حاجب الحجاب

(٩) النائب

وكانت مقاليد الحل والربط بيد هؤلاء التسعة فاذا اجمعوا على امر انفذوهُ ولا مردّ لقضائهم

سلطنة فرج بن برقوق (اولاً)

من سنة ٨٠١ — ٨٠٨ ﻫ اومن ١٣٩٨ — ١٤٠٥ م

فلما توفي السلطان برقوق بايعوا بكر ابنائهِ فرج زين الدين الملقب بابي السعادات وسنهُ ست وعشرون سنة ولقبوهُ بالملك الناصر. وفي اول حكمهِ ثار الاتابك يطمش وتنم الفرساني حاكم سوريا فتواطأ هذا الاخير مع يلبغا السالمي حاكم حلب فاستولى على مضايق فلسطين على نية الاستيلاء على سائر مدنها الّا ان حدسهُ لم يتحقق فأُخذت منهُ المضايق وضويق عليهِ حتى قيد اسيرًا وقتل هو وكل دعاتهِ. ولم تكد تنجو مصر من هذه النازلة حتى داهمتها نازلة اشد وطأة واصعب مراسًا. فان تيمورلنك بعد ان انهى حروبهُ في الهند وبغداد وسيواس وملاطية سنة ٨٠٣ ﻫ امعن في سوريا فاستولى على حلب وحمص بعد حرب شديدة وفرّ فرج الى مصر رغمًا عنهُ فجمع اليهِ رجالهُ وتأهب للدفاع ثم بلغهُ ان عدوّهُ انشغل عنهُ بمحاربة بيازيد في الاناضول فسكن روعهُ ثم جاءتهُ الانباء بفوز تيمور وانكسار بيازيد واسرهِ سنة ٨٠٤ ﻫ في وقعة انقرة فخارت قواهُ وقنط من الفرج فبعث اليهِ تيمورلنك ان يسلم بسلطنة التتر ويبعث اليهم باحمد وقرا يوسف حالاً وبعث اليهِ فيلاً هنديًا. فلم يسع فرج الّا الاذعان لقضاء الله. فاجابهُ الى طلبهِ صاغرًا واهداهُ زرافة حبشية معترفًا بسيادة التتر على مصر وقيامهِ باحكامها بالنيابة عنهم. اما احمد وقرا يوسف فقال انهما احتميا بهِ وحقوق الضيافة تمنعهُ من تسليمها فيكون هو الجاني عليهما

لكنهُ وعد ان يسجنها عندهُ فاستقرت سيادة تيمور على مصر . وفي سنة ٨٠٦ هـ شرقت مصر بقصور النيل فدهي اهل الصعيد من ذلك بما لا يوصف حتى انهُ مات في مدينة قوص وحدها ١٧ الف انسان ومات في مدينة اسيوط ١١ الفًا ونحو ذلك من مدن اخرى . وفي ١٧ شعبان من السنة التالية ادرك تيمور القضاء المبرم في اوترار وتخاصم ابناؤهُ على الملك فاغتنم فرج تلك الفرصة للتخلص من سلطة التتر والافراج عن احمد وقرا يوسف فافرج عنهما فسارا الى بلادهما

ثم اخذ بالتاهب لاسترجاع سوريا بنفسهِ فلم يكد يتم الاستعداد حتى ضويق عليهِ في قصرهِ .وسبب ذلك ان المصريين لما رأَوا اذعانهُ لتيمور لنك وتسليمهُ بسيادتهِ على بلادهم حسبوا ذلك خيانة وضعفًا وايقنوا انهُ لا يصلح لادارة الاعمال فاقرُّوا على خلعهِ وتولية اخيهِ عز الدين عبد العزيز وكان اعظم في عيونهم منهُ فاجتمعوا تحت لوائهِ وساروا لمحاصرة اخيهِ في قصرهِ في ١٦ ربيع اول سنة ٨٠٨ هـ وما زالوا يتهددونهُ حتى تنازل حفظًا لحياتهِ وقد حكم ست سنوات وخمسة اشهر و ١١ يومًا

سلطنة عبد العزيز بن برقوق

من سنة ٨٠٨ ــ ٨٠٨ هـ او من ١٤٠٥ ــ ١٤٠٥ م

ثم خرج من قصرهِ واختفى في مكان غير معلوم فظن الناس انهُ قتل من الضوضاء والازدحام فبايعوا اخاهُ ولقبوهُ بالملك المنصور . ولم يمضِ شهران من توليتهِ حتى تحققوا خيبة ظنهم بهِ فملُّوا من طاعتهِ ومالوا بكليتهم الى سلفهِ فاتصل ذلك بفرج فخرج من خبائهِ فتقدم اليهِ الناس ورجال الدولة ان يعود الى منصبهِ فعاد في جمادى الآخرة ونفى اخاهُ عز الدين الى الاسكندرية فعاش فيها اشهرًا قليلة وتوفي في ٧ ربيع آخر سنة ٨٠٩ هـ

سلطنة فرج بن برقوق ثانيةً

من سنة ٨٠٨ ــ ٨١٥ ه او من ١٤٠٥ ــ ١٤١٢ م

فلما عاد فرج الى منصبهِ وجَّه انتباههُ خصوصًا الى استرجاع ثقة الاهلين فيهِ فغزا دمشق وافتتحها ثم فتح غيرها من مدن سوريا واهتم في راحة الرعية فساد الأَمن وسكنت القلوب . فاذا كانت سنة ٨١٢ ه ظهرت في القاهرة ثورة دينية ذهبت بحياتهِ . وتفصيل ذلك ان احد امراء المماليك المدعو ابا نصر الملقب بالشيخ المحمودي الظاهري نسبة الى سيدهِ الامير محمود احد امراء الملك الظاهر برقوق . وكان الملك الظاهر قد عتقهُ ووعدهُ بالخدامات الحربية فطمحت ابصارهُ الى السلطنة فاستخدم لهذه الغاية الخليفة المستعين بالله وكان قد وُلّي الخلافة بدلاً من الخليفة المتوكل بالله منذ خمس سنوات . وقد كان الخلفاء العباسيون منذ استئصال شوكتهم من بغداد واقامة فرعها في القاهرة لا يخرجون في اعتبار الاهالي عن حد السلطة الدينية وكانوا يلقبونهم بالأَئمة . فاسرَّ الشيخ المحمودي الى المستعين بالله انهُ يمكنهُ اعادة السلطة السياسية اليهِ كما كانت لاسلافهِ وقال لهُ «ان الناس ميالون الى ذلك بكليتهم وهم مستعدون لمبايعتكم وتنفيذ اوامركم» فثار في قلب الخليفة حب السيادة فوافق الشيخ المحمودي وكان فرج اذ ذاك في دمشق فاتفقا على استقدامهِ فانفذا اليهِ اولاً ان يتنازل عن الملك فاجاب ان جوابهُ الوحيد على ذلك انما هو السيف واخذ في اعداد مهمات الحرب ومثل ذلك فعل الخليفة والشيخ المحمودي وتقدم الجيشان لكنهما لم يتلاحما حتى اصدر الخليفة خطًّا شريفًا بتوقيعهِ فجاء بما لا يجيءُ بهِ السيف ونصهُ «من الامام ابي الفضل العباسي المستعين بالله امير المؤمنين الى اهل مصر . اننا نصرح بخلع فرج بن برقوق عن سلطنة

مصر وسوريا لان السلطان الحقيقي عليها انما هو الخليفة سلالة النبي (صلعم) ونائبهُ . فطوبى لمن اذعن لهُ وويل لمن اعرض عنهُ والسلام»

فلما دار ذلك بين الجيوش اعرضوا عن فرج ولم يبقَ لهُ نصير فحاول الفرار فلم ينجُ فقُبض عليهِ وقيد الى الخليفة فانتحل لهُ ذنبًا يستوجب عليهِ المحاكمة . وهو انهُ كان قد اضطر لكثرة ما انفقهُ في محاربة التتر ان يفرض على الاهالي ضرائب فوق العادة فرفعت عليهِ عرائض التشكي الى مجلس الائمة والفقهاء انهُ اختلس الاهالي وخرب البلاد وانهُ تمرَّد على الخليفة ظلّ الله على الارض فاتخذ الخليفة هذه التشكيات ذريعة للحكم على فرج بالاعدام فقتلوهُ في ٢٥ محرم سنة ٨١٥ هـ خارج اسوار دمشق وتركوا جثتهُ ملقاة على دمنة هناك

سلطنة الامام المستعين بالله

من سنة ٨١٥ — ٨١٥ هـ اومن ١٤١٢ — ١٤١٢ م

فاصبحت السلطة الروحية والسياسية بيد المستعين بالله فبايعهُ الامراء وقواد الجند ولقبوهُ بالملك العادل فاستلم مقاليد الاحكام وجعل الشيخ المحمودي رئيسًا لشوراه . واخذ في اصلاح الاحوال وتنظيم الاحكام ووجه انتباههُ الى ما يكتسب بهِ ثقة الرعية فاعاد الامن الى البلاد بمقاصة المعتدين واظهر لياقتهُ لما عهد اليهِ فشرع في اصلاح امور الاحكام وانصاف المظلومين وبذل العطاء فاحبتهُ الاهالي . اما الشيخ المحمودي فقد كان في بالهِ انهُ اقام هذه الثورة خدمة لاغراضهِ وليس للخليفة فرأى انهُ اصبح بعدها آلة بيد ذلك السلطان الجديد فاضمر لهُ شرًّا ونوى على خلعهِ لكنهُ استخدم الحزم والتأني واغتنام الفرص المناسبة خوفًا من الوقوع في شر اعمالهِ فعمل على توطيد العلاقات الودية بينهُ وبين امراء المماليك

والتقرب منهم واقناعهم تحت طي الساطة والاخلاص ان في هذا الخليفة شيئًا من ضعف الرأي والخمول فضلاً عن كونهِ اجنبيًا عنهم فاستمال قلوبهم واشتد ازرهُ بهم فاخذ يتكو من منصبهِ فولاَّهُ الخليفة نيابة الملك في ٨ ربيع اول من تلك السنة فصار اقدر على تنفيذ مآربهِ وما زال ساعيًا الى مطمح انظارهِ حتى كثرت احزابهُ واصبحت ازمَّة البلاد في يدهِ فاجبر الخليفة على مشاركتهِ في السلطنة فاجابهُ ولقبهُ بالملك المؤيد وبعد يسير خطا خطوة اخرى فخلع الخليفة وحبسهُ في بعض غرف القصر

سلطنة الشيخ المحمودي

من سنة ٨١٥ — ٨٢٤ ه او من ١٤١٢ — ١٤٢١ م

فلم يستطع المستعين بالله ادنى مقاومة لكنهُ كتب سرًّا الى نوروز احد اصدقائهِ القدماء وكان قد ولاَّهُ سوريا يستنجدهُ فقدم نوروز مسرعا الى القاهرة في جيش فرأى انهُ يقصر عن مناواة المحمودي فاوعز الى الخليفة ان يستخدم الوسائط الدينية كما فعل المرة الماضية وكان الشيخ المحمودي في دمشق فاصدر منشورًا بحرمانهِ فاغتنم المشائخ والامراء فرصة غيابهِ وجاهروا بخلعهِ . وبلغ ذلك الشيخ المحمودي فاسرع الى القاهرة فخافهُ المشائخ والعلماء وانكروا مجاهرتهم بحرمانهِ وقالوا ان الخليفة اولى بذلك الحرمان والحُّوا على معاقبتهِ لانهُ تمرد على سلطانهم فخلعوهُ من السلطنة والخلافة وسجنوهُ ثم نفوهُ الى الاسكندرية سنة ٨١٨ ه واقاموا اخاهُ داود خليفةً مكانهُ ولقبوهُ بالامام المعتضد بالله فعاد الشيخ المحمودي على كرسي السلطنة واخذ يسعى الى اكتساب ثقة الاهلين فانتهج خطة الخليفة المستعين فانصف ورفق فأَمنت الرعية وسعدت البلاد وما زالت الحال كذلك ثماني سنوات وخمسة اشهر وفي ٩ محرم سنة ٨٢٤ ه توفي السلطان الشيخ المحمودي . وكان

محبًا العلماء بكرم مثواهم . ولهُ بنايات جميلة من جملتها الجامع المسمّى جامع المؤيّد بالقرب من باب زويلة وقد جُدّد بناؤهُ وهو كثير النقوش ولم يبقَ من البناء القديم الاّ ليوان القبلة . وبعد وفاتهِ عادت الامور الى مجراها الاول من الفلاقل فتولى على السلطنة بعدهُ ثلاثة سلاطين لم يحكموا الاّ مدة قصيرة

سلطنة احمد بن المحمودي ثم سيف الدين تتر ثم محمد بن تتر

من سنة ٨٢٤ ــ ٨٢٥ ﻫ او من ١٤٢١ ــ ١٤٢٢ م

اوّلهم ولدهُ شهاب الدين احمد الملقب بالملك المظفر وفي شوال من تلك السنة تخلّى عن الملك لوصيّهِ وحميهِ سيف الدين تتر الملقب بالملك الظاهر وهذا توفي في ذي الحجة من السنة المذكورة فبويع ابنهُ ناصر الدين محمد ولقب بالملك الصالح وبعد اربعة اشهر خلعهُ وصيّهُ سيف الدين برس باي فقضى باقي حياتهِ في الشقاء

سلطنة الملك الاشرف برس باي

من سنة ٨٢٥ ــ ٨٤١ ﻫ او من ١٤٢٢ ــ ١٤٣٧ م

وبعد خلعهِ اختلف الامراء على من يخلفهُ فتنحّى برس باي حتى اهلك الاحزاب بعضها بعضًا فتسلق السلطنة غنيمة باردة . فبويع في ٨ ربيع آخر سنة ٨٢٥ ﻫ ولقب بالملك الاشرف وقد كان برس باي مملوكا احبّهُ سيدهُ الملك الظاهر تتر فاعتقهُ ورقّاهُ حتى جعلهُ وصيًا على ابنهِ . وفي اول حكمهِ ترايد وفاء النيل حتى غمر الارض بالخيرات فكثرت الحبوب وشبع الفقراء وكان برس باي كالشيخ المحمودي حكمة ورفقًا وقد رمم عدّة مدن وشاد في القاهرة عدة بنايات منها الجامع المعروف بجامع

الاشرفية تجاه سوق العطارين ابتدأ في بنائهِ سنة ٨٢٦ هـ . وقد تمكن برس باي لحسن سياستهِ وحزمهِ من استبقاء السلطنة بيدهِ مدة طويلة والبلاد في سكينة الّا في سنة ٨٢٧ هـ اذ ثار الامير بنبق الجاشي وكان قد ولّاهُ حكومة دمشق . غير ان تلك الثورة ما لبثت ان ظهرت حتى اضمحلّت وعوقب الثائرون بمساعدة امير زنجي يقال لهُ عبد الرحمن فولّاهُ برس باي على سوريا بدلاً من الجاشي وكانت هذه الثورة اول القلاقل وآخرها في ايامهِ . اما محارباتهُ مع الدول الاخرى فجديرة بالاعتبار لانهُ جرّد على الافرنج عدة تجريدات وتغلب عليهم فاخضع جزيرة قبرص وحمل الملك جان لوسينيان الثالث على الاعتراف بسلطانهِ وفرض عليهِ الجزية وقد عقد مع ملوك الافرنج وسلطان آل عثمان اذ ذاك مراد بن محمد عدة معاهدات سلميـــة تدل على عظيم شوكتهِ . فكانت مصر في ايامهِ سعيدة داخلاً وخارجاً . وقد قال بعض المؤرخين ان الملك الاشرف برس باي اجدر الملوك الشراكسة بالمدح لانهُ كان ارفعهم همّةً واشدّهم عزيمةً واكثرهم تدرُّباً في الاحكام ومما يمتدح عليهِ انهُ ابدل جميع التذلُّلات التي كانت تقدم للملوك قبلهُ بتقبيل اليد فقط . وبعد ان حكم ١٧ سنة و ٨ اشهر و ٦ ايام قضى يوم السبت في ١٢ ذي الحجة سنة ٨٤١ هـ وسنهُ ستون سنة

سلطنة يوسف بن برس باي

من سنة ٨٤١ ــ ٨٤٢ هـ او من ١٤٣٧ ــ ١٤٣٨ م

فبويع ابنهُ جمال الدين يوسف الملقَّب بابي المحاسن ولُقب بالملك العزيز وبعد ثلاثة اشهر من مبايعتهِ تخاصم مماليكهُ وسيف الدين جقمق اتابك جيشهِ خصاماً انتهى بعزلهِ ومبايعة جقمق في ١٩ ربيع اول سنة ٨٤٢ هـ

سلطنة الملك الظاهر جقمق

من سنة ٨٤٢ ــ ٨٥٧ ه او من ١٤٣٨ ــ ١٤٥٣ م

وكان سن جقمق اذ ذاك ٦٩ سنة ولُقب بالملك الظاهر وبعد سنتين من حكمهِ اصيبت مصر بطاعون انتشر في سائر انحائها . وفي سنة ٨٤٦ ه توفي الامام المعتضد بالله وكان بارًّا تقيًا واوصى بالخلافة بعدهُ الى اخيهِ بالرحم فبايعوهُ ولقبوهُ بالمستكفي بالله وكان صديقًا للسلطان جقمق وبعد ثماني سنوات من خلافتهِ توفي سنة ٨٥٤ ه وكان كاخيهِ تقاءً وبرًّا حتى تخاصم الاعيان والكبراء تسابقًا الى حمل نعشهِ وقت الجنازة حتى السلطان جقمق فانهُ حمل بهِ على منكبيهِ . فبويع اخوهُ ولقب بالقايم بامر الله . وكان سير هذا الخليفة مغايرًا لسير سابقيهِ فابغضهُ السلطان وخشي من دسائسهِ وكان قد تجاوز الثمانين من سنّهِ ولم تعد فيهِ عزيمة على مقاومة الدسائس فتنازل عن السلطنة لابنهِ فخر الدين عثمان وتوفي في ٢٩ صفر سنة ٨٥٧ ه وهي السنة التي فتح فيها السلطان محمد بن مراد القسطنطينية وباد مملكة الرومان

سلطنة عثمان بن جقمق

من سنة ٨٥٧ ــ ٨٥٧ ه اومن ١٤٥٣ ــ ١٤٥٣ م

وبويع فخر الدين عثمان ولقب بالملك المنصور اما الخليفة فلم ينفك عن دسائسهِ طمعًا بالسلطنة فدعا اليهِ زمرة من الامراء وحملهم على نبذ طاعة الخليفة على امل ان ينال بذلك ما نالهُ المستعين بالله فانتشبت الثورة وخلع الملك المنصور عثمان في غرة شهر ربيع آخر من تلك السنة بعد ان حكم شهرًا ويومًا . اما الخليفة فخاب انتظارهُ وحبطت مساعيهِ فغادرتهُ

الاحزاب وبايعوا مملوكاً مُسنَّاً اسمهُ ابو النصر ينال ولقبوهُ بالملك الاشرف

سلطنة الملك الاشرف ينال

من سنة ٨٥٧ ــ ٨٦٥ ه او من ١٤٥٣ ــ ١٤٦٠ م

فقال الخليفة في نفسهِ ان هذا السلطان شيخ فلننتظرنَّ وفاتهُ انهُ لا يلبث ان يصيب حتفهُ . فانتظر ست سنوات فلم يمت فعمد الى الدسيسة فاتصل ذلك بالوزير بالجبوني فاعلم السلطان بامرهِ فاستحضر الخليفة وقرَّعهُ ثم امر بخلعهِ عن الخلافة . فقال الخليفة « من اين لك ان تخلع الخلفاء وهم وحدهم ان يولوا و يعزلوا » فلم يجبهُ الاَّ بالنفي الى الاسكندرية فبقي فيها مدة ثم مات . فبايعوا يوسف اخا المعتضد بالله ولقبوهُ بالمستنجد بالله وكان حكيماً معتدلاً وعاش السلطان ينال بعد ذلك سنتين ولَّى وعزل اثناءها كثيراً من الوزراء ثم توفي يوم الخميس ١٥ جمادى الاولى سنة ٨٦٥ ه بعد ان حكم ٨ سنوات وشهرين وستة عشر يوماً

سلطنة احمد بن ينال

من سنة ٨٦٥ ــ ٨٦٥ ه او من ١٤٦٠ ــ ١٤٦١ م

فتولى بعدهُ ابنهُ شهاب الدين احمد الملقب بابي الفتح وكان قد تعاطى الاحكام في آخر ايام ابيهِ . وترى في شكل ٦٥ صورة نقود مضروبة في عهد شهاب الدين احمد يوم كان يتعاطى الاحكام في حياة ابيهِ

ش ٦٥ نقود ابي الفتح والاشرف

فلما بويع لقب بالملك المؤيد ولكنهُ لم يحكم الاَّ اربعة اشهر فعزل في ١٨ رمضان من تلك السنة وبويع سيف الدين خوش قدم ولقب بالملك الظاهر

سلطنة الظاهر خوش قدم

من سنة ٨٦٥ـ ٨٧٢ ه او من ١٤٦١ ـ ١٤٦٧ م

ويعرف خوش قدم هذا بالرومي لانهُ يوناني الاصل وبالناصري لانهُ كان من مماليك الملك الناصر وكان محبًّا للاداب اليونانية محافظًا عليها وكان حكيًما بارًّا حليًما محبًا لرعيتهِ ساهرًا على راحتهم ولم يكن يستوزر الاَّ الذين اختبر نزاهتهم ونشاطهم فاحبتهُ الرعية واجمعوا على طاعتهِ والاخلاص لهُ . ويقال بالجملة ان هذا السلطان من افضل سلاطين مصر وقد اقتدى بهِ رجال دولتهِ فساد الأمن . اما الخليفة فلم يكن يتجاوز سلطتهُ الدينية فحكم خوش قدم ست سنوات ونصف كلها سلام ونعيم وتوفي في ١٠ ربيع اول سنة ٨٧٢ه وسنهُ ستون سنة فاسف عليهِ الناس كثيرًا

سلطنة الملك الظاهر بلباي ثم الظاهر تمار بوغا

من سنة ٨٧٢ ـ ٨٧٢ ه او من ١٤٦٧ ـ ١٤٦٧ م

فبايعوا ابا سعيد بلباي ولقبوهُ بالملك الظاهر فكان سميًّا لسابقهِ بالاسم لا بالفعل فجاء من السيئات اكثر مما جاء ذاك من الحسنات لانهُ كان مستبدًّا عاتيًا لا يغادر كبيرًا ولا صغيرًا فكرهتهُ الناس . ولم يمضِ ٦٦ يومًا من توليتهِ حتى خلعوهُ وذلك في ١٧ جمادى الاولى من تلك السنة وبايعوا الامير ابا سعيد تمار بوغا الملقب بالظاهري ولقبوهُ بالملك الظاهر ايضًا فكان حظهُ من الملك كحظ سلفهِ لانهُ خُلع بعد شهرين من توليتهِ وبايعوا الامير قايت باي الملقب بالمحمودي وبالظاهري ولقبوهُ بالملك الاشرف

سلطنة الملك الاشرف قايت باي

من سنة ٨٧٢ ــ ٩٠١ هـ او من ١٤٦٧ ــ ١٤٩٥ م

فتوالى على مصر في سنة ٨٧٢ هـ اربعة سلاطين . اما السلطان الاخير فمكث على سرير السلطنة مدة طويلة رغمًا عما كانت عليهِ البلاد اذ ذاك من الاضطراب . وكان قايت باي مملوكًا محررًا من مماليك جقمق وكان لعلوّ همتهِ وحسن سجاياه قابضًا على ازمّة الاحزاب فكانت البلاد آمنة مطمأنة الّا انها اضطربت بخبر انتصار محمد الثاني العثماني على اوزون حسن ملك الفرس . وكان بين الفرس والمصريين تحالف فتنبأ قايت باي ان ذلك التحالف سيكون سببًا لعزم العثمانيين على فتح سوريا . فارسل حامية كبيرة الى الحدود فاجّل العثمانيون عزمهم لانشغالهم اذ ذاك بفتح البلاد النصرانية . اما قايت باي فخاف سوء العقبى ولم يرَ سبيلاً لرفع المسئولية عنهُ الّا بالتنازل عن الملك فادرك الامراء شدة احتياجهم اليهِ في مثل تلك الاحوال الصعبة فاجبروهُ على قبول السلطنة ولم يكد يعلوها حتى جاءتهُ الانباء بانتصار محمد الثاني على الافرنج وعزمهِ على فتح سوريا وذلك سنة ٨٨٥ هـ . لكنهُ لم يخرج من بر الاناضول حتى داهمتهُ المنية في مدينة طيقور جار . وتخاصم ابناهُ بيازيد وجم (او زيزم) على الملك فانشغلا عن الفتح فاغتنم قايت باي تلك الفرصة للانسحاب فعاد بجيشهِ الى مصر

وما زال الخصام يتعاظم بين ابني محمد حتى كانت بينهما واقعة ينى شهر فانهزم جم حتى اتى مصر فالتجأ الى قايت باي فاكرم وفادتهُ ثم علم ان ذلك الاكرام يهيج حاسة الانتقام في بيازيد . فقال في نفسهِ «اذا كان لا بدَّ لنا من محاربة العثمانيين فلنكن مهاجمين اولى من ان نكون مدافعين» فجعل يناوي الاتراك ويقطع السبل على قوافلهم الناقلة الحجاج الى الحرمين

حتى قبض على وفد هندي مرسل في مهمة سياسية الى بيازيد واستولى على ادنه وترسوس وكانتا في حوزة العثمانيين . اما بيازيد فكان واقفاً بالمرصاد يتحيل حجة لمهاجمة المصريين فجاءت تلك الاجراآت طينة على عجينة الآانهُ رأى ان يأتيهم من باب الحزم فانفذ اليهم رسلاً في طلب التعويض عما سببوهُ من الخسائر والاضرار فارجع قايت باي الرسل وبعث يهاجم الجيوش العثمانية فقاومتهُ اشد مقاومة وارجعت جيشهُ الى ملاطية فانجدهم قايت باي بخمسة آلاف رجل فعادوا الى العثمانيين وهم في مضايق الجبال فهجموا عليهم بغتةً وذبحوا منهم عددًا كبيرًا وفرَّ الباقون وتحصنوا في ترسوس وادنه . فاتصل ذلك بقايت باي فارسل الامير الازبكي في نجدة لاخراج العثمانيين من تينك المدينتين فسار وحارب وفاز فشق ذلك على السلطان بيازيد وآلى على نفسهِ الَّا ان يسترجع ترسوس وادنه فانفذ جيشاً كبيرًا تحت قيادة صهرهِ احمد وهو ابن امير بوسنا ولد في البانيا ثم اعتنق الاسلامية واخذ يرتقي في اعمال الدولة حسب استحقاقهِ حتى تمكن مع صغر سنهِ وكونهِ غير مولود في الاسلام من قيادة هذه الحملة لمحاربة الجيوش المصرية . فلما وصل الى معسكر الازبكي اقتتل الجيشان فهجم احمد هجمة قوية الَّا ان رجالهُ لم يستطيعوا الثبات ففارت الجيوش المصرية وأُسر احمد بعد ان جاهد جهادًا حسناً فعاد الازبكي بأسورهِ الى مصر ظافرًا فبنى جامعهُ المشهور المعروف بجامع الازبكية واليهِ يسب ثمن الازبكية وحديقة الازبكية وكانت في ايامهِ بركة يتجمع اليها الماء في ايام الفيضان وسنأتي كيفية تحويلها الى ما هي عليهِ الان

فلما بلغ بيازيد ما كان من انكسار جيوشهِ استشاط غضباً وجنّد جندًا كبيرًا جعلهُ تحت قيادة علي باشا لمحاربة المصريين فسارت تلك الحملة من الاستانة فعبرت البوسفور في ٣ ربيع آخر سنة ٨٩٢ هـ ونزلت في قرمان فاتصل خبرها بقايت باي فاوجس خيفة فعمد الى جانب المصالحة

فانفذ الى بيازيد صهرهُ احمد واسطة لعقد شروط المصالحة فرفض بيازيد ذلك رفضاً كليًّا وسار حتى التقى بالمصريين في ادنه وترسوس فحاربهم وفاز عليهم واسترجع المدينتين الواحدة بعد الاخرى بعد ان اهرق دماء غزيرة ثم سار الى ارمينيا الصغرى واخضعها وحاصر عاصمتها فافتتحها بعد ان دافعت دفاعًا قويًّا واسر حاكمها وارسلهُ بعد ذلك الى مصر بدلاً من الامير احمد . فبعث قايت باي الاربكيّ ثانية لدفع العثمانيين فواقعهم في ترسوس فغلبوهُ اولاً ثم عاد اليهم وفاز بهم واعادهم القهقرى وعاد الى القاهرة ظافرًا فخلع عليهِ قايت باي . ثم رأى ان يغتنم كونهُ ظافرًا لمصالحة العثمانيين فبعث الى بيازيد في ذلك فاجابهُ متهددًا وطلب اليهِ ان يتنازل لهُ عن ترسوس وادنه وانهُ اذا لم يفعل يدعو الناس الى الجهاد فيجتمع تحت لوائهِ كل من يدعو لآل عثمان فيجيء مصر ويفتحها فتحًا مبينًا . فخاف قايت باي وتنازل عن المدينتين ارتضاء باهون الشرّين وكان ذلك سنة ٨٩٦ ﻫ

وعاش قايت باي بعد مصالحة الدولة العثمانية خمس سنوات وتوفي في ٢٢ ذي القعدة سنة ٩٠١ ﻫ بعد ان حكم ٢٩ سنة واربعة اشهر وعشرين يومًا فبكاهُ الناس . ومن آثارهِ جامعهُ المعروف باسمهِ الى هذا العهد في القرافة خارج القاهرة . وفيهِ مقام قايت باي وهو مثال لما بقي من مدافن المماليك في تلك الجهة . وبنى قايت باي جامعًا في جزيرة الروضة لا يزال يشاهد هناك الى هذا اليوم

سلطنة محمد بن قايت باي ثم قنسو خمسمية ثم قنسو ابي سعيد ثم قنسو جان بلد ثم الملك العادل طومان باي

من سنة ٩٠١ — ٩٠٦ ﻫ او من ١٤٩٥ — ١٥٠١ م

وتولى بعد قايت باي ابنهُ ابو السعادة محمد ولُقّب بالملك الناصر

ولم يجلس على سلطنة مصر رجل اقل لياقة لها منهُ فانهُ كان احمق جبيصاً وحشيًّا لا ديدن لهُ الاَّ الانغماس في الملذات الحيوانية ولو كلفهُ ذلك ارتكاب اشر الآثام. وقد زادت قحتهُ حتى سلخ جلد احد مماليكهِ حيًّا فثار عليهِ المماليك وخلعوهُ بعد ان حكم ستة اشهر وبايعوا الامير قنسو الملقب بخمسمية لانهُ ابتيع بالاصل بخمسماية دينار ولقبوهُ بالملك الاشرف وبعد خمسة اشهر تنازل عن الملك عجزًا فاعادوا الملك الناصر محمد ثانيةً لكنهُ لم يبقَ الاَّ ١٨ شهرًا ونصف فذبحهُ المماليك في ١٦ ربيع اول سنة ٩٠٤ ه وبايعوا عمَّ قنسو واسمهُ قنسو الثاني الملقب بابي سعيد ولقبوهُ بالملك الظاهر ولم يقبل هذا المنصب الخطر الاَّ رغماً عنهُ وبعد عشرين شهرًا وبضعة ايام عزلوهُ وبايعوا قنسو الثالث جان بلد ولقبوهُ بالملك الاشرف ولم يحكم الاَّ سبعة اشهر ثم خُلع في ١٨ جمادى الآخرة سنة ٩٠٦ ه فاقام امراء دمشق الامير سيف الدين طومان باي وكان من مماليك قايت باي ولقبوهُ بالملك العادل. فوافقهم امراء القاهرة على ذلك. وبعد ثلاثة اشهر اضمر لهُ المماليك مكيدة يقتلونهُ بها فعلم هو بذلك ففرَّ طلبًا النجاة فأوى الى مكان ظنَّهُ ملجأ حصينًا مكث فيهِ اربعين يومًا ثم اكتشف عليهِ المماليك وقتلوهُ في ذي القعدة سنة ٩٠٦ ه ثم اجتمع المماليك والاعيان وارباب الدولة وتداولوا فيمن يجب ان يختاروا ليحكم فيهم من اهل اللياقة فاقروا على الامير قنسو الرابع الملقب بالغوري وكان هو ايضًا من مماليك قايت باي وكان رجلاً نقيًّا مخلصًا محترمًا من الناس عفيفًا غير عالم بما كان يتخاصم عليهِ الامراء وما كانوا يدسُّونهُ من الدسائس. فلما بلغهُ امر مبايعتهِ انذهل ورفض قائلاً للذين انتخبوهُ «اني لا اخالف لكم امرًا انما اراني غير لائق بهذا المنصب لاني لم اعتد معاناة الاحكام والامر والنهي» فاجابوهُ ان صدق نيتهِ واخلاصهُ وثقة الناس فيهِ كافية لاستحقاقهِ هذا المنصب. فلم يرَ بدًّا من القبول لكنهُ قال لهم «اكون في غاية السرور اذا جئتموني

يومًا تنبئوني بالاقالة من هذا المنصب فارجع الى ما اعتدتهُ من معيشة السكينة » فولوهُ في غرة شوال من تلك السنة ولقبوهُ بالملك الاشرف ايضًا

سلطنة قنسو الغوري

من سنة ٩٠٦ — ٩٢٢ هـ اومن ١٥٠١ — ١٥١٦ م

فاستلم الغوري مقاليد الاحكام واخلص في الحكم فاطمأنت البلاد وسكن حالها فاخذ في اصلاح شأنها فابتنى في القاهرة جامعًا ومدرسةً ينسبان اليهِ وهما مدرسة الغورية وجامع الغورية في اول شارع الغورية في السكة الجديدة كلٌّ منهما الى جانب من الطريق . فالى الشرق البناية التي كانت فيها المدرسة ويليها الى الجنوب مدفن فيهِ مقام بعض اعضاء عائلتهِ . والى الغرب الجامع ويظهر للناظر عندما يشرف عليهِ انهُ هائل وهو مبنيٌّ على مثال جامع قايت باي وعلى القبلة كتابة كوفية . وقد رمم بمساعي جمعية حفظ الآثار والى الشمال سبيل جميل . ثم كانت الحوادث السياسية فتوقف الغوري عن اتمام ما كان بقصدهِ من البناء والتحسين فان البرتغاليين لما استولوا على بعض بلاد الهند أثقلوا على العلاقات التجارية بينها وبين مصر فجهز قنسو الغوري الى محاربتهم حملة عظيمة ذهبت غنيمة باردة لجيوش الافرنج في البحر الاحمر

وفي سنة ٩١٨ هـ جاء كركود اخو السلطان سليم بن بيازيد (سليم الاول) الى مصر ملتجأ اليها بعد ان تخاصم مع اخيهِ على الملك كما حصل بجم وبيازيد المتقدم ذكرهما . فترحب بهِ قنسو الغوري ترحابًا عظيمًا وجهزهُ بعشرين بارجة بحرية لافتتاح القسطنطينية فذهبت هذه العمارة ايضًا غنيمة لمراكب اورشليم في البحر المتوسط ولم تكن النتيجة الّا اثارة غضب السلطان سليم على مصر فجهز اليها وابتدأ بافتتاح الحدود السورية

وارسل الى مصر رسائل التهديد . فاتحد الغوري مع ملك الفرس اسماعيل شاه على قهر العثمانيين وكان الفرس في حرب معهم الاَّ ان الجيوش العثمانية لم تبالِ بكثرة العدد فشتتت الجيشين واي تشتيت . فعمد قنسو الغوري الى مخابرة العثمانيين بامر الصلح على اي وجه كان وبعث الى السلطان سليم بذلك فسارت الرسل حتى اتوا السلطان سليم فخرّوا سجّدًا وخاطبوهُ بامر الصلح فقال لهم وقد استشاط غيظًا « لقد فات الاوان انهضوا وارجعوا الى سلطانكم وقولوا لهُ ان الرجلَ لا تعثر بحجر واحد اكثر من مرة واحدة . وها انا ذاهب الى القاهرة فليستعد للدفاع ان كان لهُ اهلاً » فعادوا واخبروا بما كان فجمع اليهِ رجالهُ وسار لملاقاة الجيوش العثمانية فالتقى بها في مرج دابق قرب حلب فانتشبت الحرب هناك واظهر الغوري بسالة واقدامًا عظيمين حتى اوشكت رجالهُ من الاستظهار فمنعتها مدافع العثمانيين من ذلك ولم يكن سلاح المصريين الاَّ الرماح والحراب والسيوف فتشوَّش نظامهم ووقع الرعب في قلوبهم وانحاز قائدا جناحيهم الى العثمانيين وكان الغوري قائدًا لقلب الجيش فاضطر الى الفرار فحوَّل شكيمة جوادهِ فسقط عنهُ لشدة الازدحام وذهب قتيلاً تحت ارجل الخيل في ٢٥ رجب سنة ٩٢٢هـ بعد ان حكم مدة ١٥ سنة وتسعة اشهر و٢٥ يومًا

سلطنة الملك الاشرف طومان باي

من سنة ٩٢٢ ـ ٩٢٣ هـ او من ١٥١٦ ـ ١٥١٧

وكان السلطان قنسو الغوري قبل مبارحتهِ القاهرة هذه المرة قد استخلف عليها ابن اخيهِ طومان باي (الثاني) فلما اتصل خبر تلك الموقعة بالامراء بايعوا طومان باي ولقبوهُ ايضًا بالملك الاشرف وكان حازمًا باسلاً . فلما وصلت بقية الجيوش المنهزمة الى القاهرة امر باعداد حملة

اخرى لمحاربة العثمانيين . وكان العثمانيون في سوريا قد توقفوا للاستراحة فظن طومان باي ان الرمال المتراكمة بين سوريا ومصر تحول بين العثمانيين وما يريدون . الَّا ان الامر لم يكن كما ظن لانهُ لم يكد يتمّ اعداداتهِ حتى اتاه كتاب السلطان سليم الى القاهرة ونصهُ

« من السلطان سليم خان ابن السلطان بايزيد خان سلطان البرين وخاقان البحرين السلطان الخ . الى طومان باي التركسي

الحمد لله . اما بعد فقد تمَّت ارادتنا الشاهانية وباد اسماعيل شاه الهرطوقي . اما قنسو الكافر الذي حملتهُ الخفة على مساواة المحاج فقد نال جزاءهُ منَّا ولم يعد لدينا الآن تتخلص منك فانك جارٌ معادٍ والله سبحانهُ وتعالى يساعدنا على معاقبتك فاذا اردت اكتساب رحمتنا الملوكانية اخطب لنا واضرب النقود باسمنا وتعالَ الى اعتابنا واقسم على طاعتنا والاخلاص لنا والَّا . . . . . »

فلمَّا قرأ طومان باي الكتاب وما في ذيلهِ من التهديد المستتر استشاط غيظًا واصرَّ على المقاتلة وكان عالمًا بعجزهِ لكنهُ فضل الموت في ساحة الحرب على التسليم . فزاد في حصون دمياط وغيرها من الحدود السورية وجمع كل ما امكنهُ جمعهُ من الرجال وسار لملاقاة العثمانيين حتى اتى الصالحية فعسكر هناك . اما السلطان سليم فسار من مرج دابق وافتتح غزة والعريش والقطيعة . ثم علم بمقرّ الجيوش المصرية في الصالحية وما هم فيهِ من العزم على المدافعة لشدة اليأس فعرج بجيشهِ تاركًا الصالحية عن يمينهِ وسار حتى اتى الخانكاه على بضع ساعات من القاهرة . فلما بلغ طومان باي تقدم العثمانيين الى هذا القدر عاد بجيشهِ لمهاجمتهم من الوراء فالتقى الجيشان في سهل قرب بركة الحج يوم الجمعة في ٢٩ ذي الحجة سنة ٩٢٢ ﻫ واقتتلا طويلًا والمصريون يحاربون ببسالة شديدة لكنهم لم يكونوا يعرفون البارود ولا المدافع كما قدمنا فكانت الغلبة للعثمانيين ففرَّ المصريون

الى القاهرة وعسكر العثمانيون في الروضة . فجمع اليهِ طومان باي عددًا كبيرًا من العربان بعد ان ارضاهم بالمال وهجم على معسكر السلطان سليم هجمة اليأس فلم ينل هذه المرة غير ما نال في المرات الماضية فعاد الى القاهرة على نية الحصار فزاد في حصونها واستحكاماتها وحصن القلعة تحصينًا عظيمًا واقام في كل شارع وفي كل بيت طابية وحمّل السلاح كل من يستطيع حملهُ للمدافعة عن الوطن . ولكن رغمًا عن كل هذه الاعدادات وعما اظهرهُ طومان باي من البسالة والاقدام وما سعى اليهِ امراؤهُ لم تنجُ القاهرة من يد العثمانيين فانهم دخلوها عنوةً وامعنوا فيها قتلاً ونهبًا وحرقًا واستلموا القلعة . اما طومان باي فتمكن من الفرار على معدية قطع بها الى الجيزة ثم سار منها قاصدًا الاسكندرية فقبض عليهِ بعض العربان الرحّل وباعوهُ للعثمانيين . فاستحضرهُ السلطان سليم مغلولاً ونظر اليهِ فاذا هو في حالة الكدر وقد علا وجههُ القنوط لما حلَّ ببلادهِ من الذل والدمار فتحركت عواطف السلطان سليم فامر بان تحلَّ قيودهُ وأن يؤذن لهُ بالحضور في مؤتمرات كان يعقدها السلطان سليم لاجل المداولة في امر البلاد فكان يسالهُ مسائل كثيرة تتعلق بمحصولات البلاد وخراجها وادارتها وبقي الحال كذلك نحو عشرة ايام وفي اليوم العاشر رأى السلطان سليم انهُ لم يعد في احتياج الى مشورة طومان باي فامر بشنقهِ وذلك في ١٩ ربيع اول سنة ٩٢٣ هـ فعلّقوهُ تحت رواق باب زويلة بكلاّب من حديد كان باقيًا هناك الى عهد قريب

وبقتل طومان باي انتهت دولة المماليك الشراكسة او البرجية بعد ان تسلطوا نحو ١٣٩ سنة ومن ذلك الحين اصبحت مصر احدى الايالات العثمانية الكبيرة . وبقيت جثة طومان باي ثمانية ايام معلقة ليراها الناس

الدولة العثمانية

من سنة ٩٢٢ ــ ١٢٠٣ ﻫ او من ١٥١٧ ــ ١٧٨٩ م

وقد كانت دولة المماليك الثانية التي بادت بقتل طومان باي اكثر عربدة واقل اشتهارًا بالاعمال الحربية من الاولى لكنها ذهبت شهيدة الشرف بالمدافعة عن بلادها ورعاياها كالايوبيين . اما مصر فاستعاضت بدولة آل عثمان الذين لم يبخسوها حقها ولم يألوا جهدًا في اعادة الامن اليها والتعويض عما خسرته من المال والرجال

سلطنة سليم بن بيازيد

من سنة ٩٢٢ ــ ٩٢٦ ﻫ او من ١٥١٧ ــ ١٥٢٠ م

وامر السلطان سليم بدفن طومان باي قرب قبر قنسو الغوري وبعد دفنهِ بثلاثة ايام دخل السلطان سليم عاصمة الديار المصرية ظافرًا في غاية ربيع اول سنة ٩٢٢ ﻫ . وبعد يسير نزل الى الاسكندرية في فرقة من جيوشهِ لوضع الحماية عليها . ثم عاد الى القاهرة ومكث فيها الى ٢٠ شعبان من تلك السنة فبارحها قاصدًا الروملي . ويقال انهُ نقل معهُ الف جمل محملة ذهبًا وفضةً فضلًا عن اسلاب اخرى وهدايا قدمت لهُ . وقبل مبارحتهِ اياها جعل فيها حكومة منظمة فاصبحت مصر ايالة عثمانية سياسيًا ودينيًا

وكان فيها من الخلفاء العباسيين اذ ذاك محمد المتوكل على الله (الثالث) الخليفة الثامن عشر من الدولة العباسية الثانية . وكيفية توصل الخلافة اليهِ ان الامام المستنجد بالله الخليفة الخامس عشر الذي تولى الخلافة في

ايام ينال سنة ٨٥٩ ه كما تقدم توفي في ٢٤ محرم سنة ٨٨٤ ه بعد ان
تولّاها ٢٥ سنة ووُلي مكانهُ الخليفة عبد العزيز بن يعقوب حفيد الخليفة
العاشر المتوكل على الله ولقب بلقب جدهِ . ثم توفي يوم الجمعة في ٢
صفر سنة ٩٠٢ ه فخلفهُ الخليفة ابو صابر يعقوب الملقب بالمستمسك
بالله ثم خلف هذا نحو الفتوح العثماني الخليفة محمد المتوكل على الله المتقدم
ذكرهُ . فلما فتح العثمانيون مصر رأى السلطان سليم[1] الفاتح ان نصرهُ لا يؤيَّد
الّا اذا قبض على الازمة الدينية . فاستخرجها من ايدي الخلفاء العباسيين
فصارت الخلافة الاسلامية الى العثمانيين واول خلفائهم السلطان سليم .
واما الخليفة العباسي فقيدَ الى الاستانة وخصّص لهُ راتبٌ معين لنفقاتهِ
وقبل وفاة السلطان سليم بيسير عاد المتوكل الى مصر وعاش فيها منفردًا
الى ان توفاهُ الله سنة ٩٤٥ ه وهو آخر الخلفاء العباسيين

واخذ السلطان سليم في تأييد سلطتهِ في مصر ليأمن من تمردها
وتلاعب ذوي الاغراض فيها وكان قد جعل عليها حاكمًا بلقب بالباشا
اليهِ مرجع الحل والعقد . وكان من جملة الذين انحازوا الى العثمانيين في
وقعة مرج دابق امير يقال لهُ خير بك وكان من كبار رجال قنسو . فلما
فتح الله على العثمانيين ولّاهُ السلطان سليم على مصر بلقب باشا . ثم خشي ان
تفرد هذا الحاكم بالامر مع بُعد مصر عن الاستانة ربما يكونان داعيًا لعصيانهِ
فعمل الفكرة فيما يكفيهِ مؤنة هذا الخطر فاهتدى الى طريقة تضمن
لهُ ذلك . وهي ان يجعل في مصر ثلاث ادارات كل منها تراقب اعمال
الاخريين فلا يخشى من اتحادها وتمردها . فالقوة الاولى « الباشا » واهمّ
واجباتهِ ابلاغ الاوامر السلطانية لرجال الحكومة وللشعب ومراقبة تنفيذها
والقوة الثانية « الوجاقات » فانهُ اقام في القاهرة وفي المراكز الرئيسية
من القطر ستة آلاف فارس وستة آلاف ماش بالبنادق جعلها ستة وجاقات
« فرق » تحت قيادة واوامر خير الدين احد قواد العثمانيين العظماء وامرهُ

ان يقيم في القلعة ولا يخرج منها لاي سبب كان وواجبات هذه الوجاقات حفظ النظام في القطر المصري والدفاع عنهُ وجباية الخراج . وقد رتّبها على الوجه الآتي

(١) وجاق المتفرقة . وهو مؤلف من نخبة الحرس السلطاني

(٢) وجاق الجاويشية . وهو مؤلف في الاصل من صف ضابطان جيش السلطان سليم فعهد اليهم جباية الخراج

(٣) وجاق الهجانة

(٤) وجاق التفقجية . وهم ناقلو البنادق

(٥) وجاق الانكشارية . وهم اخلاط من نخبة القبائل الخاضعة للدولة العثمانية وكانوا يعرفون ايضًا بالمستحفظين لاناطة محافظة البلاد بهم

(٦) وجاق العزب

وكان كل من هذه الوجاقات مؤلفًا من افراد يقال لهم «وجاقلية» واحدهم « وجاقلي » على كل وجاق منها ضابط يلقب بالآغا بصحبة الكخيا والباش اختيار والدفتردار والخزندار والروزنامجي . ومن اجتماع هؤلاء الضباط من سائر الوجاقات يتألف مجلس شورى الباشا فلا يقضي امرًا الاَّ بمصادقتهم . امّا هم فلهم ان يوقفوه عن الاجراء وان يستأنفوا الى ديوان الاستانة عند الاقتضاء . ولهم ايضًا ان يطلبوا عزلهُ حالما يشتبهون بمقاصده

اما القوة الثالثة فالمماليك . وهم بقايا الدولتين السالفتين والفائدة منهم حفظ الموازنة بين الباشا والوجاقات لانهم في الاصل اعداء لكلا الفريقين ومن غرضهم الانتصار للفريق الاضعف ليمنعوا القوي من الاستبداد . وقد كان القطر المصري منقسمًا الى ١٢ « سنجقلية » (مديرية) يحكم كلاًّ منها حاكمٌ يقال لهُ «سنجق» او «بك» يعيّنهُ الديوان (وهو مجلس شورى الباشا) من امراء المماليك . ولا غرو ان نقاطع المصالح على هذه الصورة واختلاطها

مع تعداد الآمرين مما يقود الى القلاقل والمتاعب اما الدولة العثمانية فقد اجتنت راحة من هذا التعب لانها كانت على ثقة من استبقاء الديار المصرية في حوزتها

وبقي خير بك باشا واليًا على مصر الى ان داركتهُ الوفاة بمرض جلدي سنة ٩٢٨ ﻫ ودفن في المدرسة التي تدعى الخيربكية التي كان قد بناها في القاهرة في شارع درب الوزير تحت القلعة . وبعد وفاتهِ لهجت الالسنة بذمّهِ لعظم استبدادهِ فكانوا يقولون انهُ كان ينهض من لحدهِ ليلًا ويستغفر الله على ما اتاهُ من الشرور في حياتهِ . ومن آثارهِ في القاهرة جامع يعرف بجامع خير بك في درب الوزير

سلطنة سليمان بن سليم

من سنة ٩٢٦ ـ ٩٧٤ ﻫ او من ١٥٢٠ ـ ١٥٦٦ م

وقبل وفاة خير بك باشا بسنتين توفي السلطان سليم وخلفهُ ابنهُ السلطان سليمان سنة ٩٢٦ ﻫ وسنهُ ٢٦ سنة فمكث على كرسي الخلافة نحوًا من نصف قرن وقد اكثر من اهتمامهِ بمصر وتنظيمها . وكان ابوهُ قبل وفاتهِ قد رسم الخطة التي يجب ان تسير عليها مصر في حكومتها وادارتها لكنهُ توفي قبل ان يبرزها الى حيز الفعل فلما تولّى السلطان سليمان جعل اهتمامهُ اتمام مشروع ابيهِ

وكان من رأي السلطان سليم ان ينشئ ديوانًا تحت رئاسة الباشا حفظًا للموازنة . اما السلطان سليمان فاتمّ الموازنة بانشاء ديوانين عُرفا بالديوان الكبير والديوان الصغير «او الديوان فقط» واناط رئاستهما بالباشا الذي عليهِ ان يجلس عند انعقاد الجلسة وراء ستار المنبر . وعلى الكخيا والدفتردار استئذانهُ قبل المفاوضة ومتى اقرّ الديوان على امر ابلغاهُ

ذلك القرار وليس له الاّ المصادقة والامر بالتنفيذ . وجعل اقامة هذا الباشا بالقلعة تحت ملاحظة الآغا الذي هو قومندانها وبجدد تعيين الباشا في كل سنة

اما واجبات الديوان الكبير فهي المفاوضة والاقرار على ما يتعلق بالاشغال العمومية التي لا تتعلق ادارتها بالباب العالي نفسهِ . اما اعضاء هذا الديوان فهم اغوات الوجاقات السنة ودفتردار بوها وروزنامجيُّوها . ونوابٌ من جميع فرق الجيوش وامير الحج والقاضي الاكبر واعيان المشايخ والاشراف والمفتيون الاربعة والائمة الاربعة والعلماء . اما المخاطبات التي ترد الى هذا الديوان فتعنون باسم الديوان الكبير لكنها تسلَّم للباشا ولهُ وحدهُ الحق ان يامر بعقد جلساتهِ التي لم تكن كثيرة . اما جلسات الديوان الاصغر فكانت تنعقد يوميًّا في قصرهِ واعضاء هذا الديوان هم كخيا الباشا ودفتردارهُ وروزنامجيُّهُ ونائبٌ من كل من الوجاقات والآغا وكبار ضباط وجاق المتفرقة . ومن واجبات هذا الديوان النظر في الحوادث اليومية ومن اختصاصاتهِ البحث في الادارات الثانوية

وانشأَ السلطان سليمان فضلاً عن الستة وجاقات التي كان قد انشأَها ابوهُ وجاقًا سابعًا دعاه وجاق الشراكسة وهم بقية دولة المماليك . ومن هذه الوجاقات السبعة تتأَلف حكومة مصر وحاميتها . اما نفقاتها فمن مخصَّصات يتولّى ضبطها وتفريقها « افنديٌّ » من كل وجاق . وجعل لكل وجاق مجلسًا مولفًا من ضباط ذلك الوجاق وبعض صف ضابطانهِ لمحاسبة الافندية والنظر في الدعاوي الخصوصية وعرض الترقيات للباشا للمصادقة عليها ومقامهم في القاهرة ولكل منهم لباس خاص برتبتهِ وعليهِ علامانهُ . ومجموع رجال الوجاقات معًا عشرون الفًا وقد يزيد او ينقص حسب الاقتضاء . اما مقرُّهم ففي القاهرة على انهم كثيرًا ما كانوا يخرجون منها لمهمَّات في المديريات . وكان لوجاق الانكشارية امتيازات على سائر الوجاقات

وكان قائدهُ (الآغا) مفضلاً على سائر القواد ولهُ نفوذ عليهم

وجعل السلطان سليمان للبكوات المماليك الذين اقامهم السلطان سليم امتيازات خصوصية وحقًّا بالارتقاء الى رتبة الباشوية . واضاف اليهم ١٢ بيكًا آخرين لمأموريات فوق العادة . وهاك اسماء الموظفين الذين ينتخبون من البكوات المماليك وهم الكخيا او نائب الباشا والقبابطين الثلاثة وهم قومندانات ثغور السويس ودمياط والاسكندرية ويسمى واحدهم قبطان بك والدفتردار واميرالحج واميرالخزنة وحكمداريو او مديريو المديريات الخمس الآتي ذكرها وهي جرجا والبحيرة والمنوفية والغربية والشرقية . ولم يكن لغير الكخيا والدفتردار واميرالحج الحق في دخول الديوان فالدفتردار كان عليهِ ضبط الحسابات وحفظ الدفاتر والسجلات ولا ينفذ امرٌ ببيع عقار الَّا بعد توقيعهِ عليهِ اشارةً الى تسجيلهِ في دفاترهِ . واميرالحج يحمل الهدايا والصدقات التي كانت ترسل من السلطان سنويًّا الى مكة او المدينة وعليهِ حماية قافلة الحج ذهابًا وايابًا . واما امير الخزنة فيحمل القسم المختص بالقسطنطينية من حاصلات مصر برًّا وعليهِ حمايتهُ

وكانت مديريات القليوبية والمنصورة والجيزة والفيوم في عهدة كشاف لا فرق بينهم وبين البكوات في النفوذ . ولا يعمل باقرار احدهم الَّا بعد مصادقة الشربجية وغيرهم من الوجاقليين الذين يتألف منهم ديوان خاص في كل مديرية

ثم ان تعيين كخيا الباشا وقبابطين السويس ودمياط والاسكندرية متعلق رأسًا بجلالة السلطان فيُرسلون من الاستانة ويستدعون اليها في آخر كل سنة . اما البكوات الآخرين فيعينهم الديوان ويوليهم الباشا ويثبتهم الباب العالي ومراكزهم ثابتة الَّا ان واجباتهم تتغير الَّا الدفتردار . وقد يُنتخب البكوات من وجاق المتفرقة ومتى انتخبوا لا يعودون تابعين لذلك الوجاق . وكان من همّ الباب العالي الانتباه الى السويس ودمياط

والاسكندرية على الخصوص لانها الابواب التي يُدخل منها الى مصر فكان يرسل حاميتها رأساً من الاستانة تحت قيادة القبابطين ويجددها كل سنة وهولاء القبابطين لم يكونوا يحسبون من جيوش مصر الا باعتبار اقامتهم فيها وبما ينالونهُ من الامدادات المالية لنفقاتهم . اما فيما خلا ذلك فكانوا يحسبون اجانب في اعتبار الباشا وديوان مصر ولم يكونوا تحت اوامر البلاد في شيء فاوامرهم كانت ترد اليهم رأساً من ديوان الاستانة

هذا من قبيل الادارة . اما من قبيل محصولات البلاد فان السلطان سليمان صرَّح بانهُ المالك الحرُّ لجميع ارض مصر فكانت لهُ ملكاً وكان يفرقها اقطاعات على مزارعين كان يدعوهم «الملتزمين» . على انهُ لم يكن لهُ ان يمنع اقطاعها او يوقفهُ فلم يكن بالحقيقة فرق بين هذه الاقطاعات والملك الحقيقي . والفلاحون الذين كانوا يحرثون تلك الاراضي كانوا يتمتعون بنصيبهم منها ويورثونها لاعقابهم ولكنهم كانوا مجبورين على العمل فيها بدون حق التصرف بها وعليهم خراج لا مناص من دفعهِ للملتزمين فاذا توفي فلاَّح عن غير وريث تعطى ارضهُ للملتزم وهو يعهد حراثتها الى من يشاء واذا مات الملتزم عن غير وريث تعود الارض للسلطان . وكان على كل من الملتزمين والفلاَّحين خراجٌ يدفعونهُ اما نقداً واما عيناً فاذا تأخر الفلاح عن الدفع يمنع من نوال نصيبهِ واذا تأخر الملتزم تؤخذ الارض منهُ . ونظراً لاتساع ارض مصر لم يكن ممكناً حصر املاك كلٍّ من الملتزمين فلم يكن ممكناً تعيين مقدار خراجها فارسل السلطان سليمان مساحين مسحوا الاراضي المصرية فقسموا المديريات الى اقسام دعوها بالقراريط ومسحوا كلاًّ منها على حدة وحددوهُ

كل هذه النظامات الادارية والمالية اجراها السلطان سليمان بالتتابع بواسطة الباشوات الذين اقامهم على مصر مدة حكمهِ وعددهم ١٤ . اولهم مصطفى باشا تولَّى بعد وفاة خيربك باشا في ذي الحجة سنة ٩٢٦ هـ وبعد

تسعة اشهر و٢٥ يوماً ابدل باحمد باشا وكان عدوًّا للصدر الاعظم ابراهيم باشا فاسرّ الصدر سنة ٩٣٠ هـ الى امراء القاهرة ان يقتلوهُ فعلم هو بذلك فقبض على التحارير قبل ان تصل الى اصحابها ثم استدعاهم واعلنهم انها اوامر واردة من جلالة السلطان بقتلهم ولم يطلعهم عليها فابوا الاذعان الّا ان إباءهم لم يمنع قتلهم . ولما تأكد انهُ صار في مأمن من المقاومين صرّح باستقلالهِ وامر ان يخطب لهُ وان تضرب النقود باسمهِ وبالغ بالعسف والفجور فاختلس ممتلكات البعض وحبس البعض فثارت الافكار عليهِ حتى اصبحت حياتهُ في خطر . وبينما كان ذات يوم في الحمام فاجأهُ اميران من امرائهِ كان قد امر بسجنهما وهما جهم الحمزاوي ومحمود بك فكسرا باب السجن وخرجا رافعين العلم الشاهاني يستنصران الناس حتى اتيا الحمام فعلم الباشا بذلك ففرّ من السطح والتجأ الى احد مشائخ عربان الشرقية واسمهُ ابن بقر فتعقَّبهُ اعداؤُهُ حتى ادركوهُ وقطعوا رأسهُ وعلقوهُ على باب زويلة ثم نقل الى الاستانة سنة ٩٣١ هـ . فارسل السلطان عوضاً عنهُ قاسم باشا مصماً على تقصير مدة هولاء الولاة لئلّا يثور في خواطرهم حب الاستقلال فبعد تسعة اشهر و١٤ يوماً استبدلهُ بابراهيم باشا وكان نشيطاً محبًّا للاصلاح والنظام الّا ان قصر مدتهِ لم تمكنهُ من اتمام ما كان شارعاً فيهِ من تنظيم الضابطة فعزل واقيم بدلًا منهُ سليمان باشا سنة ٩٣٢هـ . وكان السلطان راضياً عن هذا الباشا واثقاً فيهِ فابقاهُ في الحكم مدة تسع سنوات و١١ شهراً وفي سنة ٩٤١هـ استقدمهُ الى الاستانة ليسلمهُ قيادة حملة اعدَّها لمحاربة الفرس والهند . وقد اقام في مدة حكمهِ بنايات كثيرة من جملتها جامع سارية او شارية في القلعة . وناب عنهُ في مدة غيابهِ خسرو باشا نحو سنة وعشرة اشهر فعاد سليمان باشا الى مصر وبقي عليها بعد ذلك نحو سنة وخمسة اشهر

وفي سنة ٩٤٥ هـ عهدت باشوية مصر الى داود باشا فبقي عليها ١١ سنة و٨ اشهر وكان رجلًا مستقيماً كريم الاخلاق محبًّا للعلماء آخذاً بناصرهم

كلفًا بالمطالعة وعلى نوع خاص مطالعة المؤلفات العربية فجمع منها عددًا وافرًا واستنسخ كل ما ظفر بهِ من الكتب غير المطبوعة فجمع مكتبة جميلة جدًا . وكانت الاهالي في مدة حكمهِ في بحبوحة السعادة والامن وتوفي في القاهرة سنة ٩٥٦ ﻫ فتولّى مكانهُ علي باشا وهذا رمم وبنى عدة بنايات عمومية في القاهرة وفي فوه ورشيد واقتدى بهِ غيرهُ من بكوات مصر فجعلوا يشيدون الجوامع منها الجامع الذي ابتناه عيسى بك في دبروط . وكان علي باشا محبوبًا مكرمًا من المصريين يعتبرونهُ بمنزلة الاب اكنهُ رغمًا عن ذلك لم يحكم الّا اربع سنوات وستة اشهر . ففي سنة ٩٦١ ﻫ تولى باشوية مصر محمد باشا وكان مبغوضًا من الناس فلم يحكم الّا ثلاث سنوات ولما زاد التشكي منهُ عزل واستقدم الى الاستانة للمحاكمة فحكم عليهِ بالقتل سنة ٩٦٢ ﻫ

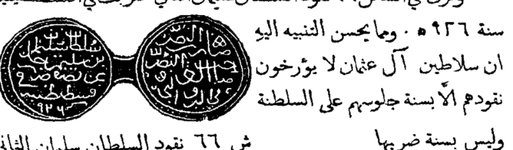
وبعد محمد باشا تولّى اسكندر باشا فحكم ٣ سنوات و ٣ اشهر ونصف وفي سنة ٩٦٨ ﻫ تولّى علي باشا الخادم . وبعد ١٧ شهرًا تولّى مكانهُ مصطفى باشا (الثاني) في سنة ٩٦٩ ﻫ ثم في سنة ٩٧١ ﻫ تولاها علي باشا الصوفي مدة سنتين و ٣ اشهر . وكان علي الصوفي قبلًا حاكمًا في بغداد مشهورًا فيها باعوجاج الاحكام والخيانة فلما تولّى مصر كثرت فيها السرقات والتعديات حتى غصّت ضواحي القاهرة باللصوص واخترقت فئة منهم المدينة حتى الجامع الابيض فاضطرت الحكومة ان تقيم سورًا من قنطرة الحاجب الى هذا الجامع منعًا لمثل ذلك

وفي شوال سنة ٩٧٣ ﻫ استبدل علي باشا الصوفي بمحمود باشا وهو آخر من تولى مصر في ايام السلطان سليمان فجاء من الاستانة بموكب عظيم فأُهدي اليهِ اثناء مروره من الاسكندرية الى القاهرة هدايا عظيمة . فلما وصل القاهرة لاقاهُ الامير محمد بن عمر متولي الصعيد على قارب فيهِ جميع انواع الهدايا وخمسون الف دينار فأخذ الباشا الهدايا منهُ وامر بخنقهِ حال خروجهِ من مجلسهِ وامر ايضًا بخنق القاضي يوسف العبادي لانهُ

لم يأتِ لملاقاته ولم يهدِه شيئاً واستمر على هذا الاستبداد حتى قتل معظم اعيان القاهرة فكان لا يمرّ الاّ مصحوباً بالشوباصي (رئيس الجلادين) فاذا مرّ باحدٍ واراد قتله اشار بيده الى بالشوباصي فيعمد حالاً الى ذلك السيّئ الطالع فيعدمه الحياة باسرع من لح البصر

وفي ٣ رجب سنة ٩٧٤ ه توفي الامير ابراهيم الدفتردار وكان اميراً للحج فاستولى محمود باشا على كل ما ترك من المال والمماليك والجواري وجملة ذلك مائة الف دينار ضمها الى المال الذي يرسل الى الاستانة سنوياً وبعث معها هدايا ثمينة للسلطان ووزرائه استجلاباً لخاطرهم لكنه لم ينتفع من ذلك قبل ان قتل في يوم الاربعاء غاية جمادى الاولى سنة ٩٧٥ ه بينما كان ماراً في موكبه الاعتيادي بين البساتين ولم تقف الحكومة على القاتل فاتهمت اثنين من الفلاحين وقتلتهما ظلماً لانهما وجدا بقرب مكان القتل . وكان السلطان سليمان الثاني قد توفي قبل ذلك بسنة (صفر سنة ٩٧٤ ه) وسنّه ٧٤ سنة ومدة حكمه ٤٨ فتولى بعده ابنه سليم شاه (سليم الثاني) في ٩ ربيع اول من تلك السنة

وترى في الشكل ٦٦ نقود السلطان سليمان الثاني ضربت في القسطنطينية سنة ٩٢٦ ه . ومما يحسن التنبيه اليه ان سلاطين آل عثمان لا يؤرخون نقودهم الاّ بسنة جلوسهم على السلطنة وليس بسنة ضربها



ش ٦٦ نقود السلطان سليمان الثاني

سلطنة سليم بن سليمان

من سنة ٩٧٤ ــ ٩٨٢ ه او من ١٥٦٦ ــ ١٥٧٤ م

فلما بلغ السلطان سليم شاه موت محمود باشا امر بنقل سنان باشا

من باشوية حلب الى باشوية مصر وبعد وصولهِ اليها بتسعة اشهر انفذهُ لمحاربة اليمن فسار سنان من مصر في ٤ شوال سنة ٩٧٦ ه مصحوبًا بحمزة بك ومماي بك وغيرهما من امراء مصر واستخلف على مصر اسكندر باشا الشركسي ومكث سنان باشا في تلك الحملة سنتين و ٤ اشهر ففتح اليمن وعاد ظافرًا الى مصر فرأى الاحوال هادئة والنظام مستتبًا بدراية اسكندر باشا المذكور لانهُ كان حكيمًا محبًّا للرعية فرفع الضرائب عن الفقراء والعاجزين والقسم الاعظم من طلبة العلم لانهُ كان شديد التعلق بالعلم وذويهِ فلما عاد سينان باشا الى مصر (اول صفر سنة ٩٧٩ ه) عادت احكامها الى يدهِ فاهتم بتأبيد النظام وحفظ رونق البلاد فاعاد حفر ترعة الاسكندرية ورمّم وبنى فيها جامعًا وشارعًا وعدَّة حمامات . وبنى في بولاق بمصر شارعًا ووكالات وجامعًا لا يزال معروفًا باسمهِ . وما زال على مصر الى ذي الحجة سنة ٩٨٠ ه فخلفهُ حسين باشا وكان على جانب من اللطف والدعة وحب العلم والادب ولا يعاب الاَّ لكثرة حلمهِ الامر الذي آل الى تكاثر اللصوص في ايامهِ ولم يحكم الاَّ سنة وتسعة اشهر . وفي ايامهِ توفي السلطان سليم شاه (سليم الثاني) في ٢٨ شعبان سنة ٩٨٢ ه بعد ان حكم ثماني سنين وخمسة اشهر و ١٩ يومًا

وترى في الشكل ٦٧ صورة نقود السلطان سليم الثاني مضروبة في حلب بتاريخ سنة ٩٧٤ ه

ش ٦٧ نقود السلطان سليم الثاني

سلطنة مراد بن سليم

من سنة ٩٨٢ــ ١٠٠٣ هـ او من ١٥٧٤ ــ ١٥٩٤ م

وفي ١٠ رمضان بويع ابنهُ مراد خان (مراد الثالث) وحال جلوسهِ على كرسي السلطنة ولّي على مصر بدلاً من حسين باشا مسيح باشا وكان خزندارًا عند السلطان سليم الثاني فحكم في مصر خمس سنوات وخمسة اشهر ونصف ووجّه اهتمامهُ خصوصًا الى ابطال السرقات والتعديات فكان يقبض على اللصوص ويقتلهم بدون شفقة حتى بلغ عدد من قتل من اللصوص عشرة آلاف فارتاحت البلاد من شرورهم . ثم عكف على اصلاح شؤون الرعية وكان نزيهًا لا يقبل الرشوة ولا الهدية . ومن آثاره مسجد عظيم في ضواحي القرافة لا يزال يعرف باسمهِ . وقد بناهُ على اسم الشيخ نور الدين القرافي وجعلهُ لهُ ولنسلهِ ملكًا حرًّا وخصص دخلاً معلومًا للنفقة عليهِ . وامر مسيح باشا ان تستهل الاوامر والكتابات الرسمية والاحكام بهذه العبارة « الحمد لله والصلاة والسلام على نبينا وآلهِ وصحبهِ ان المؤمنين اخوة فاحفظوا السلام بين اخوتكم واتقوا الله »

وفي سنة ٩٨٨ هـ وُلّي مصر حسن باشا الخادم خزندار السلطان مراد الثالث فلم يكن همّهُ الّا جمع الاموال باي وسيلة كانت واعادة ما كان حظرهُ سابقهُ من الرشوة والهدايا . فبقي على ولاية مصر سنتين وعشرة اشهر ولما عزل عنها سار من القاهرة خفية وطلع من باب المقابر لئلاّ ينتقم منهُ الاهالي . وفي سنة ٩٩١ هـ ولّي مكانهُ ابراهيم باشا فاخذ يستطلع ويتحرى ما اتاهُ سابقهُ من الاختلاس فجعل في جامع السلطان فرج بن برقوق مأمورًا خصوصيًّا لاستماع تشكيات المتظلمين على الوالي السابق من ١٠ رجب من تلك السنة الى غاية رمضان فاطلع على مظالم لا تحصى من

جملتها ١٠٠٤٤٢ اردب قمح من الشون العمومية باعها حسن باشا واستولى على قيمتها فرفع ابراهيم باشا تقريرًا مدققًا بشان ذلك الى السلطان فامر بقتلهِ خنقًا . ثم طاف ابراهيم باشا بنفسهِ يتفقد احوال المديريات ويحقق حالتها وزار ايضًا آبار امرود في الصحراء ورسم بعضها . وفي عودتهِ الى القاهرة استقال من منصبهِ سنة ٩٩٢ ه وتولى مكانهُ سنان باشا الثاني وكان دفتردارًا وبعد سنة اشهر وعشرين يومًا بارح مصر هاربًا وسبب ذلك انهُ ساء التصرف فاشتكاهُ الناس الى الاستانة فجاء عويس باشا الى مصر ليتحرى امر تلك التشكيات فحالما علم سنان بمجيء عويس فرَّ هاربًا

فتولى عويس حكومة مصر سنة ٩٩٤ ه وكان رجلاً صارمًا في الاحكام وكان في اوَّل امرهِ قاضيًا ثم صار دفتردارًا في الروملي ثم نقل الى باشوية مصر كما تقدم وبقي عليها خمس سنوات وخمسة اشهر وعشرة ايام واراد ان يعيد تعليم الجنود فعصوهُ وهجموا عليهِ في الديوان في ٢٨ شوال سنة ٩٩٧ ه واهانوهُ ونهبوا بيتهُ وفي جملة ما نهبوا منهُ ساعة كبيرة تعرف منها الايام . ثم ذبحوا الامير عثمان قائد وجاق الجاويشية واخربوا بيت قاضي العسكر وقتلوا قاضيين من قضاة مصر ثم عمدوا الى الحوانيت فنهبوها كل ذلك والامراء لا يستطيعون منعهم والاضطراب يزداد اشكالاً والثائرون تمرُّدًا وقد حاول الدفتردار ايقافهم عند حدهم فذهب سعيهُ باطلاً . ثم ظن عويس باشا انهُ اذا جاءهم بالحسنى ربما يلينون . فبعث الى القضاة ان لا يخالفوا لهم امرًا فلم يزدهم ذلك الاَّ عنادًا وفجورًا حتى انهم قبضوا على اولاد الباشا رهنًا لما يريدون فاضطر الباشا الى الاذعان لكل ما ارادوهُ واعطاهم كلما طلبوهُ واستقال من تلك الولاية بعد ان ملَّ من خيبة مساعيهِ الحميدة فيها . فتولى مكانهُ حافظ احمد باشا الملقب بالخادم سنة ٩٩٩ ه وكان حاكماً في قبرص وعلى جانب عظيم من حب

في سائر انحاء القطر المصري . ثم اجتمع العصاة الى القاهرة وكان السيد محمد باشا اذ ذاك في منزلهِ في بربة الجيزة فعاد الى القاهرة تحفُّ بهِ السناجق وزمرة من الغفر فلم يبالِ العصاة بذلك بل اطلقوا عليهِ النار ولم يتخلص من ايديهم الاَّ بعد شق الانفس . فسار الى احد منازلهِ فتبعوهُ وحاصروهُ هناك ليلاً ونهارًا والحُّوا عليهِ ان يسلمهم بعضًا من ضباطهِ وفي جملتهم دالي محمد احد كبار الامراء والامير جلاد الشوباصي والامير خضر كاشف المنصورة فطلب اليهم ان يعطوهُ مهلة ثلاثة ايام . فلما جاءهم رسولهُ قالوا لهُ « سيحكم الله بيننا وبين سيدك » وتفرقوا في المدينة فظفروا بقاضي العسكر عبد الرأوف عزب الزادبن فاجبروهُ على القيام بمطاليبهم . اما الباشا فاغتنم فرصة اشتغالهم بذلك الشأن وفرَّ من منزلهِ ودخل القلعة وقفل ابوابها وراءهُ ملتجئًا الى حسن باشا السكراني قائدعموم الجيش وبيري بك امير الحج فحاولا تسكين الثورة فذهب سعيهما عبثًا . ثم علما ان العصاة قتلوا الامير محمد بك والدالي محمد وعلقوا رأسيهما على باب زويلة ونهبوا بيوتهما واثخنوا في الناس قتلاً ونهبًا

وفي ١٧ ذي الحجة سنة١٠٠٦ ه ابدل السيد محمد باشا بخضر باشا فحكم ثلاث سنوات و١٢ يومًا وقد اغضب الاهالي منذ وصولهِ القاهرة لانهُ امر بقطع جميع العطيات التي كانت توزع على العلماء والفقراء من الحنطة ولم يقتصر على الايقاع بهؤلاء الضعفاء فقط بل تجاوزهم الى الضابطة فاحرمهم من زادهم فتجمهروا في ٢٠ رمضان سنة ١٠٠٩ ه وساروا الى قاضي العسكر . ثم اتحدوا جميعًا والقاضي في مقدمتهم وتوجهوا الى الديوان يريدون الانتقام فقتلوا كخيا الباشا وامراء آخرين فخاف الباشا فسلم لهم بكل ما كانوا يطلبون واعاد لهم العطيات كما شاءوا فخمدت الثورة وعادت المياه الى مجاريها . الاَّ ان الباشا لم يلبث هنيهة حتى جاءهُ الامر بالاقالة فاستقال وولي مكانهُ الوزير علي باشا السلحدار وكان شجاعًا محبًا للحرب

العلم وطالبيهِ حاذقًا مدرّبًا في امور الاحكام . وكان رفوقًا بالاهالي ففرق الحسنات على المحتاج الفقراء . وابتنى في بولاق وكالتين وعدة قيسريات وعدة بيوت وخصص ربع دخلها العمل الخير وبقي حاكمًا في مصر ٤ سنوات



ش ٦٨ نقود السلطان مراد بن سليم

وترى في الشكلين ٦٨ و٦٩ صورة نقود السلطان مراد بن سليم مضروبة في القاهرة بتاريخ سنة ٩٨٣ ه



ش ٦٩ نقود السطان مراد بن سليم

سلطنة محمد بن مراد

من سنة ١٠٠٣ ــ ١٠١٢ ه او من ١٥٩٤ ــ ١٦٠٣ م

وفي ١٧ رمضان سنة ١٠٠٣ ه تولى الخلافة في الاستانة السلطان محمد بن مراد (محمد الثالث) عوضًا عن ابيهِ مراد الثالث

فولّى على مصر قورط باشا فلم يبقَ فيها الّا سنة وثمانية ايام وكان محبوبًا من الاهالي نظرًا للطفهِ ودعتهِ وتنشيطهِ لطالبي الادب ومساعدتهِ للفقراء ولكل من يلتجئ اليهِ . وفي شوال سنة ١٠٠٤ ه أُبدل بالسيد محمد باشا وبقي على الحكومة سنتين اتبع اثناءها خطة اسلافهِ في في محبة العلم والادب وتنشيطها فاعاد بناء الجامع الازهر وجعل فيهِ توزيعًا يوميًا من العدس المطبوخ على الطلبة الفقراء ورمم ايضًا المشهد الحسيني . ومع كل ما كان يتوخاه من السعي في حفظ النظام بين الاهالي لم يمكنهُ اكفاءهم شر ثورة عسكرية انتشبت في غرة رجب سنة ١٠٠٦ ه

ولذلك كان يكرم الجند على الخصوص الاَّ انهُ كان سفاكًا للدماء . فتظلم الاهالي من قساوتهِ . ولم يكن يخرج في موكبهِ الى المدينة او ضواحيها الاَّ ويميت على الاقل عشرة اشخاص تحت اقدام جوادهِ فكان الناس يرتعدون خوفًا عند ذكر اسمهِ . ورافق كل ذلك جوع عظيم فكثرت الوفيات وعمَّ الخراب فازداد الرعب حتى امر الباشا ان تدفن الموتى سرًّا اما هو فترك القاهرة فرارًا من تلك الغائلة مستخلفًا عليها بيري بك وبعد يسير توفي هذا فانتخب السناجق الامير عثمان بك ليقوم مقامهُ وبقي هذا حتى عين الباب العالي بدلاً من علي باشا وكان ذلك التغيير بسبب وفاة السلطان محمد الثالث في ١٦ رجب سنة ١٠١٢ هـ . وترى في الشكلين ٧٠ و٧١

ش ٧٠ نقود السلطان محمد بن مراد ضربت في القاهرة



صورة نقود السلطان محمد بن مراد الاولى مضروبة في القاهرة والثانية في دمشق

ش ٧١ نقود السلطان محمد بن مراد مضروبة في دمشق

سلطنة احمد بن محمد

من سنة ١٠١٢ – ١٠٢٦ هـ او من ١٦٠٣ – ١٦١٧ م

فنصَّب ابنهُ احمد بن محمد (احمد الاول) فولَّى على مصر ابراهيم باشا . فحكم فيها مدة قصيرة انتهت بخطب جسيم وذلك انهُ منذ وصولهِ اليها نوى على ابطال طلبات الجند ولما سعى الى انفاذ ما نواهُ زادت الجنود تمردًا وعصيانًا . وفي ٢٩ ربيع آخر سنة ١٠١٢ هـ علموا ان الباشا

خرج من القاهرة في زمرة من رجالهِ وركب في الليل الى بولاق قاصدًا شبرا قرب جسر ابي المنجا . فاجتمعوا في ضواحي القرافة وتحالفوا بالايمان العظيمة على قتلهِ . وفي الصباح التالي جاؤا وعسكروا في بولاق منتظرين عودهُ . ثم قاموا من هناك على نية مهاجمتهِ في قاعة الدولاب وكانوا قد علموا بالتجائهِ اليها . فلما عرف هو ومن معهُ من السناجق بقدوم تلك العصبة تشاوروا فيما بينهم فنصح لهُ السناجق ان يسافر بحرًا قبل ان يصل اليهِ ضيمٌ فلم يصغَ لهم لانهُ تشدد بمن معهُ من الجاويشية والمتفرقة

ثم جاءت الجنود الثائرة واحاطوا بالقلعة ثم بعثوا من بينهم ١٥ شخصًا ليأتوا برأس الباشا فدخل هؤلاء القلعة والسيوف في ايديهم الى ان جاءوا مجلسهُ فانتهرهم قائلاً « ماذا تريدون مني الم تستولوا على مرتباتكم والانعام التي تعطى اعتياديًّا عند اول تولية الحكام عليكم فماذا تطلبون اذًا » فاجابوهُ « لا نطلب منك شيئًا الاَّ رأسك » قالوا هذا وضربهُ احدهم صفعًا على وجههِ وادركهُ الباقون بالطعن مرارًا . ثم عمد احدهم الى رأسهِ فقطعهُ فناداهم الامير محمد بن خسرو منتهرًا وموبخًا على ما جاءوا بهِ من القحة فلم يجيبوهُ الاَّ بما اجابوا ذاك واخذوا راسي الاثنين وعادوا بهما الى ارفاقهما حول القلعة . ثم حملوهما جميعًا وداروا بهما في شوارع المدينة ثم علقوهما على باب زويلة الذي كان قد تعود مثل هذه الاكاليل . وفي ذلك اليوم ولَّوا عليهم عثمان بك فلم يقبل فولوا قاضي العسكر مصطفى افندي . فلما علم ديوان الاستانة بقتل ابراهيم باشا ارسل عوضًا عنهُ الوزير محمد باشا الكورجي الملقب بالخادم . وحال وصولهِ القاهرة وردت الاوامر الصارمة من الباب العالي موجهة الى جميع السناجق بان يستطلعوا اصل الثورة واسبابها ويقبضوا على زعمائها . فاجتمع في الحال السناجق والقسم الاعظم من الجيش في قرا ميدان وكان الباشا في القلعة فبعث يستقدم السناجق اليهِ ليبلغهم هذه الاوامر رسميًا

فرفضوا المثول بين يديهِ فتواسط الامراء ووعدوا السناجق انهم اذا سلّموا القاتلين ينجون هم وينالون العفو العام فقبلوا وسلموا القاتلين الى الباشا فامر بقطع اعناقهم بين يديهِ حالاً واطلق السناجق . فهاب الثائرون وضعف عزمهم ولا سيما لما رأوا من محمد باشا الانتباه الكلي لحفظ النظام ومعاقبة المعتدين المعاقبة الصارمة حتى قتل منهم نحوًا من مائتي رجل في مدة حكمهِ القصيرة التي لم تدم اكثر من سبعة اشهر وتسعة ايام

فتولى بعدهُ الوزير حسن باشا وكان اقلّ صرامة من سلفهِ وكان يعامل الجند بالحسنى وكان ابنهُ فيهم برتبة بيلربك وكانت الاحوال هادئة جدًا في اثناء حكمهِ . ثم تولى بعدهُ الوزير محمد باشا وذلك في ٧ صفر سنة ١٠١٦ هـ وبقي على حكومة مصر اربع سنوات واربعة اشهر و ١٢ يومًا وكان رجلاً حكيمًا حازمًا اخذ منذ وصولهِ القاهرة في المحافظة على السلام فنجّى الاهالي من كل ما كان يكدر راحتهم فاكتسب ثقتهم ومحبتهم الاَّ انهُ لم ينجُ من الحساد وذوي الاغراض

وفي اواخر شوال من السنة التالية ثارت عليهِ الجيوش واجتمعوا في برج سيد احمد البدوي وتحالفوا ان لا يوافقوهُ على الغاء الضرائب غير العادلة التي كانت مضروبةً على القطر الى ذلك العهد . ثم اختاروا من بينهم رئيسًا ولوهُ عليهم سلطانًا بايعاز الوزراء وتقاسموا مصر الى اقسام تولى كل واحدٍ منهم اثارة الشغب والنهب في قسمٍ منها فانتشرت تعدياتهم في جميع الدلتا . فلما علمَ محمد باشا بذلك جمع السناجق والجاويشية والمتفرقة وسار بها تحت قيادتهِ لردع العصاة في ٩ ذي الحجة سنة ١٠١٧ هـ واخذ معهُ ستة مدافع وانضم اليهِ عدة من مشائخ قبائل العرب وفي الليلة التالية عسكر الجميع في بركة الحج . وفي الصباح التالي هاجموا العصاة في الخانكاه فضيقوا عليهم بالنيران فاضطر اولئك الى التسليم فاخذ عليهم الباشا عهودًا اولها ان يسلموا اليهِ سلطانهم وكبار روسائهم ووعدهم مقابلة

لذلك بالتامين على حياتهم فقبلوا وسلموا الرؤساء وعددهم نحو ٧٧ فامر وبقتلهم حالاً . ثم جرّد الباقين من سلاحهم فتفرقوا فتعقبتهم رجال الباشا قتلوهم كل من ظفروا بهِ منهم . فلما رأى قاضي العسكر محمد افندي الملقب ببختي زادة ماكان يحصل من مثل هذه المذابح يوميًّا نصح للباشا ان ينفي كل من يقبض عليهِ من بعد ذلك الى اليمن ففعل وكانت النتيجة حسنة وبطلت التعديات

ولما ارتاح محمد باشا من تلك الثورات أخذ في اصلاح الادارة المالية فتفحص بنفسهِ النفقات التي كانت تدفع من الخزينة وابطل منها على سبيل الوفر كلما لم يكن ضروريًّا ثم نظر الى الضرائب فمنع اتباع طريقة المماليك الشراكسة فيها واتبع القوانين التي صدرت سنة ٩٢٣ ﻫ تحت سلطة السلطان سليمان ثم نظم المكوس وعدَّلها ولم يكن يكلف نفسًا الَّا وسعها فاذا رأى ارضًا لا تقوى على القيام بما فرض عليها من المكوس تنازل لها عنهُ وساعدها في احياء خصبها . ولما بارح مصر نال من المكافآت والانعامات ما لم ينلهُ احدٌ من اسلافهِ في مصر . وتولى بعدهُ محمد باشا الملقب بالصوفي وكان يحب العلماء ورجال الفضيلة وكان ورعًا حليمًا عفيفًا لم يقبل رشوة ولم يأتِ ظلمًا الَّا انهُ كان ملومًا لزيادة ضعفهِ بما يتعلق بمحبوبهِ يوسف الذي كثيرًا ما تعدَّى حدودهُ

وفي سنة ١٠٢٢ ﻫ ارسل الصدر الاعظم عشرة آلاف جندي الى اليمن لاخماد ما كان ثائرًا من الشغب هناك وأُرسلت الفرقة المذكورة عن طريق مصر مرفوقةً بامرٍ سامٍ الى الباشا بدفع النقود اللازمة لها وتشييع الحملة الى اليمن فلما وصلت الجيوش الى مصر وعلموا بما ورد من الاوامر بشانهم ادَّعوا انهم انما جاؤُوا ليقيموا في مصر ولم يذعنوا لاوامر الباشا بالسفر فاتخذوا لهم منازل في مخازن باب النصر وبعض بيوت الاهالي بعد ان طردوا اصحابها منها فاجتهد الباشا ان يحملهم على التسليم

بالاوامر الواردة اليهِ بشأنهم فذهب سعيهُ باطلاً واقاموا لهم متاريس في ابواب الحارة وقفلوا باب النصر واقاموا المدافع في برجيهِ فاضطر الباشا لمحاصرتهم بكل ما لديهِ من الوجاقات والمدافع فتمكن الامير عابدين بك من الدخول الى حصنهم من مدخل في المدرسة المدعوة بالجانبلاطية فخاف العصاة وسلموا ففرّق فيهم الباشا نحو ثمانين كيسًا وسافروا من المدينة

وبعد يسير عزل محمد باشا الصوفي فاعتزل في قبة العدلية ولم يبارحها الاَّ بعد ان علم بوصول خلفهِ احمد باشا دفتردار مصر سابقًا الى الاسكندرية ثم جاء القاهرة ودخلها بموكب حافل وبينما هو بمحفلهِ في المدينة رماهُ احد الناس بحجر من على سطح احد البيوت فكسر الهلال الذي كان فوق عمامتهِ ولم يضرّ بهِ فأُمسك الفاعل فاعترف بذنبهِ فقتل في المكان عينهِ

وفي محرم سنة ١٠٢٥ هـ ورد الى الباشا المذكور امر من الاستانة ان يرسل الفًا من جنود مصر لتنضم الى الجيش العثماني الذاهب لمحاربة الفرس فارسلهم تحت قيادة صالح بك اميرالحج فساروا على اتمّ نظام ومرّوا بالمديريات ولم يشعر الاهالي بمرورهم مع انهُ لم يكن يتيسر قبل ذلك مرور مائة رجل بمقاطعة واحدة ما لم ينهبوها . وذلك لما كان لهذا الباشا من النفوذ وما اقام في مصر من النظام واعطاء الجيوش حقهم من المرتبات . فالتقت هذه الفرقة بالجيش العثماني في الخانكاه وانضمت اليهِ وعند ما ودع الباشا عساكرهُ فرّق فيهم المال فاصاب الواحد منهم ٢٠ دينارًا على الاقل

وكانت مدة حكم احمد باشا سنتين وعشرة اشهر واثنا عشر يومًا لم يقتل اثناءها اكثر من عشرة اشخاص جاؤا امورًا استوجبوا من اجلها القتل ولم يكن يحكم على احدٍ الاَّ بعد التحري الدقيق واستماع تقارير الدعوى من الطرفين

سلطنة مصطفى بن محمد ثم عثمان بن احمد ثم مصطفى بن محمد ثانية

من سنة ١٠٢٦ ــ ١٠٣٢ ﻫ او من ١٦١٧ ــ ١٦٢٢ م

وفي يوم الاربعا في ٢٢ ذي القعدة سنة ١٠٢٦ ﻫ توفي السلطان احمد الاول وتولى بعدهُ اخوهُ السلطان مصطفى الاول وعند توليتهِ استبدل احمد باشا بمصطفى باشا لفغلي الّا ان السلطان مصطفى لم يمكث على كرسي السلطنة الّا ثلاثة اشهر وثمانية ايام . وفي يوم الاربعا ٢ ربيع اول سنة ١٠٢٧ ﻫ عزل السلطان مصطفى وولي مكانهُ بالانتخاب ابن اخيهِ ابو النصر عثمان . اما الوزير مصطفى باشا فلم يبقَ على مصر بعد خلع السلطان الذي ولاهُ الّا بضعة اشهر لانهُ جعل سبيلًا لنفوذ ذويهِ في الاحكام فنشأَت ثورة عسكرية في ٧ شوال سنة ١٠٢٧ ﻫ فقتل الثائرون عددًا كبيرًا من الامراء والاغوات وغيرهم من كبار المأمورين واضطر الباقون الى الفرار ولم يسكن الاضطراب الّا بعزل مصطفى باشا بامر السلطان عثمان فتولّى مكانهُ الوزير جعفر باشا وهذا لم تدم حكومتهُ اكثر من خمسة اشهر ونصف وكان محبًّا للعلم والعلماء وكان يجمع اليهِ رجال الادب ويكرم مثواهم ولم يهتم كل تلك المدة الّا بما فيهِ صالح البلاد وراحة العباد

وحصل في ايامهِ وباء انتشر في مصر وفتك باهلها فتكًا ذريعًا من غاية ربيع اول سنة ١٠٢٨ ﻫ الى غاية جمادى الثانية من السنة المذكورة وقد لوحظ ان معظم من مات بهذا الوباء كانوا بين الخامسة عشرة والخامسة والعشرين من العمر وبلغت جملة من توفي بسببهِ ٦٣٥٠٠٠ نفس

وتولّى بعد جعفر باشا مصطفى باشا فقبض على مصطفى بك الملقب بالبكلجي زعيم الثورة التي نشأَت في ايام مصطفى باشا لفغلي وحكم عليهِ

بالاعدام فسرَّ الاهالي لذلك لان مصطفى بك المذكور كان مصدرًا لمتاعبهم . الَّا ان ذلك السرور لم يلبث ان ظهر حتى أُبدل بالكدر لان مصطفى باشا حاكمهم الجديد اضطهد تجَّارهم اضطهادًا عيفًا وضيق عليهم مسالك رزقهم . فرفعوا ظلاماتهم الى السلطان فنظر في دعواهم وانصفهم بعزل ذلك الباشا وتولية حسين باشا . فبادر هذا الى ابطال جميع الضرائب غير الاصولية التي كان قد ضربها سلفهُ . وفي ايامهِ ارتفع النيل ارتفاعا غير اعتيادي فطاف على الارض بكثرة حتى يئس الناس من البقاء لنهاية ذلك الفيضان فحصل بسبب ذلك ضيق عظيم عقبهُ طاعون شديد . ثم عُزل حسين باشا واستُقدم الى الاستانة وقبل وصولهِ اليها خُلع السلطان عثمان الثاني يوم الخميس في ٨ رجب سنة ١٠٣١ هـ وبويع مصطفى الاول الذي كان قبلهُ

اما الباشا المعزول فوصل الى الاستانة في اسعد الاوقات لهُ لان إعراض السلطان السابق عنهُ كان داعيًا لرغبة السلطان الجديد في تقريبهِ منهُ فانتقت الاحزاب هناك فولوهُ الصدارة العظمى . وكان عثمان الثاني قبل فاتهِ قد بعث الى مصر محمد باشا بدلًا من حسين باشا لكنهُ لم يصل مصر الَّا بعد ان أُنبئ اهلها بما كان يأتيهِ في الروملي يوم كان واليًا عليها ما جعلهم ينفرون منهُ ويخشون من تصرفهِ ولحسن حظهم لم يبقَ بينهم الَّا شهرين ونصف فلما تولى حسين باشا الصدارة العظمى عزلهُ بامر السلطان مصطفى الاول وولى ابراهيم باشا . وبقي هذا على مصر سنةً وقد تمكن بحسن سياستهِ وتدبيرهِ من استجلاب رضى الاهالي وثقتهم الَّا انهُ حصل في ايامهِ ضيق عيش وغلت اسعار المأكولات جدًّا

ولما عزل ابراهيم باشا سافر الى الاسكندرية بحرًا خلافًا لما كانت العادة عند من سبقوهُ على حكومة مصر فانهم كانوا اذا عُزلوا من مناصبهم سافروا برًّا . وتولَّى مكانهُ مصطفى باشا واستلم زمام الاحكام في ٢٢ رمضان سنة ١٠٣٢ هـ فاتاه كتبة الديوان يشتكون من تصرف سلفهِ وقالوا انهُ

مديون للخزينة بمبلغ وافر فارسل في اثرهِ بعض الجاويشية فالتفوا بهِ فتهددهم بالقتل اذا لم يعودوا عنهُ فخافوا وعادوا الى القاهرة فارسل الامير صالح بك فادركهُ وقد نزل البحر عند الاسكندرية فاستدعاهُ ان يقف فاجاب انهُ متوجه الى الاستانة فاذا كان عليهِ شيءٌ يدفعهُ هناك الى السلطان نفسهِ . قال ذلك ونشر الشراع فمخرت بهِ السفينة فاطلقوا عليهِ من طابية منارة الاسكندرية بعض الطلقات المدفعية فلم يبالِ بها

سلطنة مراد بن احمد

من سنة ١٠٣٢ ــ ١٠٤٩ ه او من ١٦٢٢ ــ ١٦٤٠ م

وما زال حتى بلغ الاستانة فاذا بالسلطان مصطفى الاول قد خلع وتولَّى مكانهُ السلطان مراد الرابع بن احمد ولذلك لم يتعرض احد لابراهيم باشا ولم يهتم احد بقضيتهِ وبعد تولية مصطفى باشا بثلاثة اشهر . اي في ١٥ ذي الحجة ورد الى القاهرة خبر عزلهِ وتولية علي باشا مكانهُ . فاجتمعت الاجناد وساروا الى القائمقام عيسى بك يطلبون الاعطاءات التي توزع عند تولية كل والٍ جديد فانتهرهم عيسى بك قائلاً « افي كل ثلاثة اشهر تجددون هذه الطلبات » فاجابوهُ « وما المانع ام يغيّر مولانا السلطان كل ثلاثة اشهر واليًا علينا ألا يضرُّ ذلك بصالح البلاد فاذا أراد ان يولي كل يوم واليًا نحن ايضًا كل يوم نطلب الاعطاءات الاعتيادية التي لنا » . فحاول القائمقام اقناعهم فلم ينجح ولم يزدهم ذلك الَّا عنادًا وتهديدًا وصرخوا جميعهم بصوت واحد « نحن لا نرضى حاكمًا آخر غير مصطفى باشا وليرجع هذا الى حيث اتى » ثم قرأُوا الفاتحة على محافظتهم لما قالوهُ وان لا يحنث احد منهم بذلك وبناء عليهِ أُعيد مصطفى باشا الى مركزهِ

فلما رأى ان الحزب العسكري كلهُ معهُ حرّر الى السلطان يطلب تثبيتهُ وارفق الكتاب برسائل عديدة ممضية من علماء القاهرة ومشائخها وقصاتها وجميعهم يطلبون تثبيتهِ بصوت واحد . ثم بلغهم وصول علي باشا الى الاسكندرية فبعثوا اليهِ وفدًا يبلغونهُ ان الجند والاهالي متفقون على رفضهِ فجمع اليهِ الوفد والقى اليهم كتبًا كلها مدح واطناب للامراء والجيوش فلما تليت تلك الرسائل على الجند لم يكن جوابهم الّا اعادة ذلك الوفد ثانيةً يعيدون مطاليبهم الاولى فلما رأى ما كان من اصرارهم استشاط غضبًا وامر فقُبض على ذلك الوفد وقيدوا الى سجن قلعة الاسكندرية مغلولين فتآمروا مع جند الاسكندرية وكانوا من حزبهم فحلوا وثاقهم وهجموا جميعًا على علي باشا وهدموا خيمتهُ واجبروهُ على مبارحة الاسكندرية فورًا فانزلوهُ في قارب مخصوص واخرجوهُ من المينا وكان الريح ضدهُ فاعادهُ اليها ثانيةً فاطلق عليهِ الامير مصطفى من قلعة المنارة عدة طلقات ثقبت مركبهُ ثقوبًا لم تغرقها لكنها اخرجتها من المينا ولقب الامير مصطفى من ذلك الحين بالطبجي

وفي ٢٠ ربيع آخر سنة ١٠٢٢ ه جاء القاهرة كتاب محمولٌ على حمامة يفيد قرب وصول مندوب عثماني ناقل لبعض الاوامر السلطانية . وبعد ايام وصل ذلك المندوب ودخل القاهرة وجمع اليهِ السناجق والامراء وكبار المأمورين في الديوان وألبسَ مصطفى باشا الخلعة المرسلة اليهِ من السلطان . ثم تلا عليهم الفرمان بتثبيتهِ على مصر

وفي السنة التالية زاد النيل زيادة غير اعتيادية فبلغ ٢٤ ذراعًا فخشي الاهالي ان لا تنخفض المياه عن اراضيهم في زمنٍ يمكنهم فيهِ زراعتها . لكنهُ اخذ في الهبوط بسرعة فانكشفت الارض وزاد خصبها ولم تكد مصر تنجو من الجوع حتى داهمها ما هو اصعب مراسًا منهُ وهو الوباء فانهُ ظهر فيها في اوائل ربيع اول سنة ١٠٢٥ ه واخذ ينتشر في جميع انحائها بسرعة

وفي شعبان من تلك السنة اخذ بالتناقص ولم ينقضِ الاَّ في اوائل رمضان . قال بعضهم ان عدد الذين ماتوا بسبب هذا الوباء ثلاثمائة الف نفس . فاغتنم الباشا من هذه الضربات فرصة لاختلاس اموال الناس فجعل نفسهُ وريثًا لكل من مات بالوباء من الاغنياء فاستولى على تركاتهم فتظلَّم الورثاء الاصليون منهُ الى الاستانة . ولا يخفى ان هذا الباشا لم يتولَّى مصر الاَّ رغمًا عن ارادة الباب العالي فاغتنم هذه الفرصة فعزلهُ وولَّى بيرام باشا . وهذا حاكم مصطفى باشا وحكم عليهِ بدفع الاموال التي اختلسها فباع كل ما لهُ من المتاع والمقتنيات ودفع ما عليهِ . ولما عاد الى الاستانة (سنة ١٠٣٧ ﻫ) حكم عليهِ بالاعدام

ولا يخفى ان محاولة الجيوش والامراء عزل وتولية باشوات مصر بمجرد ارادتهم مخالف للنظام العمومي ولما وضعهُ السلطان سليم الفاتح وما جعلهُ لكل فئة من فئات مصر الحاكمة من الحدود . وقد اعتُبرت موافقة الباب العالي على مطاليب الامراء خرقًا للحدود السابقة . وعلى ما تقدم حصل ما حصل من التحوير في القواعد الاساسية التي سنَّها السلطان سليم الاول منذ نحو قرن

وكان بيرام باشا محبًّا للعلم والعلماء لكنهُ كان اكثر حبًّا لاحراز المال واقامة المشروعات المفيدة وتنشيط التجارة على انواعها لكنهُ اكثر من الضرائب عليها حتى على الصابون . واما فيما خلا ذلك فكان حازمًا لم يترك للجند فرصة للتمرد فهدأت مصر في ايامهِ . ثم استدعي الى الاستانة وعُيّن وزيرًا في ديوانها وهذه هي المرة الثالثة لتعيينهِ في ذلك المنصب . فتولَّى بعدهُ الوزير محمد باشا فساس الامور بحكمة ودراية وكان محبًّا للحياة الانفرادية فلم يظهر في طرق القاهرة اثناء مدة حكمهِ التي هي نحو سنتين الاَّ ست مرات . واتصل بهِ ما حصل في اليمن من الشغب الناتج عن سوء السياسة مع القبائل البدوية فعرض على السلطان اخضاعها وتعهد

بارسال فرقة من رجالهِ تحت قيادة قنسو بك امير الحج لهذه الغاية فاجابهُ السلطان الى ما طلب وولى قنسو بك على اليمن مع رتبة باشا وجعلهُ بيلر بك على الجيش . فانشأ قنسو بك جيشًا من ثلاثين الف مقاتل وقبض مبلغًا كبيرًا ليدفع منهُ نفقات الحملة الاَّ انهُ بعد ان قبضهُ توقف عن السفر وترك جيشهُ نقمة لمصر يسلبون وينهبون ويقتلون فتكًا في الاهالي وتعريضًا للمسافرين في طريقهم . ولحسن الحظ كان بين تلك الجيوش الف رجل من الروملي جاءوا للمشاركة في تلك الحملة تحت قيادة الامير جعفر آغا فاخمدوا تلك الثورة والزموا قنسو بك على المسير بهم الى اليمن في محرم سنة ١٠٣٩ ﻫ فسار وحارب وفاز وبعد سبعة اشهر من سفر تلك الحملة (في ١٩ شعبان) مرَّ في مكة تيَّار من الماء فاغرق القسم الاعظم من ارضها حتى مقام الكعبة فهدم جميع بنائها ولم يبقَ من جدرانها الاَّ الاثنين . فاتصل ذلك بوالى مصر فاوصلهُ للسلطان مراد الرابع فانفذ السلطان الى محمد باشا يعهد اليهِ ترميمها ففعل . فبلغت جميع النفقات على ما قالهُ بعضهم نحوًا من مئة الف قرش (القرش يساوي اربع فرنكات تقريبًا)

وفي سنة ١٠٤٠ ﻫ كان ارتفاع النيل قليلاً فجاء شهر توت ولم يبلغ ١٦ ذراعًا ولكن رغمًا عن ذلك النقص فتح الخليج وسيقت المياه قليلةً الى الاراضي ولكن البلاد امنت من الجوع بتدبير محمد باشا . وفي هذه السنة استُدعي محمد باشا الى الاستانة وقلدهُ السلطان منصب الوزارة في الديوان الشاهاني مكافأة لحسن سياستهِ ودرايتهِ . وتولَّى مكانهُ في مصر الوزير موسى باشا وكان للاهلين في باديء الرأي ثقة تامة فيهِ وكانوا يحبونهُ ويعتبرونهُ فانهم ساروا لملاقاتهِ في شورا الاَّ انهُ لم يكد يمكن قدمهُ حتى القى بنفسهِ الى هوى النفس من المطامع فاخذ في الاختلاس ظلمًا والاستبداد بانفس العباد فامر بقتل اكبر رجال مصر بغير وجه حق

وجعل يراقب سير اغنيائها ويترصد تصرفاتهم لعلَّهُ يأتي على طريقة للاستيلاء على ثروانهم

وفي شعبان من تلك السنة بعث السلطان يطلب اليهِ اعداد حملة من جندهِ لمحاربة الفرس فجمعهم وجعل قيادتهم في عهدة قيطاس بك وضرب على البلاد ضرائب فاحشة تحت اسم اعانة حربية . ولما وصلت تلك المبالغ الى يدهِ اوعز الى قيطاس بك ان مصر لا يمكنها تجريد مثل هذه الحملة لان ماليتها لا تسمح لها بدفع النفقات اللازمة فنصح لهُ قيطاس ان يتبع الاستقامة فهي افضل لهُ فذهبت جميع اقوالهِ عبثاً . ثم اوجس موسى باشا خيفةً من قيطاس بك لانهُ اطلع على اعمالهِ فاستدعاهُ الى القلعة في عيد الاضحى يوم الاربعاء في ٩ ذي الحجة وامر اربعين من رجالهِ ان يقتلوهُ ففعلوا . فلما رأى ذلك الاميران كنعان بك وعلي بك وقع الخوف في قلوبهم واسرعوا الى الجيوش فاعلموهم بما كان من امر قيطاس بك مع موسى باشا فاجتمعت العساكر حالاً في الرميلة . واما السناجق والامراء والقضاة وكبار المأمورين فاجتمعوا في جامع السلطان حسن وتفاوضوا في الامر فاقرُّوا على عزل موسى باشا وتولية من يقوم مقامهُ وقتياً ريثما يأتي امر الباب العالي بشأنهِ فخلعوهُ واقاموا حسن بك مكانهُ . فكتب موسى باشا الى السلطان يعلمهُ بما كان من تلك الثورة . اما رؤساؤها فكانوا قد رفعوا الى ديوان الاستانة كتابين الواحد بالتركية ممضيٌّ من السناجق والاغوات وكبار ضباط العسكرية والآخر بالعربية ممضيٌّ من القضاة والمشائخ والعلماء يطلبون بصوت واحد خلع موسى باشا فاجابهم السلطان الى طلبهم فولَّى عليهم خليل باشا

وفي ربيع اول سنة ١٠٤١ هـ وصل خليل باشا الى مصر واستلم ازمَّتها . وبعد يسير بلغهُ ان جماعة من اللصوص ثاروا تحت رئاسة احد الاشراف المدعو نامي ونهبوا مكة فجمع جند القاهرة وارسلهم تحت قيادة

الامير قاسم بك لاخماد تلك الثورة فساروا وحاربوهم وقتلوا زعماءهم وفي صفر سنة ١٠٤٢ ه عاد قاسم بك بجيشه الى القاهرة ظافرًا . واقبلت محصولات مصر تلك السنة وزاد خصبها وتضاعف ريعها وزلت اسعار الحنطة من ثمانية غروش الاردب الى غرشين

وفي سنة ١٠٤٢ه استقال خليل باشا من حكومة مصر فخرج منها والناس يثنون عليهِ ثناء طيبًا لانهُ كان عادلاً مع رفق فلم يكن يصدر حكمهُ الاَّ بعد التروي بما يقولهُ الطرفان . ومما يحكى عنهُ انهُ جيء اليهِ يومًا بثلاثة لصوص قُبض عليهم في حال اجراء الجناية فأمر أن يحاكموا فقال احد رجال ديوانهِ ان مثل هذه الحادثة لا تحتاج الى محاكمة لثبوت الجناية فعلاً فيجب اصدار الحكم رأسًا بالاعدام . فلم يكن جواب الباشا الاَّ الامر بهدم بيت ذلك الناصح فاستغرب الرجل ذلك وطلب السبب الموجب لهُ فاجابهُ الباشا قائلاً « كيف يحق لك الاعتراض عليَّ اذا امرت بهدم بيتك المبني من حطام الدنيا ولا يحق لذلك الباني العظيم معارضتنا اذا هدمنا بنايتهُ بغير وجه شرعي» ثم ابطل الامر بالهدم وامر باطلاق اللصوص . قال ابن ابي السرور ناقل هذه الحكاية ان اللصوص قلُّوا بعد تلك الحادثة اهابة للباشا

وبعد استقالة خليل باشا من مصر عين على الروملي ووُلِّي على مصر الوزير احمد باشا الملقب بالكورجي وكان قبلاً امير ياخور . وفي صفر سنة ١٠٤٣ه وردت لهُ الاوامر الشاهانية ان يبعث الفين من العساكر المصرية الى سوريا مساعدة للحملة العثمانية على دروز لبنان مع خمسة آلاف قنطار من البقسماط واربعة آلاف قنطار من البارود . ثم وردت اوامر اخرى بطلب الفي رجل آخرين وثلاثة آلاف قنطار من البارود لمحاربة الفرس . فرأى احمد باشا ان مصر لا تقوم بهذه الطلبات فاعتذر الى السلطان فبعث اليهِ ١٢ الف قنطار من النحاس ليسكبها نقودًا وطلب

اليهِ ان يبعث عوضًا عنها الى الاستانة ثلاثمائة الف محبوب [1] فاخذ في سكب النحاس واعدَّ لذلك عمالاً ومعامل . ثم رأى بعد حين ان جميع هذه الاجراآت ذاهبة عبثًا لان الفعلة ملُّوا من العمل ومات منهم كثيرون من الحرّ والجهد فجمع اليهِ ذوي شوراه من الامراء وقضاة الاقسام والقرى واستشارهم . وكان من رأيهِ ان يدفع مطاليب السلطان من مالهِ الخاص ثم يجعل النحاس سبائك صغيرة لتباع في بلاد السودان بين تكرور وبلاد الزنج . فارتأى احد القضاة رأيًا آخر وهو ان يُجبر اهالي القاهرة على استلام هذا النحاس ودفع المبالغ المطلوبة . وان يفرق النحاس عليهم مقادير متناسبة لما يدفعون فوافق الجميع على ذلك واخذوا في تنفيذهِ في ١٦ ذي الحجة سنة ١٠٤٣ ﻫ وتمموهُ في آخر شعبان من السنة التالية . وكان ذلك ثقلاً عظيماً على كاهل المصريين لانهُ لم ينجُ من هذه الضريبة غني ولا فقير فقلّت النقود وغلت الحبوب وسائر المأكولات غلاء فاحشًا وزاد في الطنبور نغمة ان النيل في السنة التالية لم يكن وفاؤُهُ حسنًا غير ان ذلك لم يمنع استغلال الارض غلة متوسطة

وبعد يسير استُدعي احمد باشا الى الاستانة فسار وقد توقف عن دفع المبالغ التي جمعت للخزينة فرفع المصريون التقارير اللازمة بشأن ذلك متظلمين فلما وصل الى الاستانة حكم عليهِ بالاعدام . وتولى مكانهُ الوزير حسين باشا فجاء مصر في زمرة من رجالة الدروز قد التقطهم من كل ناد وكانوا من قاطعي السبل فجعلوا يسومون المصريين انواع

---

(١) كان من النقود الذهبية في مصر زرمحبوب او محبوب ويقال لهُ ايضًا سكوين وهو عبارة عن قطعة من المعاملة تساوي ٤٥ غرشًا ميريًّا مصريًّا او اقل قليلاً من اثنا عشر فرنكًا . نصفها يدعى نصف محبوب او نصف وربعها يدعى ربع محبوب او ربع

العذاب نهبًا وقتلاً فاضطربت الاحوال وقفلت الحوانيت ووقفت حركة الاعمال . وهذا اصل استفباح المصريين لكلمة « درزي » على ما يظن

وابطل حسين باشا حقوق الوراثة فكان اذا مات احد الاهالي استولى هو على تركتهِ واحرمنها الذين تركهم الفقيد من الايتام اوالارامل او الثكالى واذا اراد احد الانتقام من عدوٍّ لهُ لا يحتاج الى اكثر من الوشاية بهِ الى حسين باشا بانهُ غني او ابن غني فيجعلهُ الباشا في السجن فلا يخرج منهُ الاّ بالبذل الكثير . ولم يكن يمرُّ يوم لا يطوف فيهِ حسين باشا في المدينة راكبًا وقلما تغيب الشمس قبل ان يقتل رجلاً او رجلين او اكثر وكان يخطر لهُ احيانًا ان يقتل كل من لاقاهُ في طريقهِ انسانًا كان او حيوانًا . وقد حسب عدد الذين ذهبوا فريسة عتو هذا العاشم في مدة حكمهِ التي لم تتجاوز سنةً و ١١ شهرًا فبلغوا نحوًا من الف ومائتي نفس فضلاً عمن كان يقتلهم بيدهِ . وقد كان لهُ هيبة في قلوب رجالهِ فاحب يومًا ان لا يشاركوهُ بالقتل والنهب فحظر عليهم ذلك فلم يعودوا يجسروا على اقل المخالفات فلم يعد يسمع بشيءٍ من تعدياتهم

ثم عُزِل وتولى مكانهُ الوزير محمد باشا ابن احمد باشا وابن ابنة السلطان سليم الثاني . وفي شوال من سنة ١٠٤٧ ﻫ وردت اليهِ الاوامر ان يرسل الف وخمسماية مقاتل لمساعدة الحملة العثمانية الى بغداد فارسل تلك الفرقة تحت قيادة امير الحج قنسو بك في محرّم سنة ١٠٤٨ ﻫ فسارت ولم ترجع الى مصر الاّ بعد الاستيلاء على تلك المدينة في صفر سنة ١٠٤٩ ﻫ

واتبع هذا الباشا خطوات سلفهِ بالاختلاس والنهب فجمع ثروة عظيمة من تركات الامراء والعلماء المشهورين فقام عليهِ الورثة وبعد الاجتهاد تمكنوا من تحصيل نصف الاموال . وازداد ظلمًا وعتوًّا حتى منع الصدقات التي كانت تدفع الى الارامل والايتام واخذها لنفسهِ فكثرت التظلمات

وتعددت العائلات المعسرة . وفي يوم الخميس ١٦ شوال سنة ١٠٤٩ ﻫ توفي السلطان مراد الرابع

وترى في شكل ٧٢ صورة النقود الذهبية للسلطان مراد الرابع ضربت في القاهرة سنة ١٠٣٢ ﻫ وهي سنة توليه



ش ٧٢ نقود السلطان مراد الرابع بن احمد

سلطنة ابراهيم بن احمد

من سنة ١٠٤٩ ـــ ١٠٥٨ ﻫ او من ١٦٤٠ ـــ ١٦٤٨ م

فظن المصريون ان في تغيير السلطان نجاة لهم مما كانوا يكابدونهُ . فبويع اخوهُ السلطان ابراهيم بن احمد وامر حالاً باستبدال محمد باشا واحرمهُ من العطية التي كانت تعطى اعتياديًا لحاكم مصر عند ما يستقيل من منصبهِ . لكنهُ امر بعد ذلك بابقائهِ فعاد الى اعمالهِ وازداد ظلمًا وعتوًّا ففتك بالناس فتكًا ذريعًا لم يبق ولم يذر

ثم استبدل محمد باشا بمصطفى باشا الملقب بالبستانجي[1] وكان ابيّ النفس على نوع ما الاَّ ان كاتبهُ احمد افندي كان عاتيًا غشومًا وكانت بيدهِ ازمّة الاحكام فاستبدَّ بها ما كرَّه المصريين بالحياة واتفق في ايامهِ تقصير النيل فازدادت الاثقال بغلاء الحبوب . ولم يكن الباشا يتداخل في الاحكام على الاطلاق فكثرت السرقات حتى لم ينجُ حيٌّ من احياء القاهرة من النهب واضطر معظم الاهالي الى مهاجرة بيوتهم وكان رئيس الضابطة

(١) هو لقب لفرقة عظيمة من الجنود العثمانية برأسها رئيس يعرف بالبستانجي باشي وهو من اعظم وزراء الدولة

اذا جيء اليهِ ببعض اللصوص لا تغيب عليهم الشمس في السجن ومثل ذلك كان يفعل الكشّاف (حكام الاقاليم) فتواترت التشكيات الى الباشا فاضطر الى عزل رئيس الضابطة وتولية آخر اسمهُ كنعان بك فاهتم هذا بالقبض على اللصوص فسجن عددًا كبيرًا منهم

وفي شوال سنة ١٠٥١ هـ ثارت الجهادية وجاهر الجاويشيون على رئيسهم الامير علي بدعوى انهُ لا يفرّق الاعطيات الّا على كتبتهِ فاضطر الباشا الى عزلهِ وتولية عابدين بك في مكانهِ . فلما رأى باقي الجيش ما كان من فوز الفئة الثائرة ثاروا جميعًا وادعوا ان مخازن الحبوب فارغة وطلبوا معاشاتهم المتاخرة منذ سنة . فعيّن لهم محمد افندي قاضي العسكر لتحري دعواهم فتفقد مخازن الحبوب فرآها حقيقة فارغة وان ما كان فيها قد باعهُ الكاتب واخفى ثمنهُ فاضطر الباشا مراعاة لطلب الجمهور ان يتخلى عن كاتبهِ رغمًا عن حبّهِ لهُ فاستنجد الجاويشية فانجدوهُ واعادوهُ الى مركزهِ فازداد تمردًا وبالغ في الانتقام . ثم استقال مصطفى باشا وتولّى الوزير مقصود باشا وكان واليًا على ديار بكر قديمًا فلما استلم مقاليد الاحكام بحث عن تصرفات سلفهِ فاطلع على اعمالهِ فقبض على كاتبهِ والكخيا وجلدهما واجبرهما على ارجاع مائتي كيس من النقود الى الخزينة . اما مصطفى باشا فأرسل الى الاستانة وهناك أُخذ منهُ مائتا كيس سلمت للخزينة الشاهانية واصبح في جملة الوزراء السبعة العظام في الروملي

وفي ايام مقصود باشا قاست مصر امرَّ العذاب من وباء وفد عليها وكان اصعب مراسًا من الوباء الذي وفد في ايام علي باشا وجعفر باشا لانهُ كان عامًّا لم ينجُ من اصابتهِ الشيوخ ولا الشبان فكان يصيب من الشيوخ واحدًا في الثمانية . ظهر هذا الوباء اولاً في بولاق في اوائل شعبان سنة ١٠٥٢ هـ وبعد ذلك بشهرين ظهر في القاهرة وما زال على معظمهِ من ابتداء ذي القعدة من تلك السنة الى غاية صفر من سنة ١٠٥٢ هـ ثم اخذ

بالتناقص شيئًا فشيئًا ولم ينقضِ حتى انقضى الشهر الثاني ولم يكن يُسمع الاّ بالوفيات المتتابعة في كل ساعة وكانت تنقل الجثث بالعشرات دفعة واحدة فكان يشاهد في الشارع الواحد احيانًا ثلاثون او اربعون جنازة وقد روى ابن ابي السرور وهو من المؤرخين المعاصرين ان جملة من صُلّي عليهم من المتوفين في الجوامع الخمسة الرئيسية في القاهرة في مدة ثلاثة اشهر اثنان وتسعماية وستون وقد كانوا في آخر الامر يدفنون موتاهم بغير صلاة وعدد هؤلاء لا يقلّ عن عدد الذين صُلّي عليهم . اما خارج القاهرة فلم يكن الوباء اقلّ فتكًا ويقال ان ٢٣٠ قرية اصبحت خرابًا لاصابة كل اهاليها بذلك الداء

فلما رأى مقصود باشا ما المّ بمصر من الدمار جعل يسعى الى اصلاح الاحوال جهدهُ فاستعمل الرفق فالغى جميع الضرائب التي وضعها اسلافهُ بغير الحق وجعل حقوق الوراثة الى الاقرباء الشرعيين مع دفع شيء من التركة الى الحكومة وجعل يتحرّى التعديات تحرّيًا شديدًا وشدد في القبض على اللصوص فقبض على كثيرين منهم فقتل بعضًا وسجن بعضًا وقاصص آخرين بحسب ذنوبهم متخذًا الصرامة ديدنًا فاستكنت الناس وطابت قلوبهم نوعًا . وبينما كان هذا الباشا ساعيًا فيما تقدم ظهرت في الاسكندرية في ٢٠ ذي القعدة من تلك السنة ثورة كدرت اعمالهُ وذلك ان نحوًا من ستماية من المسيحيين كانوا تحت طائلة القصاص مغلولين في سجون الاسكندرية ففي اليوم المذكور فتقوا السجون بغتة والمسلمون في الجوامع يصلُّون وطفقوا ينهبون الحوانيت والمخازن والبيوت ولم يبقوا ولم يذروا ولما ملأوا جعبة مطامعهم نزلوا الى مركب كان بانتظارهم في البحر واقلعوا يطلبون الفرار . ولم يكن ذلك كل ما تهدد مقصود باشا وحال دون مشروعاتهِ انما هناك ما هو ادهى وامرُّ وذلك ان جماعة السناجق تآمروا عليهِ وتواطأوا على عزلهِ في يوم الجمعة ١٣ رمضان سنة ١٠٥٤ ه باجتماع

عقدوهُ في بيت الامير رضوان بك الملقب بابي الشوارب وسبب ذلك ان مقصود باشا كان قد طلب اليهم حثًا بتسديد رواتب الجيش عن شهر رمضان ان يدفعوا الثلث الاول من المال الذي يطلب منهم للخزينة عن الاقطاعات الحربية التي كانت في يدهم فرفضوا ذلك بالاجماع وطلبوا عزل بعض المأمورين الذين كانوا ينظرون اليهم كاكبر نصير للباشا في ارادتهِ . فسلم لهم الباشا بما ارادوا اما هم فلم يقنعوا بذلك فحرروا الى الاستانة يشكون من سوء تصرفهِ بموافقة كثيرين من الاعيان فكتب اليهِ الباب العالي رأسًا ما مفاده « ان الحضرة الشاهانيــة لم تعلم اسباب الثورة الجهادية التي حصلت في مصر وتعجب كيف ان الباشا لم يبلغ الباب العالي عنها » فاجاب الباشا انهُ لم يحصل لديهِ ما يدعى ثورة وانما هناك بعض التشكيات وبعض الاختلافات التي يرجو اصلاحها بالتي هي احسن ولذلك لم يكن ثمَّ حاجة لابلاغ الباب العالي . فطلب اليهِ الباب العالي ان يجري التحريات اللازمة ويعاقب المعتدين ويصرف الامر بما يتراءى لهُ . الَّا انهُ رغمًا عن كل ذلك اضطر الى الاذعان لكنهُ اراد الفتك بالامير علي بك والامير ماماي بك والدفتردار شعبان بك لعلمهِ انهم زعماء تلك الثورة فاعدَّ لهم كمينًا واقام لهم رصداء ليقتلوهم في الديوان وعيَّن لذلك يوم الاثنين في ٢٣ ذي الحجة سنة ١٠٥٤ هـ الَّا ان الصدفة لم تسمح لهُ بما اراد فان الدفتردار نزل الى الديوان وحدهُ في ذلك اليوم فشاور الباشا عقلهُ بين ان يفتك بهِ وحده او ان يخفي ما في ضميرهِ ريثما يفتك بالثلاثة معًا فاقر اخيرًا على ارجاء ذلك العمل الى يوم آخر

وفي اليوم الثاني جاء الفرمان بعزلهِ وتولية الدفتردار شعبان بك بصفة قائمقام يتعاطى الاحكام وقتيًا فشق ذلك على الباشا لكنهُ اذعن وسلم مقاليد الاحكام لشعبان بك فرفع السناجق الى الباب العالي يطلعونهُ على حقيقة ما حصل في ايام الباشا السابق ويطلبون اليهِ الاسراع في ارسال

من بخلفهٔ فانفذ اليهم ايوب باشا . وكان قبل ذلك الحين من مأموري السراي الشاهانية . فلما عهدت اليهِ هذه الولاية تردد في قبولها لما رأى من الاخطار المحدقة بها الاَّ انهُ اضطر اخيرًا الى قبولها . وقد كان رجلاً حازمًا مستقيمًا استعان بمامور بهِ على ادارة الاعمال فلم تمضِ سنتان على حكمهِ حتى استتب النظام وسادت الراحة . ثم استقال من ذلك المنصب بعد ان صار وزيرًا وعكف على العبادة معتزلاً السياسة ومتمثلاً بالدراويش فتنازل عن ممتلكاتهِ في الاستانة للدائرة الخاصة الهمايونية وانفرد في احد المعابد في الروملي . فوُلّي مكانهُ الوزير محمد باشا بن حيدر سنتين ونصف ولم يحسن الادارة فارتبكت الاحوال

وفي ١٠ رجب سنة ١٠٥٧ ه ثارت فئة من الانكشارية في مصر القديمة فتهددهم والي الشرطة فازدادوا تمردًا فساروا الى الباشا وطلبوا قتل ذلك الوالي ولم يكن ذنبهُ الاَّ انهُ قام بواجباتهِ فوافقهم الباشا على ما ارادوا . اما الوالي فكان من وجاق الجاويشية . فلما علم هؤلاء بعزم الباشا قاموا بصوت واحد يشكون من سوء تصرفهِ فخاف ان تبلغ هذه التشكيات مسامع الباب العالي فتعود العاقبة عليهِ وبالاً فاجتمع بقنسو بك واستشارهُ بماذا يفعل وكان هذا ممن لا يشيرون الاَّ بما يعود عليهم بالمنفعة الشخصية فاشار على الباشا ان يرفع الى الاستانة تقريرًا سريًّا يشرح فيهِ كل ما حصل من الارتباكات وينسبها جميعها الى الاميرين رضوان بك وعلي بك وينسب اليهما ايضًا اختلاس مال الخزينة المصرية وانهما سلباهُ منصب امير الحج وحكومة جرجا كل ذلك لكي يرجع قنسو بك ومامای بك الى منصبيهما

فباشر الباشا بكتابة ذلك التقرير وطلب الى بعض الاعيان ان يوقعوا عليهِ فبلغ ذلك مسامع رضوان بك فاسرع الى كتابة تقرير مناقض لتقرير الباشا وبعث بهِ الى الاستانة فوصل قبل تقرير الباشا وفيهِ ما فيهِ

من التشكيات ضد قنسو بك ومامای بك فورد الجواب من الاستانة مفوضًا الى رضوان بك وعلي بك امر النظر في تلك القضية وفي ٢١ جمادى الاولى سنة ١٠٥٧ هـ ورد الى الباشا الفرمان بذلك وفي ٢٧ منهُ استدعاها الباشا الى القلعة فاستدعيا قنسو بك ومامای بك وامرا بقتلهما وقتل امراء آخرين كانوا على دعوتهما . ولم تكد تخلص مصر من دسائس هؤلاء حتى ظهرت دسائس مصطفى كخيا الملقب بالششير وسبب ذلك انهُ لم يسمَّ سنجقًا عوضًا من قنسو بك . وفي ٨ رمضان من تلك السنة وردت الاوامر الى علي بك ان يترك القاهرة ويتوجَّه حالاً الى حكومتهِ في جرجا . وبعد ذلك بثلاثة ايام استدعي رضوان بك الى وليمة في القلعة بامر الباشا فخاف من دسيستهِ فابى الحضور فغضب عليهِ الباشا وجردهُ من امارة الحج فسار رضوان بك من القاهرة في نحو مائتين من رجالهِ وفيهم عدة من الامراء والكشاف واجتمع علي بك فبعث الباشا على اثرهما الذين من جنودهِ ونحو خمسمائة من الانكشارية فاجتمع الجند في الرميلة واقرُّوا على اغفال اوامر الباشا . ثم وردت الاوامر من الاستانة بتثبيت رضوان بك وعلي بك في منصبيهما . فاضطر الباشا الى استقدام الاميرين فقدما الى القاهرة في ١٩ رمضان بما لهما من الرتب والحقوق فسعى الى مصالحتهما مع مصطفى كخيا

وفي ٦ ذي الحجة من تلك السنة شاع في القاهرة ان الوزير مصطفى باشا قد سُمِّي على مصر عوضًا من محمد باشا بن حيدر . وفي ٢٦ منهُ وردت الاوامر قاضية باعادة محمد باشا الى منصبهِ . وفي ١٧ رجب سنة ١٠٥٨ هـ توفي السلطان ابراهيم وتولى مكانهُ السلطان محمد الرابع

وترى في شكل ٧٢ صورة النقود الفضية للسلطان ابراهيم بن احمد ضربت في القاهرة سنة ١٠٤٩ هـ

ش ٧٢ نقود السلطان ابراهيم بن احمد

سلطنة محمد بن ابراهيم

من سنة ١٠٥٨ ــ ١٠٩٩ هـ او من ١٦٤٨ ــ ١٦٨٧ م

وبلغ ذالك التغيير مصر في اوائل رمضان مصحوبًا بعزل محمد باشا وتولية الوزير احمد باشا فاستلم هذا زمام الاحكام مدة سنتين كلها اضطراب وقلاقل

واول تلك القلاقل كانت سنة ١٠٦٠ هـ بسبب تقصير النيل فانهُ لم يرتفع تلك السنة اكثر من ١٦ ذراعًا فلم يرتوِ من ارض الصعيد الاّ الثلث اما الوجه البحري فلم يرتوِ منهُ شيءٌ تقريبًا . فغلت الاسعار حتى خيف من المجاعة

اما الباشا فلم يكن يهمّهُ الا تكثير الضرائب مع انهُ لم يكن يرسل منها الى الاستانة الاّ الثلثين وكان لسوء نيتهِ يرسل تلك المبالغ الى الاستانة في عهدة الامير رضوان بك ليحمل الباب العالي على الشك بامانتهِ فيتغير خاطر السلطان عليهِ وكان اتمامًا لمكيدتهِ يكتب للباب العالي على التتابع يشكو من تصرف رضوان بك ويطلب تجريدهُ من امارة الحج وتقليدها لعلي بك . وكان هذا على ما علمت من الصداقة مع رضوان لكنهُ لم يكن يعلم دسائس الباشا . اما الباشا فكان في نيتهِ ان يوقع الضغائن بين الاميرين فيحل عرى اتحادهما لكنهُ لم يتم مقصدهُ حتى اتى الامر العالي بعزلهِ يوم السبت ٦ صفر سنة ١٠٦١ هـ ورضوان بك لم يرجع الى القاهرة بعد . ولم تكن نتيجة مساعي احمد باشا الاّ زيادة تألف قلبي ذينك الاميرين وكان من كرم اخلاقهما ان كلًّا منهما كان يتنازل للآخر عن امارة الحج فاعجبت هذه الشهامة المصريين فمالوا بكليتهم الى محبتهما وبالغوا في اعتبارهما حتى انهم اقاموا لهما دعاءً عموميًّا في الرميلة . والباشا اذ ذاك

محبوس في القلعة ولم يُفرج عنهُ حتى دفع للخزينة مبالغ وافرة . فتولّى مكانهُ الوزير عبد الرحمن باشا وما زال الى اول شوال سنة ١٠٦٣ هـ وقد قاسى ما قاساهُ سلفهُ من السجن والاهانة لانهُ سار على خطواتهِ . فاختار الباب العالي الوزير محمد باشا ليقوم مقامهُ في ٥ شوال من تلك السنة ولكنهُ لم يدخل القاهرة الّا يوم الثلاثاء في ٨ محرم سنة ١٠٦٣ هـ

وما زالت الولاة تتوالى على مصر ولا شيءَ من اعمالهم واحوالهم يستحق الذكر . وفي آخر الامر تحوّل النفوذ كلّهُ من ايديهم الى أيدي البكوات المماليك . اما الباشوات فكانوا يولّون مصر فاذا اتوها لا يكون ديدنهم الّا اكتساب الثروة باي طريقة كانت ليعلم كلٌّ منهم انهُ لن يعتم حتى يأتيهِ الامر بالعزل وقلما انعزل احدهم ولم يكن السجن مأواهُ

السلاطين سليمان بن ابراهيم واحمد بن ابراهيم ومصطفى بن محمد

من سنة ١٠٩٩ — ١١١٤ هـ اومن ١٦٨٧ — ١٧٠٢ م

فالسلطان محمد الرابع أُقيل من السلطنة في ٢ محرم سنة ١٠٩٩ هـ واودع السجن حتى مات (سنة ١١٠٥) وبويع السلطان سليمان الثالث وبعد ٣ سنوات توفي (في ٣٠ رمضان سنة ١١٠٢ هـ) فبويع السلطان احمد خان ويدعى ايضًا احمد الثاني وبعد ثلاث سنوات ونصف توفي (سنة ١١٠٦ هـ) فبويع ابن اخيهِ السلطان مصطفى خان وهو مصطفى الثاني ابن السلطان محمد الرابع . وبعد تسع سنوات تقريبًا (في جمادى الاولى سنة ١١١٤ هـ) أُقيل وتوفي في السجن في محرم سنة ١١١٩ هـ

سلطنة احمد بن محمد

من سنة ١١١٤ ـــ ١١٤٣ ه او من ١٧٠٢ ـــ ١٧٣٠ م

و بويع اخوهُ احمد خان وهو احمد الثالث وكانت مدة حكمهِ على المملكة العثمانية نحوًا من عشرين سنة . وفي ايامهِ حصلت ثورات عديدة انتهت بتحول سلطة الباشوات ونفوذهم الى البكوات المماليك وهذه قلعة الجبل قد كانت سجنًا للباشوات الذين كانوا يتولون الاحكام ولا يهمهم منها الاَّ الكسب الشخصي

وقد توالى على مصر من سنة ١٠٦٣ ه الى ١١١٩ ه اثنان وعشرون واليًا اغضينا عن ذكرهم لعدم اهميتهم . وفي سنة ١١١٩ ه في أيام السلطان احمد خان تولَّى مصر حسن باشا وكان على القاهرة قاسم عيواظ بك بصفة شيخ بلد

وقد كانت المماليك في مصر على حزبين كبيرين يعرفان بالمماليك القاسمية والفقارية وكان هذان الحزبان لا ينفكان يضاد احدهما الآخر ويحاول كل منهما اكتساب النفوذ له وإذلال الآخر . اما اصل هذين الحزبين ففيهِ اقوال منها انهما ينسبان الى اخوين هما قاسم وذو الفقار ولدي سودون احد امراء المماليك في عهد السلطان سليم الفاتح وإن السلطان سليم هو الذي نشطهما ونشط احزابهما وقد ذكر الجبرتي لذلك قصة طويلة لا حاجة بنا الى ذكرها . وبعضهم يقول ان هذين الحزبين ينسبان الى قاسم بك الدفتردار وذي الفقار بك الكبير سنة ١٠٥٠ ه . وكان قاسم عيواظ بك رئيس الطائفة القاسمية وذو الفقار بك رئيس الفقارية . وكان لكل من هاتين الطائفتين صفات مختصة بها فالفقارية كانت توصف بالكثرة والكرم والقاسمية بكثرة المال والبخل . وعلامة الفقارية علمٌ ابيض

ومزاريقهُ برمانة والقاسمية علمٌ احمر ومزاريقهُ مجلبة

وقد كانت هاتان الفئتان قبل تولي حسن باشا في وفاق تام فلما جاء خشي من اتحادهما فعمد الى الدسائس فالقى بينهما الشقاق فحصلت بين الطائفتين مواقع دامت ثمانين يومًا فكانوا يخرجون من القاهرة الى مكان يعرف بقبة العرب يوميًا ويأخذون بالكفاح من شروق الشمس الى غروبها ثم يعودون الى القاهرة فيصرفون الليل بسلام في بيوتهم بين نسائهم واولادهم ثم يعودون في الصباح التالي الى المحاربة ومن الغريب ان هذه المحاربات لم تؤثر في الراحة العمومية مطلقًا فما برحت الاشغال جارية في مجراها والحوانيت والمخازن تفتح وتقفل كالعادة

وانتهت تلك المواقع بوفاة قاسم عيواظ بك فاسف عليهِ الناس وبكوهُ بكاءهم على حاكم عادل او اب حنون بارّ ولم يبقَ صديق ولا عدوّ حتى بكاه لانهُ كان فضلاً عن حكمتهِ وعدلهِ ودعتهِ شجاعًا باسلاً ابيّ النفس . فاقاموا بعدهُ ابنهُ اسماعيل بك مكانهُ شيخ بلد وصادق الباشا على ذلك لظنهِ ان اسماعيل لصغر سنهِ يكون آلة بيدهِ يدبرها كيف شاء فزاد لذلك كدر ذي الفقار بك واشتد انتقامهُ لانهُ كان ينتظر ان يولى هو ذلك المنصب . وكان اسماعيل رجلاً عاقلاً حكيمًا كوالدهِ عارفًا وجه الربح والحق فسعى الى الوفاق مع طائفة الفقارية فاتحدت الطائفتان جميعًا على الباشا . وقد كان اسماعيل بك من الجهة الاخرى يظهر الطاعة والرضوخ لاحكام الباشا بصفة كونهِ رئيسًا عليهِ لكنهُ لم ينفك ساعيًا سرًّا الى خلعهِ فكتب عنهُ الى الاستانة ففاز بعزلهِ فجاء غيرهُ ثم ابدل باخر فآخر واسماعيل بك في منصبهِ مكتسبًا ثقة الرعية فكانوا يحبونهُ الى ما يشبهُ العبادة

ومما يحكى عنهُ ان احد تجار القاهرة في ايامهِ وكان يدعى عثمان باع لاحد القبقجية (لقب يعطى للحرس السلطاني) وكان قد اتى القاهرة بأمورية مهمة ثلاثمائة قنة بن الى أجل مسمّى وكتب عليهِ بذلك كتابًا ففي اثناء مدة

الاستحقاق جاء من الاستانة اعلان بخيانة القبنجي والحكم عليهِ بالاعدام حالاً فجيء بهِ الى الباشا فقتلهُ ووضع يدهُ على تركتهِ وفيها البن كما هو . فعلم عثمان التاجر بذلك فعرض لاسماعيل بك بصفة كونهِ شيخ البلد ما كان من امر البن فاجبر الباشا ان يرجع البن لصاحبهِ قبل كل شيء ففعل فاصبح عثمان في حالٍ من الممنونية لذلك الرجل لا يعرف كيف يبيّنها فلاح لهُ ان يهديهُ علبة مرصعة وبعض القناطير من السكر النقي فرفض اسماعيل بك تلك الهدية وخاطب عثمان التاجر قائلاً « اذا كان المال الذي حصلت عليهِ بواسطتي مالك ولك الحق بهِ فاكون قد فعلت واجباتي والله يكافئني فاذا قبلت هديتك اظلم نفسي . اما اذا كان هذا المال ليس لك وانما حصلت عليهِ بالحيلة فقبولي هديتك يعد مشاركة لك بالخيانة لكني مع ذلك اقبل السكر الذي حملتهُ اليَّ على شرط ان نقبل ثمنهُ من وكيلي لاني سآمرهُ ان يدفعهُ اليك »

ويحكى عنهُ ايضاً انهُ كان يأدب في ليالي رمضان مأدبات ليلية يجتمع اليها العلماء والفقهاء والمشائخ وقراة القرآن ولم يكن يسمح لغير هولاء الحضور فيها . فرأى ذات ليلة بين الحضور رجلاً عليهِ ملامح الكآبة واليأس فاوصى بعض الخدم انهم متى ارفضّ الاجتماع يأتون بهذا الرجل اليهِ ففعلوا فلما حضر بين يديهِ اعطاهُ قرآناً وامرهُ ان يتلو عليهِ منهُ سورة فتوقف الرجل مرتجفاً ثم ترامى على قدمي البك متضرعاً وقال « يعش سيدي البك اني رجل نجار لا اعرف القراءة وانما اتيت الى هذه المأدبة متلبساً بلباس الفقهاء لاملأ جوفي من الطعام فاني في حالة من الفاقة شديدة » فانصفهُ ولم يكتف بالاغضاء عن ذنبهِ هذا لكنهُ جعلهُ في عداد خدمتهِ وجعل لعائلتهِ راتباً معيناً وصار هذا النجار بعد ذلك من اصدق الخدمة واكثرهم غيرةً وهمة

وما زال اسماعيل بك في منصبهِ هذا مدة ست عشرة سنة تقلب اثناءها

على مصر عدة باشوات لم يكونوا الاَّ اسماً بلا رسم . وكان لحسن سياستهِ موفقًا الفقاريين عن كل حركة لتظاهرهِ انهُ على وفاق معهم فلم يجعل لهم فرصة يتحدون بها عليهِ الاَّ انهُ ارتكب خطاء واحدًا آل الى قتلهِ . وذلك ان احد المالك الفقارية واسمهُ ذو الفقار كان لهُ عقار كافٍ للقيام بنفقات عائلتهِ فاختلسهُ منهُ احد المماليك القاسمية وهم مماليك اسماعيل بك فرفع ذو الفقار دعواهُ الى شيخ البلد (اسماعيل بك) فلم يصغَ لطلبهِ واقرَّ على العقار لمملوكهِ فشق ذلك على ذي الفقار فرفع دعواهُ الى زعيم الفقارية ويقال لهُ شركس بك وكان خصمًا لاسماعيل بك بالفطرة فسار الى الباشا وتخابر معهُ بشأن تصرف اسماعيل بك وكان في قلب الباشا حزازات من الحسد فوافقهُ على الايقاع بهِ ثم قال لهُ « ليس لك وسيلة افضل من ان تبعث احد مماليكك وتأمرهُ ان يقتل هذا الرجل وانا اعدهُ ان يكون لهُ جميع ما يتركهُ من المال والنساء مكافأة لاتعابهِ »

فوافقهُ على رأيهِ وعين لتلك العملة اول يوم يجتمع فيهِ الديوان وامر مملوكهُ ذا الفقار ان يستعد لاجرائها فقبل اعتمادًا على وعد الباشا ففي اليوم المعين سار ذو الفقار ودخل الديوان وفيهِ اسماعيل بك فتقدم اليهِ وقبل يدهُ قائلاً « ارجوك ان تأمر بارجاع عقاري اليَّ » فاجابهُ اسماعيل بك منتهرًا « سننظر في طلبك هذا » فالحَّ عليهِ فانتهرهُ فاستل خنجرًا ماضيًا بقرَ بهِ بطنهُ فتدفقت امعاؤهُ ومات لساعتهِ في وسط الديوان فهجمت رجال الباشا وقتلوا كل من كان هناك من رجال اسماعيل ولم ينجُ منهم الاَّ سريع العدو . هكذا كان انتهاء حكم اسماعيل بك سنة ١١٢٦ هـ فنقلت جثتهُ الى بيتهِ ثم دُفنت بجانب جثة ابيهِ بجوار باب اللوق

فتولى مشيخة البلد شركس بك واستولى ذو الفقار على جميع ممتلكات اسماعيل بك ونسائهِ كما كان موعودًا من الباشا فاصبح رجلاً عظيمًا يشار اليهِ بالبنان وفي خدمتهِ مئات من المماليك مخافة شركس بك واخذ يسعى

الى اذاقتهِ ما اذاقهُ لاسماعيل بك فعلم ذو الفقار بتلك الدسائس فجمع اليهِ رجالهُ وفيهم عدة من الرجال العثمانيين وهجم على شركس بك فحصلت بينهم موقعة لم يستطع رجال شركس الثبات فيها اكثر من ربع ساعة فقتل معظمهم وفرَّ الباقون ومعهم زعيمهم يطلبون الصعيد وهو الملجأ الوحيد للبكوات المغضوب عليهم

فتولى ذو الفقار مكانهُ مع لقب بك بعد ان اقرَّ الباشا على ذلك فاصبح ذو الفقار بعد قليل عدوًّا الدَّ لكل اترابهِ البكوات وعلى الخصوص لابي دفية (سمّي بذلك لانهُ كان يتشح برداء كبير يقال لهُ دفية) ثم أُنبئ ذو الفقار بك ان ابا دفية ساعٍ الى اهلاكهِ وقد حاول ذلك مرارًا ولم ينجح . ثم ان شركس بك جمع اليهِ دعاتهُ في الصعيد وسار بهم نحو القاهرة فارسل ذو الفقار بك عثمان كاشف احد كبار قوَّادهِ في فرقة من المماليك لمحاربتهِ فتقهقر شركس بك ورجالهُ مرارًا حتى لحق ببلاد البربر . فسكر ذو الفقار من خمرة النصر واخذ في الانتقام من البكوات الذين في القاهرة فكان يقتل منهم كل من يظن فيهِ الانتماء الى شركس بك حتى قتل منهم خلقًا كثيرًا فاتحد من بقي حيًّا منهم مع رئيس الشرطة والآغا رئيس الانكشارية وبعثوا الى شركس بك بما كان من فعلة ذي الفقار وتعاهدوا جميعًا على محاربتهِ وانضم اليهم مصطفى القرد وكان من اعداء ذي الفقار ومعهُ جماعة من الرجال الاشداء فقدم شركس بك الى القطر المصري فعلم ذو الفقار بذلك فجمع اليهِ العلماء والمشائخ وشاورهم في الامر فاجمعوا على عدم مناسبة الهجوم في تلك الحال الّا اذا تأكّد الفوز فلم يصغَ لمشورتهم فارسل عثمان بك احد قوادهِ لمحاربة شركس بك فحصلت بينهما قتل فيها مصطفى القرد وغرق موقعة شركس بك في النيل وهو يحاول الفرار فبعث عثمان بك برأسيهما الى ذي الفقار . اما هذا فلم يهنأ بذلك النصر لانهُ قتل بعد قتل عدوهِ شركس بيومين بمكيدة أُعدَّت لهُ بمساعي البكوات

في القاهرة وذلك انهم البسوا واحدًا منهم دفية وجاؤا بهِ الى بين يدي ذي الفقار وقالوا لهُ هذا ابو دفية قد جعلهُ الله في ايدينا وكانوا قد جعلوا تحت دفيتهِ عيارين ناريين فلما وقف بين يديهِ اطلقهما عليهِ دفعةً واحدة فسقط ذو الفقار مضرَّجًا بدمائهِ في وسط ديوانهِ سنة ١١٤٢ هـ فعلم عثمان بك بما اصاب رئيسهِ فهرع الى الاخذ بثأرهِ فدخل القاهرة وجعل يفتك بكل من يصادفهُ في طريقهِ فخافهُ الجميع

ثم ان محمد بك احد البكوات الذين كان يترقبهم عثمان بك رأى منصب مشيخة البلد خاليًا فطمع فيهِ فتعاهد مع صالح كاشف صديقهِ على ان يقتلوا كل من بقي من زملائهِ البكوات بمكيدة ينصبها لهم فأدب محمد بك مأدبة فاخرة دعاهم اليها فلبُّوا دعوتهُ ثم علموا بمكيدتهِ فقاوموهُ مقاومة شديدة وتمكّنوا من قتلهِ فيئس صالح كاشف من مرامهِ ففرَّ الى القسطنطينية بعد ان شاهد رؤوس البكوات ملقاة على الطريق امام جامع الحسنين . ثم عقب هذه القلاقل ضربة اشد وطأة وهي الوباء الذي أصاب مصر في تلك السنة ويدعى طاعون الكيّ فانهُ انتشر في البلاد انتشارًا سريعًا وفتك بالعباد فتكًا ذريعًا . ورافق كل هذه الضربات عزل السلطان احمد الثالث في جمادى الاولى سنة ١١٤٣ هـ

وترى في شكل ٧٤ صورة النقود الذهبية للسلطان احمد بن محمد مضروبة في القاهرة بتاريخ سنة ١١١٥ هـ

ش ٧٤ نقود السلطان احمد بن محمد

سلطنة محمود بن مصطفى

من سنة ١١٤٣ ــ ١١٦٨ ه اومن ١٧٣٠ ــ ١٧٥٤ م

وبعد عزل السلطان احمد بويع ابن اخيهِ محمود بن مصطفى خان وهو السلطان الرابع والعشرون من بني عثمان ويدعوهُ بعضهم محمود الاول وبقي هذا على كرسي السلطنة خمس وعشرين سنة . اما الباشوات الذين كانوا يتولون مصر في ايامهِ فلم يكونوا اكثر اهلية من اسلافهم وكانت الاحكام قائمة بمشائخ البلد وفي يدهم الحل والعقد لا يستطيع الباشوات معارضتهم في شيءٍ

فبعد قتل ذي النقار بك تولّى مكانهُ عثمان بك المتقدم ذكرهُ فرقّى كثيرين من مماليكهِ الى رتبة البكوية ليقوموا مقام الذين هلكوا بالحوادث الاخيرة . وكان عثمان بك عادلاً حازمًا ولكنهُ كان صارمًا لا يراعي في تنفيذ العدل جانبًا فعلم مرةً ان احد بكواتهِ سعى في اقليمهِ ظلمًا فاستدعاهُ اليهِ واذ تحقق ارتكابهُ قطع رأسهُ . ويحكى عن عثمان بك حوادث كثيرة تشير الى حزمهِ واستقامتهِ وقسطه لا بأس من ذكر بعضها على سبيل النموذج

يحكى ان حمّارًا من حمّاري القاهرة اراد ترميم مزود حمارهِ وبينما كان يرممهُ عثر في احد جدران البيت على وعاء مملوء ذهبًا ففرح جدًّا واخذ الوعاء برمتهِ وسلمهُ الى امرأتهِ واوصاها ان تكتم الامر لئلا ينكشف للحكومة فتأخذ المال منهُ لان لها وحدها الحق بالاستيلاء على مخزونات الارض . فلم يسع الامرأة الّا انها طلبت من زوجها ان يبتاع لها مصاغًا وثيابًا فاخرة لتتمتع بتلك الهبة فابى زوجها اجابة طلبها خيفة ان يقود ذلك الى كشف الحقيقة فاغتاظت الامرأة واسرعت لساعتها ووشت بزوجها الى عثمان بك

فاستدعى الحمّار وبعد ان سمع حقيقة الحال صرفهُ قائلاً « احفظ ما وهبك الله وطلّق امرأتك وعش بسلام »

ولما جاء الوباء الى مصر كان عثمان بك في اول حكمهِ فرأى الجوع الذي عقب الوباء ففتح مخازنهُ وخزائنهُ وفرّق الاقوات والاموال في الناس الّا انهُ مع ذلك لم يستطع النجاة من مكايد ذوي المطامع وفي مقدمتهم ابراهيم واسماعيل رضوان الاول كخيا (١) الانكشارية والآخر كخيا العزب وكان كلاهما من المماليك الواحد من طائفة القزدقلية والاخر من طائفة الجلفية . واصل الطائفة الاولى مملوك يقال لهُ القزدغلي كان سروجيًّا واصل الطائفة الثانية احمد الجلفي كان في بادئ امره شيالاً واغناهُ الله بطريقة في غاية الغرابة ولا بأس من ذكرها وهي

جاء احد المماليك الى بعض معاصر الزيت ليبتاع منهــا ما يقوم بمؤونة بيتهِ مدة السنة وكان احمد الجلفي شيالاً في تلك المعصرة فابتاع المملوك الزيت واستأجر احمد لحملهِ فحملهُ وسار معهُ وما زالا حتى بلغا بيتهُ فانزل الحمل ووقف ينتظر اجرتهُ فجاءهُ المملوك وطلب اليهِ ان يساعدهُ في اخفاء مبلغ من النقود في احد جدران البيت والحّ عليهِ ان يكتم الامر سرًّا واعطاهُ بضعة دراهم مكافأة لذلك فساعدهُ واخذ الدراهم وسار في سبيلهِ حامدًا شاكرًا . وبعد مضي ثلاثين يومًا اتفق لهُ المرور بالقرب من ذلك البيت فشاهد ثمَّ جماهير مجتمعة . ثم علم ان ذلك المملوك توفي وقد عرضت تركتهُ للمبيع . فتقدم احمــد وابتاع البيت الذي فيهِ المخباة وبعد ارفضاض الجمع استخرج النقود وسار بها الى قريتهِ (جلف) في مصر العليا وامتلك ممتلكات كثيرة ثم اتسعت ثروتهُ ومازال حتى اصبح زعيماً لعصابة كبيرة نسبت اليهِ

(١) ويكتب ايضاً كتخدا وكان لكل وجاق كخيا وفي عهدتهِ ملاحظة شرطة ذلك الوجاق وقضاياه

وقد كان ابراهيم واسماعيل رضوان في بادئ الرأي على تباين كلي بالادبيات والماديات فكان ابراهيم في ضيق من المعاش مع اقدام وبسالة ومطامع كبيرة . اما اسماعيل فكان غنيًّا بليدًا لا يهمهُ الاَّ التمتع بالملذات والشهوات . فكان ابراهيم في احتياج الى اسماعيل ولذلك كان يتقرب منهُ . ثم تزوج ابراهيم ابنة محمد البارودي احد التجار الاغنياء واخذ معها مالاً كثيرًا فتمكن بذلك من التداخل في بيت شيخ البلد والقاء المفاسد فيهِ بواسطة عدة من المماليك والاتراك وغيرهم من ذوي الرتب الذين كان يستعملهم آلة بيدهِ لتنفيذ مآربهِ . ثم تأتى لهُ الارتقاء الى رتبة البكوية مع صديقهِ اسماعيل رضوان واتحد الاثنان معًا على السراء والضراء ووحدوا ممتلكاتهما واجتزأوا بالسواء من محصولاتها

فاوجس عثمان بك خيفة من سرعة نمو ثروتهما وملافاةً لما كان يخشى حدوثهُ من طموح انظارهما جمع اليهِ ثلاثة احزاب احدهما حزب ابراهيم بك القطامش وفيهِ ثلاثة بكوات . والثاني حزب علي بك الدمياطي وفيهِ بكان . والثالث حزب علي كخيا الطويل وشاورهم في الامر فاقروا على وجوب قتل ابراهيم بك وكان اذ ذاك كخيا الانكشارية ورضوان بك . فوافقوهُ على ما اراد الاَّ ان احمد السكري وكيلهُ وكان من مماليك ابراهيم بك فلم يمكنهُ كتمان ذلك عنهُ فجاء اليهِ واخبرهُ بجميع ما كان من التواطؤ على قتلهِ وقتل رفيقهِ فسار للحال الى رضوان بك واخبرهُ وتشاورا بشأن ذلك فقررا اعداد مكيدة يقتلان بها عثمان بك فبعثا لهُ جواسيس يترصدونهُ في طريقهِ الى القلعة فمرَّ فوثبوا عليهِ ففر بجوادهِ حتى دخل القلعة ولم يظفروا بهِ فلاقاهُ وكيلهُ وقد اضمر لهُ الشر فسألهُ عما الَمَّ بهِ فاخبرهُ بما كان فكلمهُ بلسان الثعلب ناصحًا لهُ ان يبارح المدينة حالاً لان الناس قد ثاروا جميعًا يطلبون قتلهُ وما زال حتى اقنعهُ ففرَّ الى سوريا وسار هو برفقتهِ حتى اذا دنوا من غزة تنحَّى احمد عن الطريق واختبأ في قرية يقال

لما الاشرفية بدعوى انهُ يريد استطلاع الاحوال حماية لعثمان بك فتربّص هناك مدة ثم عاد الى القاهرة بمن معهُ من المماليك وسار الى ابراهيم بك واعلمهُ بما فعل فكافأهُ على تلك الخيانة برتبة الكوية . وهمّ الاهالي الى بيت عثمان بك فاحرقوهُ واقتسموا تركتهُ اما هو فوصل سوريا وحدهُ وسار منها الى الاستانة فولي بروصة ولبث فيها حتى توفاهُ الله . وجميع هذه الحوادث توالت في مصر اثناء سنة ١١٥٦ ه

فبعد اخراج عثمان بك من مصر صفا الجو لابراهيم كخيا ورضوان بك فعملا على ابادة الاحزاب التي كانت متآمرة عليهما فاخذ رضوان بك على نفسهِ اهلاك علي كخيا الطويل فأمر احد مماليكهِ ان يقتلهُ بالرصاص في وليمة حافلة فلبّى المملوك الامر لكنهُ اخطأ الرمي وعوضاً من ان يصيب عليًّا اصاب مملوكهُ الذي كان بجانبهِ فقُبض عليهِ وقتل للحال . اما ابراهيم كخيا فتعهد باهلاك من بقي من الاحزاب وقد كان على ولاية مصر اذ ذاك كيور احمد باشا فطلب اليهِ ابراهيم ان يوافقهُ على ابادة البكوات فوافقهُ وربما كان ذلك لخوفهِ منهُ او لان ذلك يعود عليهِ بالنفع الشخصي واستعانوا بالنقود فبذلوها فسهلت مشروعهم حتى انهم قتلوا علي بك الدمياطي بيد وكيلهِ سليمان في وسط الديوان وقد وعدهم هذا بتسليم رؤوس البكوات الاخر من احزابهِ . فامر ابراهيم كخيا ورضوان بك ان تقفل جميع منافذ القلعة على من فيها من البكوات المنوي قتلهم وجعلا على بابيَ الانكشارية والعزب جنداً . وحافظ سليمان على وعدهِ فبوشر بالمذبحة واول من قتل فيها خليل بك من دعاة الدمياطي ومحمد بك من دعاة القطامش وكثيرون غيرهم وحاول علي بك وعمر بك البلاط الفرار فتبعهما الباشا بنفسهِ ثم لاقاهما ابراهيم ورضوان وقتلاهما عند باب القلعة ولم يدفن من القتلى الّا محمد بك وخليل بك

ولم يبقَ من مناظري ابراهيم كخيا ورضوان بك الّا ابراهيم القطامش

وعلي كخيا الطويل فالاول مات من الحزن بعد مدة قصيرة والثاني هاجر من تلقاء نفسهِ تاركًا الدار ومن بناها . فصفا الجو لابراهيم كخيا فتولى مشيخة البلد وسمَّى رضوان بك اميرًا للحج . ثم جعلا يتبادلان هاتين الوظيفتين كل سنة وعاد كلٌّ منهما الى ميلهِ الطبيعي ابراهيم الى مطامعهِ ورضوان الى ملاهيهِ . فاخذ ابراهيم كخيا ينتهز الاحكام ويستخدمها لاسترجاع ما بذلهُ للحصول عليها فلم يغادر وسيلة الاَّ استخدمها في سبيل مطامعهِ من قتل وفتك فابتدأ بسليمان قاتل علي بك الدمياطي فحجر عليهِ في القلعة ولم يفرج عنهُ حتى استرجع منهُ كلما كان اعطاهُ من النقود . ثم باغتَ من بقيَ من الاغنياء في القاهرة ووضع يدهُ على ممتلكاتهم بعد ما قتل بعضًا منهم ونفى البعض الآخر . فاستولى في يوم واحد على اموال نحو من ثمانين بيتًا من بيوت القاهرة ووضع يدهُ على جميع محصولات البلاد والكمارك والقرى والمخازن حتى الحوانيت الصغيرة ويقال بالاجمال انهُ لم يبقِ ولم يذر

وكان كيور احمد باشا قد استُدعي الى الاستانة ووليَ حكومة قبرص فاقيم مقامهُ في القاهرة باشا آخر سنة ١١٥٦ هـ فعاملهُ ابراهيم كخيا بالاحتقار فحقد عليهِ . ثم اتفق غياب ابراهيم في قافلة الحج الى مكة فاغتنم الباشا فرصة غيابهِ وتواطأ مع حسين بك الخشَّاب على مكيدة يعدَّانها لابرهيم فاتفقا على ان يقوم الخشاب بما يلزم لقتل ابراهيم ورفيقهِ رضوان وان يكافئهُ الباشا على ذلك بمشيخة البلد . فلما رجع ابراهيم سعى الخشاب الى اتمام وعدهِ ففاز بالقبض على الاثنين فسجنهما في القلعة فولَّاهَ الباشا مشيخة البلد إلَّا انهُ لم يهنأ بها لان دعاة ابراهيم كخيا تحدوا وهجموا دفعةً على حسين بك والباشا واخرجوا المسجونين ففرَّ الخشاب الى مصر العليا واختبأ في ابريم من نوبيا . اما الباشا فاستُدعي الى الاستانة فعاقبهُ السلطان عقابًا انتهى بالموت

وكان يملك ابراهيم كخيا على اكثر من الني مملوك وفي جملتهم علي الذي سيلقب بعلي بك الكبير ويكون لهُ شأن عظيم بهذا التاريخ وسترى في سيرتهِ انهُ من افراد الدهر حزماً وبطشاً وحكمةً . وكان علي بك بين مماليك ابراهيم كخيا بصنة سلحدار آغا وكان ابراهيم كخيا يحبهُ كثيراً ويعتبرهُ حتى جعلهُ ناقل سيفهِ . ومما زادهُ اعتباراً لهُ انهُ استصحبهُ مرة في مسيرهِ الى الحرمين في قافلة وكان برتبة كاشف وقد سار قائداً لتلك القافلة فلاقاهم في الطريق سرب من اللصوص فدفعهم علي بقلب لا يهاب الموت فلقبوهُ بالجني . ولما رجع ابراهيم كخيا الى القاهرة نوى على مكافئة علي بلقب بك إلّا ان صغر سنهِ ودسيسة الخشاب حالا دون ذلك . ثم عقب ذلك شاغل آخر اكثر اهمية زاد الامر تأخيراً وذلك انهُ جاء القاهرة خبر وصول باشا جديد الى الاسكندرية بدلاً من الباشا الذي أُخرج منها . وكان من عادة الحكومة في مصر اذا علموا بمجيء باشا جديد بعثوا وفداً يلاقونهُ في الاسكندرية وفيهم العيون والجواسيس فيحيطون بهِ يستطلعون مقاصدهُ ونواياهُ وما في يدهِ من الاوامر السلطانية فاذا رأوا تلك الاوامر سلمية ومقاصدهُ حسنة تأهلوا بهِ وفتحوا لهُ الطريق حتى يصل بولاق فيحتفل الامراء بلقائهِ . اما اذا استطلعوا من احوالهِ غير ذلك بلغوا الامراء بالقاهرة فيجتمعون ويقررون اعلانهُ ان يقف حيث هو ويحررون الى ديوان الاستانة بعدم مناسبة ذلك الباشا الجديد وان بقاءهُ في مصر يخل بالنظام العمومي او ربما حمل الاهالي على الثورة . ثم يطلبون استبدالهُ بآخر اكثر مناسبة للبلاد منهُ

فلما اتصل بهم خبر قدوم هذا الباشا واسمهُ راغب محمد باشا سار شيخ البلد بنفسهِ لاستقبالهِ ومعهُ البكوات ثم اجتمعوا جميعاً بجلسة رسمية واقسموا على الطاعة والاخلاص لامير المؤمنين وكان قد خلع على كل منهم خلعة كالمعتاد . واحب الامراء راغب باشا محبة عظيمة لانهُ عرف كيف يعامل شيخ البلد

فاحبته الرعية ومالوا بكليتهم اليهِ فصرف بين ظهرانيهم سنتين كلها سلام وطمانينة حتى اجمع البكوات على استبقائهِ بينهم طويلاً

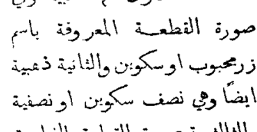
وبينما هم في مثل ذلك ورد الى الباشا خط شريف [١] ان يسعى جهدهُ الى قطع دابر البكوات وفي جملتهم شيخ البلد وكل من يلوذ بهِ . فاستنتج الباشا من نص ذلك الخط ان ديوان الاستانة مشتبهٌ بتصرفهِ في مصر وانهُ قد وشي بهِ الى جلالة السلطان ان اتفاقهُ مع بكوات مصر ليس الأمن قبيل عزمهِ على استخدامهم في مآربهِ بالاستقلال بحكومة مصر واخراجها من طاعة الدولة العلية . فوقع في حيص بيص وتردد بين ان ينفذ الاوامر الشاهانية جهاراً معاً في ذلك من الخطر وما يحول دونهُ من المصاعب او ان يعصاها او يؤخرها فيعرض حياتهُ للخطر ويؤيد التشكيات التي تقدمت بحقهِ . وبعد ان نظر في المسألة من سائر وجوهها قرَّر في ذهنهِ افضلية الفتك باصدقائهِ البكوات فتراطأ مع زمرة من رجالهِ انهُ متى اجتمع البكوات في مجلسهِ فليكونوا على استعداد للهجوم عليهم دفعةً عند اول اشارة ففعلوا ما امرهم بهِ لكنهم لم ينوزوا كل الفوز لان ثلاثة من البكوات تمكنوا من النجاة وفي مقدمتهم شيخ البلد بعد ان جاهدوا الجهاد الحسن واوسعوا الباشا تثريباً على فعلتهِ هذه التي لم يكونوا ينتظرونها منهُ بعد ان اظهروا نحوهُ من اللطف والصداقة والاخلاص ما قد رأيت . فبرّأ ساحتهُ باطلاعهم على الفرمان السرّي الوارد لهُ بهذا الصدد فكفُّوا عن الانتقام منهُ لكنهم عزلوهُ وحرروا الى الاستانة يطلبون من يقوم مقامهُ . وفي الحال عينوا ثلاثة بكوات في مكان الثلاثة الذين قتلوا بتلك المكيدة . واستغنم ابراهيم كخيا هذه الفرصة لترقية علي كاشف فرقّاهُ الى رتبة بك فساء

---

(١) يقصدون بالخط الشريف الاوامر الصادرة من جلالة السلطان رأساً

ذلك الترقي احد البكوات المدعو ابراهيم بك وكان شركسي المولد ولذلك كان يعرف باسم ابراهيم بك الشركسي وكان من دعاة ابراهيم كخيا لكنهُ عند ذلك تظاهر بعداوتهِ ونمت بينهما الضغائن التي لم تنتهِ الاَّ بقتل ابراهيم كخيا بعد ذلك الحين بخمس سنوات بيد ابراهيم بك الشركسي المذكور سنة ١١٦٨ ه · وفي تلك السنة توفي السلطان محمود بن مصطفى







وترى في شكل ٧٥ صور نقود السلطان محمود بن مصطفى مضروبة في القاهرة بتاريخ سنة ١١٤٣ ه فالاولى منها ذهبية وهي صورة القطعة المعروفة باسم زرمحبوب اوسكوين والثانية ذهبية ايضاً وهي نصف سكوين او نصفية والثالثة صورة القطعة النحاسية المعروفة بالجديد

ش ٧٥ نقود السلطان محمود بن مصطفى

سلطنة عثمان بن مصطفى

من سنة ١١٦٨ ــ ١١٧١ ه او من ١٧٥٤ ــ ١٧٥٧ م

فبويع اخوهُ السلطان عثمان بن مصطفى ويدعوهُ بعض مؤرخي المغرب عثمان الثاني وهو بالحقيقة عثمان الثالث وبقي على كرسي الخلافة ثلاث سنوات فقط · فشفى ابراهيم بك الشركسي غليلهُ بقتل ابراهيم كخيا لكنهُ لم يروِ مطامعهُ لان مشيخة البلد انتقلت الى رضوان بك صديق

ابراهيم كخيا . ثم ظهر لهُ مناظر آخر من زعماء حزب ابراهيم كخيا يقال لهُ حسين بك اصبح بعد قتل الكخيا اكبر زعماء ذلك الحزب فادعى لنفسهِ الاولوية بمشيخة البلد فلم تقبل دعواهُ فجمع اليهِ عددًا من دعاتهِ المماليك وصعد الى قلعة القاهرة واستولى على بطارية من المدافع تشرف على بركة الفيل حيث يقيم رضوان بك فاطلق عليها قنابل خرقت جدرانها فتداعت اركانها

وكان رضوان بك اذ ذاك مشغولاً بحلاقة لحيتهِ . فلما احسَّ بالامر امتطى جوادهُ لكنهُ لم يعلُ ظهرهُ حتى اصيب برصاصة كسرت فخذهُ الَّا انهُ تمكن من الفرار ومعهُ بعض المماليك الى قرية الشيخ عثمان وهناك توقف عن المسير لزيادة الالم وبرفقتهِ رئيس الضابطة وكان مجروحًا ثم توفي الاثنان ودفنا معًا . فسمّي حسين بك من ذلك الحين شيخ البلد وجعل يتقرب من اترابهِ البكوات لكنهم كانوا لا يزيدون منهُ الَّا نفورًا ولم تمضِ بضعة اشهر من توليتهِ حتى كمنوا لهُ في مكان مصاطب النشاب في السهل الواقع بين القاهرة واراضي ابراهيم بك وقد كان هناك منشغلاً بعرض جنودهِ المماليك فهمُّوا بهِ وذبحوهُ ثم قطعوهُ اربًا ومن ذلك الحين صار يعرف بحسين بك المقتول . فتولى مكانهُ خليل بك واشتهر بحب القتل وكان متظاهرًا بالعداوة والحسد لعلي بك على الخصوص لانهُ علم انهُ اشد اعدائهِ عزمًا

سلطنة مصطفى بن احمد

من سنة ١١٧١ – ١١٨٧ ه او من ١٧٥٧ – ١٧٧٤ م

وفي سنة ١١٧١ ه تولى الخلافة العثمانية مصطفى بن احمد وهو مصطفى الثالث . وبالحقيقة ان علي بك كان لشدّة اخلاصهِ لابراهيم كخيا

لا ينفك ساعيًا الى الانتقام لهُ ولكنهُ كان واضعًا امام عينيهِ ان السبيل الاقرب والاسهل لبلوغ مرامهِ انما هو القوة . فاخفى ما في ضميرهِ مدة ثماني سنوات كان اثناءها منشغلاً بجمع القوة فابتاع عددًا وافرًا من المماليك وتداخل مع البكوات الآخرين واكتسب ثقتهم بما كان يظهرهُ من الغيرة عليهم والاخلاص لهم وما كان يكرمهم بهِ من الهدايا وما زال يخطو خطوة بعد اخرى حتى اقترب من النقطة المطلوبة فاوجس خليل بك خيفة منهُ وجعل يتتبّعهُ بالارصاد والعيون ويعدّ لهُ المكايد في شوارع القاهرة ففي ذات يوم هجم عليهِ حسين بك كشكش بامر خليل بك وبعد موقعة هائلة اضطر علي بك ان يفر الى الصعيد في جملة من اصدقائهِ البكوات يستعد للانتقام انتقامًا مضاعفًا

فصرح خليل بك ان علي بك ومن تابعهُ من البكوات مجردون من رتبهم وحقوقهم وولّى بمناصبهم بكوات من ذويهِ وقتل كل من ظفر بهِ في القاهرة من اصدقاء علي بك او المنتمين اليهِ . اما علي بك فلاقى في الصعيد احد مماليك مصطفى القرد يدعى صالح بك كان منفيًا الى هناك وفي قلبهِ من خليل بك حزازات فاتحد الاثنان ورجالهما وزحفا الى القاهرة فخرج خليل بك وحسين بك كشكش لمقاتلتهما فدارت رحى الحرب فكان الفوز لعلي بك ورفيقهِ فتتبعا خليل بك ورجالهُ حتى قطعوا بهم مديرية القليوبية واوصلوهم الى المسجد الاخضر على ضفاف النيل واشتد الكفاح هناك فاضطر خليل بك ورجالهُ الى الالتجاء الى طنطا فبعث علي بك كاشفهُ محمد الملقب بابي الذهب ليهاجمهم فهاجمهم واستلم طنطا بعد ان قتل حسين كشكش . اما خليل بك فاختبأ بالمسجد وبقي فيهِ وقد داهمهُ الجوع ثم قبض عليهِ ونفي الى الاسكندرية ثم خنق هناك . اما رؤوس القتلى فنقلوها الى القاهرة وطافوا بها في اسواقها

علي بك الكبير

من سنة ١١٧٧ ــ ١١٨٧ ه او من ١٧٦٣ ــ ١٧٧٤ م

فتمكن علي بك بهذا الانتصار من استلام مشيخة البلد في القاهرة وذلك سنة ١١٧٧ ه واول امر باشرهُ قتل ابراهيم الشركسي الذي قتل سيدهُ فثارت عليهِ احزابهُ يطلبون الانتقام وكانوا عديدين فخاف علي بك على حياتهِ ففرّ من القاهرة حالاً طالباً سوريا فالتجأ الى متسلّم (حاكم) بيت المقدس وكانت بينهما صداقة قديمة الّا ان هذا الملجأ لم يحمهِ الا مدة شهرين لان اعداءهُ البكوات لما علموا بمفرّه شكوهُ للسلطان مصطفى واخبروهُ بمفرّهِ فانفذ الى متسلم المقدس فرماناً يأمرهُ بهِ ان يرسل علي بك تحت الحجز الى الباب العالي . فعلم علي بك بذلك ففرّ الى عكا وهناك اكتسب صداقة الشيخ ضاهر بن عمر امير تلك المدينة الحصينة فاكرم وفادتهُ وسعى الى تبرئتهِ امام الباب العالي وبمساعدة نصرائهِ من اصدقاء ابراهيم كخيا تمكن من نوال العفو عنهُ من لدن الحضرة الشاهانية فالغيت الاوامر بالقبض عليهِ واعيد الى القاهرة في منصبهِ الاول

وفي سنة ١١٧٩ ه اي بعد ذلك الحين بسنتين هُدد علي بك بالاقالة من ذلك المنصب . وكيفية ذلك ان محمد راغب باشا الذي كان على مصر وعزل منها على ما مر بك كان لا يفتر عن تذكار كرم اخلاق علي مذ كان كاشفاً . فبعد استقالتهِ من مصر ولي بر الاناضول وبعد تسع سنوات ارتقى الى رتبة صدر اعظم بامر السلطان مصطفى الثالث وما انفك مع ذلك متذكرًا صداقة علي بك لا يفتر عن معاضدتهِ وتسهيل مشروعاتهِ سرًّا وجهرًا . ففي سنة ١١٧٩ ه توفي الوزير راغب محمد باشا فاصبح علي بك في احتياج لمن يعضدهُ . فاغتنم اعداؤهُ هذه الفرصة ووشوا بهِ الى

الاستانة فاضطر علي بك ان يفرّ الى اليمن لكنهُ لم تأت سنة ١١٨٠ هـ حتى عاد الى القاهرة واسترجع منصبهُ بمساعدة احزابهِ وموت اربعة من دعاة ابراهيم الشركسي . ثم تراءى لهُ ان صديقهُ صالح بك قد حدثتهُ نفسهُ بخرق حرمة الصداقة واتباع داعي المطامع الشخصية فوكل امر قتلهِ الى احد اتباعهِ المدعو ابراهيم كاشف فقتلهُ طعنًا وسترى ان ابراهيم هذا سيرتقي حتى يتولى مشيخة البلد

ثم رأى علي بك ايضًا ان قبائل العربان في مصر السفلى قد شقت عصا الطاعة فانفذ اليها احد مماليكهِ المدعو احمد في فرقة من الرجال فحارب اولئك العربان وامعن في قتالهم حتى لقبوهُ بالجزّار وهو الذي تولى عكا بعدئذٍ واشتهر هذا الاسم هناك بالعسف والجور . اما من بقي من اعداء علي بك فاضطربوا خوفًا وازموا السكوت والطاعة فارتاح وتحقق تخلصهُ من القلاقل والمفاسد والمقاومات . الّا انهُ رأى من باب الاحتياط والحرص ان يرقي ثمانية عشر مملوكًا من اتباعهِ الى رتبة البكوية يكونون لهُ نصراء وقت الحاجة وهذه اسماؤُهم

(١)	رضوان ابن اخيهِ	من جورجيا
(٢)	علي الطنطاوي	» »
(٣)	اسماعيل	» »
(٤)	خليل	» »
(٥)	عبد الرحمن	» »
(٦)	حسن	» »
(٧)	يوسف	» »
(٨)	ذو الفقار	» »
(٩)	عجيب	» »
(١٠)	مصطفى	» »

(١١) احمد الجزّار من اماسيا
(١٢) سليم آغا انكشاري
(١٣) سليمان كخيا »
(١٤) لطيف شركسي
(١٥) عثمان »
(١٦) ابراهيم »
(١٧) مراد »

ولهذين الاخيرين شأن في هذا التاريخ لانهما سيتنازعان السلطة في مصر

(١٨) محمد

وكان يعزّهُ اكثر من الجميع وستراهُ رجلاً عفوفًا ناكرًا للجميل . فلما تقلّد محمد هذا الكوية ولم يكن قبل ذلك الّا كاشفًا لُقب بابي الذهب فاحب ان يجعل هذا اللقب اسماً على مسمّى فجعل يتظاهر بالكرم المفرط فكان بدلاً من ان يفرّق العطايا بالبارات يفرّقها بالارباع

اما علي بك فكان ساهرًا على مصلحة البلاد سهرًا تامًا وكان مخلصًا في كل اعمالهِ فطهّر البلاد من اللصوص وسعى كل ما في جهدهِ لاصلاح شؤونها فساد الامن فيها بعد ان كانت معرضًا للقلاقل والمفاسد . ولم يكن ذلك كلّ مطامع علي بك فانهُ رأى من تحامل الواشين بينهُ وبين ديوان الاستانة وايقاع ذوي الاغراض بهِ وبسلطتهِ ما حملهُ على السعي الى الاستقلال بمصر وتجريدها من حماية الدولة العثمانية كليةً لكنهُ كتم مقاصدهُ هذه وجعل يسعى الى تنفيذها تحت طي الخفاء واول خطوة خطاها نحو هذه الغاية انهُ انتحل اسبابًا مختلفة بنى عليها عزل او ابعاد جميع مستخدمي الملكية والجهادية ورؤساء الوجاقات واستبدالهم بمن هم على دعوتهِ الّا وجاق الانكشارية فانهُ لم يمسّهُ وذلك بعد ان تمكن من استبقائهِ تحت حمايتهِ وسد جميع السبل التي يمكنهُ بهِ التطرق الى مقاومتهِ

واخَّر دفع مرتبات الوجاقات الاخرى عمدًا فكان يدفع لهم اقساطًا عملة ورق بول وكانت تخسر المائة من هذا الورق تسعين فكان يرجع علي بك ار باحًا عظيمة باسترجاع الورق بالاثمان البخسة وصرفهِ ثانية بثمنهِ الاصلي . فلما رأت الوجاقات انهم لا يستولون من ماهياتهم الَّا على العشر كرهوا الاستخدام بالعسكرية وجعلوا يستقيلون منها شيئًا فشيئًا ويتعاطون اشغالاً اخرى اكثر فائدةً لهم

ثم سعى علي بك الى تقليل العساكر العثمانية وتكثير المماليك من دعاتهِ. فيقال انهُ جعل عددهم نحوًا من ستة الاف وحظر على سائر البكوات والكشاف الذين يخشى من تغيُّرهم عليهِ ان يقتني احدهم اكثر من مملوك او مملوكين . وكان على ولاية مصر اذ ذاك محمد باشا فازعجتهُ اجراآت علي بك وخشي عاقبتها فنصح اليهِ ان يقف عند حدّهِ فلم يكترث بقولهِ . فاقرَّ الباشا على مقاومتهِ بدعوى ان هذه الاجراآت مضادة لمصالح الباب العالي ولكنهُ لم يكن يستطيع المجاهرة بمقاصدهِ هذه فجعل يدسُّها سرًّا واتحد مع من بقي من دعاة ابراهيم الشركسي واقرُّوا على الانتقام من علي بك ثم جعلوا يسعون فسادًا بين احزابهِ حتى استجلبوا بعضًا منهم الى جانبهم بالمواعيد المبنية على الحسد والطمع . وفي جملة هولاءِ محمد بك ابو الذهب الذي طمرهُ علي بك بفضلهِ حتى ازوجهُ ابنتهُ وكان يناديهِ كما ينادي اولادهُ . ولما لم يكونوا يستطيعون تنفيذ ما ربهم جهارًا اغروا صهرهُ محمد بك المذكور بمبالغ وافرة ووعدوهُ انهُ اذا قتل علي بك يتولى المشيخة مكانهُ فقبل لكنهُ علم بعدئذٍ انهُ يقصر باعًا عن مناواة علي بك واستعظم الجناية فعدل عنها الى جناية اعظم منها . وذلك انهُ شكى الى علي بك من معاملة الباشا لهُ فاسرع علي بك الى انقاذهِ منهُ وما انفك عن الباشا حتى اخرجه من مصر فعاد الى الاستانة . ولم يزدد علي بك في محمد بك ابي الذهب الَّا ثقةً واخلاصًا رغمًا عما كان يُنقل اليهِ عنهُ من السعي الى الايقاع بهِ

وفي سنة ١١٨٢ هـ انتشرت حرب بين الروسية والدولة العلية فبعثت هذه الاخيرة الى مصر ان تبعث اليها مددًا من اثني عشر الفًا فوصلت الاوامر لعلي بك بهذا الصدد ومشروعهُ لم ينضج بعد فلم يسعهُ الاَّ مباشرة ما أُمر بهِ فابتدأ بجمع الجنود . اما اعداؤُهُ فاغتنموا تلك الفرصة للوشي بهِ فاستجلبوا اليهم بكل سهولة الباشا الجديد الذي كان قد أُرسل من القسطنطينية بدلاً من الباشا الذي اخرجهُ علي بك واتفقوا جميعًا على كتابة تقرير ممضيّ من الباشا وسائر البكوات اعداء عليّ يوشون بهِ الى الديوان الشاهاني بدعوى انهُ انما اراد بما يجمعهُ من الجيوش معاضدة روسيا لتحرير مصر فانفذ الديوان الشاهاني الى الباشا امرًا مشدَّدًا ان يقتل علي بك ويرسل رأسهُ الى اعتابهِ . فاتصل ذلك بعلي سرًّا بواسطة اصدقائهِ بالاستانة فبعث علي بك الطنطاوي احد دعاتهِ في عشرة من اتباعهِ المماليك متنكرين بلباسٍ بدوي يكمنون في مكان على مسافة قصيرة من القاهرة حيث لا بدَّ للقابجي باشي حامل ذلك الفرمان من المرور بهِ فمكثوا هناك ثلاثة ايام متوالية وفي اليوم الرابع بانَ لهم القابجي ومعهُ اربعة نفر فقط فوثبوا عليهم وقتلوهم جميعًا وطمروهم في الرمل بعد ان اخذوا ملابسهم والفرمان وساروا بهِ الى علي فقرأَهُ ثم جمع اليهِ ديوان البكوات العمومي واطلعهم عليهِ واقنعهم ان ذلك الامر ليس فقط لقتلهِ وحده وانما لقتلهم جميعًا على أثرهِ ثم خاطبهم قائلاً « دافعوا اذًا عن حياتكم وحقوقكم واعلموا ان مصر ما برحت منذ القدم محكومة بدولٍ من المماليك وقد كانوا سلاطين اشدَّاء تفاخر بهم الارض السماء فاعيدوها اليهم . وهذه فرصة ثمينة لا تضيعوها فانكم لن تعثروا عمركم على فرصة مثلها هلمَّ اذًا نسعى الى الاستقلال فان فيهِ حياتنا وحريتنا »

فثار البكوات بجملتهم متأثرين من فصاحة عليّ وبلاغتهِ وكانوا ثمانية عشر جميعهم على دعوتهِ فعاهدوهُ ان يدافعوا عنهُ ما استطاعوا . اما

من بقي من الامراء المماليك الذين كانوا من اعدائهِ فخافوا العاقبة والزموا السكوت . فكتب ديوان علي بك امرًا الى الباشا ان يبارح الاراضي المصرية في مدة ثمان واربعين ساعة وانهُ اذا لم يفعل يقتل وان مصر قد اصبحت مستقلة . وبعث علي الى الشيخ ضاهر امير عكا يعلنهُ رسميًا استقلال مصر ويدعوهُ للمساعدة في ذلك فاجابهُ الشيخ ضاهر مسرورًا وجمع اليهِ رجالهُ ورجال بنيهِ السبعة وصهرهِ وانضمَّ الجميع الى جنود علي وكان قد اضاف الى الستة آلاف التي عندهُ من المماليك الاثني عشر الف التي جمعت لمدد العثمانيين واضاف الى هذه ايضًا رجال اصدقائهِ البكوات حتى رجال اعدائهِ لانهم لم يعد يسعهم الاَّ طاعتهُ . فاتصل ذلك بالاستانة فارسل الباب العالي امرًا الى والي دمشق ان يسير في خمسة وعشرين الفًا لمنع جنود عكا من معاضدة عليّ فسار الوالي في ذلك العدد من الرجال فلاقاهُ الشيخ ضاهر في ستة آلاف فيما بين جبل لبنان وبحيرة طبرية وردَّهُ على اعقابهِ سنة ١١٨٣ هـ . وكانت هذه الموقعة آخر المواقع لان الباب العالي امسك بعد ذلك عن ارسال الجند وكانهُ نسي علاقتهُ مع سوريا ومصر بالكلية

اما عليّ فاغتنم فرصة انشغال الدولة العلية بالمحاربة مع روسيا وصرف اعتناءهُ نحو تنظيم مملكتهِ الجديدة واصلاح ما داخلها من الخلل فخفض الضرائب وجعل على المالية مدير الكمرك القديم المعلم ميخائيل فرحات القبطي بدلاً من يوسف بن لاوي الاسرائيلي الذي قتل جزاء خيانتهِ . ونظَّم التجارة الخارجية والمخابرات وابعد العربان الى الصحراء فساد الامن وانتشر الاصلاح في القطر فزادوا على القاب علي لقب بلوط قبان (مبيد اللصوص) . وكان في جملة القبائل الثائرة على مصر قبيلة الهوَّارة وكانت اشدهنَّ بأسًا واطول باعًا جاءت في الاصل من ضواحي تونس الغرب واستقرَّت فيما بين جرجا وفرشوط في بقعةٍ من الارض لم تكن تصلح

للزراعة فاعتنوا فيها حتى ابتنوا فيها عدة قرى وما زالوا ينشرون سطوتهم حتى احتلُّوا جميع الاراضي بين هو وكفر الشيخ سليم . ثم اغتنم الشيخ هامان (شيخ الهوارة) فرصة انشغال مصر بما تقدم ووضع يدهُ على كل البلاد من اسيوط الى اصوان وجمع اليهِ محصولاتها . وكان قد حارب هذه القبيلة كثيرون ممَّن تولوا مصر قبل عليّ وفرضوا عليها ضريبة مقدارها ٣٥٠ الف اردب من الحنطة توردها سنويًّا الى مصر

ففي سنة ١١٨٣ هـ ارسل علي بك صديقهُ محمد بك ابا الذهب لمحاربة الشيخ هامان وقبيلتهِ فحاربهم وتغلب عليهم في اواخر تلك السنة فاضطر ابناء الشيخ ان يبتاعوا حياتهم بكل ما كان لديهم من ثروة ابيهم . فربح ابو الذهب من هذه الموقعة ثروة كبيرة ثم اسرع الى القاهرة لما علمهُ من الدسائس التي كان ساعيًا بها رفيقهُ احمد بك الجزَّار على علي بك وكانهُ لم يكن يريد ان يشاركهُ احدٌ بالدسائس على سيدهِ . وكان احمد الجزَّار ينظر الى محمد ابي الذهب نظرهُ الى عدوٍّ يناظرهُ في ارتكاب الدنايا فسعى الى قتلهِ فلم ينجح . وكان لاحمد الجزار سيفٌ مشهور بطيب فولاذهِ واتقان صنعهِ فاتفق يومًا انهُ اجتمع بمحمد ابي الذهب فقال لهُ محمد « ارني حسامك لاجرّبنَّ فرندهُ » فاجابهُ احمد « لا يستلُّ حسامي سواي ولا اغمدهُ حتى يستباح قتيل » ثم نهض للحال وغادر القاهرة قاصدًا القسطنطينية فوصلها ثم عهدت اليهِ ولاية عكا بعد ذلك وما زال فيها حتى توفاهُ الله

اما علي بك فبعد ان تغلب على الصعيد ثار في خاطرهِ حب الافتتاح فجرَّد الى اليمن تحت قيادة محمد ابي الذهب فسار في عشرين الف مقاتل فقطع برزخ السويس ومضيق العقبة ولم يُبقِ على احد من القبائل التي حاولت الوقوف في طريقهِ وما زال حتى اتى اليمن وافتتحها . وامر عليٌّ فسار اسماعيل بك في ثمانية آلاف لافتتاح السواحل الشرقية للبحر الاحمر وحسن بك لافتتاح جدة ولقب بالجداوي اشارة الى انتصارهِ على تلك

المدينة وما زال يعرف بهذا اللقب من ذلك الحين . ولم تمضِ ستة اشهر حتى افتُتحت شبه جزيرة العرب وفي جملتها مكة المشرفة التي لحق بها نهبٌ شديد وأُنزل شريفها واقيم مقامهُ ابن عمهِ الامير عبدالله فثبَّت عليًّا في سلطنتهِ ببراءة رسمية ولقبهُ بسلطان مصر وخاقان البحرين . فلما حصل علي بك على هذا التثبيت من شريف مكة اخذ يتمتع بكل حقوق السلطنة فامر ان يُخطب باسمهِ في الصلوات العمومية ايام الجمعة وضرب النقود سنة ١١٨٥ ه في القاهرة باسمهِ كما سترى

وفي هذه السنة سعى علي بك الى امرٍ سبق بهِ الى حتفهِ وذلك انهُ عهد الى محمود بك ابي الذهب ان يسير في ثلاثين الفًا لاخضاع بلاد الشام لانهُ كان يعتبر هذه الولاية بعد ان خرج هو من طاعة الدولة العلية جارًا عدوًّا يخشى منهُ ليس فقط على نفسهِ ولكن على الشيخ ضاهر صديقهِ ومحالفهِ ايضًا . وكان ينظر الى سوريا كأنها مجعولة من طبيعتها جزءًا من مملكة مصر وقد كانت بالواقع قسمًا منها في سائر الازمنة التي كانت فيها مصر مستقلةً كما رأيت في ايام الدول الطولونية والايوبية والمماليك وغيرها . وسعى علي بك في الوقت نفسهِ الى التحالف مع دولٍ بينها وبين الاستانة عداوة طبيعية . فاستخدم احد التجار الايطاليين المدعو روسّتي فعقد لهُ معاهدة سلمية مع الفنيسيين على ان يكونوا اصدقاء معضدين لهُ . ثم عهد الى رجل ارمنيّ يدعى يعقوب ان يستطلع من الكونت الكسيس اورلوف قومندان القوات الروسية في البحرين (المتوسط والاسود) عن امكان عقد معاهدة دفاعية وهجومية مع قيصرة روسيا كاترينا الثانية . فاجاب الكونت بالايجاب وفُتحت المخابرات بشأن ذلك وطال امرها كثيرًا لبعد المسافة بين الطرفين . اما جنود علي بك في سوريا فصاحبها الظفر واتحدت بجنود الشيخ ضاهر فاستولوا على غزة والرملة ونابلس واورشليم ويافا وصيدا واخيرًا حاصروا دمشق ولم تلبث يسيرًا حتى سلّمت

فلما رأى محمد ابو الذهب ما كان من هذه الفتوحات العظيمة على يدهِ حدثتهُ نفسهُ ان يجعلها لنفسهِ . ثم قادتهُ مطامعهُ الى محاربة عليٍّ واستخراج مصر من يدهِ . ويظن انهُ لم يقدم على ذلك من تلقاء نفسهِ وانما كان محمولاً باوامر جاءتهُ من الاستانة لان المخابرات السرّية كانت متواصلة بينهُ وبينها بواسطة الباشا الذي اخرجهُ عليٌّ من مصر . فامسك محمد عن المسير في الاراضي العثمانية وحوَّل شكيمة مناصدهِ نحو الديار المصرية فجمع اليهِ كل ما كان لديهِ من الجيوش وضمَّ اليها كل الحاميات التي كان قد اقامها في المدن المفتتحة وسار قاصدًا مصر . الّا انهُ لم يجسر على المسير الى القاهرة رأسًا خشية ان يلاقي من الانكشارية والوجاقات الاخرى اعداء اشداء لعلمهِ بما في قلوبهم من الضغينة عليهِ . فعرَّج نحو الصحراء وسار حتى بلغ الصعيد فحط رحالهُ هناك واستولى على اسيوط في آخر يوم من سنة ١١٨٥ ﻫ . ثم استقدم اليهِ قبائل العربان وطلب محالفتهم ومحالفة بكوات الصعيد وجاهر بعزمهِ على خلع علي بك وسار قاصدًا القاهرة فوصلها في اوائل سنة ١١٨٦ ﻫ فنزل بجيشهِ مقابل البساتين فوق مصر القديمة . فلما علم عليٌّ بذلك ندم على ما وضع من الثقة في رجل كان لهُ ان يعتبر من سيرتهِ الماضية انهُ على غير الاخلاص والاستقامة . فجند ثلاثة آلاف رجل تحت قيادة اسماعيل بك وامرهم ان يمنعوا محمدًا من عبور النيل فسار اسماعيل لكنهُ خاف سطوة عدوهِ . ثم وردت اليهِ منهُ كتب مفعمة بالمواعيد يمازجها بعض التهديد فاخذ جانبهُ وضمَّ جيشهُ الى جيشهِ فقطع محمد بك النيل فاستقبلتهُ رجال اسماعيل بالترحاب فاتصل ذلك بعلي فيئس من الفوز فانقطع الى القلعة بعائلتهِ واصدقائهِ ورجال دعوتهِ عازمًا على المدافعة الى آخر نسمة من حياتهِ . وبعد ذلك بثلاثة ايام ورد اليهِ كتابٌ من الشيخ احمد احد ابناء صديقهِ الشيخ ضاهر ان يبارح القاهرة حالاً ويأتي الى ابيهِ في

عكا فبارح عليٌّ القلعة بمن معهُ وسار من جهة الجبل الاحمر طالبًا سوريا عن طريق الصحراء . وكان خروجهُ قبل دخول محمد بك القاهرة بيوم واحد اي مساء ٩ محرم سنة ١١٨٦ ه وهذه هي المرة الثالثة لخروجهِ منها الى سوريا وفي معيتهِ عددٌ يسير من الجند لا يبلغ ستة الآف معظمهم من الخدمة الذين لا يستطيعون الدفاع . ولم يحمل معهُ من المال الاَّ ثمانماية الف زرمحبوب يحملها ٢٥ جملاً . ونقل معهُ من المصاغ والحلي ما يساوي اربعة اضعاف ذلك . وما زالوا في المسير ليلاً ونهارًا فوصلوا الى خان يونس في حدود سوريا بعد ثلاثة ايام فرأوا ان خمسةً من الجمال الحاملة للنقود قد ذهبت فريسة بيد القبائل البدوية وان عددًا من جنودهِ قد فروا ومعهم يوسف الخزندار . وفي اليوم التالي دخل علي بك غزة ثم واصل السير حتى اتى عكا بعد ثمانية ايام فترحَّب بهِ اميرها وكانت بينهما مودة شديدة فامن عليٌّ هناك غير ان ما تكبدهُ من المشاق في الاسفار مع ما أثَّر في نفسهِ من الغيظ الشديد قد غيَّرا في صحتهِ فلم يصل عكا الاَّ وهو في حالة الخطر من شدة المرض

وفي اثناء ذلك وصل مينا عكا اسطولٌ روسيٌّ فلما علمت حاميتهُ بما حلَّ بعلي عقدوا معهُ معاهدة ثانية وقدموا لهُ كلما يحتاج اليهِ من المؤن والزخائر وكان في خدمة ذلك الاسطول فرقة من الالبانيين (الارناووط) مؤلفة من ثلاثة الآف رجل فأمدُّوه بهم . فلما رأى علي بك ما كان من نجدة الروسيين مع ما يمكنهُ الحصول عليهِ من جنود الشيخ ضاهر عزم على مناواة ابي الذهب لكنهُ لم يكن يستطيع مباشرة ذلك بنفسهِ لانحراف صحتهِ . فعهد الى علي بك الطنطاوي بعد ثلاثة اشهر ان يسير اولاً لاسترجاع المدن السورية التي دخلت في حوزة محمد ابي الذهب فسار واستولى على صور وصيدا وقرى اخرى من سواحل سوريا كانت قد احتلتها جنود عثمانية بعد انسحاب جنود محمد ابي الذهب . ثم سار عليٌّ بنفسهِ فيمن بقي من

الجند الى يافا وافتحها بعد محاصرة خمسة اشهر استولى في اثنائها على غزة عنوةً وعلى الرملة واللد تسليمًا . فاعاد يافا الى حكومة الشيخ ضاهر وجعل على اللد حسن بك الجداوي وعلى الرملة سليم بك

وفي ٩ ذي القعدة سنة ١١٨٦ ه‍ كان علي بك في يافا فجاءته رسل من القاهرة بمأمورية سرية من وجاق الانكشارية والوجاقات الاخرى وسائر اعيان القاهرة يعلمونهُ ان محمد ابا الذهب دخل القاهرة حالما خرج منها هو وسمَّى نفسهُ شيخ البلد وجعل يعيث في البلاد ظلمًا لم يسبقهُ الى مثلهِ احدٌ ممن تولى مصر قبلهُ فجعل بعض الضرائب ضعفين وبعضها ثلاثة اضعاف . ثم اختلق قانونًا غريبًا دعاهُ قانون رفع المظالم والمقصود منهُ بحسب الظاهر انقاذ ملتزمي الاموال الاميرية من الاجراءات الاستبدادية التي كان يسومهم اياها الكشاف الى ذلك العهد واستبدالها بما يعود بالمنفعة والحقيقة ان الضرائب ما انفكت اشدَّ وطأة من ذي قبل والاجراآت لم تزدد الاَّ استبدادًا فضلاً عما رافق كل ذلك من الفتك بالعباد قتلاً ونهبًا

ثم قالوا ان مصر بجملتها لما رأت ما وصلت اليهِ من الانحطاط وما لحق باهلها من المظالم والاجراآت التي ما انزل الله بها من سلطان قد نوَّبتهم ان يبلغوا علي بك انها بصوت واحد تلتمس رجوعهُ ليحكم فيها لانهُ هو منقذها الوحيد وان مدينة القاهرة مستعدة ان تفتح ابوابها لاستقبال اميرها القديم وان تدافع عنهُ الدفاع الممكن اذا حاول محمد بك ابو الذهب اجراء ما يخالف الصوت العمومي

فلما علم علي بك بكل ذلك شعر كأن آمالهُ عادت اليهِ وبارح يافا للحال قاصدًا القاهرة . ولم يكن لديهِ من الجنود الاَّ الفان وخمساية فاستنجد حاميات اللد والرملة وانضم اليهم جنود الشيخ ضاهر وجنود ابنهِ الشيخ شلبي وصهرهِ الشيخ كريم وحسن شيخ مدينة صور . وكان قد استأجر

ثلاثة آلاف وخمساية من المغاربة . فكان عدد الجنود التي بمعيتهِ جملةً ثمانية آلاف محارب

ففي ١١ محرَّم سنة ١١٨٧ ﻫ وصل علي بك بجنودهِ الى خان يونس وفي ١٦ منهُ اقترب من الصالحية . وفي ١٨ منهُ التقى بمقدمة جيوش محمد بك ابي الذهب وعدَّتهم اثنا عشر الف مقاتل وبعد محاربة بضع ساعات ظهر علي بك عليهم بعد ان قتل عددًا غفيرًا من رجالهم . فانفتحت لهُ ابواب الصالحية فدخلها بسلام وقد أُصيب بجروح بليغة . ثم علم ان اعتمادهُ على احزابهِ في القاهرة لا يورثهُ الَّا خيبة الامل لان ابا الذهب كان قد جمع اليهِ كبراء البلاد ورجال حكومتها لما علم بمظاهرتهم لعلي وحاول اقناعهم ان علي بك قد غدر الامَّة وخان الوطن واباح دماء المسلمين بمعاهداتهِ مع الروسيين وغيرهم من الامم النصرانية . واستخدم ابو الذهب في سبيل اقناعهم الدرهم الوضاح فانحازت اليهِ كل القوات العسكرية الَّا وجاق الانكشارية فانهُ بقي محافظًا على ولاء علي بك . فلما تحقق محمد بك ابو الذهب اجتماع الاحزاب في مصر على دعوتهِ أَمن من الاضطراب الداخلي فسار بنفسهِ لمحاربة علي

اما علي فانزعج لتلك الاحوال انزعاجًا كثيرًا فضلًا عما كابدهُ من مشاق الاسفار في قطع الصحراء الحارة وزد على ذلك الجروح التي اصابتهُ في موقعة الصالحية فأُصيب بحمى شديدة منعتهُ من امتطاء جوادهِ وقيادة جنودهِ . وفي ٣٠ محرم سنة ١١٨٧ ﻫ علم بمجيء ابي الذهب وهو على ما تقدم من المرض فلم يتردد في وجوب الدفاع فأمر قوَّادهُ فانتظمت رجالهُ على قلتها وتهيَّأَت للدفاع . وكان على الجناح الواحد من الجيش علي بك الطنطاوي ومن معهُ من البكوات وعلى الجناح الآخر ابن الشيخ ضاهر وصهرهُ فاستظهرت جنود علي بادئ الرأي حتى قاربت الفوز التام ثم ارسل ابو الذهب جواسيس الى المغاربة في جيش علي يغريهم على

خيانة رئيسهم فوافقوهُ ووافقهُ غيرهم كثيرون من بكوات علي وفي جملتهم ابراهيم بك ومراد بك . وهذا الاخير اشترط ان يأخذ مقابلاً لخيانتهِ هذه كلما يتركهُ عليٌّ من المتاع والنساء وعلى الاخص امرأتهُ نفيسة التي كان علي يحبها ويعتبرها كثيرًا لما كانت عليهِ من الفطنة والجمال

فلما انتشبت الحرب في الصباح التالي انحاز جميع المغاربة والبكوات الذين خانوا الى معسكر ابي الذهب . وكانت جنود علي بك قريبة من النوز فلما رأت تلك الخيانة حبطت قواها وفرَّ الجند يطلبون النجاة بانفسهم بعد ان قُتل علي بك الطنطاوي والشيخ شلبي ونجا الشيخ كريم والشيخ حسن ورضوان بك من المعركة وساروا الى فسطاط علي واعلموهُ بما حصل وطلبوا اليهِ ان يمتطي فرسهُ ويسير برفقتهم الى غزة حيث يلاقيهم الشيخ ضاهر بمن معهُ من الجند . اما علي بك فأبت نفسهُ الاصغاء لما ارادوا فجلس عند باب خيمتهِ وقال لهم « ها اني ملازم هذا الموضع لا ابارحهُ حتى تبارحني نفسي لان الموت فيهِ افضل عندي من الفرار . اما انتم فاذا شئتم النجاة بانفسكم فبادروا الى الفرار قبل ان يغشاكم ما ربما لا تقوون على دفعهِ » . فاضطر ابن اخيهِ ورجالهُ الباقون ان يذعنوا لما امر . فودعوهُ وحوَّلوا الاعنة في طريق خان يونس قاصدين غزَّة وهناك وجدوا الشيخ ضاهر فاعلموهُ بما كان وبوفاة ابنهِ فاسف عليهِ كثيرًا .

اما علي بك فمكث بعد وداع اصدقائهِ بضع ساعات ينتظر منيتهُ وبجانبهِ عشرة من مماليكهِ واذا بخمسين رجلاً تحت قيادة الكخيا نائب محمد ابي الذهب قد وصلوا الى الخيمة ودخلوها وقتلوا من كان فيها من المماليك ثم وثبوا على علي وكان المرض مشتدًا عليهِ وفيهِ جروح لكنهُ نهض بسيفهِ فقتل اوَّل قادم اليهِ وجرح اثنين آخرين فخشي الباقون الاقتراب منهُ فاطلقوا عليهِ البنادق فجرحوهُ جروحًا بليغة في ذراعهِ وفخذهِ اليمنى . فجعل يدافع بيسراهُ دفاعًا شديدًا حتى وثب عليهِ الكخيا بنفسهِ فدافعهُ حتى اصيب

في ذراعهِ اليسرى وفي اماكن اخرى فسقط على الارض وهو لا ينفك عن الدفاع فتكاثرت عليهِ الرجال حتى امسكوهُ حيًّا وساروا بهِ الى محمد ابي الذهب وطرحوهُ عند قدميهِ فامر بحملهِ الى القاهرة فحملوهُ اليها وانزلوهُ في دارهِ بدرب عبد الحق في شارع البكري وراء صندوق الدين فلبث فيها سبعة ايام ثم توفاهُ الله . وقد قال بعضهم ان ابا الذهب ادخل السمّ في جروحهِ فقتلهُ والله اعلم . وقد دفنوهُ بتربة استاذه ابراهيم كخيا بجوار الامام الشافعي . وقد كان لموت هذا الرجل تأثير عظيم في قلب كل من عرفهُ حتى ان ابا الذهب نفسهُ لم يسعهُ الاّ الندم داخليًا لما فرط منهُ وما اتاهُ من نكران الجميل وارتكاب مثل هذه الخيانة

ومن صفات علي بك انهُ كان عظيم الهيبة حتى اتفق لاناس انهم ماتوا خوفًا من هيبتهِ وكانت تاخذ الرعدة بعضهم بمجرّد المثول بين يديهِ فيأخذ هو بتلطيف رعبهِ فيقول لهُ « هوّن عليك » . وكان صحيح الفراسة شديد الحذق يفهم ملخص الدعوى الطويلة بين المتخاصمين ولا يحتاج في التفهيم الى ترجمان او من يقرأ لهُ الصكوك والوثائق بل يقرأها هو بنفسهِ ولا يختم ورقة حتى يقرأها ويفهم مضمونها . ومن مآثرهِ البناية العظيمة بطنطا وهي المسجد الجامع والقبة على مقام السيد البدوي والمكاتب والميضاة الكبيرة والحنفيات والمنارتان العظيمتان والسبيل المواجه للقبة والقيسارية العظيمة . وجدد ايضًا قبة الامام الشافعي وبنايات ووكالات في بولاق مصر ولا يزال هذا الرجل مميزًا عند المؤرخين بلقب الكبير فيدعونهُ « علي بك الكبير»

وترى في شكل ٧٧ و٧٨ صور النقود التي ضربت على عهد علي بك في القاهرة . الاولى فضية وعليها الطغراء الشاهانية للسلطان مصطفى بن احمد وتاريخ تولية السلطنة سنة ١١٧١ ه ولكن يشاهد عليها ايضًا من الاعلى اسم عليّ وتاريخ ٨٥ وهي مختصرة من سنة ١١٨٥ ه وتدعى هذه

القطعة من المعاملة قرشًا . والثانية فضية ايضًا ويشاهد عليها الطغراء العثمانية اما تاريخ تولية السلطان فاستبدل بسنة ١١٨٣ وهي السنة التي صرح بها علي بك باستقلاله ويشاهد عليها اسمه وتدعى هذه القطعة عشرينية اي نصف قرش



ش ٧٧ نقود السلطان مصطفى بن احمد وعلي بك



ش ٧٨ نقود السلطان مصطفى بن احمد وعلي بك

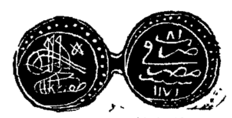
سلطنة عبد الحميد بن احمد

من سنة ١١٨٧ ـ ١٢٠٣ هـ او من ١٧٧٤ ـ ١٧٨٩ م

وفي تلك السنة تولى الخلافة العثمانية السلطان عبد الحميد بن احمد عوضًا من السلطان مصطفى الثالث

وترى في شكل ٧٩ و ٨٠ صور نقود ضربت في القاهرة في عهد السلطان مصطفى

ش ٧٩ نقود السلطان مصطفى بن احمد



بن احمد قبل استقلال علي بك بتاريخ ١١٧١ هـ. الاولى فضية والثانية نحاسيّة

ش ٨٠ نقود السلطان مصطفى بن احمد

وبوفاة علي بك عاد وادي النيل الى ما كان عليهِ قبلهُ تابعًا لاملاك الدولة العلية وعادت احكامهُ الى مشائخ البلد والكشاف الذين جعلوا تلك المصالح وسيلة لاختلاس اموال الناس وحقوق الدولة وكان علي بك قد جعل لكل هذه المظالم حدًّا واصلح الشؤون حتى علقت الآمال باعتزاز مصر ورفع شأنها اما المنيَّة فلم تبق عليهِ

نعم ان مصر بعد وفاتهِ عادت الى كنف الدولة العلية لكنها بالحقيقة لم تفدها شيئًا لانها كانت في الحالة الاولى طعمة لرجل محبّ للاصلاح مخلص بمقاصدهِ وان كانت بمعزل عن صوالح الدولة وفي الثانية اصبحت طعمة لثلاثين رجلاً كلٌّ منهم يسعى الى ابتلاعها لا يتفقون الاَّ على كره الدولة التي هم تحت حمايتها . اما السلطان عبد الحميد فلم يكن يرسل اليها من الولاة الاَّ من كان اسمًا بلا رسم كما كان شأنهم قبل ظهور عليّ فكان الباشا من هولاء آلة يديرها البكوات كيف شاؤُا ولم يكن لديهِ من الاعمال الاَّ مخابرة الفسطنطينية مخابرات سرّية فيما كان يقع بين هولاء البكوات من الخلاف وما كانوا يتداعون اليهِ من الخصام وواجباتهُ المهمة ان يستلم من الحكومة المصرية الجزية ويرسلها الى الاستانة هذا اذا تمكّن من قبضها

فلم تكن ولاية مصر الاَّ مأمورية يستعيب بها المأمور بتأديتها فكانوا يعتبرونها بمثابة منفى قد استحقهُ الباشا او الوزير الذي يرسل اليها لانهُ كان يعلم قبل خروجهِ من الاستانة انهُ اذا لم يكن راضيًا بما يرضاهُ شيخ البلد لا يلبث ان يصلهُ منهُ رسالة ينقلها ناقلٌ يقال لهُ الاوطه باشي

وفيها الامر بعزلهِ امرًا لا مردَّ لهُ ولا مجال للمدافعة بعدهُ . وكيفية ذلك ان شيخ البلد ورجالهُ اذا رأوا في تصرف الباشا ما يوجب الشك يجتمعون اجتماعًا عموميًا في الديوان ويقررون عزلهُ ويكتبون بذلك امرًا عاليًا يسلمونهُ الى الاوطه باشي ليوصلهُ الى الباشا فيحملهُ ويسير منفردًا على حمار (لان القانون لا يسمح لهُ بركوب الخيل او البغال) بين يديهِ فرمان العزل فاذا مرَّ في الاسواق على هذه الصورة علم الناس انهُ ساعٍ الى امر مهمّ فيهِ عزلٌ فيهرولون وراءهُ . ولا يزال سائرًا في عرض الطرق قائدًا لتلك المواكب نحو القلعة . وكان من واجبات اي جندي صادفهُ في تلك الحال ان يرافقهُ اتقاء ما يخشى حدوثهُ عند وصولهِ الى القلعة . فاذا وصل القلعة يدخل على الباشا ثم يجثو امامهُ بكل وقار اكثر عند ما ينهض يطوي السجادة التي كان جاثيًا عليها وينادي باعلى صوتهِ « انزل يا باشا » وعند طيّ السجادة والتلفظ بهذه العبارة تسقط كل حقوق ذلك الباشا ولا يعودُ لهُ اقلُّ سلطة على الجنود التي كانت قبل بضع دقائق تنتظر اشارتهُ وتصير تحت اوامر الاوطه باشي . والباشا يقف ممتثلاً يسمع تلاوة الفرمان سواء كان منطوقهُ بعزلهِ او قتلهِ فلا يسعهُ الاَّ الطاعة التامة . وعلى مثل ذلك كانت معاملة باشوات مصر فانهم كانوا عرضة لاوامر العزل التي اذا لم تكن من الاستانة تكون من مصر

فلما مات علي بك اختلف اعداؤُهُ في القاهرة على الاجتزاء من انتصاراتهم فكان كل منهم يظن لنفسهِ الحق بالتمتع باثمار الانتصار كغيره او اكثر فاختلفت الاحزاب من بينهم . اما من بقي من رجال علي فلم يجدوا مكانًا فيهِ راحة لهم فقد كانوا في عكا عند الشيخ ضاهر على ما تقدم فلم يكن من ابي الذهب الاَّ انهُ تعقبهم لانهُ كان رجلاً محبًا للانتقام حبًا يفوق التصديق وقد آلى على نفسهِ الاَّ يبقي على احد من رجال علي

اما الشيخ ضاهر امير عكا فلم يعد يطيب لهُ السكون بعد ان خسر

ابنهُ في سبيل نصرة على بك فثارت في خاطرهِ دواعي الانتقام . ولكن محمد بك ابا الذهب لم يكن اقل رغبة في الانتقام منهُ ولما لم يعد يستطيع صبرًا على ذلك استرحم من الباب العالي ان يؤذن لهُ بالمسير الى محاربة سوريا وعلى الخصوص عكا واوقع في اميرها الشيخ ضاهر فاتّهمهُ بالعصيان وانهُ ساع بدسائس ضدّ الدولة . فاجاب الباب العالي بفرمان يُثبّتهُ في مشيخة البلد مع لقب باشا ورتبة والي القاهرة مكافأة لما اتاه من الايقاع بعلي واحزابهِ وصرّح لهُ ان يتتبّع ذلك الشيخ العاصي . فلما وصل الفرمان الى ابي الذهب كاد يطير من شدة الفرح واعدّ جيشًا جعلهُ تحت قيادتهِ الشخصية مستخلفًا في مصر اسماعيل بك بصفة قائمقام وعهد حكومة مدينة القاهرة الى ابراهيم بك . ثم سار في جيشهِ الى سوريا ولم تنتهِ سنة ١١٨٩ هـ حتى دخل فلسطين . وكان لشدة عجبهِ بما اوتيهِ من الالقاب والرتب وما وُعد بهِ من المساعدات من قبل الباب العالي لا يزيد الّا كبرًا حتى جعل خيمتهُ التي كان يقيم فيها اوقات الراحة من اثمن ما يمكن مزينةً بابدع ما يكون . فمرّ بخان يونس فغزّة فالرملة ولم يصادف اقل مقاومة . اما يافا فكان عليها الشيخ كريم صهر الشيخ ضاهر فدافعت قليلًا ثم فُتحت عنوة فدخلتها رجال ابي الذهب بالقتل والنهب حتى قتلوا القسم الاعظم من سكانها من رجال ونساء وشيوخ واطفال

فبلغت تلك الفواحش مسامع الشيخ ضاهر وهو في عكا فخاف ان يصيبهُ ما اصابها ففرّ بعائلتهِ ومن هم لديهِ من المهاجرين المصريين ولم يترك في المدينة الّا ابنهُ الشيخ علي . وهذا لما علم باقتراب جيوش ابي الذهب اخلى القلعة وانسحب منها لعلمهُ انهِ اذا حاول الدفاع انما يكون محاولًا عبثًا . فوصلها ابو الذهب وابوابها مفتوحة فدخلها ولم يبقِ عليها ومثل ذلك فعل بقرى اخرى من فلسطين والى هذه المدينة وفيها انتهت ارتكابات هذا الرجل لانهُ بينما كان عازمًا على العود الى مصر اصبح القوم

فوجدوهُ ميتًا في خيمتهِ ولم يستطيعوا معرفة القاتل رغماً عما اتخذوهُ من الاحتياطات وما كان لديهم من القرائن الكثيرة . فقال بعضهم انهُ اصيب بنقطة وهو داء السكتة وقال آخرون لا بل مات مقتولاً بيد عدوّ فاتك والله اعلم . وبعد موت ابي الذهب عادت الجيوش المصرية تحت قيادة مراد بك الى مصر ومعهم جثة رئيسهم فدفنوها بالقرب من مدفن علي بك . فقد مات ابو الذهب بعد موت علي بك بسنتين ولقب « بالخائن»

وتولى مشيخة البلد بعدهُ اسماعيل بك رغمًا عن ادعاءات مراد بك وابراهيم بك ولم يبق غيرهُ من طائفة ابراهيم كخيا وهو من الذين نالوا رتبة البكوية بواسطة علي بك وكان لا يزال على دعوتهِ ولكنهُ انضم الى ابي الذهب خوفًا . اما قبلهُ فلم يفتر لاهجًا بالمدافعة عن رئيسهِ الذي لم يأتِ نحوهُ الّا كل ما يستدعي انتصارهُ لهُ فضلاً عن انهما من طائفة واحدة . فلما استلم زمام الاحكام عمل على اتباع خطوات علي بك فبعث الى الذين كانوا لا يزالون من حزبهِ في سوريا واستدعاهم اليهِ واقرَّهم في اماكنهم وطيب خاطرهم كل ذلك استعدادًا لمقاومة مناظريهِ مراد وابراهيم . وكانا قد اتحدا معًا قلبًا واحدًا على خلع اسماعيل بك فباشرا اولاً يطلبان طرد حسن بك الجداوي صديق اسماعيل بك فلم يفوزا الّا انهما تمكّنا من احتلال القلعة فاتحد اسماعيل بك وحسن بك واخرجاهما منها ففرّا الى الصعيد . وبعد يسير جمع المنهزمان حزبًا كبيرًا واستعدّا لدفاع اسماعيل فبعث جيوشًا لتخمد انفاسهما فعادت الجيوش على اعقابها وفاز الاميران فاضطر اسماعيل بك الى مبارحة القطر المصري فسار الى الاستانة . اما حسن بك فقُبض عليهِ وسيق الى جدَّة منفيًا فتمكن اثناء الطريق من ارضاء رئيس المركب الذي نقلهُ فانزلهُ في القصير على سواحل القلزم ومن هناك قطع الصحراء غربًا حتى اتى الصعيد فاستكنّ في اعلاه

فلما خلا الجو لمراد بك وابراهيم بك اقتسما الاحكام فتعيّن الاول

اميرًا للحج والثاني شيخًا للبلد ورقّيا كثيرًا من ماليكهم الى رتبة البكوية وقلداهم مصالح البلاد وكانت الاحكام في عهدهما كما كانت في ايام اسلافهما من المظالم والاستبداد . وبلغهما بعد مدة ان اسماعيل بك عاد من الاستانة وانهُ جاء الى حلوان فبعثا اليهِ فرقة من المماليك فتكت بكل ما كان معهُ من عائلتهِ ورجالهِ اما هو فتمكن من النجاة باختبائهِ في بعض الكهوف ثلاثة ايام . ثم سار منهُ طالبًا الشلال وهناك اجتمع بصديقهِ حسن بك الجداوي وسارا معًا وأويا الى شلال الجنادل في السودان . فاختلف مراد بك وابراهيم بك على ارسال حملة للقبض على الهاربين فارتأى احدهما وجوب التجنيد وخالفهُ الآخر حتى آل الامر الى الخصام وخروج ابراهيم بك من القاهرة وانسحابهِ الى المنيا في الصعيد مغتاظًا . فارسل اليهِ مراد بك بعض الاختيارية يسكنون من جاشهِ ما استطاعوا فارضوهُ واعادوهُ الى مركزهِ في القاهرة . الاّ ان العلاقات الودية ما انفكّت متكدرة بين الاثنين ولم تمضِ مدة حتى انسحب مراد بك الى المنيا مغتاظًا من زميلهِ لعلمهِ باتحادهِ مع خمسة من بيت عدوّهما القديم وهم البكوات عثمان الشرقاوي وايوب الصغير وسليمان وابراهيم الصغير ومصطفى الصغير

ولبث مراد بك بعيدًا من القاهرة خمسة اشهر وكان يظن ابراهيم بك انهُ لا يلبث ان يسكن جاشهُ حتى يعود اليهِ فلما استبطأهُ ارسل اليهِ الاختيارية كما فعل ذاك معهُ . فابى مراد بك وردَّ الاختيارية خائبين . ثم جند جندًا من اتباعهِ المماليك وسار نازلاً على الضفة الغربية للنيل حتى اتى الجيزة مقابل مصر القديمة وعسكر هناك . ثم همَّ الى قطع النيل فعلم ابراهيم بك بذلك فجنّد في الجهة المقابلة على البر الشرقي ليمنعهُ من المرور ولبث الجانبان على تلك الحال ثمانية عشر يومًا لا يهمّان الاّ الى اطلاق مدفع او مدفعين على سبيل المناوشة ولم يقتل الاّ رجل وفرس . فملَّ مراد بك من تلك الحال فعاد الى المنيا بمن كان معهُ

اما ابراهيم بك فكان كثير الرغبة في مصالحة زميلهِ فانفذ اليهِ بعد خمسة اشهر من انسحابهِ وفدًا ثانيًا من كبار البلاد ومشائخها يطلبون اليهِ الرجوع الى القاهرة فوافقهم لكنهُ اشترط عليهم ان يسلموهُ الخمسة بكوات المتقدم ذكرهم حال وصولهِ الى القاهرة . فقبلوا بذلك الشرط فنزل معهم فعلم اولئك البكوات باعلام سرّي من ابراهيم بك بما اشترطهُ مراد بك فخرجوا من القاهرة لجهة القليوبية على نية الشخوص الى الصعيد عن طريق الاهرام فاتصل ذلك بمراد بك فجعل عند الجسر الاسود بالقرب من الاهرام زمرةً من العربان تترصد مرورهم لكنهُ لم يستطع صبرًا على ذلك فقطع النيل ببعض رجالهِ فالتقى بالمنهزمين عند رأس الخليج فتلاحموا فجُرح مراد بك ونجا اولئك فلاقاهم العربان عند الجسر الاسود فاسروهم وجاءُوا بهم الى مراد بك فلم يسعهُ لشدة غيظهِ الاَّ نفيهم الى المنصورة وفرسكور ودمياط تفريقًا لكلمتهم لكنهم لم يلبثوا الاَّ مدة يسيرة حتى اجتمعوا في غاية سنة ١١٩٧ هـ واتفقوا ان يفرُّوا الى الصعيد ويجمعوا اليهم عصبة يقاومون بها عدوَّهم لكنهم لم يباشروا ذلك حتى تداخل شيخ الجامع الازهر في امرهم واستحصل لهم على العفو من مراد بك فصفح عنهم واعادهم الى القاهرة بكل اكرام واعاد اليهم رتبهم وامتيازاتهم

ثم مضى بعد ذلك ثلاث سنوات على ابراهيم بك ومراد بك وهما على وفاق وسكينة يقتسمان ايرادات البلاد فيما بينهما بالسواء لا يقدمون عنها حسابًا او اذا قدموهُ لا يكون الاَّ حبرًا على ورق . فوشى بهما محمد باشا وكان واليًا على مصر اذ ذاك الى السلطان وبما هما فيهِ من الاستقلال بمالية البلاد فامر السلطان عبد الحميد سنة ١١٩٩ هـ ان يرسل الى مصر جيشٌ لايقافهما عند حدهما فسار الجيش في عمارة تحت قيادة قبطان باشا حسن فوصلوا الاسكندرية في ٢٥ شعبان سنة ١٢٠٠ هـ فخاف البكوات خوفًا شديدًا واجتمعوا اجتماعًا عموميًا في الديوان وتباحثوا فيما يجب

اجراؤهُ . ونظرًا لكثرة اللغط واختلاف المقاصد والآراء لم يقرُّوا على شيء واخيرًا ارتأوا طلب تداخل محمد باشا ولما عرضوا عليهِ رأيهم رفض . فطلبوا من الشيخ احمد العريشي شيخ الجامع الازهر والشيخ محمد المهدي كاتم السر وباش كاتب الديوان الخصوصي وغيرهم ان يسيروا الى رشيد ويستعطفوا القبطان باشا

وترى في شكل ٨١ صورة ختم الشيخ المهدي وامضائهِ الرسميّ وفيهِ لقبهُ كما يكتبهُ بيدهِ

فركبوا من بولاق في زورق متقن وما زالوا حتى بلغوا رشيد فلاقاهم القبطان باشا بما يليق من الاحترام . اما هم فلعلمهم ان الاميرين ابراهيم ومراد لا يثبتان على رأي فربما طلبوا لهما العفو فحصلوا عليهِ ثم نكث ذالك فتكون الملامة عليهم . فقال الشيخ

ش ٨١ ختم محمد المهدي وامضاؤهُ

العروسي «يا مولانا ان رعية مصر قوم ضعفاء وبيوت الامراء مختلطة ببيوت الناس» فقال الباشا «لا تخشوا بأسًا فان اول ما اوصاني بهِ مولانا السلطان هو قولهُ «ان الرعية وداعة الله عندي وانا استودعك ما اودعنيهِ الله تعالى» فدعوا لهُ بطول العمر . ثم قال لهم «كيف ترضون ان يملككم مملوكان كافران يسومونكم سوء العذاب لماذا لا تخرجونهما من بلادكم» فاجابهُ احدهم بقولهِ «يا سلطانم هؤلاء عصبة شديدو البأس لا نقوى على دفعهم» فطيب خاطرهم ووعدهم بالحماية . وبالحقيقة ان هذا الوفد قد تصرف بالحكمة لانهم لم يكادوا يخرجون من حضرة القبطان حتى سمعوا بقدوم مراد بك ومعهُ عشرة من البكوات وعدد من الكشاف والمماليك . ثم شاع انهم نزلوا في الرحمانية عند منشإ الترعة المحمودية الاسكندارنية .

وسبب ذلك ان مراد بك بعد ما ارسل ذلك الوفد خطر له الدفاع بالسيف فجمع اليهِ ذوي شوراه وفاوضهم فاقروا على وجوب الدفاع وان يسير مراد لذلك ويبقى ابراهيم للمحافظة على القاهرة

فسار مراد بمن معهُ ونزلوا في الرحمانية كما قدمنا فلاقتهم الجنود العثمانية الظافرة وحصلت بينهما موقعة لم تطل الاَّ يسيرًا فانذعرت جنود المماليك من قنابل العثمانيين التي كانت تتفرقع بين ارجل خيلهم فتشتت شملهم وفاز العثمانيون ففرَّ مراد بك ومن معهُ حتى اتوا القاهرة فاجتمعوا بابراهيم بك وفرُّوا جميعًا الى الصعيد ولبثوا هناك ينتظرون هجمات العثمانيين . فلما رأى محمد باشا الوالي خلو القاهرة من المماليك جمع اليهِ الوجاقات ونزل بمعيتهم من القلعة استعدادًا لاستقبال الجنود العثمانية

ففي ٥ شوال سنة ١٢٠٠ هـ دخل حسن باشا القاهرة بعد ان خربت جيوشهُ ونهبوا كل ما مروا بهِ من المدن والقرى ولولاهُ لم يبقوا على شيء أصلاً . لكنهُ كان يتهددهم وقد قتل منهم كثيرين عبرةً للباقين فكفت الايدي فسكنت الناس . فلما وصل القاهرة نزل في بيت ابراهيم بك عند القصر العيني على النيل ثم عرض امتعة البكوات المنهزمين للمزاد العمومي وفي جملتها حريمهم واولادهم ومماليكهم فاسترحم المشائخ ان يخرج الاولاد والنساء الحوامل من معرض البيع لان ذلك فضلاً عن انهُ مخالف للحاسيات الانسانية فهو مغضب لله . فانتهرهم القبطان باشا قائلاً « سأحرر الى الاستانة بانكم تعارضون في بيع امتعة اعداء جلالة السلطان » فاجابهُ الشيخ السادات قائلاً « قد أُرسلتَ الينا لمعاقبة شخصين مجرمين وليس لهتك شرائعنا والطعن في عوائدنا فاكتب الى الاستانة ما شئت » . فعند ذلك امر الباشا باستثناء المحظيات الحوامل من البيع وبعد ان بيعت سائر الامتعة عكف حسن باشا الى اصلاح الادارة فاصلحها على ما يوافق الارادة الشاهانية . وكان قد استقدم اسماعيل بك وحسن بك الجداوي

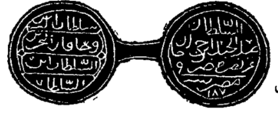
من الصعيد فارسانها في جيش تحت قيادة عابدين باشا ودرويش باشا وهما قائدا الحملة العثمانية التي جاءت مصر عن طريق البرّ (فضلاً عن العمارة البحرية المتقدم ذكرها) وسار في تلك الحملة ايضاً نحو من الف مقاتل من رجال الشام تحت قيادة امير كبير من امراء شين اغلي فاجتمعت هذه الحملة وسارت نحو الصعيد لمحاربة مراد بك ورجالهِ

فحصلت هناك موقعة عظيمة شفت عن عدة قتلى من الجانبين وانهزام مراد بك ورجالهِ الى الشلالات ورجوع الجنود العثمانية ظافرة الى القاهرة. ثم جاءت الاوامر الشاهانية بعزل محمد باشا عن مصر وتولية عابدين باشا مكانهُ

وهنا تنتهي مأمورية حسن قبطان باشا فاستدعي الى الاستانة بسبب الحرب مع روسيا. ولم تنجُ مصر مما كانت تشكو منهُ نعني بهم المماليك لانهم كانوا لا يزالون في مصر العليا كما رأيت. والمسيحيون يشكون من معاملة حسن باشا لهم فانهُ اخذ كل متاعهم وباعهُ على مشهد من الناس فضلاً عن الاهانة التي سامهم اياها وعلى الخصوص المعلم ابراهيم الجوهري امين احتساب مصر فانهم قبضوا على امرأتهِ واجبروها ان تخبرهم بمخابئ زوجها من النقود فاخبرتهم فاستخرجوها واخذوها. وعندما بارح حسن باشا القاهرة اقام عليها اسماعيل بك شيخ البلد وهذا عهد الى صديقهِ القديم حسن بك الجداوي امارة الحج واتفقا معاً على اقتسام الايراد

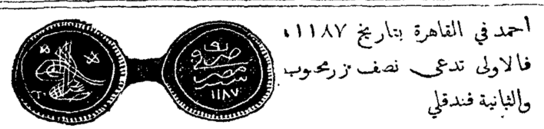
وفي سنة ١٢٠٣ هـ توفي السلطان عبد الحميد بن احمد

وترى في شكل ٨٢ و٨٣ صور النقود الذهبية التي ضربت على عهد السلطان عبد الحميد بن



ش ٨٣ نقود السلطان عبد الحميد بن احمد

احمد في القاهرة بتاريخ ١١٨٧، فالاولى تدعى نصف زر محبوب والثانية فندقلي



ش ٨٣ نقود السلطان عبد الحميد بن احمد

سلطنة سليم بن مصطفى

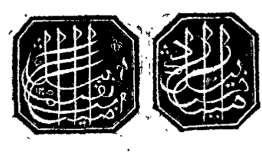
من سنة ١٢٠٣ — ١٢١٢ ﻫ او من ١٧٨٩ — ١٧٩٨ م

فبويع السلطان سليم الثالث بن مصطفى فاقرَّ اسماعيل بك في مركزهِ وما زال اسماعيل بك ممارسًا للاحكام بكل دراية وحكمة الى سنة ١٢٠٥ ﻫ وفي هذه السنة طرأ على البلاد ولا سيما القاهرة وباء شديد الوطأة لم نقاسِ مثلهُ قبلهُ فان عدد الموتى بهِ بلغ نحو الالف في يوم واحد في القاهرة وحدها ونقلب على حكومتها في يوم واحد ثلاثة حكام وسبب ذلك ان اسماعيل بك اصيب بالوباء فاقيم آخر مكانهُ فآخر حتى فني كل من كان من بيت اسماعيل بك الاَّ واحد يدعى عثمان بك الطبل. ولا يزال هذا الوباء مشهورًا بفتكهِ ويعرف بوباء اسماعيل. فتولى عثمان بك الطبل المذكور مشيخة البلد الاَّ انهُ لم يكن قادرًا على ادارة الاعمال التي عهدت اليهِ فاستدعى ابراهيم بك ومراد بك فدخلا القاهرة في ٢١ ذي القعدة من تلك السنة ففرَّ حسن بك الجداوي الى مصر العليا قانطًا. فاستلم ابراهيم ومراد ازمَّة الاحكام وجعل يعيثا فيها وكانا يتناوبان مشيخة البلد وإمارة الحج سنويًّا بعد ان افنيا كل من كان على غير دعوتهما فصفا الجوُّ لهما اما قلوبهما فكانت لا تخلو من الضغائن المتبادلة لما طبع عليهِ كل منهما من الطمع وحب الاثرة ولما كان في صفاتهما من المناقضة. فقد كان مراد بك رجلاً شديد البطش مقدامًا لا يهاب الموت وكان ابراهيم بك

اكبر سنًا منهُ واكثر اختبارًا وكان يتربص لهُ محاذرًا بطشهُ خيفة ان يطلبهُ للنزال والاَّ لما رضي معهُ بالاجتزاء من الدخل اجتزاء سويًّا وكان لا يعارضهُ فيما يتعاطاه من الاستبداد ووضع الضرائب وسلب اموال الناس على نية ان يشاركهُ بالارباح الناتجة من ذلك . وكان على شيء من الرياء يظهر خلاف ما يضمر اذا استُصرخ وعدَ مع العزم على الاخلاف وكان جبانًا فاذا اراد امرًا لا يتظاهر بهِ وانما يسعى اليهِ بالدسائس والمكايد على اساليب النفاق

اما مراد بك فلم يكن يعرف المكر وانما كان يسعى الى اغراضهِ بالقوة والحزم وكان طويل القامة عضلي البنية شديد البأْس يقطع عنق الثور بضربة من سيفهِ وعلى وجههِ ملامح الاسود فاذا غضب يهابهُ ويخاف منهُ كل من يراهُ حتى احب اصدقائهِ . وكان كريم النفس لا يبيت على غيظ حرّ الضمير لا ينكر الحق ولو كان عليهِ مخلصًا لاصحابهِ مقيمًا على قولهِ وكان طمعهُ بمقدار سخائهِ وحبهُ لذاتهِ بمقدار حرّية مبادئهِ وكان سريع الغضب شديدهُ لا يراعي في حال غضبهِ امرًا من الامور وربما فتك بصوالح نفسهِ او اضرّ بشخصهِ

وترى في شكل ٨٤ صورة كلّ من ختمَي مراد بك وابراهيم بك محفورة على شكل جميل



ش ٨٤ ختم مراد بك ختم ابراهيم بك

والمَّ بالبلاد بعد عود هذين الاميرين الى مصر جوع هائل ويقال انهُ حصل من كثرة ما ضبطاهُ من الحبوب في مصر العليا طمعًا بالكسب . ثم ألغيا النظامات التي وضعها حسن باشا قبطان وابدلاها بما يوافق مطامعهما الشخصية . فكثرت تعديات

مماليكهما وعلى الخصوص تعديات احدهم محمد الالفي[1] فثارت الاهالي ثورة عامة لم يسعهما معها الاَّ توقيف تلك الاجرآات وقتيًا فخمدت الثورة فعادا الى ما كانا عليهِ فعاد الاهالي الى الاضطراب وكسدت سوق التجارة لقلة الامنية

ومما يحكى ان مراد بك تظاهر يومًا انهُ عازم على تجديد الملابس والامتعة العسكرية فيحتاج لما يقوم بنفقاتها ففرض على طائفة الاسرائيليين مبلغًا كبيرًا مساعدة لهذا المشروع فاجتمع رؤساء الطائفة وتحابروا فيماذا يصنعون لينجوا من هذه الضريبة فاقروا على ان ينفذوا اليهِ اثنين من كبرائهم يسعيان الى ما ينجيهم من هذه الضريبة فسارا ولما مثلا بين يدي مراد بك قالا لهُ « ايها الامير انـا فقراء ولو بعنا جميع ممتلكاتنا ونسائنا واولادنا وانفسنا لا نجمع عشر ما تطلبهُ منا فاذا تنازلت الى اعفائنا من هذه الضريبة التي يستحيل علينا دفعها نطلعك على مخباة تكفيك مؤنة هذه المطالب . وهذه المخباة لا يعلم بها احد الاَّ عائلتنا وقد توقل هذا السرّ فيها ابًا عن جد حتى وصل الينا ونحن علينا ان نوصلهُ لاولادنا عند ما تحضرنا الوفاة » . فلما سمع كلمة « مخباة » فتح اذنيهِ وقاطعهما قائلاً « هلمّ بنا لنرى تلك المخباة فاني اذا رأيتكم صادقين اعفيكم وطائفتكم من كل ضريبة . هلمّ بنا الى المخباة ابن هي » فاجابا « ان هذه المخباة ايها الامير في جامع عمرو بن العاص في مصر القديمة قد جعلها هناك ذلك الفاتح العظيم في صندوق من حديد في دهليز لا يعرف مقرَّهُ الا نحن » فتأكد مراد بك انهما يتكلمان الصدق فصرفهما . ثم سار في اليوم التالي مظهرًا للصيد في البرية فمرَّ بجامع عمرو فدخلهُ كانهُ يريد الصلاة ثم نظر الجامع فاذا بهِ قد تداعت اركانهُ فالتفت الى شيخهِ قائلاً « بما ان الله قد ادخلني الى هذا

---

(١) يقال انهُ دعي بهذا الاسم لانهُ ابتيع بالف دينار

المكان المقدس وجب عليَّ ان اسعى الى اصلاحهِ لكي يذكر اسمي في الصلاة مع اسم مؤسسهِ الفاتح عمرو بن العاص وغدا ان شاء الله ارسل اليكم الفعلة يباشرون العمل »

وفي اليوم التالي ارسل الفعلة تحت مناظرة احد ثقاتهِ وبدلاً من ان يبدأوا بهدم القسم المتساقط من الجامع بدأوا بالقسم القائم وبعد بضع ساعات جاء مراد بك بنفسهِ فاذا بهم قد وصلوا الى دهليز فيهِ صندوق من الحديد فتحقق ما قالهُ لهُ الاسرائيليان وكانا بين الجماهير فأمر فأُخرج الصندوق فامر بفتحهِ فاذا هو ملآن رقوقاً مكتوباً عليها آيات من القرآن الشريف بالقلم الكوفي

وترى في شكل ٨٥ رسم بضع كلمات من فاتحة ذلك القرآن مثالاً لنوع كتابتهِ الكوفية ويظن انهُ كتب في ايام عمرو بن العاص . فلما رأى الاسرائيليان ذلك فرّا من بين الجماهير . اما مراد فاستشاط غيظاً ولما عاد الى القاهرة ضاعف الضريبة على

بسم الله الرحمن الرحيم

ش ٨٥ بعض كلمات من فاتحة القرآن الشريف

الاسرائيلين واصرَّ الّا ان يدفعوها حالاً واستعمل الكرباج لحثهم على ذلك . اما تلك الرقوق الثمينة فأُلقيت في الدهليز بغير اعتناء وتركت هناك عرضة للشمس والماء فنسد بعضها . ثم لما كانت الحملة الفرنساوية التقط ما بقي منها الموسيو مارسل مدبر مطبوعات تلك الحملة وحفظها عندهُ في مخدعهِ الخصوصي . وقد شاهدتُ في المكتبة الخديوية العامرة اليوم نسخة من

هذا النوع تماماً يقولون انها وجدت في جامع عمرو فلا يبعد ان تكون ذات النسخة التي التقطها مارسل والله اعلم

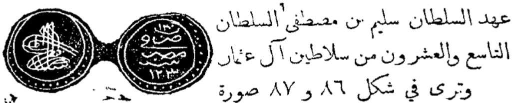
وعاد مراد بك ورفيقهُ الى ما كانا عليهِ من اختلاس اموال الاهالي واموال الاجانب بالضرائب الباهظة فانهُ ضرب على التجار الاجانب في الاسكندرية والقاهرة ورشيد ضرائب ما انزل الله بها من سلطان فرفعوا شكواهم الى قناصلهم فلم تكن النتيجة الاَّ زيادة الاضطهاد . اما تداخل الباشا في مثل هذه الامور فكان عديم الفائدة على الاطلاق فرفع المتظلمون شكواهم الى الاستانة فلم يكن الجواب الاَّ الصمت ولم يزدد مراد بك الاَّ عتوًّا وعسفًا ولم يكن يبالي بما يقولهُ القائلون او يتظلم منهُ المتظلمون من سائر ساكني القطر . كل ذلك كان على



ش ٨٦ نقود السلطان سليم بن مصطفى

عهد السلطان سليم بن مصطفى السلطان التاسع والعشرون من سلاطين آل عثمان

وترى في شكل ٨٦ و ٨٧ صورة نقود السلطان سليم بن مصطفى مضروبة في القاهرة بتاريخ سنة ١٢٠٣ ﻫ وهي سنة تنصيبهِ على كرسي السلطنة



ش ٨٧ نقود السلطان سليم بن مصطفى

الحملة الفرنساويّة

(تمهيد)

قد رأيت ما كان من انغماس مراد بك ورفيقهِ في ارتكاب المظالم واختلاس اموال الاهلين بغير الحق وكيف انهما تطرقا بتصرفهما هذا الى الاجانب القاطنين في هذا القطر تحت حماية دولهم فانهما لم يكونا يراعيان حرمة ولا ذمة . وكان اولئك الاجانب يتحملون تلك التعديات بالصبر الجميل لانهم رفعوا شكواهم الى دولهم فاوعزت الى الظالم ان يرعوي فلم يرعوِ . وما زال الحال كذلك حتى جاء النابوليون بونابرت الرجل العظيم برجالهِ لافتتاح هذه الديار . وقبل الخوض في تفاصيل تلك الحملة نشرح للقارئ . اولاً ما الداعي الذي حمل الفرنساويين الى تجريدها . ثانيًا كيف كانت مصر عند وصول تلك الحملة اليها

لماذا جرّد الفرنساويون الى مصر

لما قتل الفرنساويون ملكهم لويس السادس عشر وتخلصوا من الحكم المطلق اقاموا عليهم نوعًا من الحكومة دعوهُ « الادارة » وهي عبارة عن لجنة مؤلفة من خمسة اعضاء دعوا كلاًّ منهم « مدبرًا » وذلك سنة ١٧٩٥ للميلاد (١٢١٠ ه) ثم جعلوا يحملون على ممالك الارض يفتحونها بهمة كبير قوادهم الرجل العظيم بونابرت . فحاربوا اوستريا ثم ايطاليا ثم غيرهما وما زالوا حتى لم يبقَ في سبيلهم الاَّ دولة انكلترا واقفة لهم بالمرصاد وهي على جانب عظيم من القوة ولا سيما في البحار . فتباحثت ادارة فرنسا بذلك مرارًا لكنها لم تستطع مناهضة تلك الدولة لما كانت تعلمهُ من قوتها ومناعة جانبها

وكان بونابرت قد مرَّ في البحر المتوسط وضمَّ قسماً عظيماً من سواحلهِ الى فرنسا فطمع بمصر وقد اعجبهُ شأنها وما فيها من الخيرات وما بها من التعزيز لدولتهِ والارهاب لانكلترا . الاَّ ان الادارة لم تكن على بينة من الامر فعرض بونابرت رأْيهُ هذا عليها بعد ان شرح لها شرحًا مستوفيًا كيف ان هذا الوادي ما برح منذ القدم منشأ لخيرات العالم المتمدن ثم امسى موضوعًا لمطامع الدول العظيمة وشاغلاً لرجال الفتوحات كالاسكندر وغيرهِ حتى الايام الاخيرة الى ان قال مخاطبًا الادارة

« ان مصر ايها السادة اكثر الارض خصبًا وقد كانت اهراء لرومية قديمًا وللقسطنطينية الآن . وفيها الحنطة والارز وسائر انواع البقول والسكر والنيلة والقطن والسنا والخيار شنبر والنطرون والكتان والقنب وفيها انواع الماشية الجوية والبريَّة والطيور الداجنة وقد اشتهرت على الخصوص بحسن حميرها وقوَّة جمالها . نعم ان مواد الاشتعال والزيت والبن والتبغ نادر فيها لكن ذلك مستدرك لان الشرق بجملتهِ لا غنى لهُ عن هذا الوادي لانهُ مركزٌ متوسطٌ بين افريقيا واسيا . فان القوافل تنزل في القاهرة كما ترسي المراكب عند الشواطئ بعد سفر طويل وهذه القوافل مؤلفة من مئات واحيانًا الوف من الجمال قادمة من بلاد العرب او سوريا او سواحل المغرب او الحبشة او افريقيا المركزية او من راس الرجا الصالح او السنجال حاملةً انواع التجارة من الخشب والفحم والزيت والتبغ والبن والاثمار ومن الرقيق والتبر والعاج والريش والصمغ والاطياب والعطريات والشالات وكل محصولات الهند فنبيعها في مصر ونأْخذ بدلاً منها احمالاً من مصنوعات اوروبا

« فما برحت مصر ايها السادة منذ القدم موصلاً تجاريًّا بين اوربا والهند وهذه تجارتنا مع الهند قد كانت قبل اكتشاف راس الرجا الصالح تأْتينا عن طريق مصر وذلك ان تحط في برنيس على سواحل البحر الاحمر

ومنها تنقل على الجمال في الصحراء مسافة ٢٤ مرحلة حتى طيبة (الاقصر) ومنها في النيل الى بلاد مصر وتتوزع فيها ومنها تنقل الى اوروبا . وكانت التجارة احياناً تنقل الى القصير في البحر الاحمر ومنها الى السويس ثم على الجمال الى منف ومنها اليها . على انا لو اغضينا عن اهمية مصر بالنسبة لتجارة الهند لرأينا فيها اهمية عظمى بالنسبة لتجارتها الخصوصية فانا اذا فتحنا هذه البلاد واعتنينا بادارتها مدة خمسين سنة فقط لاصبح عدد سكانها اضعاف اضعاف ما هو الآن لان سكان هذا الوادي قد كانوا في الازمنة الخالية بين ١٢ و١٥ مليونًا (كذا) وهم الآن لا يبلغون ثلث هذا القدر وذلك لسوء الادارة . هذا فضلاً عما تقدمه لمعاملنا من محصولاتها وما ننفقه فيها وفي جوارها من مصنوعات بلادنا . فما هي مستعمراتنا بالنسبة الى هذه البلاد الخصبة الشاسعة الاطراف هلمّ اليها فنستغل من ارزها وسكرها وقطنها كما فعل غيرنا وهي تغنينا عن محصولات اميركا وتكفينا مؤنة الارتباط معها

« ولا يخفاكم ايضاً انا اذا ثبّتنا قدمنا في مصر لا تلبث انكلترا طويلاً في الهند فاننا نجعل على سواحل البحر الاحمر حاميات نقيمها في معاقل منيعة نذخر فيها من نتاج ذلك القطر ونحوّل التجارة الهندية اليه . على اننا لو فرضنا بقاءها عن طريق راس الرجا الصالح كما هي الآن لاقمنا بيننا وبينها باباً للمباراة وفتحنا ترعة بين السويس والنيل . ولا شك اننا اذا فعلنا ذلك نحبط مساعي انكلترا جملة لان التجارة تحول بجملتها الينا . اما هذه الترعة فقد كانت محفورة منذ القدم ولا يصعب علينا اعادة حفرها . فاذا فتحنا مصر لا نقتصر منفعتها لنا كمنفعة سائر المستعمرات العظيمة ولكنّا بها نعرقل مساعي انكلترا فنكفى مؤنة مقاومتها هذا اذا لم نذهب بها الى الحضيض »

فترددت الادارة بقبول مشروعه لكنه ما زال في مثل ما تقدم حتى

اشتدَّ الجدال بينهُ وبينهم فرأى فيهم اصرارًا على مقاومتهِ فعرَّض بذكر استعفائهِ فنهضوا اليهِ واوقفوهُ ثم راجعوا النظر فيها عرضهُ واخيرًا وافقوهُ على رأيهِ بشرط ان يكون ذلك سرًّا لئلَّا تتصل مقاصدهم هذه بمسامع انكلترا فتسعى ضدهم . فانحصر هذا المشروع بين بونابرت والخمسة مدراء فقط حتى ان الكاتب الذي كتب الأمر باعداد الحملة لم يكن يفهم حقيقتهُ لانهُ أُمران يكتبهُ بصورة مبهمة في ٥ مارس سنة ١٧٩٨

ومن مقتضى هذه الاوامر السرية ان تكون هذه الحملة مؤلفة من اربعين الف مقاتل عليهم اربعون قائدًا يجنارهم بونابرت وفئة من رجال العلم لا يقل عددهم عن المائة بين مهندسين وجغرافيين ونحو ذلك العدد من سائر الصناع . وعمارة بحرية تحت قيادة الاميرال برويس يضاف اليها المراكب الراسية عند طولون . وان يقبض في مدة عشرة ايام من الخزينة مليونًا وخمسماية الف فرنك فضلاً عن ثلاثة ملايين من خزينة بارن وان يتصرف بهذه المبالغ حسب حكمتهِ والاوامر السرية المعطاة لهُ . فصرف بونابرت جهدهُ لتعزيز هذه الحملة والاسراع في اعدادها . فشاعت الاقاويل عن هذه الاعدادات وكثرت الظنون فقال بعضهم انها حملة تعدُّها فرنسا لمحاربة انكلترا وقال آخرون لا بل لافتتاح مدن جديدة في اسيا وافريقيا وقال آخرون غير ذلك . وبونابرت لم يألُ جهدًا في اعداد المهمات وترتيب مخارج الحملة فجعل المراكب المعدة لنقل الحملة البريَّة اربعمائة مركبًا تسير فرقًا اربع من اماكن مختلفة فتسير الفرقة الاولى من طولون والثانية من جينوا والثالثة من شيفيتا فكيا والرابعة من جاكسيو ثم تجتمع وتتحد وتسير الى مصر . وتنقل على هذه المراكب ايضًا مطبعة عربية كانت في البروباغندا برومية مع ما يلزمها من العملة . وعلى انقاض هذه المطبعة أُقيمت مطبعة بوق الاميرية ونقلوا ايضًا كل ما يلزم من الادوات الكيمية والطبيعية والرياضية وانضم الى فئة العلماء كثير

من مشاهير علماء وصناع فرنسا في ذلك العهد ومثل ذلك القواد . وكأن فرنسا بجملتها تاقت الى استصحاب هذا القائد العظيم فانضم الى حملته كثير من ابطالها وعلمائها وصناعها بقلب واحد . وهم لا يعلمون الى اين تذهب بهم الاقدار . اما الجيوش فجعل فيهم الفين وخمساية من الفرسان والف من الطبجية والمهندسين ومن بقي(من الاربعين الفًا) جعلهُ من المشاة وكان من جملة القواد الذين رافقوا تلك الحملة كلابر وديزه البطلان الشهيران ورينير وبون ومينو وهؤلاء هم قواد الخمس فرق من المشاة وموراث قائدًا للفرسان وكافرالي قائدًا لفرقة المهندسين ودومارتين على الطبجية . هذا من قبيل الحملة البرية اما الحملة البحرية فكانت مؤلفة (اولاً) من ١٥ مركبًا حربيًّا من جملتها « الشرق » محمولها ماية وعشرون مدفعًا ومركبان محمول الواحد منها ثمانون . وعشرة محمول الواحد منها ٧٤ مدفعًا واثنان محمول الواحد منها ٦٤ . (٢) من اربع عشرة مدرعة بعضها تحمل اربعين مدفعًا وبعضها ٣٦ وفيها ابريقان (٣) من ٧٢ مركبًا حربيًّا صغارًا على اشكال مختلفة . هذه هي الحملة البحرية وهي مؤلفة من اكثر من ماية قطعة وبرفقتها سبعماية مركبًا لنقل العساكر البرية ومهماتهم وخيولهم واسلحتهم وجميعهـا تحت قيادة برويس وبلغ عدد الملاحين في تلك الحملة نحوًا من عشرة الآف . اما الفئة العلمية المرافقة لتلك الحملة فكانت مؤلفة من فرق لكل من العلوم والصنائع وجملة اعضائهـا ماية فيهم فرقة للهندسة واخرى للفلك واخرى للميكانيكيات واخرى للكيميا واخرى للمعادن واخرى للحيوان واخرى للنبات . ومثل ذلك للجراحة والطب والاقتصاد السياسي والانشاء والجغرافيا وعلم الآثار والبناء والتصوير والرسم والنقش والحفر والموسيقى الخ . وقد اختير لهذهِ الفنون اشهر من اشتغل بها ومعهم المطبعة المتقدم ذكرها وعدة مترجمين . وجميع هذه المعدات توفرت وكانت

على اهبة السفر في ٢٠ افريل من تلك السنة اي بعد صدور الامر ببضعة اسابيع . ومن الغريب انهُ رغماً عن تعداد الرجال الذين ساعدوا في تنفيذ امر الادارة وفيهم القواد العظام ورجال العلم والصناع لم ينكشف لاحد منهم حقيقة المقصود من تلك الحملة الاَّ لتاليران وهو الرجل السياسي الذي ارسلتهُ الادارة الى الاستانة لمخابرة الباب العالي بشان تلك الحملة وطلب مصادقتهِ عليها . وفي ٩ مايو سنة ١٧٩٨ م وصل بونابرت الى طولون وكان الجند في انتظاره كانهم على جمر الغضى فخطب فيهم فزادهم توقدًا ورغبة في الحرب . وفي ١٩ منهُ ودَّع بونابرت امرأتهُ وركب على الدارعة « الشرق » وهي اكبر دوارع الاسطول ومعهُ اركان حربهِ يتهللون جميعًا كانهم ذاهبون الى نزهة او الى غنيمة باردة وسارت سائر المراكب من النقط الاخرى ثم اتحدت جميعها وعددها جميعًا يزيد عن الخمسماية فسارت تخترق البحر معًا وعليها نحو من خمسين الف نسمة . وفي ٩ يونيو سنة ١٧٩٨ وصلوا الى مالطا ومنها ساروا قاصدين الاسكندرية

فاوجست انكلترا خيفة من هذه الحملة فانتدبت نلسون احد كبار اميراليتها في اسطول وعهدت اليهِ ان يتبع خطوات الاسطول الفرنساوي في البحر المتوسط وان يكون ساهرًا على اجرآاتهِ وان يقاومهُ اذا رأى منهُ مسًّا لحقوق انكلترا فسار نلسون فطاف البحر المتوسط ثم تنبأ ان الاسطول الفرنساوي لا يقصد الاَّ مصر او سوريا فسار نحوهما . فبلغ ذلك بونابرت فامر الاسطول ان يتمّ غربي الاسكندرية ببضعة مراحل وان يكون دائمًا في استعداد للدفاع

حالة مصر عند قدوم الحملة الفرنساوية

لم يكن في وادي النيل اذ ذاك اكثر من ثلاثة ملايين من السكان

مؤلفين من ثلاث طوائف كبرى وهم (١) الاقباط وهم سكان مصر الاصليون لا يزيدون عن مائتي الف نفس (٢) العرب الذين افتتحوها (٣) الاتراك وفيهم المماليك . وهناك شرذمات من طوائف اخرى

والباشا وهو الحاكم المرسل من الاستانة لتايد سلطة امير المؤمنين كان يقيم في قلعة الجبل في القاهرة لا فائدة من وجوده هناك الا اثبات سلطة جلالة السلطان وخلافته على مصر وذلك يقوم بالخطبة لجلالته في الصلاة وضرب النقود باسمه . اما المماليك وكانوا اخلاطًا من الاتراك والشراكسة والكرج وكانت جميع ثروة البلاد وادارتها في ايديهم على انهم مع ذلك لم يكن لهم في البلاد عصبة عائلية لانهم لم يكونوا يتوارثون الحكم الاَّ نادرًا وانما كان يتولى منهم من يمتاز بشيءٍ من القوة الخصوصية او الاحتيال او المحسوبية وما شاكل . وقلما ارتقوا الى الحكم بالحكمة والدراية وحسن السياسة ولذلك كانت احكامهم عرضة للفساد وداعيةً للخلل . اما مقرُّهم ففي قاعة كبيرة مختصة بهم في قلعة الجبل وفيها اصطبلات كبيرة لخيلهم ومخازن لاسلحتهم ومعداتهم . اما مساكنهم الخصوصية فكانت غالبًا في حيّ قيسون وحيّ بركة الفيل ودرب الحبانية في اجمل ما يكون من البناء مرصعة بالرخام والفسيفساء وفيها الفرش من المخمل مزركشة بالحرير وفي بعضها حدائق تزينها السراري الجميلات من نساءَ الكرج وغيرها . اما الجنود فكانت تزيد عن الثمانماية او الاف من المماليك الاشداء وقلما يكونون على شيءٍ من الفنون الحربية واكثرهم من الفرسان اما المشاة فقليلون بينهم . فاذا امتطى المملوك صهوتهُ يتقلد القربينة بمنكبه والطبنجات في منطقته والسيف على يساره وهراوة في قربوزه وقضيبًا من الفولاذ امام انفه ممتدًّا من جبهته الى ذقنه . وربما يتفق تمرُّن احدهم على الحركات الحربية اما الجماعات فلا يعرفون شيئًا عن المربعات او الخطوط الحربية وانما كانوا يتقنون فن الفروسية جيدًا

ففي يوم قدوم الفرنسويين الى مصر كان على الاحكام ابراهيم بك ومراد بك كما مر بك الاول شيخ البلد والثاني امير الحج وبيدهما الحل والعقد . وكان ابراهيم بك ربعًا ضخم القامة حسن الطلعة حاد العينين مشهورًا بالغنى والطمع والاحتيال . اما مراد فكان يفوقهُ اقدامًا وحزمًا وفيهِ كرم وسخاء . وكلاهما لم يؤيدا سلطتهما الاّ بالقتل والنهب والاحتيال وقد اتفقا على اقتسام ايراد البلاد . اما العرب فمنهم فئة العلماء والفقهاء وفي ايديهم ادارة المعابد والتكيات وهم في الغالب من عائلات قديمة متصلة بالصحابة وغيرهم من اصحاب البيت وكانت معيشتهم غالبًا في بحبوحة الرفاهية وترف العيش لكنهم قلما وصلوا الى ما وصل اليهِ البكوات المماليك وكانوا محترمين من الاهالي احترامًا دينيًا وادبيًا . اما نفوذهم السياسي فكان ضائعًا في جانب استبداد المماليك . اما التجارة فكانت معتبرة في مصر واصحابها من ثقات العرب واصحاب الامانة ولذلك قلّت بينهم التفاليس . وكانت مينا القاهرة بولاق وهناك كانت تستقبل المراكب حاملة البضائع من سائر الانواع قادمة من اقطار شتى من العالم . ومن بولاق تحمل الى الخانات او الوكالات كخان السبع قاعات وخان التركماني وتباع فيها بالاجمال . اما البيع بالمفردات فكان في الاسواق الى شمال المدينة من باب زويلة الى الباب الذي يشرف على الصحراء

اما جمع الخراج فكان موكولاً بفئتين من المصريين وهم المسلمون والاقباط . فمن المسلمين كان الروزنامجية وعندهم تقاويم الاراضي وسجلات الاملاك وكانوا ممتازين عن سائر الاهالي ومحافظين على انسابهم العائلية لا يتزوجون الاّ من بنات عائلتهم وكانوا على جانب من الثروة ولهم ممتلكات واسعة وكان يضرب بهم المثل في ذلك . اما الاقباط فكانوا يقتصرون على ضبط الحسابات في القبض والصرف كسائر الحسّاب الاّ فيما ندر . اما مساكن الاقباط في القاهرة فكانت الى شمالي المدينة وغربيها فيما كان

تعرف بباب المغس (حيث ثمن الازبكية الآن ولذلك دعي بعضها بحارة النصارى) وفي باب البحر واكثرهم من متوسطي الثروة . اما اصحاب البنوكة والمداينون والصيارف فكانوا من اليهود وكانوا يسكنون عائلات كثيرة في بيت واحد في حارة اليهود ويضطهدهم المماليك اضطهادًا شديدًا . اما الاجانب في القاهرة فكانوا غالبًا من الفرنساويين وكانوا يلبسون اللباس العربي ويتكلمون اللغة العربية جيدًا ويقيمون في جهة الموسكي وكانوا يتزاوجون مع المسيحيين من السوريين الذين كانوا يقيمون غالبًا في درب الجنينة . وكان في وادي النيل جمع من السوريين لكنهم كانوا يقيمون غالبًا في السواحل وفي المدن الكبيرة مثل دمياط ورشيد واسيوط ومعاطاتهم التجارة غالبًا إما ببضائع اوروبا او بمحصولات السودان من العاج والريش والصمغ او ببضائع بلاد اخرى . اما علاقة مصر مع الدول الاجنبية في ذلك العهد فكانت مقصورة على التجارة وكانت البندقية «فنيس» اشد علاقة معها من الجميع ولها قنصل مقيم في الاسكندرية وكانت لها ايضًا علاقات اخرى مع تجار فرنسا وانكلترا

هذا ملخص حالة مصر عند قدوم الفرنساويين اليها

الحملة الفرنسوية

من سنة ١٢١٣ — ١٢١٦ هـ او من ١٧٩٨ — ١٨٠١ م

مر بك في الفصل السابق ان الاسطولين الفرنساوي والانكليزي سارا في البحر المتوسط قاصدين سواحل الدلتا

ففي يوم الاحد الواقع في ١١ محرم سنة ١٢١٣ هـ ظهر امام الاسكندرية اسطول مؤلف من خمسة وعشرين مركبًا انكليزيًا وكان يتولى الاسكندرية السيد محمد كريم احد الاشراف الوطنيين . فلما علم بقدوم الاسطول

جعل يراقب حركاتهِ وسكناتهِ واهل المدينة يتساءلون فيما بينهم عن امره. وبعد قليل اقترب من الثغر قارب فيهِ عشرة نفر افرنج طلبوا مقابلة الحاكم فجيء بهم الى السيد محمد كريم وهو في مجلسهِ وحولهُ رجال حكومتهِ فسألهم عما جاءوا من اجلهِ فقالوا «ان ما ترونهُ في هذا البحر انما هو اسطول انكليزي قد جاء للتفتيش على عمارة فرنساوية عظيمة خرجت مؤخرًا تريد جهة من الجهات فربما داهمتكم فلا تقوون على دفعها فنكون لكم نصراء عليها» فظن السيد محمد كريم ذلك مكيدة فاغلظ لهم بالقول فقالوا «اننا نقف في هذا البحر محافظين لكم لا نطلب منكم الاَّ المدد بالماء والزاد بثمنهِ» فاجابوهم ان هذه البلاد بلاد السلطان ولا يد للفرنساويين فيها فاذا جاؤُا لا نبالي بهم فاذهبوا انتم عنا. فعادوا ثم اقلعت المراكب تخترق عباب البحر. اما السيد محمد كريم فانفذ الى مراد بك في القاهرة حال وصول الاسطول يخبرهُ بما كان وارسل الى كاشف البحيرة يامرهُ ان يجمع اليهِ العربان ويأتي بهم للمحافظة على الثغر فلما اتصل ذلك بمسامع الامراء والبكوات لم يكترثوا بها وقالوا «انا لا نبالي بمن تحدثهُ نفسهُ بمداهمتنا بل ندوسهُ تحت حوافر خيولنا». اما الشعب فاضطرب وخاف. ثم جاء خبر آخر باقلاع الانكليز فسكن الجاش

وفي يوم الاثنين في ١٨ منهُ وصلت ثغر الاسكندرية العمارة الفرنساوية فانفذت احد قواربها تطلب القنصل فمانع السيد محمد كريم اول الامر في تسليمهِ. ثم اذن لهُ فنزل حتى اتى الدارعة التي عليها بونابرت فسالهُ عن حالة المدينة فاخبرهُ بما كان من امر الاسطول الانكليزي وان الاهالي في يقظة واستعداد للدفاع جهادًا في سبيل الدين

وقد كانت حامية الاسكندرية لا تزيد عن خمساية من الانكشارية معظمهم يتعاطون التجارة والصناعة الاَّ انهم كانوا في استعداد للدفاع. وكتب السيد محمد الى مراد بك وابراهيم بك في القاهرة بما جرى الى ان

قال « ان العمارة التى ظهرت امامنا في هذا اليوم لا يعرف اولها من آخرها » . فلما تلا مراد بك الرسالة استشاط غيظًا ورمى بالكتاب الى الارض ثم ركب جوادهُ قاصدًا ابراهيم بك وكان قاطنًا في سراي القصر العيني على ضفة النيل المطلّة على جزيرة الروضة . فلما وصل اليهِ انفذ الى سائر كبار البلاد ورجال الدولة وفيهم بكير باشا الوالي فاجتمعوا اجتماعًا حافلاً تباحثوا فيهِ في امر ما جاءهم من الانباء الاخيرة . فقال مراد بك ناظرًا الى بكير باشا شزرًا « لا ريب ان الفرنساويين لا يجسرون على القدوم الى مصر من تلقاء انفسهم فلعلهم جاءوا بامر من الباب العالي ولكن الله قادرٌ ان ينصرنا على الاثنين » فاجابهُ بكير باشا قائلاً « ان هذا الكلام لا يليق صدورهُ منك وكيف يخال لك ان الباب العالي يسلم بدخول امة غريبة الى بلادهِ . دع عنك مثل هذا وهلمّ الى سيفك ورجالك لدفع العدو الذي داهمك » . وبعد المفاوضة بالامر اقرّوا على المواد الآتية

(١) ان يسير مراد بك في فرقة من الفرسان على الضفة الغربية لفرع رشيد من النيل نحو الاسكندرية لايقاف الفرنساويين عن التقدم

(٢) ان يعسكر ابراهيم بك بمن يبقى من الجند على الضفة الشرقية عند بولاق لحماية القاهرة

(٣) ان يرسل بكير باشا رسلهُ الى الاستانة يستمد الباب العالي (بالترياق من العراق) . ثم شاع في اسواق القاهرة خبر قدوم الفرنساويين فكثر الهرج وازداد الاضطهاد على المسيحيين رغمًا عن محاولة ابراهيم بك وبكير باشا اقناع المسلمين ان هؤلاء المسيحيين هم من جملة رعايا الدولة العلية

اما بونابرت فبعد ان استوعب كلام القنصل اقرّ على النزول الى البر حالاً فاعترضهُ الاميرال بروييس نظرًا لما يحول دون ذلك من بعد المسافة وصعوبة المسالك فاصرّ بونابرت على النزول وكانت قيادة القوتين البحرية

والبرية بيدهِ فوافقهُ بر ويس مكرهًا فسار بالمراكب الى جهة العجمي وبرج مرابوت على مسافة قصيرة جدًّا من الاسكندرية غربًا وصرفوا النهار بطولهِ يستعدون للنزول وفي الساعة العاشرة مساءً شرعوا بالنزل بالسرعة الممكنة وما زالوا في ذلك حتى الساعة الاولى بعد نصف الليل وقد نزل منهم اربعة آلاف وثلاثماية نفر فنزل بونابرت وكانت ليلة مقمرة فرقد نحو ساعتين على الرمال ثم ارسل طلائعهُ وسار بمن بقي مشاةً مستترين بجنح الليل ومستنيرين بالقمر . ففي الصباح التقى بونابرت بقبائل من عرب البحيرة (ولد علي) تحت قيادة اميرها فتبادلوا طلقات قليلة . ثم فرَّ العربان وما زال بونابرت سائرًا في رجالهِ حتى اشرفوا على الاسكندرية متخذين عامود السواري مطمحًا لانظارهم . ثم وقف بونابرت على مرتفع ونظر الى الاسكندرية فرآها وفيها المآذن والمنارات تناطح السحاب فجعل رجالهُ فرقًا لتسير الواحدة بعيدة من الاخرى مرمى رصاص بعد ان خطب فيهم وحرضهم ان يتجنبوا اهراق الدماء ما استطاعوا فهاجم الفرنساويون المدينة ودخلوها وقد اصيب الجنرال كلابر برصاصة في رأسهِ لم تمتهُ . فاستلمت الجنود الفرنساوية الاسوار وفرت الحامية المصرية تطلب ملجأً الى الابراج القديمة وسقط الجنرال مينو عن احد الاسوار التي استلمها هو فجرح فخذهُ . اما الجنرال مرمون فدخل المدينة من بابها بعد ان حطمهُ بالفوس . وخرق باقي الجيش الاسوار ودخلوا منها لانها لم تكن متينة البناء . ثم ارسل بونابرت احد ضباط جيشهِ الى اهالي المدينة يخبرهم انهم في مأمن على ارواحهم واموالهم وان الفرنساويين لم يأتوا لمحاربتهم وانما جاءوا لمحاربة المماليك . اما السيد محمد كريم والعساكر الاتراك ففروا الى حصن فرعون فاضطر الاهالي الى التسليم قهرًا فدخل بونابرت ورجالهُ الاسواق . فلما بلغ ذلك السيد محمد كريم جاء بمن معهُ وسلم سلاحهُ ومثل ذلك فعل المشائخ والعلماء فاكرمهم بونابرت اكرامًا خصوصيًّا . ثم التفت الى السيد كريم قائلاً

«قد اخذت سلاحك بالسيف وقد كان لي ان اعاملك معاملة الاسير لاني اخذتك بعد ان دافعت عن نفسك ما استطعت ولكن بما ان الشجاعة حليفة الشرف ها اني اعيد اليك سيفك على امل ان تكون مساعدًا امينًا للجمهورية الفرنساوية كما كنت للحكومة السابقة على عتوها وظلمها» ثم سأله اذا كان يرغب في معاضدة مشروعهم الذي هو تأييد سلطة الباب العالي وقمع سلطة المماليك . فاجاب بالايجاب فاقرّهُ على الاسكندرية تحت مناظرة الجنرال كلابر وكان قد اضطر الى البقاء في الاسكندرية بسبب الجرح الذي اصابهُ . ثم صرح بونابرت للمسلمين بالمحافظة على معتقداتهم وصلواتهم كما كانوا يفعلون قبلًا وجرد الاهالي من السلاح قاطبة وامرهم ان يجعلوا في صدورهم الجوكار وهو عبارة عن علامة مصنوعة من ثلاث قطع من الجوخ او الحرير مستديرة بقدر الريال لحلية و بيضاء وحمراء توضع بعضها فوق بعض بحيث تظهر الالوان الثلاثة اشارة الى العلم الفرنساوي ذي الثلاثة الوان ولما رسخت قدم الفرنسويين في الاسكندرية نزل للبر بعض رجال البعثة العلمية ومعهم المطبعة العربية وجعلوا يبحثون في آثار الاسكندرية البنائية والجيولوجية . ثم امر بونابرت ان تنزل الى البر جميع المهمات العسكرية من خيول واسلحة ومدافع وغيرها وان يكون ذلك باوفر سرعة . وان يطبع منشور بالعربية يفرق في البلاد فكُتب وطبع ونصهُ بالحرف الواحد

« بسم الله الرحمن الرحيم . لا اله الَّا الله لا ولد لهُ ولا شريك في ملكهِ . من طرف الجمهور الفرنساوي المبني على اساس الحرية والمساواة السر عسكر الكبير بونابرت امير الجيوش يعرف اهل مصر جميعهم ان السناجق الذين يتولون مصر منذ زمن مديد يعاملون الملة الفرنساوية بالاحتقار والاعتداء وقد حضرت الآن ساعة عقوبتهم واحسرتاه انهُ منذ ايام وعصور هولاء المماليك المجلوبون من بلاد الاباظه والكرج يفسدون في احسن اقاليم الكرة الارضية ولقد حتم رب العالمين القادر على كل شيء

بانقضاء دولتهم . فيا ايها المصريون وقد يقال لكم انني ما نزلت هذه الجهة الاَّ بقصد ازالة دينكم فذلك كذبٌ صريحٌ لا تصدقوهُ وقولوا لاخوانكم انني ما قدمتُ اليكم الاَّ للأخذ بحقكم من الظالمين وانني اكثر من المماليك عبادة لله سبحانهُ وتعالى واحترامًا لنبيّهِ محمد (صلعم) والقرآن العظيم وقولوا لهم ايضًا ان جميع الناس شرع عند الله وان الذي يميز بعضهم عن بعض هو العقل والفضائل والعلوم واي شيء في المماليك يميزهم عن غيرهم ويستوجب ان يكون لهم وحدهم كلما تجلب بهِ الحياة الدنيا فحيثما تكون ارض مخصبة فهي للمماليك ومثل ذالك احسن الجواري واكرم الخيل واجمل المساكن . فان كانوا قد اخذوا الارض المصرية التزامًا فليظهروا لنا الحجة التي كتبها لهم الله ولكن رب العالمين رؤوف على الناس وبعونهِ تعالى من اليوم فصاعدًا لا يستثنى احد من اهالي مصر عن الدخول في المناصب السامية وعن اكتساب المراتب العالية فالعقلاء والفضلاء والعلماء بينهم يفوّض اليهم تدبير الامور والمهام وبذلك تصلح حال الامة كلها في الاراضي المصرية كالمدن العظيمة والخلجان الواسعة والمتجر الواسع الذي اضاعهُ طمع المماليك وظلمهم . فيا ايها القضاة والمشايخ والائمَّة ويا ايها الشربجية واعيان البلاد قولوا لامتكم ان الفرنساويين هم ايضًا مسلمون مخلصون واثباتًا لذلك قد نزلوا رومية الكبرى وخربوا فيها كرسي البابا الذي كان دائمًا يحثُّ النصارى على محاربة المسلمين ثم قصدوا جزيرة مالطا وطردوا منها الكفاليرية الذين كانوا يزعمون ان الله تعالى يطلب منهم محاربة المسلمين ومع ذلك فان الفرنساويين في كل وقت احبَّاء حضرة سلطان العثمانيين واعداء اعدائهِ أبّد الله ملكهُ وبعكسهم المماليك فانهم خرجوا عن طاعة السلطان غير ممتثلين لاوامرهِ ولم يطيعوهُ الاَّ عن طمع في قلوبهم كمين فطوبى ثم طوبى لاهالي مصر الذين يتفقون معنا بلا تأخير فتصلح حالهم وترفع مراتبهم وطوبى للذين يقعدون في مساكنهم غير مائلين

لاحد الفريقين المتحاربين لكن الويل ثم الويل للذين يتحدون مع المماليك ويساعدونهم في الحرب علينا فلا يجدون طريق الخلاص ولا يبقى لهم اثر .

« المادة الاولى . جميع القرى الواقعة في دائرة قريبة على مسافة ثلاث ساعات عن المواضع التي يمرّ بها العسكر الفرنساوي يجب ان ترسل للصاري عسكر بعض وكلاء من عندها لكي يعرّفوا المشار اليهِ انهم اطاعوا وانهم نصبوا العلم الفرنساوي الذي هو ابيض وكحلي واحمر

« المادة الثانية . كل قرية تقوم على العساكر الفرنساوية تحرق بالنار

« المادة الثالثة . كل قرية تطيع العساكر الفرنساوية يجب عليها ان تنصب العلم الفرنساوي كذلك علم سلطان العثمانيين محبّنا دام بقاؤُهُ

« المادة الرابعة . على المشايخ في كل بلد ان يختموا حالاً جميع الارزاق والبيوت والاملاك خاصة المماليك وعليهم الاجتهاد الزائد لكي لا يضيع ادنى شيء منها

« المادة الخامسة . يجب على المشايخ والقضاة والائمّة ان يلازموا وظائفهم وعلى كل واحدٍ من اهل البلد ان يبقى في مسكنهِ مطمئنًّا كذلك تقدم الصلوة في الجوامع على العادة وعلى المصريين جميعًا ان يشكروا فضل الله سبحانهُ وتعالى على انقراض دولة المماليك قائلين بصوت عالٍ ادام الله اجلال سلطان العثمانيين . ادام الله اجلال العسكر الفرنساوي . لعن المماليك واصلح حال الامّة المصرية

« تحريرًا في معسكر الاسكندرية في ١٣ شهر مسدور من السنة السابعة من اقامة الجمهور الفرنساوي يعني اواخر شهر محرم سنة ١٢١٣ ه »

وامر بتوزيع هذا المنشور في البلاد المصرية . ثم فكر في امر التوجه الى القاهرة واخضاع سائر القطر . وكان الى القاهرة من الاسكندرية طريقان الواحد عن طريق دمنهور او الصحراء على البر الغربي والثاني عن طريق رشيد في النيل فرأى ان الطريق الثاني اصعب مسلكًا عليهِ بالنسبة لبقاء

رشيد في حوزة المماليك اذ ذاك فاقرّ ان يسير في حملة عن طريق دمنهور في الصحراء وكان قد انفذ الجنرال دبزه عند استلام الاسكندرية ليسير في ذلك الطريق وارسل عمارة بحرية لتحتل رشيد ثم تسير في النيل لملاقاته في الرحمانية

وفي ٢٤ محرَّم سنة ١٢١٣ ﻫ (٧ يوليو (تموز) سنة ١٧٩٨ م) بارح بونابرت الاسكندرية في الساعة الخامسة مساء وقاية من الحرّ تاركاً كلابر فيها وما زال سائراً بحملتهِ حتى منتصف الليل فنزلوا للراحة فرقدوا ساعتين ثم نهضوا وما زالوا يواصلون السير ليلاً ونهاراً وقد قاسوا عذاباً شديداً من قلَّة الماء حتى وصلوا دمنهور فصادفوا خيرات كثيرة وماء غزيراً فمكثوا هناك يومين وليلتين ثم ساروا قاصدين الرحمانية في صباح ٢٨ محرم سنة ١٢١٣ ﻫ (١١ يوليو (تموز) سنة ١٧٩٨ م)

وفي اليوم الثاني من مسيرهم لاقتهم شرذمة من الخيالة المماليك فحصلت بين الفريقين مناوشة شفَّت عن انهزام المماليك بعد ان قتل منهم نحو من خمسين فارساً. فواصل بونابرت سيرهُ حتى وصل الرحمانية وقابل النيل فوثبت العساكر على الماء كانهم ذئاب خاطفة فشربوا وتركوا خيولهم للمرعى وعسكر بونابرت ومن معهُ طلباً للاستراحة على اثر ما قاسوهُ من مشاق السفر والعطش ريثما تصلهم العمارة البحرية التي انفذوها الى رشيد. وبعد ليلتين من مكوثهم هناك اتت العمارة بعد ان استولت على رشيد وجعلت فيها حامية تحفظها. وكانت الجيوش قد استراحت فتأهبت للرحيل الى القاهرة فسارت المشاة والفرسان على الضفة الغربية حذاء النيل والى يسارها العمارة سائرة في النيل وما زالوا يجدُّون السير حتى اتوا محلة سلامة عند المساء فلم يمكنهم استطلاع حالة العدو تلك الليلة

اما ما كان من قبيل مراد بك فانهُ عند ما عهد اليهِ المسير الى الاسكندرية كما تقدم جمع اليهِ خيالتهُ وقبل مبارحتهم القاهرة صاروا

يصادرون الناس ويأخذون ما يحتاجون اليهِ بدون ثمن . ثم سار بهم الى الجسر الاسود في البر الغربي فمكث بهِ يومين حتى تكامل العسكر وسناجقهُ وفيهم علي باشا الطرابلسي وناصيف باشا وكانا من اخصّائهِ المقيمين معهُ في الجيزة . واخذ معهُ عدة كثيرة من المدافع والبارود . وجعل الرحالة وهم اسراب من الاداشات والغليونجية والاروام والمغاربة حملة بحرية تسير في النيل على الغلايين الصغار التي انشأها هو . ولما بارح الجسر الاسود ارسل الى مصر بمشورة علي باشا الطرابلسي يأمر باصطناع سلسلة من الحديد في غاية الثخن والمتانة طولها ماية وثلاثون ذراعًا تنصب بعرض البوغاز عند برج مغيزل من البر الى البر لتمنع مراكب الفرنساويين من المرور . وان يجعل عندها جسر من المراكب عليها المتاريس والمدافع ظنًّا منهُ ان الفرنساويين لا يناهضون المصريين في البر ولا بد من قدومهم بحرًا وانهم يطاولونهم ويصارونهم في القتال حتى تأتيهم النجدات . وما زال مراد بك سائرًا فيمن معهُ ملازمًا ضفة النيل الغربية والى يمينهِ الغلايين وفيها من ذكرنا من الرحالة قاصدًا الجيوش الفرنساوية فوصل الى قرية شبرايس وعسكر هناك بفرسانهِ وارسل عمارتهُ لملاقاة عمارة الفرنساويين فالتقت بها على مسافة قصيرة من منية سلامة وقد تجاوزت جنود البر مسافةً بسبب الريح الشديد الذي طلع عليهما ذلك اليوم . فانبهر الفرنساويون لذلك الاتفاق فاطلقوا نارهم فاجابهم المماليك وكان على قيادة العمارة المصرية علي باشا الطرابلسي المتقدم ذكرهُ فاحتدمت الحرب بين الفريقين حتى كادت تدور الدائرة على الفرنساويين وقد يئسوا لدخول عدة من مراكبهم في حوزة المماليك فارسل بيره قائد العمارة الفرنساوية من يوصل الخبر الى بونابرت ليسرع الى امدادهم . ثم اتفق ان احدى قنابل الفرنساويين اصابت المركب الذي فيهِ زخائر المماليك فاحرقتها وتتطايرت اجزاؤُها في الفضاء فانذعر المماليك وخابت آمالهم

ثم وصل بونابرت بن معهُ فحمد الاتفاق الذي نجَّى عمارتهم وامران تنتظم عساكرهُ مربعات منتظمة لملاقاة المماليك في البرّ ايضًا فالتقى الفريقان وبعد الاخذ والرد مدة عاد المماليك على اعقابهم طالبين النجاة وفرّ كل من كان في القرى المجاورة فدخلها الفرنساويون فلم يجدوا فيها احدًا فواصلوا السير حتى اتوا وردان فعسكروا للاستراحة ثم بلغهم ان مراد بك ورجالهُ قد تحصنوا في امبابه مقابل القاهرة

وفي ٧ صفر سنة ١٢١٣ هـ بارح بونابرت وردان بجيشهِ قاصدًا القاهرة وما مشى يسيرًا حتى ظهرت له من وراء الافق الاهرام العظيمة .

وما زال اهل القاهرة منذ سفر مراد بك لملاقاة الفرنساويين في اضطراب يجتمع علماؤُهم وفقهاؤُهم في الجامع الازهر يقدمون الصلوات والتضرعات الى الله ان ينصرهُ على الاعداء ومثل ذلك كان يفعل القراء وتلامذة المدارس . اما باقي الاهالي فكانوا في اضطراب عظيم ولا سيما عندما كانوا يسمعون بتقهقر المماليك

اما ابراهيم بك فكان معسكرًا في بولاق كما تقدم . فلما بلغهُ تقهقر مراد بك من شبرايس بمدافعهِ تخابر مع رجال حكومتهِ فاقروا على مد الطوابي واقامة المدافع من بولاق الى شوبرا تعزيزًا للقاهرة . اما اهالي المدينة فمن يسكّن جاشهم وقد وقع في قلوبهم الرعب . اما مراد بك فكان قد تحصن في امبابه على نية ان يقابل الفرنساويين هذه المرة بالمدافع وليس بالفرسان كما فعل في شبرايس . وفي صباح يوم السبت في ٨ صفر بلغ الفرنساويون الجسر الاسود ثم ام دينار . وفي صباح ٨ منهُ (٢١ يوليو) بارح الفرنساويون ام دينار ونزلوا على مسافة ميلين من امبابه في حقل من البطيخ فكان النيل عن يسارهم والاهرام وسلسلة جبال ليبيا عن يمينهم وامبابه امامهم وفيها مراد بك وجنودهُ وعليهم الالبسة والدروع من الحديد المصقول تتلألأ في اشعة الشمس والوان ملابسهم تزيدها رونقًا

واصوات خيولهم قد ملأت الفضاء . فالتفت بونابرت الى معسكر العدو فاذا بهِ حصين وفي مقدمتهِ اربعون مدفعًا مستعدة لاطلاق القنابل على الفرنساويين عند ابداء اول حركة نحوهم فالتفت الى رجالهِ واشار الى الاهرام قائلاً «اعلموا ان خمسين جيلاً من الناس تنظر اليكم من قمة هذه الاهرام وتراقب حركاتكم ناظرة الى ما يأُول اليهِ امركم مع هوءلاء المماليك»

وترى في شكل ٨٨ الجيوش الفرنساوية بجوار اهرام الجيزة

ثم أمر فرقة الجنرال ديزه ان تسير نحــو اليمين والفرق الاخرى نحو اليسار تجنبـاً لنيران تلك المدافع فادرك مراد بك مرادهم من هذه

ش ٨٨ الجيوش الفرنساوية بجوار الاهرام

الحركات فامر ايوب بك الدفتردار ان يطلق القنابل على فرقة الجنرال ديزه ويوقفها عن المسير فوقفت على شكل مربع تنتظر هجوم المماليك فهجم ايوب بك هجمة الاسود الضارية وتبعتهُ السناجق بالسيوف فلاقاهم مربع ديزه بنار كالصواعق المتساقطة فلم ينفك ايوب بك هاجمًا وهو ينادي باعلى صوتهِ « ويل لكم ايها الكفار الملاعين قد ساقتكم كبرياؤكم الى ارضنا مهلاً اننا سنملئ القبور باجسادكم ونجعل هذا اليوم يومًا تذكرهُ اعقابكم من بعدكم . اما نحن فاذا مات احدنا فانهُ يذهب شهيدًا الى النعيم والذي يبقى حيًّا فلهُ السعادة الى آخر ايامهِ» . ثم هجمت الفرق الفرنساوية من على اليسار واشتد القتال وما زالت الحرب سجالاً حتى تقهقرت المماليك وقُتل

ايوب بك وفرَّ مراد بك بمن بقي من رجالهِ قاصدًا الصعيد واستولى الفرنساويون على امبابه

فلما اتصلت تلك الاخبار بالقاهرة ضجَّت العامة وكثرت الغوغاء من الرعية واخلاط الناس بالصياح منادين «يارب يالطيف يا رجال الله» وكانوا كانهم يقاتلون ويحاربون بصياحهم وجلبتهم وكان العقلاء منهم ينادونهم ان يتركوا ذلك الصياح قائلين ان الصحابة والمجاهدين انما كانوا يقاتلون بالسيف والحراب وضرب الرقاب لا برفع الاصوات والصراخ والنباح . اما هم فكانوا لا يسمعون ولا يرجعون ومن يقرأ ومن يسمع . ثم ركبت طائفة كبيرة من الامراء والاجناد من المعسكر الشرقي في بولاق وفيهم ابراهيم بك وشرعوا في التعدية امدادًا لمراد فتزاحموا على المعادي لكون التعدية من محل واحد والمراكب قليلة فلم يصلوا الى البر الثاني حتى وقعت الهزيمة على المحاربين كل ذلك وريح النكباء يشتد هوبها وامواج البحر في قوة اضطرابها والرمال يعلو غبارها وتنسفها الريح في وجوه المصريين فلم يستطع احدهم ان يفتح عينيهِ من شدة الغبار وكان ذلك من اعظم اسباب الهزيمة حتى خيل للناس ان الارض تزلزلت والسماء ساقطة عليها . كل ذلك والهزيمة متواصلة حتى انهزم ابراهيم بك وبكير باشا . وجعل اهالي المدينة يحملون ما خفَّ حملهُ وغلا ثمنهُ ويفرُّون من وجه الموت جنوبًا وشرقًا الى الصعيد او الى السويس وبلبيس اما ابراهيم بك فسار الى جهة الشرق . كل ذلك ظنًا منهم ان الفرنساويين قد عدوا الى البر الشرقي ولا سيما عند ما رأوا دخانًا متصاعدًا من جهة بولاق وقيل لهم ان الفرنساويين قد حرقوها وجاءوا قاصدين المدينة يحرقون وينهبون ويفتكون

ولما اصبح القوم تبيَّن لهم ان الفرنساويين لا يزالون في البر الغربي فاجتمع بعض العلماء والمشايخ في الجامع الازهر واقرُّوا على ان يرسلوا الى

الفرنساويين كتابًا وينتظروا ماذا يكون من امرهم فارسلوهُ صحبة رجل مغربي يعرف الفرنساوية وبرفقتهِ رجل آخر فعادا واخبرا انهما قابلا كبير الفرنساويين واعطياهُ الكتاب فقرأهُ عليهِ ترجمانهُ ومضمونهُ الاستفهام عن قصدهم فقال لهما اين عظماؤكم ومشائخكم لماذا لا يأتون الينا لنجري ما يكون فيهِ راحتهم فقالا اننا جئنا نطلب ذلك بالنيابة عنهم فقال قد سبق منّا منشور ارسلناه اليكم من الاسكندرية فقالا قد وصلنا وإنما نريد تضمينًا آخر فكتب لهما ما مضمونهُ «انا قد ارسلنا لكم سابقًا كتابًا فيهِ الكفاءة وقد ذكرنا لكم انا ما حضرنا الّا بقصد ازالة المماليك الذين يعاملون الفرنساويين بالذل والاحتقار واخذ مال التجار ومال السلطان ولما حضرنا الى البر الغربي خرجوا الينا فقابلناهم بما يستحقون وقتلنا بعضهم واسرنا بعضهم عندنا ونحن في طلبهم حتى لا يبقى منهم احد في القطر المصري . واما المشائخ والعلماء واصحاب المرتبات والرعية فليكونوا مطمئنّين وفي مساكنهم مستقرّين الخ» . ثم قال لهما يلزم ان يأتي الينا المشائخ والشوربجية لنرتب لهم ديوانًا منتخبةً من سبعة اشخاص عقلاء يدرون الامور . فلما رأى العلماء تلك الملاينة سكن جاشهم وكاتبوا من كان فارًّا منهم فحضر الشيخ الشرقاوي والشيخ السادات . وفي ذلك اليوم حضر بعض الاوباش ونهبوا بيتي مراد بك وابراهيم بك بخطة قيسون واحرقوها

وفي يوم الثلاثاء ١١ صفر عدت الجيوش الفرنساوية الى القاهرة ونزل بونابرت في بيت محمد بك الالفي في الازبكية بخط الساكت وكان قد بناهُ وزخرفهُ في السنة الماضية كانهُ كان يعدهُ لهذه الغاية وهي البناية التي فيها مخزن فرانسيز الآن بجانب اللوكندة الخديوية . واخذت العساكر الذين دخلوا القاهرة من الفرنساويين يعاملون الباعة باللين ويبتاعون ما يحتاجون اليهِ ويدفعون فيهِ ثمنًا غاليًا فاحبتهم الناس وارتاحوا اليهم

وفي الخميس ١٣ صفر بعث بونابرت يطلب المشائخ واعيان البلاد

والوجاقلية فحضروا ولما استقرّ بهم الجلوس خاطبهم وتفاوض معهم بامر انشاء ديوان مؤلف من عشرة اشخاص من المشائخ لفصل الدعاوي فوقع الانتقاء على عشرة وفيهم الشيخ عبدالله الشرقاوي والشيخ خليل البكري والشيخ مصطفى الصاوي والشيخ محمد المهدي . كل هذا الانتخاب حصل بمشورة قنصل فرنسا في مصر والاسكندرية وجعلوا علي آغا الشعراوي واليًا على الشرطة وعلي آغا محرم واليًا على الاحتساب باشارة ارباب الديوان بعد ان افهموا بونابرت ان سوقة مصر لا يهابون الّا الاتراك وهؤلاء المذكورون من بقايا البيوت القديمة الذين لا يتجاسرون على الظلم كغيرهم . وجعلوا ذا الفقار كتخدا محمد بك الالفي كخيا لبونابرت . وجعلوا من ارباب الشورى الخواجه موسى كافوا وكلوي الفرنساويين ووكيل الديوان جان بنوا . ثم امروا الوالي والآغا ان ينادوا بالامان وفتح الحوانيت وان يطمئن الناس . وكان الفرنساويون يدخلون بيوت الامراء المهجورة ويأخذون منها شيئًا ويتركونها مفتوحة فيدخلها الرعاع وينهبونها ثم تكررت هذه التعديات على البيوت التى اصحابها فيها فجعلوا للبيوت بيارق بثلاثة الوان تعلّق على بيوت الكبراء الذين يخافون على بيوتهم من النهب او يلصقون على ابوابهم ورقة يأخذونها من السر عسكر (بونابرت) . وفي ذلك اليوم قلدوا برطلمين الرومي كخيا مستحفظان وجعلوا شخصًا آخر افرنجيًا امين البحرين وآخر جعلوهُ آغا الرسالة وجعلوا الديوان في بيت قائد آغا بالازبكية قرب الرويعي وسكن بهِ رئيس الديوان وسكن ديوي قائمقام المدينة ببيت ابراهيم بك الوالي المطل على بركة الفيل وسكن شيخ البلد في بيت ابراهيم بك الكبير وسكن مجاون في بيت مراد بك . واقام بوسايلك مدبرًا المالية سكن في بيت الشيخ البكري القديم وكان يجتمع عندهُ القبط لاجل الحسابات

ثم اخذت العساكر الفرنساوية تعدي للبر الشرقي شيئًا فشيئًا حتى

كثر عددهم في القاهرة فامتلأت منهم الاسواق وسكنوا في البيوت ولكنهم لم يشوشوا على احد وكانوا يأخذون ما يحتاجون اليهِ بزيادة في الثمن ففجر السوقة وصغروا اقراص الخبز وطحنوا الحنطة بترابها وكثرت باعة المأكولات وفتح الاروام عدة حوانيت لبيع انواع الاشربة وحانات وقهاوي وفتح بعض الافرنج المتوطنين بيوتًا لصنع الاطعمة والاشربة على النمط الافرنجي (اي لوكاندات افرنجية) ولم يكن ذلك معروفًا في مصر الى ذلك العهد ولذلك وصفها المؤرخ عبد الرحمن الجبرتي كانها شيء جديد دخل عليهم فقال« وفتحوا بيوتًا لصنع الاطعمة والاشربة على طرايقهم في بلادهم وجعلوا على ابوابها علامات يعرفونها بينهم فاذا مرّت طائفة تريد الاكل بذلك المكان دخلوهُ وهو يشتمل على عدة مجالس بين دون وعال ووسط وعلى كل مجلس علامة ومقدار الدراهم التي يدفعها الداخل وفي تلك المجالس موائد من الخشب عليها الطعام وحولها الكراسي فيجلسون عليها ويأتيهم الفراشون بالطعام على قوانينهم فيأكلون ويشربون على نسق لا يتعدونهُ ثم يدفعون ما وجب عليهم من غير نقص ولا زيادة ويذهبون لحالهم »

وفي يوم السبت ١٥ صفر سنة ١٢١٣ اجتمع الديوان المتقدم ذكرهُ وتباحث في احتياجهِ الى النقود فقرّر استلاف خمسماية الف ريال من التجار المسلمين والنصارى والقبط والسوريين والافرنج واخذوا في تحصيلها وقرروا ان ينادى في الاسواق ان من أخذ شيئًا من نهب البيوت عليهِ ان يحضر بهِ الى بيت القائمقام وان لم يفعل وظهر بعد ذلك يشتد عقابهُ . وان ينادى على نساء الامراء والبكوات بالامان وان يسكنّ بيوتهنّ وان كان عندهن شيء من امتعة ازواجهنّ يصالحن على انفسهنّ فجاء كثيرات منهنّ وصالحن ودفعن مبالغ عظيمة

وفي يوم الاحد في ١٦ منهُ طلب بونابرت الخيول والجمال والاسلحة

فجمعوا شيئاً كثيراً منها وكذلك الابقار والثيران واشاعوا التفتيش وكسروا عدة دكاكين بسوق السلاح وغيره واخرجوا ما وجدوه فيها من الاسلحة واخرجوا فيما خلا ذلك كثيراً من الخبايا والودائع بوسطة البنائين والمهندسين والخدم الذين يعرفون بيوت اسيادهم فكانوا يطلعونهم على اماكن الخبايا ومواضع المدافن تقرُّباً من الفرنساويين . وفي ذلك اليوم قبضوا على شيخ الجعيدية (الرعاع) ورموهُ بالرصاص ببركة الازبكية مع رفيق لهُ . ثم قبضوا على آخرين في الرميلة فخاف الناس وصار يأتي الذين عندهم منهوبات ويقدمونها للديوان

وفي يوم الثلاثاء ١٨ منهُ طلبوا اهل الحرف والتجار وضربوا عليهم مبلغاً على سبيل القرض لا يستطيعون دفعهُ واجّلوا لهم اجل ستين يوماً لدفعهِ فاستغاثوا وذهبوا الى الجامع الازهر والمشهد الحسيني واستشفعوا المشايخ فتكلموا بامرهم امام الديوان فلطف المطلوب الى نصفهِ وسعوا لهم في الاجل . وقد كان بكل عطفة او حارة من عطف وحارات القاهرة باب كبير مصفح بالحديد يقفل ليلاً . فامر بونابرت بقلع ابواب الدروب والعطف والحارات واستمروا في ذلك عدة ايام فخاف الاهالي وكثرت ظنونهم في المقصود من تلك الاعمال فظن بعضهم ان الفرنساويين عازمون على قتل المسلمين وهم في صلاة الجمعة وقال آخرون غير ذلك . وكان في القاهرة دار لضرب النقود تضربها باسم السلطان فامر بونابرت ان يستمر الضرب كما كان وعهد ذلك الى احد رجالهِ . وكان في نيتهِ انشاء بريد (بوسطة) بين مصر والاسكندرية لكنهُ لم يستطع ذلك لكثرة الاخطار التي تحيط برسل البريد اثناء الطريق

وفي ٢٠ منهُ وردت الى الديوان تحارير من قافلة الحج من العقبة فذهب ارباب الديوان الى السر عسكر بونابرت واعلموهُ بذلك وطلبوا منهُ اماناً لامير الحاج فامتنع خيفة ان يكون في كثرة من الحجاج فيحدث

ما يكدر الراحة . وقال لا اعطيهِ ذلك الاَّ اذا جاء في قلَّةٍ ولا يدخل معهُ المماليك فقالوا ومن يخفر الحجاج قال انا ارسل لهم من عساكري اربعة آلاف يوصلونهم الى مصر فكتبوا الى امير الحج كتاباً لطيفاً واوعزوا اليهِ ان يحضر بمن معهُ الى الدار الحمراء وانهُ متى وصل الى هناك يدبرون ما فيهِ الخير فلم يصلهُ ذلك الكتاب حتى خابرهُ ابراهيم بك وكان في بلبيس يطلب اليهِ ان يوافيهُ الى هناك حالاً فسار الى بلبيس فعلم بونابرت باقامة ابراهيم بك في بلبيس فارسل اليهِ فرقة من جيوشهِ تحت قيادة الجنرال لاكلاك فسار وعسكر في الخانكاه وراء المطرية ومكث هناك يومين ولم يصادف اقلَّ مقاومة . وفي اليوم الثالث هجم عليهِ وعلى رجالهِ قبائل من العرب وبينهم عدد كبير من المماليك وبعد محاربة شديدة تقهقرت الجيوش الفرنساوية نحو القاهرة لعجز خيولهم فعلم الجنرال مورات بذلك فاستمد بونابرت فامدَّهُ فاجتمعت الجيوش الفرنساوية ثانية الى الخانكاه وتبعهم بونابرت بنفسهِ خيفة ان يكونوا في ارتباك فينكسرون وتعود العائدة عليهم فاتحدت جميع الجيوش الفرنساوية في الخانكاه وساروا جميعاً في أثر العربان والمماليك حتى الصالحية وهناك كان ابراهيم بك بمن معهُ ثم علموا انهُ بارح الصالحية فارّاً نحو سوريا ملتجئاً الى الجزّار في عكا وانضم كثيرون من رجالهِ الى عسكر الفرنساويين وسلمت الصالحية بمن فيها

فلما رأى بونابرت ذلك اسرع بالعود الى القاهرة . وبينما كان في الطريق قابلهُ رسول بكتاب مفضوض فتلاهُ فاذا بهِ خبر قدوم عمارة نلسون الانكليزية الى الاسكندرية وحصول موقعة كبيرة في ابي قير شفت عن تحطم العمارة الفرنساوية برمَّتها . فانذعر لذلك الخبر ولكنهُ تجلَّد وقال لاركان حربهِ الذي كان قد فضَّ الكتاب وتلاهُ قبلهُ دع هذا الخبر في سرّك الآن لنرى ماذا يأتي بهِ الغد

«موقعة ابي قير»

وتفصيل تلك الموقعة ان نلسون بعد ان بارح الاسكندرية علم بقدوم الفرنساويين اليها ودخولهم في القطر المصري فعاد بعمارته حتى جاء الاسكندرية في ١٩ صفر سنة ١٢١٣ ه (اول اوغسطس (آب) سنة ١٧٩٨ م) وكانت العمارة الفرنساوية راسية في جون ابي قير على خط واحد ممتدّ من الشمال الغربي الى الجنوب الشرقي تحت قيادة الاميرال برويس وكانت قد ارسلت في ذلك الصباح خمسة وعشرين نفرًا من كل دارعة من دوارعها الى البر لخفر الفعلة المرسلين لاحتفار الآبار فلما استكشفوا العمارة الانكليزية نادوا بالرجال ان يعودوا الى المراكب . ثم تداول الاميرال برويس مع ضباطهِ في كيفيــة مقابلة العمارة الانكليزية فاشاروا عليهِ ان يخرج من الجون ويستقبلها في ظهر البحر فاصرَّ على بقائهِ في مكانهِ بدعوى ان عدد رجالهِ لا يسمح لهُ بقبول مشورتهم فبقيت العمارة في الجون بانتظار الانكليز . اما نلسون فكان مذ علم باحتلال الفرنساويين مصر عاملاً فكرتهُ في كيفية ملاقاتهم لا يأكل ولا ينام . فلما صار على مشهد من عمارتهم فكر في احسن اسلوب يأخذهم بهِ فاقرَّ على ان يرسل قسمًا من مراكبهِ يدخل بين الفرنساويين والبر والقسم الآخر يأتيهم من الامام فيجعلهم هدفًا لنارين حاميتين غير متغافل عما يحيط بهذا العمل من الخطر ولكن يظهر انهُ كان ممن يستسهلون الصعب . فسارت بعض مراكبهِ من وراء الفرنساويين ورست بينهم وبين البرّ وتقدمت بقية المراكب من الامام وكانت الشمس قد مالت الى الغروب وابتدأ نلسون باطلاق المدافع فاجابهُ الفرنساويون بنار مثل نارهِ . وبعد ١٢ دقيقة انكسرت دارعة فرنساوية وبعد عشر دقائق انكسرت دارعتان اخريان ولم يأتِ العشاء حتى استولى الانكليز على عدة دوارع فرنساوية عدا عن التي كسرت

وكان الاميرال برويس على الدارعة «الشرق» ذات المائة وعشرين مدفعًا وعليها نحو من الف رجل وكان نلسون من الجهة الاخرى على احدى دوارعهِ براقب حركات الفرنساويين ويعطي الاوامر فاصابتهُ رصاصة في جبهتهِ فوق احدى عينيهِ فتدلى الجلد حتى غشي بصرهُ فرفعهُ بيدهِ غير مبالٍ وجعل ينظر الى ما يكون من حركات الدوارع وكان بجانبهِ احد ضباطهِ فامسكهُ بيدهِ فانتبه كأنهُ كان في غفلة وناداهُ قائلاً « قد قتلت فارجوك ان تذكرني امام امرأتي » فحملوهُ الى غرفتهِ واحاط بهِ الاطباء وبعد ان كشفوا عن جرحهِ طيَّبوا خاطرهُ وطمنوهُ ان الجرح لا يؤذن بالخطر السريع اما هو فلم يكن ينتظر الشفاء ولكنهُ مع ذلك لم ينشغل عن الاوامر الى ضباط الدوارع وكان يتتبَّع حركاتها وهو على فراشهِ . ثم ضمدوا جرحهُ وهو يخاطب كاتب سرّهِ ان يحرر حالاً لنظارة البحرية في لندرا عن هذه المحاربة فلم يستطع احد من الحضور ان يمسك القلم من شدة التأثر فاخذ نلسون قلمًا وجعل يكتب مسرورًا بما أُوتيهِ من الفوز

اما الاميرال برويس فأُصيب اولاً ببعض الجروح ثم اصابتهُ قنبلة قطعتهُ قسمين فسقط على الارض فارادوا حملهُ الى اسفل الدارعة فاشار لهم ان يتركوهُ يفارق الحياة على ظهرها فتركوهُ . وبعد العشاء بيسير اصاب «الشرق» الدارعة الفرنساوية العظيمة احتراق تطرّق الى جارتها فبلغ ذلك الاميرال نلسون فطلب ان يحملوهُ الى ظهر دارعتهِ ليشاهد ذلك فحملوهُ فلما رأى تلك المشاهد تأثر منها كثيرًا فامر ان يسير احد الضباط في سرب من العساكر لمساعدة الفرنساويين في انقاذ دارعة «الشرق» من الحريق ولم ينجُ من رجالتها الاَّ بعضهم واشتد الحريق حتى رآهُ اهالي الاسكندرية ورشيد . وما زال الاطلاق متواصلاً والاضطراب متسلطًا حتى ظهيرة اليوم التالي وقد فاز الانكليز فوزًا مبينًا

وكان كلابر ورجالهُ في الاسكندرية اثناء المعركة في خوف واضطراب

وكانوا جميعًا تحت السلاح. وفي الصباح وردت لهم الاخبار بانكسار العمارة الفرنساوية ثم وردت مكاتبة اخرى تفيد ان اسرى ومجاريح الفرنساويين محفوظين بكل اكرام عند الانكليز وان في نية نلسون ان يبعث بهم الى البر يقيمون في مستشفيات تحت معاينة بعض اطبائهِ . فلما وصل خبر انكسار الفرنساويين الى رشيد والاسكندرية خافت جيوش الاحتلال وصغرت قيمتهم في اعين الوطنيين. واضطر الرشيديون الى تواصل المخابرة مع الاسكندرانيين فاقاموا قافلة تنقل البُرد وفيها التحارير والرسائل والاخبار لاجل المفاوضة في امر الدفاع اذا اراد الانكليز محاربتهم . فكتب كلابر الى بونابرت بواقعة الحال وما انتهت اليهِ العمارة الفرنساوية فوصلهُ الكتاب اثناء عودهِ من الصالحية كما مر بك اما العمارة الانكليزية فاقلعت عن الاسكندرية

« عودٌ »

فسار بونابرت حتى اتى بلبيس فرأى ضباطهُ واركان حربهِ على المائدة صباحًا وهم فرحون بانتصارهم على المماليك في الصالحية غير عالمين بشيء من محاربة ابي قير فقال لهم ضاحكًا « افرحوا ولتنشرح صدوركم واجتهدوا ان تعتادوا على هواء هذا الاقليم فاننا اصبحنا ولا مراكب لدينا تنقلنا الى اوربا » فاضطربت قلوبهم عند ذلك فطلب اليهم ان لا يذيعوا الخبر ثم ساروا حتى وصلوا القاهرة مساء الخميس ٤ ربيع اول

واليوم التالي كان يوم وفاء النيل (١٢ مسري) فامر بونابرت ان يحتفل بفتح الخليج كالعادة فزينوا عدة غلايين ونادوا في الناس الخروج للنزهة في النيل والمقياس والروضة على عادتهم . وارسل بونابرت اوراقًا رسمية الى كخيا الباشا والى القاضي وارباب الديوان واصحاب المشورة وارباب المناصب وغيرهم للحضور في صبحها وركب هو معهم في موكبهِ وزينتهِ وعساكرهِ وطبولهِ وزمورهِ الى قنطرة السد وكسروا الجسر بحضورهم واطلقوا المدافع اطلاقًا متواليًا واحرقوا النفوط حتى جرى الماء في

الخليج ثم ركب وهم برفقتهِ حتى اتى الى دارهِ . اما اهل المدينة فلم يخرج احد منهم تلك الليلة للنزهة في المراكب كالعادة الَّا الافرنج والسوريون والقبط وقليلون غيرهم

ثم جاء المولد النبويُّ ولم يكن في نية العلماء الاحتفال بهِ فاستفهم بونابرت عن سبب ذلك فاعتذر الشيخ البكري بتوقف الاحوال وتعطل الامور وعدم امكانهم القيام بما يقتضيهِ ذلك الاحتفال من النفقات . فقال بونابرت لا بدَّ من الاحتفال كالعادة وصرف لهُ في الحال ثلثماية ريال فرنساوي وامر بتعليق قناديل واحمال وتعاليق واجتمع الفرنساويون يوم المولد ولعبوا ميادينهم وضربوا طبولهم وارسل بونابرت طبلخانتهُ الكبرى (الموسيقى) الى بيت الشيخ البكري واستمروا يضربونها طول الليل والنهار بالبركة تحت دارهِ واحرقوا اثناء الليل نفوطًا وشواريخ كثيرة وفي ذلك اليوم أُلبس الشيخ خليل البكري فروة وتقلَّد نقابة الاشراف ونودي في المدينة بان كل من كان لهُ دعوى على شريفٍ فليرفعها الى النقيب

ثم جاء يوم احتفال الفرنساويين بجمهوريتهم للسنة السابعة فاحتفلوا بهِ غاية الاحتفال وخصوا فيهِ حرب امبابه وانكسار المماليك ونصبوا شجرة الحرية فاسمج لها الوطنيون ولم يكونوا يفهمون المقصود منها . ثم ارسل بونابرت مندوبًا ينصب العلم الفرنساوي ذي الثلاثة الوان على قمة احد الاهرام العظمى وحفروا هناك اسماء الضباط الذي قتلوا في واقعة امبابه

وقد تقدم ان السيد محمد كريم بقي في الاسكندرية كما كان فيها قبل مجيء الفرنساويين . وقبل واقعة ابي قير بيسير عثر الفرنساويون على كتاب مرسل من محمد كريم المذكور الى مراد بك يتواطأ معهُ على تسليم الاسكندرية فاستُحضر الى القاهرة فحكم عليهِ ان يدفع ثلاثمائة الف فرنك غرامةً على خيانتهِ وانهُ اذا لم يدفع المبلغ اثناء خمسة ايام يقطع رأسهُ فقال

لهُ التراجمة انت رجل غني فافدِ نفسك بهذا المبلغ فتبسم وقال « لا لا ادفع شيئًا لاني اذا قدّر لي الموت لا يدفع الدفع مقدورًا واذا قدرت لي الحياة فانا حيٌّ بغير دفع » . ثم استُحضر وسئل عن تلك الخيانة فانكر فابرزوا لهُ التحرير فأُفحم فارسلهُ بونابرت الى شيخ البلد فطلب العلماء من بونابرت ان يعفو عنهُ فاطلعهم على تحريرهِ واصرَّ على قتلهِ وما انفك حتى اذاقهُ الموت وطوَّف رأسهُ بالمدينة مكتوبًا فيهِ « هذا جزاء الخائن »

وفي ٢٠ منهُ استدعى بونابرت مشائخ القاهرة وعلماءها الى بيتهِ فلما استقروا جلوسًا خرج ثم عاد وبيدهِ طيالسة ملونة بثلاثة الوان كل طيلسان ثلاثة عروض ابيض واحمر وكحلي فوضع واحدًا منها على كتف الشيخ الشرقاوي رئيس الديوان فرمى بهِ الى الارض واستعفى وتغيَّر مزاجهُ واخذ منهُ الغيظ مأخذًا عظيمًا . فقال الترجمان الذي كان مرافقًا لبونابرت « يا مشائخ ما بالكم لا تزالون في نفرة من حضرة الصاري عسكر فقد صرتم من احبائهِ وهو يقصد بالباسكم هذه الطيالسة تعظيمكم وتشريفكم بزّيهِ وعلامتهِ فانكم اذا تميزتم بها عظَّمتكم العساكر واكثرت من احترامكم » فقالوا « لكنَّ قدرنا يخط عند الله وعند اخواننا المسلمين » فاغتاظ بونابرت وانتهر الشرقاوي قائلاً ان مثلك لا يصلح للرئاسة فنهض بقية الجماعة وجعلوا يلطفون من غضب بونابرت ويطلبون اليهِ ان يعفيهم مما اراد . فقال ان لم يكن هذا فلا بد من وضع الجوكار في صدوركم وهي العلامة التي يقال لها الوردة وقد تقدم ذكرها فقالوا نرجوك الامهال ريثما نتروى في الامر وانصرفوا

ثم استدعى بونابرت الشيخ السادات اليهِ فحضر فلاطفهُ في القول واعرب لهُ عن محبتهِ لهُ (كل ذلك بواسطة الترجمان) ثم ناولهُ خاتمًا من الالماس هديةً وطلب اليهِ ان يحضر في اليوم التالي فحضر فاتى لهُ بجوكار وعلقهُ بفرجيتهِ فسكت ولما انصرف نزعهُ . وفي ذلك اليوم نودي بالمدينة

بوجوب نقل هذه العلامة وانها هي علامة الطاعة والمحبة فانف الناس على ان بعضهم علم انها لا تخلُّ بالدين وخشي العقاب فوضعها . ثم في العصر نادوا بعدم اعطائها الاَّ لبعض الاعيان اما الباقون فيضعونها اذا جاءوا لمقابلة رسمية

ومن الغريب أن النابوليون بونابرت مع شدة رغبتهِ في الاستيلاء على مصر وكثرة سهرهِ على ذلك لم يحسن التصرف بهِ كما كان يجب فقد رأيناهُ يصرح باحترامهِ الديانة الاسلامية وتأمين الاهالي على عوائدهم واديانهم وارزاقهم واعراضهم الامر الذي استوجب عليهِ ثناء طيبًا الاَّ اننا لا نرى وجهًا يصوّب ادعاءهُ الاسلام ادعاء لم يصدّقهُ احد من المصريين ولم يزدد الناس بسببهِ الاَّ حذرًا من الفرنساويين بناء على انهم لم يدَّعوا غير دينهم الاَّ تقربًا منهم لغرض في نفوسهم يحاولون الحصول عليهِ

على انهُ لو ادعى تلك الدعوى ثم تظاهر بما يثبتها لكان خيرًا وانما رأيناه من الجهة الأُخرى يأمر بالمساواة في الارث بين الانثى والذكر امرًا يخالف نص القرآن الشريف مخالفة صريحة كما لا يخفى . وليس ذلك فقط فانهُ تجاهل عن العوائد المشرقية واراد ان يجعل الشعب المصري بعد ما قاساهُ في ايام المماليك ان يسير على خطوات الشعب الفرنساوي بعوائده وشرائعهُ وازيائهِ . فكانت العساكر الفرنساوية تدخل احيانًا بيوت الهوانم اللواتي لم يكن يجسر الباشا بنفسهِ ان يدخلها . وسبب ذلك ان بونابرت اجاز لرجالهِ الدخول الى بيوت النساء للتفتيش على اسلحة او مخبآت او امور اخرى ولا يخفى ما في ذلك من تنفير القلوب وكلٌّ منا يعلم ان الشرقي اشد حرصًا على عرضهِ منهُ على حياتهِ . ناهيك عما كان ياتيهِ الجند الفرنساوي من الفواحش التي تأباها النفوس الشرقية على اننا لا ننكر على هذا الرجل العظيم ما ادخلهُ بواسطة هذه الحملة من الاصلاح في احوال الامة المصرية صحيًا واديبًا وشرعيًا ولكنا لا نعجب بعد ان علمنا من تصرفهِ مثل ما قد

علمنا اذا رأينا الاهالي بعيدين من الاخلاص لهُ رغماً عن قرب الشعب المصري من الطاعة والانقياد . ولا غرو بعد هذا اذا رأيناهم يشتئنون بمصائبهِ ويترقبون فرصة لشق عصا الطاعة وتفضيل سلطة المماليك على تمكنها من العسف والظلم لانهم شركاؤهم بالدين وهو اكبر رابط بين المشارقة . وقد انخدع بونابرت بقبول العلماء الاجتماع في ديوان تحت حمايتهِ وما علم ان قبولهم ذلك وغيرهُ من مثلهِ انما هو رغماً عن ارادتهم وامتثالاً لقول القائل اذا لم يكن ما تريد فأرد ما يكون

ومن الامور المغايرة التي اتى بها الفرنساويون واستوجبوا من اجلها نفور الاهالي زيادة الضرائب والاستبداد في تحصيلها واستحداث القوانين على الموتى والضرائب على المواريث وعلى المسافرين من بلد الى اخرى فتعطى لهم تذكرة مرور بثمنها واباحة بيع المسكر في الشوارع وهدم بعض الجوامع والمنارات وتخريب بعض الترب تحت اسم الاصلاحات الصحية وتكثير القلع والاستحكامات على التلال خارج القاهرة وقطع ارزاق الاوقاف عن اهلها وتسليمها لغير المسلمين

وفي خاتمة الجميع وردت للعلماء والمشائخ تحارير سرية من ابراهيم بك واحمد باشا حاكم عكا في ٣ ربيع آخر مآلها ان جلالة السلطان قد ارسل قوة عسكرية ستصلهم قريباً لانقاذهم من نير الفرنساويين . وعلم بونابرت بذلك فجعل يجمع العلماء والفقهاء واعيان البلاد ويخاطبهم محاولاً اقناعهم ان خطابات المماليك لهم كلها كذب ونفاق

وفي ١٨ ربيع آخر استكتب بونابرت المشائخ كتاباً ارسل منهُ نسخة لجلالة السلطان ونسخة لشريف مكة وطبعوا منها عدة نسخ لصقوها بالشوارع جعلهُ عن لسان المشائخ يتكلمون عن اعمال الفرنساويين بمصر ومفادهُ

«ان الفرنساويين قد قاتلوا المماليك وهزموهم وانهم انما اتوا مصر

وتكبّدوا ما تكبدوهُ في سبيل حبهم للباب العالي لانهم من اخصّاء جلالة مولانا السلطان واعداء اعدائهِ وان السكة والخطبة لا تزالان باسمهِ وشعائر الاسلام قائمة على ما كانت عليهِ وانهم هم انفسهم مسلمون يحترمون النبي والقرآن الشريف وانهم اوصلوا الحجاج المتشتتين واكرموهم واركبوا الماشي منهم واطعموا الجائع وسقوا الظمآن واعتنوا بيوم الزينة يوم جبر البحر استجلابًا لسرور المؤمنين وانفقوا اموالاً برسم الصدقة على الفقراء واعتنوا كذلك بالمولد النبوي وانفقوا المال في شأن انتظامهِ وعلو شأنهِ وانهم قد اتفقوا رأيًا على لبس الجناب الاكرم مصطفى اغا كخيا بكير باشا والي مصر حالاً وانهم (المشائخ) استحسنوا ذلك لبقاء علاقة الدولة العلية وانهم مجتهدون في اتمام مهمات الحرمين وقد امرونا ان نعلمكم بذلك والسلام» . وارسلوا من هذا التحرير نسخة الى احمد باشا والي عكا واخرى الى والي سوريا

وفي اول جمادى الاولى سنة ١٢١٣ هـ (٢١ اكتوبر (ت ١) سنة ١٧٩٨) حضر الى الشيخ البكري جمٌّ غفير من اولاد المكاتب والفقهاء والعميان والمؤذنين وارباب الوظائف والمستحقين من خدمة الاوقاف وشكوا من قطع مرتباتهم وخبزهم لان الاوقاف تعطل ايرادها واستولى على نظارتها من هم غير مسلمين فوعدهم انهم اذا قدموا شكواهم هذه الى الديوان يساعدهم في تحصيل حقوقهم . وفي اليوم التالي اجتمع المشائخ في الجامع الازهر وارسلوا القراء يطوفون الاسواق ينادون المسلمين قائلين « فليذهب كل من يوحد الله الى الجامع الازهر هذا هو يوم الجهاد في محاربة الكفار واخذ الثار» فهج الناس وقفلوا حوانيتهم وتقلدوا اسلحتهم التي كانوا قد خبأُوها في اماكن معلومة وساروا نحو الجامع افواجًا يزاحم بعضهم بعضًا وفي مقدمتهم السيد بدر وبعض رعاع الحسينية ينادون باعلى اصواتهم « نصر الله دين الاسلام » وساروا توًّا الى بيت قاضي العسكر فوجدوا هناك كثيرين آخرين ممن سبقوهم على شاكلتهم فخاف القاضي واغلق بابهُ واوقف حجابهُ

فضربوهم وحاول هو الهرب فامسكوهُ . وكان قد توجه القسم الاعظم من الجماهير الى الجامع الازهر . ثم سارت فرقة منهم الى بيت الجنرال كافارلي وفيهِ بعض الادوات فنهبوهُ واخربوهُ ولم يكن الجنرال فيهِ

وكان الجنرال ديبوي قائمقام القاهرة مقيمًا عند بركة الفيل وشاهد في الصباح بعض الجماهير مارّين في الاسواق فلم يعبأ بحركاتهم وعند الظهيرة رأى الجماهير قد تعاظمت والاسواق قد ازدحمت فركب في جماعة وسار مسرعًا الى بيت الشيخ الشرقاوي رئيس الديوان بقرب الغورية فلم يجدهُ فسار شمالاً نحو بيت القاضي وكان يرى الجماهير تزداد والاصوات تتعاظم فمرّ بين القصرين فرأى هناك جمهورًا كبيرًا اوقفهُ عن السير فيمن معهُ فكلمهم بواسطة الترجمان فلم يسمعوا فامر بالهجوم عليهم بالجنود التي برفقتهِ فرماه احد الناس من احد الشبابيك على عنقهِ بحربةٍ مشدودة براس عمود فقطعت لهُ وعاءً دمويًّا كبيرًا وكانت القاضية عليهِ

وتعاظمت الجماهير على الخصوص في مركز القاهرة بجوار الجامع الازهر اما اهالي مصر القديمة وخط بركة النيل فلم يتجرأوا على ذلك وكانت الجيوش الفرنساوية على غير استعداد لمثل هذه الثورة وحصونهم على سفح المقطم والربى خارج القاهرة خالية من الجنود فلم يكونوا يستطيعون تهديد المدينة . وجعل الثائرون يطوفون الاسواق يقتلون المسيحيين على اختلاف نزعاتهم بين افرنج واقباط وسوريين ويونانيين وينهبون مساكنهم

فلما اتصل ذلك ببونابرت ركب في ٣٠ من دواليلهِ وسار الى اكثر الاماكن تعرضًا للنهب والسلب فانتعشت جنودهُ فعهد قيادة المدينة الى الجنرال بون وفرق الطوبجية حيث اجتمعت جماهير الثائرين . وفي اليوم التالي اصبح القوم واذا بسفح المقطم والربى خارج القاهرة مرصعة بالمدافع وقد ارسل بونابرث وفدًا الى المشائخ يطلب اليهم ان يوقفوا الرعاع عن التجمهر فلم يفعلوا . وفي الساعة التاسعة (افرنجية) من الصباح بلغ

بونابرت ان بعض العربان قادمون الى القاهرة يريدون الدخول اليها من باب النصر فبعث اركان حربهِ سالكوسكي لينظر في امر ذلك فبينما كان مارًّا عند باب العدوي هجم عليهِ بعض الثائرين وقتلوهُ وكان يحبهُ بونابرت فاسف عليهِ كثيرًا

وبينما هم في ذلك وصل الجنرال كلابر بجيشهِ من الاسكندرية بعد ما شُفي من جراحهِ فاشتد ازر الجنود الفرنساوية وتألفوا على المحاربة بقلب واحد فقبضوا على جمهور عظيم من الثائرين بجهة الازبكية. وفي الساعة الثالثة بعد الظهر اطلقت المدافع من الحصون خارج القاهرة على خط الجامع الازهر حيث كان مركز الثورة وفيهِ زعماؤها وما زال الضرب الى المساء فاضطربت الاهالي ووقع في قلوبهم الرعب فأجمع المشائخ على التسليم فركبوا خيولهم وساروا الى بونابرت يطلبون الأمان فانتهرهم على ما أتوهُ من سفك الدماء ثم أمّنهم واوقف الضرب اما سكان خط حسين ومعظمهم من الجزارين فلم ينكفوا عن الضرب حتى فرغت جعبهم من البارود فهدأوا

فدخلت الجنود الفرنساوية المدينة واخذوا في تسكين الناس وتفريق الجموع وفرقوا الخيالة في الاسواق للغفر فادخلوا خيولهم الى الجامع الازهر وكسروا قناديلهُ ومحوا ما كان مكتوبًا عليهِ من الآيات القرآنية. وفي يوم الثلاثا ٤ جمادى الاولى خرج المسلمون للصلاة في الجامع الازهر فاذا بالخيول تعج فيهِ عجيجًا. وفي صباح الاربعاء ٥ منهُ بعث المشائخ الى بونابرت يلتمسون اخراج الخيول من الجامع فسألهم عن زعماء الثورة ومنشطيها فلم يجيبوهُ فرفض طلبهم. ثم تداخل محمد الجوهري من اعيان القاهرة وفضلائها في الامر وكان ممّن لازموا الحيادة فوافقهُ بونابرت على اخراج الخيالة من الجامع على ان يجعل في ذلك الخط غفرًا من سبعين رجلاً. ثم سار الى بونابرت جميع السوريين واليونانيين الذين نهبت بيوتهم بسبب

الثورة وشكوا اليهِ خسائرهم . فعكف على الاقتصاص من زعماء الثورة . فجعل يقبض على الذين تقع عليهم الشبهة رجالاً ونساء حتى قتل منهم ١٢ شخصاً دفعةً وجعل جثثهم في اكياس والقاها في النيل واخذ من ذلك الحين يستخدم الصرامة في معاملتهِ المصريين فمنع المشائخ من المباحثة في الديوان وحصر شغلهم في نشر المنشورات في الشعب لاجل تسكين الهيجان فسكن روع الشعب حسب الظاهر

وفي ليلة السبت ٢٤ جمادى الاولى جاء الى القاهرة هجَّان بكتابات من احمد باشا الجزَّار وفيها فرمان عليهِ الطغراء العثمانية وكتابات اخرى من بكير باشا وابراهيم بك وجميعها معنونة باسم مصطفى بك فلما تناولها وقرأها لم يسعهُ من خوفهِ الاَّ ان يسلمها الى بونابرت فترجمت لهُ وهاك ترجمتها بعد الاستهلال «ان الفرنساويين اباده‍م الله وغشى اعلامهم غشاء العار لانهم كفار معاندون قوم لا يؤمنون برسالة النبي (صلعم) ويسخرون بجميع الاديان ويجحدون البعث وما قدرهُ الله فيهِ من الثواب والعقاب وهم يعتقدون ان الصدفة العمياء هي المتسلطة على الحياة والموت وان النفس مادة وان الاجسام بعد انحلالها في الارض لا تعود الى الحياة ثانية ولا يلحقها حساب ولا دينونة وبناء على هذا الاعتقاد قد وضعوا أيديهم على هياكلهم وطردوا منها قسسهم ورهبانهم . وعندهم ان الكتب المنزلة ليست سوى خزعبلات واكاذيب ملفقة وان القرآن والتوراة والانجيل خرافات وان موسى وعيسى ومحمد رجال اعتياديون وان الناس جميعاً قد خلقوا سواء لا شيءَ يميّز بعضهم من بعض وان كلاًّ منهم لهُ ان يعتقد بما يخطر لهُ وعلى هذه المعتقدات قد بنوا جميع اعمالهم ووضعوا شرائع جهنميَّة وقد اهتزَّت اوربا لاجراآتهم هذه وسفكت في سبيل ذلك دماء غزيرة . وانتم تعلمون ماذا تأمركم بهِ الديانة الاسلامية الشريفة فعليكم الانتباه للافاة ما يبثونهُ بينكم لان من غرضهم هدم مكة والمدينة واورشليم وذبح كل من فيها

من الناس الّا الاطفال واقتسام تركاتهم واراضيهم اما من يبقى منهم حيًّا فيجبرونهم على اتباع مباديهم وتعلم لغتهم فتختفي الاسلامية من الارض . فافهموا اذًا ماذا تكون النتيجة اذا كان كل مسلم لا يحمل الاسلام ويجاهد ضد هولاء المعطلين فانتبهوا اذا الى الشراك التي نصبت لكم . والاسد لا يكترث بالثعالب كثر عددها او قلّ الخ »

فلما فهم بونابرت فحوى هذا الفرمان اجتهد ان يغرس في اذهان المشائخ انها فتنٌ قد سعى بها اعداء الدولة والدين وما زال حتى استكتبهم منشورًا ممضيًا منهم يفرقونهُ في البلاد ونصهُ بالحرف الواحد

« نعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن ونبرأُ الى الله من الساعين في الارض بالفساد . نعرّف اهل مصر قاطبةً انهُ حصل بعض الخلل في مدينة المحروسة من طرف الجعيدية واشرار الناس فحركوا الشرور بين الرعية وعسكر الفرنساويين بعد ان كانوا اصحابًا واحبابًا وترتب على ذلك قتل جملة من المسلمين ونهب بعض البيوت ولكن بلطف الله سكنت الفتنة بسبب شفاعتنا عند امير الجيوش بونابرته وارتفعت هذه البلية لانهُ رجل كامل العقل ذو رحمة وشفقة على المسلمين ومحبة الى الفقراء والمساكين ولولاه لكانت العساكر احرقت جميع المدينة ونهبت جميع الاموال وقتلت كامل اهل مصر فعليكم ان لا تثيروا الفتن ولا تطيعوا المفسدين ولا تسمعوا كلام المنافقين ولا تتبعوا الاشرار ولا تكونوا مع الخاسرين سفهاء العقول الذين لا يفتكرون بالعواقب لكي تحفظوا اوطانكم وتطمئنوا على عيالكم واديانكم فان الله سبحانهُ وتعالى يؤتي ملكهُ من يشاء ويحكم من يريد ونخبركم ان كل من تسببوا في اثارة هذه الفتنة قُتلوا عن آخرهم واراح الله منهم البلاد والعباد ونصيحتنا لكم ان لا تلقوا بايديكم الى التهلكة واشتغلوا باسباب معايشكم وامور دينكم وادفعوا الخراج الذي عليكم والدين النصيحة والسلام » وهذا المنشور ممضي من علماء مصر كافة طبعوهُ بالمطبعة التي

اتت بها الحملة معها كما تقدم . ثم شاع بين الاهالي امر الفرمان الذي ورد من جلالة السلطان فاضطربوا فاصدر المشائخ والعلماء منشورًا يبرئون بهِ الفرنساويين مما جاء بحقهم في ذلك الفرمان ونصُّهُ حرفيًّا

« نصيحة من علماء الاسلام بمصر . نخبركم يا اهل المدائن والامصار من المؤمنين ويا سكان الارياف من العربان والفلاحين ان ابراهيم بك ومراد بك وبقية دولة المماليك ارسلوا عدّة من المكاتبات والمخاطبات الى سائر الاقاليم المصرية لاجل تحريك الفتنة بين المخلوقات وادعوا انها من حضرة مولانا السلطان ومن بعض وزرائهِ بالكذب والبهتان . وبسبب ذلك انهُ حصل لهم الغم الشديد والكرب الزائد واغتاظوا غيظًا شديدًا من علماء مصر ورعاياها حيث لم يوافقوهم على الخروج معهم وان يتركوا عيالهم واوطانهم فارادوا ان يوقعوا الفتنة والشرّ بين الرعية والعسكر الفرنساويين لاجل خراب البلاد وهلاك كامل الرعية وذلك لشدة ما حصل لهم من الكرب الزائد بذهاب دولتهم وحرمانهم من مملكة مصر المحمية . ولو كانوا في هذه الاوراق صادقين بانها من حضرة سلطان السلاطين لارسلها جهارًا مع اغواتٍ معينين . ونخبركم ان الطائفة الفرنساوية بالخصوص عن بقية الطوائف الافرنجية دائمًا يحبُّون المسلمين وملَّتهم ويبغضون المشركين وطبيعتهم وهم اصحاب لمولانا السلطان قائمون بنصرتهِ واصدقاء ملازمون لهُ لمودتهِ وعشرتهِ ومعونتهِ يحبون من والاهُ ويبغضون من عاداهُ . ولذلك بين الفرنساويين والموسكو غاية العداوة الشديدة ومن اجل هذا يعاونون حضرة السلطان على اخذ بلاد الموسكو ان شاء الله ولا يبقون منهم بقية . فننصحكم يا اهل الاقاليم المصرية ان لا تحركوا الفتن ولا الشرور بين البرية ولا تعارضوا العساكر الفرنساوية بشيءٍ من انواع الاذيّة فيحصل لكم الضرر والهلاك والبلية . ولا تسمعوا كلام المفسدين ولا تطيعوا امر المسرفين الذين يفسدون في الارض ولا يصلحون والّا فتصبحوا على ما فعلتم

نادمين وانما عليكم دفع الخراج المطلوب منكم لكامل الملتزمين لتكونوا في اوطانكم سالمين وعلى عيالكم واموالكم آمنين مطمئنين لان حضرة صاري عسكر الكبير امير الجيوش بونابرته اتفق معنا على انهُ لا ينازع احدًا في دين الاسلام ولا يعارضنا فيما شرعهُ الله من الاحكام ويرفع عن الرعية سائر المظالم ويقتصر على اخذ الخراج ويزيل ما احدثتهُ الظلمة من المغارم فلا تعلقوا آمالكم با براهيم ومراد وارجعوا الى مولاكم مالك الممالك وخالق العباد . فقد قال نبيهُ ورسولهُ الاكرم الفتنة نائمة لعن الله من ايقظها بين الامم عليهِ افضل الصلاة والسلام ختام »

واصقوا نسخًا منْ هذين المنشورين في اسواق القاهرة وفرقوا منها في سائر بلاد القطر . واقام بونابرت على القاهرة الجنرال استنك عوضًا من ديبوي الذي تقدم انهُ قُتل . ثم سعى الى تحصين مداخل القطر المصري الاسكندرية ورشيد ودمياط فحصنها تحصينًا منيعًا . وجعل في القاهرة وضواحيها استحكامات تمنع ثورة الاهالي مرة اخرى . وانشأ في القاهرة مطاحن هواء ومطاحن ماء لاجل طحن الحنطة . وجعل في الروضة مستشفى (اسبيتالية) يسع خمسمائة مريضًا

ثم جعل مطاحن ومستشفيات ايضًا في الاسكندرية ورشيد ودمياط وأُنشئ في القاهرة اذ ذاك مدرسة لتعليم الاولاد الفرنساويين المولودين في مصر وجريدتان فرنساويتان الواحدة تدعى « دكاد اجسيان » والاخرى « كوريه ديجيبت » ومرسح للتشخيص ومعامل للاقنال والاسلحة والتجارة ومعامل أُخرى للمدافع وتوابعها وآلات الهندسة والورق والاقمشة وسائر احتياجات البلاد . واستُحدث فيها ايضًا اماكن للّهو وحدائق للنزهة وبالنتيجة ان الجيش الفرنساوي لم يكن ينقصهُ من داعيات الراحة الّا البريد وانشأُوا مجمعًا علميًا مصريًّا (انستيتي ديجيبت)

وكان بونابرت لا يتقاعد مطلقًا عن اجراء كل ما فيهِ راحة جيشهِ

ورفاهية البلاد . فسكنت الاحوال مدة شهرين تمكن الفرنساويون اثناءها من اجراء بعض الاصلاحات في المدينة فردموا ما جاور بركة الازبكية والاماكن المجاورة لمسكن بونابرت فجعلوها رحبة واسعة . وجددوا قنطرة المغربي وبنوا جسرًا مهّدًا ممتدًا من الازبكية الى بولاق حيث ينقسم الى فرعين يسير احدهما الى طريق ابي العلا والآخر الى جهة التبانة وضفة النيل . وجعلوا الى جانبي ذلك الجسر خندقين وغرسوا على جانبيه اشجارًا وسيسبانًا . واحدثوا طريقًا آخر فيما بين باب الحديد وباب العدوي عند المكان المعروف بالشيخ شعيب ومهّدوا جسرًا آخر ممتدًا من هناك الى خارج الحسينية وازالوا ما يتخلل ذلك من الابنية وهدموا الابنية التي بين باب الحديد والرحبة التي بظاهر جامع المقس ومهّدوا الارض بينهما . وفعلوا كل ذلك دون ان يسخروا احدًا بل كانوا يدفعون الاجور زيادة عن الاستحقاق . وجعلوا جامع الظاهر خارج الحسينية على طريق العباسية قلعةً ومارتهُ برجًا فصار يعرف بقلعة الظاهر . وبنوا اماكن للارصاد الفلكية والرياضيات والنقش والرسم والتصوير في حارة الناصرية حيث الدرب الجديد فانهم رمّموا ما فيهِ من بيوت الامراء واستخدموها لتلك الغاية وجعلوا بيت حسن كاشف جركس في تلك الخطة مكتبة المطالعة يحضرها من يريد المطالعة منهم في اوقات معينة من النهار واذا دخلها احد الوطنيين كانوا يتأهلون بهِ واذا اراد التفرّج اطلعوهُ على ما اراد او المطالعة سلموهُ ما اراد من الكتب ولا سيما التي تبهج البسطاء بما فيها من الرسوم البديعة وفي جملتها رسمٌ للنبي (صلعم) ورسوم اخرى للخلفاء الراشدين وغيرهم من الائمة والاماكن المهمة . وكان في مكتبتهم هذه كتب كثيرة عربية . وافردوا لكل علم من العلوم دارًا مخصوصةً ولا سيما علم الكيميا فانهم جعلوا لهُ معملاً كبيرًا للتقطير والتصعيد واستحضار الخلاصات وسائر الاعمال العقارية وكانوا يجرون امام الاهالي بعض

التجارب الكيماوية التي كانوا ينبهرون لها وقد ذكر المؤرخ عبد الرحمن الجبرتي بعض تلك التجارب واظهر اندهالهُ منها . وافردوا ايضًا اماكن للتجارة والصناعة وطواحين هوائية واستخدموا العربات . وقرروا اطلاق مدفع كل يوم عند الزوال

وفي ١٦ رجب سنة ١٢١٣ ﻫ (٢٥ دسمبر (ك ١) سنة ١٧٩٨ م) امر بونابرت بترتيب الديوان على نظام جديد فانتخب ستين رجلاً يتألف منهم الديوان العمومي وانتقى منهم اربعة عشر يتألف منهم الديوان الخصوصي او الديوان الدائم لانهُ كان يجتمع كل يوم اما الديوان العمومي فيجتمع عند اللزوم . وهذه اسماء اعضاء الديوان الخصوصي . من المشائخ . الشرقاوي والمهدي والصاوي والبكري والفيومي . ومن التجار المحروقي واحمد بن محرم . ومن القبط لطف الله المصري . ومن السوريين يوسف فرحات وميخائيل كحيل وواحد انكليزي وآخر يدعى ابا ديف وواحد فرنساوي يدعى موسى كافور وجعل معهم وكلاء ومباشرين فرنساويين وتراجمة . اما الديوان العمومي فجعل فيهِ من مشائخ الحرف وغيرهم وكتب بذلك منشورًا ارسلهُ الى الاعيان والصق منهُ نسخًا في الاسواق ونصهُ

« من بونابرته امير الجيوش الفرنساوية خطابًا الى جميع اهل مصر الخاص والعام . نعلمكم ان بعض الناس الضالين العقول الخالين من المعرفة وادراك العواقب اوقعوا الفتنة سابقًا بين اهل مصر فاهلكهم الله بسبب فعلهم ونيتهم القبيحة والباري سبحانهُ وتعالى امرني بالشفقة والرحمة للعباد فامتثلت امرهُ وصرت رحيمًا بكم شفوقًا عليكم . ولكن كان حصل عندي غيظ وغم شديد بسبب تحريك هذه الفتنة بينكم ولاجل ذلك ابطلت الديوان الذي كنت رتبتهُ لنظام البلد واصلاح احوالكم من مدة شهرين والآن توجه خاطرنا الى ترتيب الديوان كما كان لان حسن احوالكم ومعاملتكم في المدة المذكورة انسانا ذنوب الاشرار واهل الفتنة التي وقعت سابقًا

«فيا ايها العلماء والاشراف اعلموا امتكم ومعاشر رعيتكم بان الذي يعاديني ويخاصمني انما خصامهُ من ضلال عقلهِ وفساد فكره فلا يجد مخلصًا ولا ملجأ ينجيهِ مني في هذا العالم ولا ينجو من يد الله لمعارضتهِ مقاديرهُ سبحانهُ وتعالى. والعاقل يعرف ان ما فعلناه بتقدير الله تعالى وارادتهِ وقضائهِ ومن يشك في ذلك فهو احمق واعمى البصيرة . واعلموا ايضًا امتكم ان الله قدَّر في الازل هلاك اعداء الاسلام وتكسير الصلبان على يدي . وقدَّر في الازل ان أجيء من ارض المغرب الى ارض مصر لاهلاك الذين ظلموا فيها واجراء الامر الذي أُمرت بهِ . ولا يشك العاقل ان هذا كلهُ بتقدير الله وارادتهِ وقضائهِ . واعلموا ايضًا امتكم ان القرآن العظيم صرَّح في آيات كثيرة بوقوع الذي حصل واشار في آيات اخرى الى امور اخرى تقع في المستقبل وكلام الله في كتابهِ صدق وحق لا يختلف . واذا تقرر هذا وثبتت هذه المقالات في آذانكم فلترجع امتكم جميعًا الى صفاء النية واخلاص الطوية فان منهم من يمتنع من لعني واظهار عداوتي خوفًا من سلاحي وشدة سطوتي . ولم يعلم ان الله مطلع على السرائر يعلم خائنة الاعين وما تخفي الصدور والذي يفعل ذلك يكون معارضًا لاحكام الله ومنافقًا وعليهِ اللعنة والنقمة من الله علام الغيوب . واعلموا ايضًا اني قادر على اظهار ما في نفس كل منكم لانني اعرف احوال الشخص وما انطوى عليهِ بمجرَّد نظري اليهِ وان كنت لا اتكلم ولا انطق بالذي عندهُ ولكن يأتي وقت ويوم يظهر لكم عيانًا ويتضح ان ما فعلتهُ وحكمت بهِ هو حكم الهي لا يرد . وان اجتهاد الانسان بغاية جهدهِ لا يمنعهُ عن قضاء الله الذي قدَّرهُ واجراه على يدي فطوبى للذين يسارعون في اتحادهم وهمتهم مع صفاء النية واخلاص السريرة والسلام» . ورتب لارباب الديوان الدائم راتبًا يدفع لهم نظير تقييدهم بمصالح العامَّة والدعاوي

وفي ذلك اليوم (١٦ رجب) بارح بونابرت القاهرة في سرب من

رجال معيتهِ وبعض المهندسين قاصدًا برزخ السويس لاستطلاع آثار الترعة التي كانت قد حفرت قديمًا بين البحر المتوسط والنيل فوصل السويس في ١٨ منهُ وفي ٢١ منهُ قطع البحر الاحمر حتى اتى آبار موسى فجعل يتأمل ويتذكر ما قيل عنها من المعجزات وفي اليوم عينهِ عاد بمن معهُ قاصدًا السويس خوضًا في البحر على مثل ما فعل موسى فاخطأُوا الطريق حتى كادت المياه تغمر خيولهم وبعد المشقة وصلوا السويس في اوائل الليل وفي الصباح التالي اتمَّ بونابرت استطلاعاتهِ ثم بارح السويس قاصدًا القاهرة فمر ببلبيس فاستولى عليها وسار منها حتى اتى القاهرة في ٢٥ منهُ (في ٣ يناير سنة ١٧٩٩)

وفي يوم وصولهِ لاقاهُ الجنرال كلابر قادمًا من الاسكندرية ومعهُ تحارير وجرائد واردة من فرنسا وغيرها تنبئ بتغيير خاطر الباب العالي على الجمهورية الفرنساوية لافتتاحها مصر واستقلالها باحكامها . فلندع بونابرت يطالع تحاريرهُ وجرائدهُ ولنلتفت الى الجنرال دبزه وحملتهِ الى الصعيد بعد واقعة امبابه

لما عدَّى الجيش الفرنساوي الى البر الشرقي ودخل القاهرة بعد واقعة امبابه عهد بونابرت الى الجنرال دبزه ان يسير في حملة لتعقب المماليك واخضاع الصعيد . فسار في ١٦ محرَّم سنة ١٢١٣ ھ حتى اتى بني سويف فلاقاهُ مراد بك برجالهِ وطال الحرب بينهما وكثر الاخذ والرد وانتهت المواقع بتقهقر المماليك وامعانهم في داخلية الصعيد

وفي ١٢ جمادى الآخرة بارح الجنرال دبزه بني سويف فاتى المنيا في ١٨ منهُ وتربَّص هناك ينتظر الدوارع القادمة على النيل لمعاضدتهِ فتأخر وصولها بسبب الريح المعاكسة لسيرها . ثم سار من المنيا وما زال يتعقَّب مراد بك واتباعهُ حتى اتى اصوان في البر الغربي فعسكر هناك . وكان كلَّما مرَّ باثر من الآثار المصرية القديمة يحفر عليهِ اسمهُ واسماء المدن التي

افتتحها . وقد شاهدتُ مثل هذه الكتابة على جانبي باب من ابواب هيكل الكرنك بجوار الاقصر . واستطلع ديزه اخبار العدو في اصوان فعلم انهُ معسكر فوق الشلال الاول بمسافة قصيرة فاحتل جزيرة فيلوي وحصّن اصوان لدفاع المماليك اذا قدموا اليها لانهُ لم يرَ فائدة من تتبعهم الى وراء ذلك وقد حفر على صخر فوق الشلال جميع فتوحاتهِ على مثل ما تقدم . وهناك آخر ما وصلهُ الفرنساويون في حملة بونابرت . ولم يكد يتم ديزه تحصين اصوان حتى سمع باحتلال الفي بك جهات طيبة فسار اليهِ وما زال حتى هزمهُ . فاذعنت بلاد الصعيد وهدأت احوالها

اما بونابرت فانهُ علم من مطالعة تلك الجرائد ومن قرائن اخرى ان الدولة العلية سعت الى استرجاع مصر من الفرنساويين فبعثت بمنشورات رسمية الى سائر بلادها طعناً بالجمهورية الفرنساوية وبعثت الى احمد باشا الجزار والى عكا ان يبعث جيشاً لاحتلال العريش ففعل فبعث اليهِ بونابرت ان يخلي تلك المدينة لانها من حدود مصر فلم يطعهُ فامر باعداد حملة يسير بها ليس للمدافعة عن مصر فقط وانما لافتتاح سوريا ايضاً . فاعدَّ حملةً من اثنى عشر الفاً بينها الف ومائتان من الطبجية وسار قاصداً سوريا بعد ان عهد قيادة القاهرة الى الجنرال دوغا وقيادة الصعيد الى الجنرال ديزه وقيادة الاسكندرية الى الجنرال مرمون وامر بتحصين دمياط . وجعل في تلك الحملة بعضاً من مشائخ القاهرة وفي ٢١ شعبان اصدر منشوراً مطبوعاً فرقهُ في الاهالي وهاك نصهُ بالحرف الواحد

« الحمد لله وحدهُ . هذا خطاب الى جميع اهل مصر من خاص وعام من محفل الديوان الخصوصي من عقلاء الانام وعلماء الاسلام والوجاقات والتجار الفخام

« نعلمكم معاشر اهل مصر ان حضرة صاري عسكر الكبير بونابرته امير الجيوش الفرنساوية صفح الصفح الكامل عن كل الناس والرعية بسبب

ما حصل من اراذل الناس من اهل البلد والجعيدية من الفتنة والشر مع العساكر الفرنساوية وعفا عفوًا شاملاً وأعاد الديوان الخصوصي في بيت قائد آغا بالازبكية ورتبهُ من الاربعة عشر شخصًا اصحاب معرفة واتقان انتخبوا بالقرعة من ٦٠ رجلاً حصل انتخابهم بموجب فرمان وذلك لاجل قضاء مصالح الرعايا وحصول الراحة لاهل مصر من خاص وعام وتنظيمها على اكمل نظام واحكام. كل ذلك من كمال عقلهِ وحسن تدبيرهِ ومزيد حبهِ لمصر وشفقتهِ على سكانها من صغير القوم حتى كبيرهم ورتبهم بالمنزل المذكور كل يوم لاجل خلاص المظلوم من الظالم وقد اقتصَّ من عسكرهِ الذين اساأوا بمنزل الشيخ محمد الجوهري وقتل منهم اثنين في قره ميدان وانزل طائفة منهم عن مقامهم العالي الى ادنى مقام لان الخيانة ليست من عادة الفرنساويين خصوصًا مع النساء الارامل فان ذلك قبيحٌ عندهم لا يفعلهُ الا كل خسيس. وقبض بالقلعة على رجل نصراني مكّاس لانهُ بلغهُ انهُ زاد المظالم في الجمرك بمصر القديمة على الناس ففعل ذلك بحسن تدبيرهِ ليمتنع غيرهُ من المظالم ومرادهُ رفع الظلم عن كامل الخلق ودائمًا يفكر في فتح الخليج الموصل من بحر النيل الى بحر السويس لتخف اجرة الحمل من مصر الى قطر الحجاز وتحفظ البضائع من اللصوص وقطّاع الطرق وتكثر عليهم اسباب التجارة من الهند واليمن وكل فج عميق. فاشتغلوا في امر دينكم واسباب دنياكم واتركوا الفتنة والشرور ولا تطيعوا شيطانكم وهواكم وعليكم بالرضى بقضاء الله وحسن الاستقامة لاجل خلاصكم من اسباب العطب والوقوع في الندامة رزقنا الله واياكم التوفيق والتسليم. ومن كان لهُ حاجة فليأتِ الديوان بقلب سليم الاّ من كان لهُ دعوى شرعية فيتوجه الى قاضي العسكر المتولي بمصر المحميَّة بخط السكرية والسلام على افضل الرسل الى الدوام»

وفي ٢٥ شعبان (اول فبراير (شباط) سنة ١٧٩٩ م) سار الجنرال

كلابر والجنرال رينر في مقدمة الحملة نحو العريش وفي ٥ رمضان او ١٠ فبراير (شباط) سافر بونابرت بمن بقي منها . وكان على العريش قاسم بك من قبل الجزار وقد عسكر خارج المدينة . ففي صباح ٨ منهُ كانت مقدمة الفرنساويين على مقربة من معسكر قاسم وفي المساء هاجموهُ بغتة فقتلوهُ وشتتوا جيشهُ واستولوا على جميع الزخائر والمهمات وساروا نحو المدينة . اما بونابرت فوصل الصالحية في ٧ منهُ وفي ١١ منهُ وصل المسعودية فطلعت ريح شديدة كانت تنسف عليهِ وعلى رجالهِ الرمال احمالاً وكانت المياه قليلة فعطشت العساكر عطشًا عظيماً فعسكر هناك وبعث الخبراء يستطلعون خطوات كلابر وجهة مسيرهِ فعادوا واخبروهُ فنهض وما زال حتى اتى العريش في ١٢ رمضان فاذا بكلابر قد حاصرها وامتنع عليهِ فتحها لقلة الطجية ونفاد المؤن . فلما وصل بونابرت ارسل الى حامية العريش كتابًا يطلب اليهم التسليم ويتهددهم فسلموا بعد بضعة ايام فدخل الفرنساويون العريش وأمّنوا اهلها على حياتهم وقبضوا على خمسة كشاف كانوا هناك من قبل المماليك وارسلوهم الى القاهرة تحت الحجز ثم جعلوا في العريش حامية وساروا الى غزة فاستولوا عليها بغير قتال وجعلوا فيها حاميةً وديوانًا وطنيًّا لتنظيم الاحوال

وفي ٢٢ رمضان سنة ١٢١٣ هـ (٢٨ فبراير (شباط) سنة ١٧٩٩م) ساروا الى يافا فلما وصلوها امر بونابرت الجنرال كلابر ان يتقدم في فرقتهِ الى عكا ففعل . وكانت حامية يافا اخلاطًا من الاتراك والمغاربة والارناوط والاكراد فلم يرَ بونابرت محاصرتها فامر بالهجوم عليها في ٢٧ منهُ ٤ مارس (اذار) فهجم الفرنساويون عليها وما زالوا حتى خرقوا الاسوار ودخلوها ففرّت الحامية فتتبعوها وقد تحصّنت في بعض الخانات الكبيرة فالحّوا عليها فقال الارناوط ومنهم تتألف معظم الحامية «نحن نسلم لكم انفسنا اذا امنتمونا على حياتنا» وكان على قيادة الهاجمين من الفرنساويين

احد اركان حرب بونابرت فوعدهم بالأمان فسلموا فقادهم موثقين وعددهم نحو اربعة آلاف حتى اتى بهم المعسكر الفرنساوي فلما رآهم بونابرت قال للقادم اليه ما هذه الجماهير . قال هي حامية هذه المدينة قد سلمت وجئنا بها اليك . قال « وماذا تريدون ان افعل بهذا العدد أعندكم زاد يكفيهم او مراكب تنقلهم الى مصر او فرنسا واذا ارسلناهم في البرّ فمن يتولى غفارتهم» فاجابهُ قائلاً « اننا قد قبلنا استئسارهم تجنباً للدماء » فقال بونابرت « نعم يجب ان تفعلوا ذلك ولكن مع الاطفال والنساء والشيوخ وليس مع مثل هذا القدر من الرجال الاشداء المجندين » ثم امرهم بالجلوس مكتوفي الايدي امام المعسكر . وفي اليوم التالي فرقوا فيهم شيئاً من البقسماط الجاف والماء

ثم عقد بونابرت مجلساً في خيمته للمفاوضة فيماذا يجب ان يفعل بهؤلاء الاسرى وبعد الاجتماع عدّة جلسات لم يقرّوا على شيء فانزعج بونابرت لكثرة التردد في الامر وبعد الافتكار والتأمل رأى انهُ لا يستطيع استبقاءهم معهُ لعدم وجود ما يكفيهم من الزاد ولا ارسالهم الى مصر لعدم استغنائهِ عن رجال يسيرون لغفارتهم ولا اطلاق سبيلهم لئلاّ يرتدّون عليهِ فاقرّ على اعدامهم . وفي ٤ شوال (١٠ مارس (اذار) سنة ٩٩) بعد الظهيرة قادوهم مكتوفين الى صحراء رملية خارج يافا ثم جعلوهم فرقاً قادوا كلاًّ منها الى ناحية وقتلوا الجميع بالرصاص قتلاً ما انزل الله بهِ من سلطان فلما بلغت هذه الفعلة مسامع الجزّار ورجالهِ في عكا اصرّوا على الدفاع الى آخر نسمة من حياتهم لئلاّ يصيبهم اذا سلموا ما اصاب اولئك

ولما استلم بونابرت يافا امر بترميم حصونها وبعث الى الاسكندرية يأمر العمارة الباقية هناك ان توافيهُ الى يافا . ثم فشا الطاعون في يافا وضواحيها لفساد الهواء من الجثث التي ملأت تلك الجهات . ثم كتب بونابرت الى جند بيت المقدس يطلب اليهم التسليم فاجابوا انهم تابعون

لولاية عكا وحالما نسلم عكا يسلمون . ثم كتب الى القاهرة منشورًا باستيلائهِ على يافا وكان قد ارسل مثل هذا المنشور عند ما استولى على العريش وغزّة ولنذكر هنا منشورهُ من يافا فقط على سبيل النموذج وفيهِ تفصيل ما تقدم عن فتح يافا وهاك نصّهُ بالحرف الواحد

« بسم الله الرحمن الرحيم سبحان مالك الملك يفعل في ملكهِ ما يريد . هذه صورة تمليك الله سبحانهُ وتعالى جمهور الفرنساويين لبندر يافا من الاقطار الشامية . نعرف اهل مصر واقاليمها ان العساكر الفرنساوية استقلوا من غزة ثالث وعشرين شهر رمضان ووصلوا الرملة في ٢٥ منهُ في امنٍ واطمئنان وشاهدوا عسكر احمد باشا الجزّار هاربين بسرعة قائلين الفرار الفرار ووجدوا في الرملة ومدينة اللد مقدارًا كبيرًا من مخازن البقسماط والشعير ووجدوا ايضًا ١٥٠٠ قربة مجهزة جهزها الجزّار ليسير بها الى اقليم مصر مسكن الفقراء والمساكين ومرادهُ التوجه اليها مع العربان الاشرار من سفح الجبل ولكن تقادير الله تفسد المكر والحيل وما كان قصدهُ سوى سفك الدماء مثل عادتهِ في اهل الشام وناهيكم ما هو مشهورٌ عنهُ من التجبر والظلم والجور فانهُ تربية المماليك الظلمة المصريين وفاتهُ ان الامر لله وكل شيءٍ بقضائهِ وتدبيرهِ

« وفي السادس والعشرين حلّت طلائع الفرنساويين ببندر يافا من الاراضي الشامية واحاطوا بها وحاصروها من الجهة الشرقية والغربية وارسلوا الى حاكمها وكيل الجزّار ان يسلمهم القلعة قبل ان يحل بهم وبعسكرهم الدمار ولكنهُ لخشونة عقلهِ وفساد رأيهِ وسوء تدبيرهِ لم يرد وفي ذلك اليوم اي ٢٦ من شهر رمضان تكامل العسكر الفرنساوي على محاصرة يافا وانقسم ثلاث فرق توجّهت فرقة منهنّ على طريق عكا على مسافة اربع ساعات من يافا وفي ٢٧ امر حضرة صاري عسكر الكبير بحفر خنادق حول السور لعمل متاريس متينة واستحكامات حصينة اذ عرف

ان سور يافا ملآن بالمدافع الكثيرة مشحون بعساكر الجزّار الوفيرة

« وفي ٢٩ ناهز حفر الخنادق النهاية وصار على مسافة ١٥٠ خطوة في السور فامر صاري عسكر ان تنصب المدافع على المتاريس وان توضع اهوان القنابر باحكام وتأسيس وامر بنصب مدافع اخرى بجانب البحر لمنع الصلة بين عسكر البرّ والمراكب التي اعدّها عسكر الجزّار في الميناء للهرب والفرار. ولما رأى عسكر الجزّار المحاصرون في القلعة ان عديد الفرنساويين قليل غرّهم الطمع فخرجوا اليهم من القلعة مسرعين ظنًّا منهم انهم يغلبون على الفرنساويين فهجم عليهم الفرنسيس وقتلوا منهم كثيرين واجبروهم على الدخول الى القلعة ثانية

« وفي يوم الخميس غاية شهر رمضان اشفق حضرة صاري عسكر وخاف على اهل يافا اذا دخلت عساكرهُ بالقهر والقوة فارسل اليهم مع رسول خطابًا وهذا مضمونهُ « لا اله الّا الله وحدهُ ولا شريك لهُ . باسم الله الرحمن الرحيم . من حضرة صاري عسكر برتبه كتخدا العسكر الفرنساوي الى حضرة حاكم يافا . نخبركم ان حضرة صاري عسكر الكبير بونابارته امرنا ان نعرّفكم في هذا الكتاب ان سبب مجيئهِ الى هذا الطرف هو اخراج عسكر الجزّار فقط من هذا البلد لانهُ تعدّى بارسال عسكرهِ الى العريش ومرابطتهِ فيها والحال انها من اقليم مصر التي انعم الله بها علينا فلا تجوز لهُ الاقامة بالعريش لانها ليست من ارضهِ فقد تعدّى على ملك غيرهِ ونعرّفكم يا اهل يافا انا حصرنا بندركم من جميع اطرافهِ وجهاتهِ وضيقنا عليهِ بآلات الحرب والحصار والمدافع الكثيرة والكلل والقنابر وفي برهة ساعتين يخرب سوركم وتبطل آلات حربكم ونخبركم ان حضرة صاري عسكر لمزيد رحمتهِ وحنوهِ خاف عليكم من سطوة عساكرهِ المحاربين فانهم اذا دخلوا عليكم بالقوة والقهر اهلكوكم جميعًا ولذلك امرنا ان نرسل اليكم هذا الخطاب تأمينًا لاهل البلد ولا سيما الضعفاء والفقراء والغرباء وان نؤخر

ضرب المدافع واطلاق القنابر ساعة واحدة واني لكم لمن الناصحين وهذا آخر خطاب بيننا » . فجعلوا جوابنا حبس الرسول مخالفين بذلك الشريعة المطهرة المحمدية والقوانين الحربية . فتميز صاري عسكر من الغيظ وهاج واشتد غضبهُ وامر باطلاق المدافع والقنابر . ولم يمضِ الّا اليسير حتى خرست مدافع يافا وانقلب عسكر الجزّار في وبال وخسران وعند الظهر انخرق سور يافا وارتج لهُ القوم ونشب من الجهة التي ضربت منها المدافع ولا مرد لقضاء الله ولا مدافع . وفي الحال آمر حضرة صاري عسكر بالهجوم وفي اقل من ساعة ملكت العساكر الفرنساوية جميع البندر والابراج ودار السيف في المحاربين وحمي الوطيس وكثر القتل

« وفي يوم الجمعة غرة شوال وقع الصفح الجميل من حضرة صاري عسكر الكبير ورقّ قلبهُ لا سيما على من كان في يافا من اهل مصر فاعطاهم الامان وامرهم بالعود الى الاوطان وكذلك امر اهل دمشق وحلب بالرجوع الى بلادهم ليعرفوا مقدار رحمتهِ ومزيد رأفتهِ . وقتل في هذه الوقعة اكثر من ٤٠٠٠ من عسكر الجزار بالسيف . اما الفرنساويون فلم يقتل منهم الّا القليل وسبب ذلك ان سلوكهم الى القلعة كان في طريقة امينة خافية عن العيون واخذوا ذخائر كثيرة واموالاً غزيرة واستولوا على المراكب التي في المينا ووجدوا في القلعة نيفاً وثمانين مدفعاً وقد فات الجزار وعساكره ان آلات الحرب لا تدفع مقادير الله . فاستقيموا عبادهُ وارضوا بقضاء الله ولا تعترضوا على احكام الله وعليكم بتقوى الله واعلموا ان الملك لله يؤتيهِ من يشاء والسلام عليكم ورحمة الله » .

ثم سار بونابرت برجالهِ قاصدًا عكا تاركاً في يافا حامية كافية فقابلهُ في الطريق بعض العصاة من المماليك فحصلت بينهما مناوشة شتّت عن فرار المماليك فواصل السير حتى اتى سفح الكرمل واذا بعكا قد تحصنت تحصناً منيعاً بهمة واليها احمد باشا الجزار وهو الرجل الوحيد الذي كان

يعتمد عليهِ الباب العالي في حماية سوريا . فعبروا النهر وعسكروا في البر الآخر . وفي ٣ شوال صعد بونابرت الى رابية وجعل يتأمل حصون عكا مستعيناً بالنظارة المكبرة ثم امر ان يسير بعض العساكر الى المدينة وكانت فيها عمارة انكليزية تحت قيادة السير سدني سميث قد زادت الجزار تمسكاً بالدفاع . ففي اليوم التالي استطلعوا الحصون واستكشفوا قوات العدو . وفي ٤ شوال او ٢٠ مارس (اذار) بدأوا بالمحاربة وكانت الدوارع الانكليزية تساعد الجزار في البحر وقد اظهر هذا الرجل بسالة عظيمة لكنهُ اضطر اخيراً الى استنجاد قوات صيدا ودمشق وحلب

اما بونابرت فابقى الحصار على عكا وحوّل شكيمة فتوحاتهِ نحو اماكن اخرى من سوريا فارسل فرقاً استولت على صفد وصور وطبريا واماكن اخرى واتوا منها بمؤن كثيرة . وبعد يسير وصلت الدوارع الفرنساوية من الاسكندرية ومعها المدافع والمؤن . وفي ٤ ذي القعدة سنة ١٢١٣ هـ (٩ افريل (نيسان) سنة ١٧٩٨م) قتل الجنرال كافارلّي

وفي ٥ ذي الحجة (٩ مايو (ايار)) وهو اليوم الخمسون لحصار عكا اقرّ بونابرت على الهجوم النهائي فهجموا عليها هجمة اليأس بقلوب لا تهاب الموت ولم تكن عكا لتقف في طريقهم لولا العمارة الانكليزية فانها هي التي أخّرت الفتح بدفاعها عنها بالبر والبحر . ثم جاءتهم نجدة من الاستانة تحت قيادة حسن بك فازداد المدافعون قوّة ومضى ذلك اليوم ولم ينل الفرنساويون شيئاً . وفي اليوم التالي هجموا هجمة أخرى لم ينبهم منها الاّ التقهقر لانهم صادفوا مقاومة قوية قتل فيها الجنرال بون . فيئس بونابرت من حبوط مساعيهِ وفشل حملتهِ السورية على انهُ كان يتعزّى بما سبق استيلاؤهُ عليهِ من المدن والقرى السورية الآن تلك الاماكن حالما سمعت بما الّم بجيشهِ من الفشل انحازت الى الباب العالي هرباً من العقاب . وزد على ذلك ان السير سدني سميث كتب منشورات وزعها على المشائخ .

والامراء في لبنان يدعوهم الى الاتحاد مع الباب العالي وارسل الى سراة المسيحيين ايضًا صورة منشور بونابرت الذي يقول فيهِ انهُ هدَّ اركان الديانة المسيحية فامتنع اللبنانيون عن توريد الخمر والبارود للفرنساويين فاصبح بونابرت في حالة اليأس الشديد لا يدري ماذا يصنع وقد خابت آمالهُ . فكتب الى ديوان مصر انهُ قد هدم اسوار عكا واخرب بيوتها بالقنابل وجرح واليها الجزار وانهُ سيبارحها بعد ثلاثة ايام عائدًا الى مصر ومتى جاءها يقتصّ من الباغين . ثم استقدم حاميات صفد وطبرية وغيرها

وفي ١٢ ذي الحجة (٢٢ مايو (ايار)) امر بالمسير الى مصر بكل رجالهِ وفيهم الجرحى فقاسوا عذابًا مرًّا من العطش وفشا فيهم الوباء فزادهم عناء فامر بونابرت ان يسير الرجال الاصحاء على اقدامهم وان تعطى الخيول والجمال الى المرضى والجرحى ومما زادهم شقاء ان العمارة الانكليزية كانت تتعقَّبهم في البحر والعربان يتعرضون لهم في البر والجنود العثمانية تسوقهم من ورائهم اما هم فكانوا يخربون كل ما مروا بهِ من المدن والقرى . وفي ٣ ذي الحجة (٣ يونيو (حزيران)) وصلوا العريش فامر بونابرت بتحصينها تحصينًا منيعًا واشتد عليهم القيظ وكان الماء الذي يشربونهُ ملآنًا علقًا يمتصّ الدم فكان يلتصق بحلقهم عند الشرب فيعذبهم عذابًا اليمًا

ثم واصلوا المسير الى القاهرة رغمًا عن الحر والوباء حتى وصلوها فخرج المشائخ والاعيان الى خارج المدينة لاستقبالهم فدخلوها وهم لم يصدقوا انهم تخلصوا من حملة سوريا وما مروا بهِ من الصحاري الحارة . فاخذ بونابرت في تنظيم العساكر وتطبيب الجرحى واعادة النظام واكتساب ثقة الاهالي الّا انهُ لم يكد يفعل حتى بلغهُ تقدم المماليك من جهة الصعيد وسبب ذلك ان مراد بك كان في أعلى الصعيد فبلغهُ قدوم حملة عثمانية لاخراج الفرنساويين من مصر فجمع اليهِ رجالهُ وسار ببعضهم على الضفة الغربية للنيل وارسل البعض الآخر على الضفة الشرقية للاتحاد مع ابراهيم بك

القادم من جهة سوريا فعلم بونابرت بذلك فانفذ جندًا على كلّ من الضفتين لمحاربة الفرقتين فالتقى جند الضفة الشرقية بفرقة ابراهيم بك وراء المقطم فشتتها واخذت امتعتها . والتقى جند الضفة الغربية وفيه بونابرت بمراد بك في الجيزة فانتشبت الحرب فانكسر المماليك وتشتت شملهم فعادت الجنود الفرنساوية ظافرة

وفي ١٦ محرم سنة ١٢١٤ ﻫ (١٥ يوليو (تموز) سنة ١٧٩٩ م) وردت لبونابرت رسالة من الجنرال مرمون في الاسكندرية تنبئهُ بمجيء الحملة العثمانية ونزولها في ابي قير في ١١ الجاري فانزعج بونابرت من هذا الخبر فامر باعداد حملة تسير الى الاسكندرية وبعث الى الحصون في رشيد ودمياط ان تكون في يقظة واستعداد

وسبب قدوم الحملة العثمانية ان الباب العالي بعث الى الفرنساويين مرارًا يقيم الحجة على استقلالهم باحكام مصر ويطلب اليهم الانسحاب منها ولم يكن الجواب الّا المحاولة وكانت انكلترا في الوقت عينهِ تنشط الباب العالي في هذه المطاليب حتى انها اخيرًا اتفقت معهُ ان يرسل كل منهما عمارة الى ابي قير وهناك تتحد العمارتان وتخرجان الفرنساويين من مصر بالقوة . فسارت العمارة العثمانية تحت اميرالية باتروبا بك وعليها ثمانية آلاف من الجنود البرية تحت قيادة مصطفى باشا سرعسكر ومعهم حسن بك ورجالهُ وسارت العمارة الانكليزية تحت اميرالية السير سدني سميث المتقدم ذكرهُ والتقت العمارتان في ابي قير واتحدتا فاسرع الجنرال مرمون الى اعلام بونابرت كما رأيت

فبارح بونابرت القاهرة برًّا ثاني يوم وصول الرسالة صباحًا فسار من الجيزة الى الرحمانية ومن هناك كتب الى القاهرة «ان بين الذين قدموا للمحاربة رجالًا روسيين لا يؤمنون بالله واحد وانما يعبدون آلهة ثلاثة» ثم بارح الرحمانية فوصل الاسكندرية في ٢٤ محرم (٢٣ يوليو (تموز))

فلاقاهُ مرمون فعنفهُ لغفلتهِ عن حصن ابي قير حتى احتلَّهُ العثمانيون وفي اليوم التالي استكشف استحكامات العدو ثم سار برجالهِ نحو ابي قير فاذا بالجنود العثمانية تحت قيادة مصطفى باشا على مسافة ميل ونصف وراء ابي قير ومنهم نحو الف رجل في حصن على رابية من الرمال الى اليمين بجوار الشاطئ وجماعة آخرون الى اليسار في حصن على رابية اخرى وهاتان الرابيتان بمثابة جناحي الجيش . فهاجم بونابرت اولاً الرابية اليمنى ففرَّ من كان فيها الى قرية وراء قلب الجيش فارسل سرية من الفرسان لملاقاة الفارين ومثل ذلك فعل بالرابية اليسرى ثم هجم على قلب الجيش فتقهقرت الجنود العثمانية الى طابية كانوا قد جعلوها وراءهم فتشجع الفرنساويون وتعقبوا الهاربين لكنهم لم يسيروا يسيرًا حتى سمعوا دوي المدافع الانكليزية ووزيز قنابلها فارتدوا الى الوراء . فارتد العثمانيون وتبعوهم حتى كادوا يظفرون بهم لكنهم انشغلوا بتقطيع رؤوس القتلى فاغتنم احد قواد الفرنساويين فرصة تغافلهم وسار في فرقتهِ من على اليسار قاصدًا الطابية الخلفية وسار قائد آخر من اليمين فدخلا الطابية وقطعا على العثمانيين خط الرجوع واسرع احدهما (الجنرال مورات) بنفسهِ للقبض على مصطفى باشا في خيمتهِ فاطلق عليهِ الباشا عيارًا ناريًا فلم يعبأ موارت بذلك لكنهُ هجم عليهِ بسيفهِ فقطع اصبعيهِ وامر اثنين من رجالهِ فاوثقاهُ وارسلاهُ الى معسكر الفرنساويين . واخذت العساكر الفرنساوية بالنهب فلم يغادروا في معسكر العثمانيين شيئًا من المؤن والذخائر وفرَّ من بقي من العثمانيين الى البحر في قوارب ارسلها لهم السير سدني الاَّ بعض الحامية في حصن اقاموهُ هناك فهجم عليهِ الفرنساويون وبعد دفاع سبعة ايام هدموهُ واسروا من كان فيهِ فشاع خبر انتصار الفرنساويين في القطر المصري فعظموا في عيون الاهالي

ثم ورد لبونابرت من فرنسا رسائل منبئة باضطرابهم هناك وبثقل

اليد عليهم وفيهِ الحاح كلي عليهِ ان يسير حالاً الى فرنسا بعد ان يجعل في مصر حامية منتظمة فكتم الامر ولم يكاشف بهِ احداً الاّ الاميرال غانتوم لانهُ لم يرَ بدّاً من مكاشفتهِ لكي يعدّ لهُ دارعتين تنقلانهِ ومعيتهُ الى فرنسا . ولكي لا يجعل للمصريين شبهة بمقاصدهِ عاد الى القاهرة بما يلزم من احتفال النصر فوصلها في ١٢ صفر فخرج الاعيان لملاقاتهِ بالموسيقى

وبعد قليل نزل الى الاسكندرية مظهرًا التجول في الوجه البحري فلما وصل الاسكندرية كتب الى الجنرال كلابر وكان على مديرية الغربية يوليهِ القيادة العامة على مصر ويبين لهُ وجوب المحافظة على الاحتلال لئلاّ تأتي دولة اخرى تحتل هذا القطر بعد ان بذلوا فيهِ ما بذلوهُ من المال والرجال ووعدهُ بنجدة يبعث بها لهُ حال وصولهِ الى فرنسا واخبرهُ اخيرًا عن الداعي الذي حملهُ على هذه السرعة . وكتب كتابًا آخر الى عساكرهِ يشجعهم على الثبات والصبر وكتابًا آخر الى علماء مصر ومشائخها يطلب اليهم ان يعتبروا الجنرال كلابر في مكانهِ جاعلاً السبب في سفرهِ انهُ ذاهب لقهر من بقي من اعدائهِ في اوروبا لانهُ ان لم يفعل ذلك لا يطمئن بالهُ على مصر ويعدهم انهُ لا يغيب عنهم اكثر من ثلاثة اشهر وارسل كل هذه التحارير معًا الى كلابر واوصاهُ ان يطلع اصحابها عليها في الوقت المناسب

ثم بعث يستقدم الجنرال مينو اليهِ فجاءهُ حالاً وهو على اهبّة السفر في ٢٥ صفر (٢٢ اوغسطس (آب)) فعهد اليهِ قيادة الاسكندرية ورشيد والبحيرة وسلّمهُ تحارير كلابر واوصاهُ ان يوصلها لهُ حالاً . ثم ركب جوادهُ وسار مساء بمن معهُ الى جهة مرابوت او العجمي وكان الاميرال غانتوم ودارعتاهُ بانتظارهِ هناك وفي الساعة العاشرة من تلك الليلة نزل بمن معهُ الى البحر وفي صباح اليوم التالي ودعوا سواحل الدلتا واقلعوا قاصدين فرنسا

اما اهالي الاسكندرية ولا سيما الغفر خارج المدينة فانهم شاهدوا في

ذلك الصباح غبارًا عجاجًا بجهة حصن العجمي فخافوا ان تكون كتيبة من من العربان قادمة على المدينة ثم تبيّن لهم انها خيول مسروجة ولا راكب عليها فسألوا لمن هذه الخيول فقيل لهم انها الخيول التي نقلت بونابرت ومعيته الى البحر وقد سافر الى فرنسا فانذعر القوم لتلك الاخبار البغتية وكادوا لا يصدقونها حتى بلّغهم مينو رسميًا ما عهد اليهِ بونابرت قبل ذهابهِ

ثم ارسل مينو الاوامر والتحارير التي بيدهِ الى كلابر فوصلتهُ وهو في رشيد قادمًا لمقابلة بونابرت . فذهب الى القاهرة وبلغ المشائخ والعلماء بما امرهُ بهِ بونابرت وتلا عليهم كتاب بونابرت اليهم وهولاء بلغوا الاهالي وهكذا ذاع خبر بونابرت في سائر القطر . وكان كلابر بالحقيقة اولى من جميع قواد تلك الحملة بذلك المنصب لانهُ كان افضلهم حزمًا وعقلاً وهيبةً وانفة وبسالة

فقد ظهر لك مما تقدم ان الحملة الفرنساوية لم يكن القصد منها الاَّ الاحتلال الدائم . ذلك كان قصد بونابرت اما كلابر فلم يكن ذلك رأْيهُ وانما كان ينظر الى مصر نظرهُ الى بلاد لا تصلح لسكنى الفرنساويين لما بينها وبين بلادهم من اختلاف المناخ والعوائد والاخلاق فضلاً عن انهُ لم يكن يرى امكان استمرار الحال على ما تركها بونابرت ولذلك بادر عند استلامهِ ازمّة القيادة الى اطلاع فرنسا على حالة مصر عند مبارحة بونابرت فقال

« قد سافر بونابرت الى فرنسا في الفروكتيدور السادس بدون ان يعلن احدًا لكنهُ ارسل لي تحريرًا وآخر للصدر الاعظم الى الاستانة وقد كان في علمهِ انهُ وصل الى دمشق . اما اعداؤنا الآن فليسوا المماليك فقط وانما هم ثلاث دول عظمى الباب العالي وانكلترا والروسية . اما جنودنا فقد اصبحوا نصف ما كانوا يوم قدومهم الى مصر مفرقين في انحاء القطر من العريش والاسكندرية الى اصوان . اما معداتهم فغير كافية لهم لان معامل الاسلحة والبارود معطلة ومثل ذلك الالبسة فقد اصبحت

رجالنا لاحتياجهم الى الالبسة معرضين لاوبئة البلاد وزد على ذلك اننا خسرنا ١٢ مليونًا من الفرنكات بسبب تضمين الضرائب غير الاعتيادية بامر بونابرت . قد تشتت المماليك لكنهم لم يبيدوا هذا مراد بك ما انفك في مصر العليا في كثرة من الرجال يمكنهُ بهم اشغال قسم من جنودنا لمدة طويلة . وهذا الصدر الاعظم قد جاء بحملة عثمانية لمناهضتنا وقد سار من دمشق الى عكا . اما حصوننا واستحكاماتنا فلا تزيدنا قوة فهذا حصن العريش لا يدفع مهاجمًا وهذه الاسكندرية اشبه بمعسكر محاط بزريبة . فافضل ما يمكنني اجراؤهُ والحالة هذه المخابرة مع الباب العالي لعلنا نصل الى وفاق فيهِ خيرٌ لنا . وقد علمت الآن ان عمارة عثمانية رست امام دمياط»

الَّا ان كلابر مع ذلك لم يتقاعد عن تنظيم الاحوال واكتساب ثقة الاهلين وجمع العوائد والمكوس لدفع مرتبات الجند على حين انهُ لم يكن ممن يريدون احتلال مصر او استعمارها ولكنهُ كان يفضل الانسحاب منها على اسلوب لا يكون فيهِ عارٌ على دولتهِ غير ان الاحوال لم تعطهِ ما نواهُ لان الدولة العلية عادت الى استخراج هذا القطر السعيد من ايدي الفرنساويين بالقوة فارسلت الصدر الاعظم يوسف باشا بنفسهِ الى دمشق يجنّد جندًا عظيماً يسير بهِ عن طريق البرّ الى القاهرة وجندًا آخر يسير بحرًا في عمارة السير سدني سميث بوفاق مع انكلترا لمطاولة الفرنساويين من جهة البحر ليسهل على حملة البرّ المسير في داخلية القطر . فسارَ جند البحر الى دمياط ونزل في قلعة قديمة شرقي البوغاز فاخرجتهم منها الجنود الفرنساوية . اما الصدر الاعظم يوسف باشا فقدم يافا بحملتهِ ثم جعل يتخابر مع كلابر في امر وفاق ينتهون اليهِ فانتهت المخابرة بمؤتمر عقد في العريش مؤلف من الصدر الاعظم من العثمانيين والجنرال ديزه والموسيو بوسيلك من الفرنساويين اقرَّ على معاهدة صلح أُمضيت في ١٢ جمادى الآخرة سنة ١٢١٤ هـ (٣ دسمبر (ك ١) سنة ١٧٩٩ م)

غير ان هذه المعاهدة لم يطل بقاؤها لان العثمانيين خرقوها بهاجمتهم العريش في ٣ رجب (٣٢ دسمبر (ك ١)) وكانت تحت قيادة الكولونل كازال وكان من البسالة على جانب عظيم فاحب الاهالي التسليم فابى واصرَّ على الدفاع الى آخر نسمة من حياتهِ ولم يكن العريش من المناعة على شيءٍ فدخلها العثمانيون واستولوا عليها فاتصل ذلك بالجنرال كلابر فاغتاظ جدًّا وكتب الى السير سدني يعنفهُ مع علمهِ ببراءتهِ فعادت المخابرات وعقد مؤتمر ثانٍ في ٤ شعبان سنة ١٢١٤ (٢٤ يناير (ك ٢) سنة ١٨٠٠ م) في العريش مؤلف من ديزه وبوسيلك من الفرنساويين واثنين من العثمانيين واقرُّوا على معاهدة عرفت بمعاهدة العريش من مقتضاها انسحاب الفرنساويين بمؤنهم وذخائرهم عن طريق رشيد والاسكندرية وابي قير الى فرنسا انسحابًا قانونيًّا بكل ما لديهم

فسرَّ كلابر لتلك المعاهدة لاعتقاده ان انسحابهُ على هذه الصورة لا يمسُّ شرف دولتهِ . ولما شاع خبر تلك المعاهدة بمصر فرح الاهالي عمومًا وكذلك الجنود الفرنساوية لانهم لم يكونوا راضين بالمقام في بلاد تخالف بلادهم هواءً واخلاقًا ومعيشةً فضلًا عما كانوا يقاسونهُ من عصيان الاهالي وسفك الدماء . فضرب كلابر على الاهالي ضريبة غير اعتيادية مقدارها ثلاثة آلاف كيس لنفقات الجيش في نقل المهمات وصدرت الاوامر بالتأهب للرحيل فباع الفرنساويون كل ما يصعب حملهُ من متاعهم . وبعث كلابر الى الجنود المتفرقة في جهات الصعيد بالقدوم الى مصر . واطمأن المماليك الذين كانوا قد فرُّوا من وجه الفرنساويين فعادوا الى القاهرة بنسائهم واولادهم . ثم ان الصدر الاعظم نهض بجيشهِ نحو القاهرة حتى اذا اتى بلبيس سار علماء مصر ومشائخها باذن من كلابر لملاقاتهِ وتقديم واجب العبودية لجلالة السلطان فسرَّ الصدر بهم وخلع عليهم

وبينما الحال كذلك ورد للجنرال كلابر كتاب من السير سدني مآلهُ

نقض معاهدة العريش وتعريبهُ ملخصًا

«سيدي . اعلم حضرتكم اني قد تشرفت باوامر شاهانية تمنع عقد اي معاهدة مع الجيوش الفرنساوية التي هي تحت قيادتكم في مصر وسوريا الاَّ اذا سلموا انفسهم وسلاحهم كما يفعل اسراء الحرب مع التخلي عن كل المراكب والمؤن التي لهم في الاسكندرية»

على ان السير سدني نفسهُ لم يكن يرى الاَّ البقاء على المعاهدة اما دولتهُ فما انفكت حتى حملت الباب العالي على اصدار هذه الاوامر وقد كتب السير سدني الى دولتهِ يظهر رأيهُ ويبين اوجه الخطأ التي اتتها بذلك النقض ولم تحصل نتيجة. اما كلابر فاستشاط غضبًا لذلك ولم يكن جوابهُ الاَّ الحرب فاسرع الى احتلال الطوابي على الروابي خارج القاهرة وتعزيزها بما يلزم من العدة والرجال . وكان يوسف باشا قد اصبح على مقربة من القاهرة ومعهُ الجيوش العثمانية فكتب الى المشائخ والعلماء يستحثهم على اخراج الفرنساويين من بلادهم

فعقد الجنرال كلابر مؤتمرًا حربيًّا قال فيهِ «ان الدولة العثمانية قد سهلت امر انسحابنا فوقف الانكليز في طريقنا فعلينا محاربتهم» ثم بعث الى الصدر الاعظم بعزمهِ على الحرب وحشد جيشهُ خارج القاهرة وكانت مقدمة الجنود العثمانية تحت قيادة ناصيف باشا احد قواد الحملة معسكرة في المطرية النيل الى يمينها والصحراء الى يسارها والى ورائها الخانكاه وفيها باقي الجيش تحت قيادة يوسف باشا وعددهم جميعًا نحو من اربعين الفًا او تزيد وانضم اليها الانكشارية والماليك تحت قيادة ابراهيم بك. فالتقى كلابر بمقدمة العثمانيين فتقهقرت بعد الدفاع الحسن وفر ناصيف باشا وبعض الماليك لجهة القاهرة فتقدم كلابر برجالهِ فظهر لهُ عن بعد غبارٌ عجاج في سهل بين قريتين وهما سرياقوس الى اليسار والمرج الى اليمين ثم انقشع الغبار عن الجنود العثمانية قادمة من الخانكاه لملاقاة الفرنساويين

فالتقى الفريقان وانتشبت الحرب فدافعت الجنود العثمانية دفاعًا شديدًا معهودًا بالرجال العثمانيين الا انهم اضطروا اخيرًا الى التقهقر نحو الخانكاه فتبعهم الفرنساويون فخرجوا منها وما زالوا حتى تجاوزوا الصالحية فوصلها كلابر فاذا بها خالية فاستولى على ما كان فيها

اما اهالي القاهرة فلما علموا بسير كلابر الى المطرية ثاروا على من بقي في مصر من الفرنساويين وبعد الظهيرة اتاهم ناصيف باشا ومعهُ جماعة من المماليك المتقدم ذكرهم وقالوا انهم غلبوا الفرنساويين وجاؤوا لاستلام المدينة باسم جلالة السلطان . فامر ناصيف باشا ان يقتلوا من بقي في مصر من المسيحيين رغماً عن كونهم من رعايا الدولة العلية . اما العساكر الفرنساويون الباقون في القاهرة فكانوا يدافعون بالامر الممكن . وطالت المذبحة في احياء المسيحيين من الاقباط والسوريين والافرنج الى ان جاء عثمان بك احد ضبّاط العثمانيين الى ناصيف الباشا قائلاً « ليس من العدالة ان تهرقوا دماء رعايا الدولة العلية فان ذلك مخالف للارادة السنية » ثم بثَّ رجالهُ في المدينة لايقاف القتل

ثم تمكن الفرنساويون من احتلال القلعة وباقي الطوابي ولبثوا ينتظرون ما يكون من ناصيف باشا . فهجم عليهم فاطلقوا عليهِ وعلى رجالهِ نارًا ارجعتهم الى اماكنهم حتى لم يبقَ منهم في الازبكية نفر واحد واستمر اطلاق النار على المدينة من القلعة وباقي الطوابي حتى منتصف الليل فوقع الرعب في قلوب الاهلين وهمَّ المشائخ بالفرار فامسكتهم الرعية رغماً عنهم . وكان في بعض بيوت المدينة مدافع فاخرجها الاهالي ورتبوها على هيئة بطارية احاطوها بطابية وحظر على الناس الخروج من تلك الطابية ولم يكن عندهم قنابل فاستخدموا عيار الموازين عوضًا عنها . وبعد مضي يومين على تلك الحال أُنبئَ ناصيف باشا بقدوم جند فرنساويٍ من جهة المطرية لنجدة حامية القاهرة فبعث اليهم سربًا من الفرسان فلم ينالوا منهم ظفرًا

فوصل الفرنساويون منادين بانتصارهم في مواقعهم مع العثمانيين . وكانت المدينة برمتها في يد الوطنيين فعجز الفرنساويون عن الدخول اليها ثم جاءت نجدة أخرى ولم يستطيعوا اخماد الثورة . ثم جاء الجنرال كلابر وقد كادت موءن جيوشهِ في القاهرة تنفذ وخرج جميع المسيحيين من الاقباط والسوريين فارّين من على السور طالبين الالتجاء الى معسكر الفرنساويين ثم تضايق الاهالي لقلة الماء لان الفرنساويين قطعوهُ عنهم

وفي ٢٧ شوال(١٤ ابريل (نيسان)) طلب كلابر الى اهالي بولاق ان يسلموا فاجابوا انهم تابعون للمدينة بما يلحق بها فاطلق عليهم قنابل لاتزال بعض آثارها باقية الى هذه الغاية فسقطت البيوت ودخل الفرنساويون بولاق ولم يبقوا عليها نهبًا وقتلاً . فلما تأتى ذلك لكلابر عرّج نحو المدينة بالمدافع والحراريق وكانت ليلة ليلاء ممطرة اختلطت فيها اصوات المدافع بقصف الرعد وشرارها بلمع البرق وهجمت العساكر على المدينة خائضين في الاوحال يثبون من حائط آخر بين البيوت التي هدمتها مدافعهم وفي ايديهم خرق مبتلّة بالزيت مشتعلة يرمونها ذات اليمين وذات اليسار لاحراق المدينة فعلا الصياح من النساء والاطفال خوفًا من النيران حتى كانوا يلقون بانفسهم من على الجدران والسطوح تخلصًا من اللهيب

فهمّ ناصيف باشا الى الفرار فتتبعوهُ فدخل في حيٍّ من ذوبهِ واختفى فيهِ فأمر كلابر ان ينادى في الناس « وما النصر الاّ من عند الله وهو سبحانهُ وتعالى يامر الغالبين بالرفق وعليهِ فان الصاري عسكر يعفو عن اهالي القاهرة وسائر البلاد المصريّة عمومًا ولو اتحدوا مع الاتراك فليرجع كلٌّ الى شأنهِ » فكف الناس عن القتال وهدأت الاحوال فبعث كلابر ان تنظف الاسواق وترفع الجثث وامر ان تنوّر المدينة ثلاثة ايام احتفالاً بالنصر ودعا اليهِ العلماء والمشائخ واعد لهم وليمة حافلة وبعد يومين جمعهم في مجلسهِ واخذ يعنفهم على ما اتوهُ من الخيانة فاجابهُ شيخ

المهدي «اننا لم نأتِ خيانة اما اتحادنا مع العثمانيين فكان بناء على امر منك» وحجر كلابر على خمسة عشر شيخًا لم يتركهم حتى اخذ منهم غرامة مقدارها ١٢ مليونًا من الفرنكات . وسكنت بعد ذلك الاحوال واطمأنت القلوب . ثم علم مراد بك بما حلّ بالمدينة وما كان من نصرة الفرنساويين فاحب الانحياز الى الجانب الاقوى فجاء الى ضواحي القاهرة وكتب الى كلابر ثم اجتمع معهُ وتفاوضا فتعاهدا على الاتحاد وتهاديا هدايا فاخرة فولّاهُ مصر العليا مكافأة لصداقتهِ

فاطمأن كلابر من قبيل مصر بعد اتحادهِ مع المماليك وعظم في عين الاهالي وسكن في بيت مراد بك في الجيزة وامر بترميم الاماكن التي هدمت بسبب تلك الثورة وفي جملتها ديوان الجيش غربي الازبكية في اول شارع بولاق الى اليمين . ففي ١٤ يونيو (حزيران) سنة ١٨٠٠ م دعي كلابر الى غداء عند اركان حربهِ الجنرال داماس في منزلهِ قرب ديوان الجيش . فبعد مناولة الطعام خرج كلابر والموسيو بروتين مهندس الحملة يتمشيان في رواق (ممشى) موصل بين بيت الجنرال داماس والديوان نحو الساعة الثانية بعد الظهر فبينما كانا يتحادثان وثب رجل من منتهى الرواق عليهِ ثوب خلق وفي يدهِ خنجر طعن بهِ صدر الجنرال كلابر فنادى الحرس وهجم بروتين على الرجل فنال منهُ مثلما نال كلابر فسقط بروتين على الارض فتركهُ ذلك الشقي وعاد الى كلابر وطعنهُ ثانيًا وثالثًا حتى اتمّ قتلهُ ثم سمع ضجيجًا ففرّ الى حديقة بالقرب من ذلك المكان واختبأ وراء الحائط فلما اتى الخفر لم يروا الا ذينك الرجلين يخبطان بدمهما فحملاهما الى البيت واتوا لهما بالطبيب فمات كلابر حالًا اما بروتين فبقي تحت المعالجة . ونودي في المدينة بالقبض على ذلك الفاعل حيثما وجد وكان بروتين قد افهمهم شيئًا عن ملابسهِ وشكلهِ وبعد يسير جيء برجل عليهِ لباس رثّ واوقفوهُ امام بروتين فعرفهُ وقال هذا هو الجاني . ثم قرّر

اخرون انهم رأوهُ منذ بضعة ايام يتردد بين البيوت ويختلط بخدمة الديوان

وبعد تقريرهِ بسبل مختلفة وجد ان اسمهُ سليمان الحلبي التقى بهِ احد اغوات الانكشارية في بيت المقدس وكان قد ذهب اليها هذا الانكشاري للتفتيش على رجل يُقدم على قتل كلابر فخاطب سليمان الحلبي بذلك فاجاب على شرط ان ينجي اباهُ في حلب من ضرائب غير اعتيادية يطلبها منهُ والي تلك الولاية فجاء بهِ الى غزَّة وهناك اتى لهُ بتحارير توصية من آغا غزة لعلماء الازهر فبارح سليمان غزة في ٨ مايو فوصل القاهرة في ١٤ فنزل في بيت مصطفى افندي ليلةً ثم سار الى العلماء فابوا مشاركتهُ بالجناية اما هو فلم ينثنِ حتى اغتنم تلك الفرصة وفعل ما فعل . فاستدعي المشائخ المتهمين وهم ثلاثة وبالاستفهام منهم اجابوا انهم لم يروا الرجل ولم يعرفوهُ قبل تلك الساعة . ثم عيَّن الجنرال مينو لجنةً لتحري القضية فحكمت باعدام المشائخ الثلاثة لانهم عرفوا عزم القاتل على القتل ولم يخبروا عنهُ اما القاتل فحكم عليهِ بالاعدام على الخازوق لكنهم اوقفوا تنفيذ الحكم لبعد دفن الفقيد . فشيعوا جنازتهُ بكل احترام واحتفال ولما واروهُ التراب جاءوا بالجانين واعدموهم بموجب ذلك الحكم

واقاموا على القيادة العامة بدلاً من كلابر الجنرال مينو وكان ممن يرغبون البقاء في مصر فاعتنق الاسلامية ودعى نفسهُ عبدالله وولد لهُ غلام دعاهُ سليمان . ثم ظهر من تصرفهِ بالاحكام انهُ ليس على شيءٍ من الهمة والدراية فسخر بهِ الفرنساويون وكرهوهُ . وكان ديوان القاهرة مؤلفًا من طائفتي المسلمين والمسيحيين فجعلهُ من المسلمين فقط واخذ جانب المسلمين فعهد اليهم جباية الخراج وقد كانت بيد الاقباط . على ان ذلك كلَّهُ لم يغير شيئًا من كره الوطنيين لتلك الامة الاعجمية التي جاءت لامتلاك بلادهم . ومن جملة ما قادهم الى ذلك انهُ اعلنَ بحماية فرنسا على مصر وان مصر قد اصبحت مستعمرة من مستعمرات فرنسا . وشقَّ ذلك على قوَّاد الحملة فجاءوا

اليهِ بصفة رسمية وبلغوهُ ان الجيش الفرنساوي غير راضٍ عن هذه البدع وان الجمهورية الفرنساوية لا تقصد بحملتها على مصر ما قد صرح بهِ هو فلم يجبهم بشيءٍ وانما وعدهم انهُ سينظر بما قالوا

وكانت انكلترا لا تنفك عن السعي الى اخراج الفرنساويين من مصر صيانة لصوالحها في الهند على الخصوص . فاعدَّت عمارة بحرية مؤلفة من ١٧٥ مركبًا وخمسة عشر الفًا من الرجال وارسلتها الى مصر تحت قيادة السير رلف ابركرومبي فسار اليها ودخل جون ابي قير في ٢ مارس (اذار) سنة ١٨٠١ م فشاهد آثار العمارة الفرنساوية التي حطمتها عمارة نلسون وفي ٧ منهُ نزل السير رلف المذكور في قارب لاستكشاف الشاطئ ليختار محلاً ينزل اليهِ الجيش . وفي ٩ منهُ شرعت الجنود الانكليزية بالنزول الى البر فاُطلق عليهم من الرمل عدة قنابل من طابية قد تحصن فيها حاكم الاسكندرية بالف وخمساية رجل . اما الانكليز فلم يكترثوا بذلك بل استمروا على النزول بسرعةٍ والقنابل تتفرقع حول قواربهم حتى تملكوا البر ولم يلحقهم الاَّ ضرر يسير . ثم ساروا نحو الاسكندرية فلاقاهم الفرنساويون باربعة آلاف وخمساية مقاتل وفيهم حامية الرحمانية . وانتشبت الحرب بين الطرفين طول ذلك النهار ولم يظهر احدٌ منهما وكانت خسائر الفرنساويين خمساية رجل والانكليز الف ومائة . ومما اعاق الانكليز قلَّة خيالتهم فعسكروا بجوار الاسكندرية وبنوا الطوابي والخنادق وحفروا ابارًا لاستخراج الماء . اما القاهرة فكانت على عهدك بها لفساد سياسة مينو . وفي ٤ مارس وصلتهُ الاخبار بوصول العمارة الانكليزية الى ابي قير فبدلاً من الاسراع الى النجدة جعل يتوهَّم اوهامًا لا طائل تحتها وبعد اللتيا والتي بعث فرقة الى بلبيس واخرى الى دمياط واخرى الى ابي قير برًّا واخرى في النيل

وفي ١١ منهُ جاءتهُ الاخبار باحتلال الانكليز ابا قير وهجومهم على

الاسكندرية فارتبك بامرهِ فجمع اليهِ مشائخ الديوان واعلمهم انهُ ذاهب الى السواحل تاركًا الجنرال بيليارد ليقوم مقامهُ مدعيًا ان سبب ذهابهِ قدوم بعض المالطية والايطاليين الى ابي قير . ثم استقدم الفرقة التي ارسلها الى بلبيس وامر من بقي من الجيش في مصر ان يسير الى الرحمانية . فبارح مينو القاهرة في ١٢ منهُ لكنهُ لم يصل الاسكندرية الّا في ١٩ منهُ وقد تحصن الانكليز تحصنًا لا يقوى على مقاومتهِ فاستشار قوادهُ فاشاروا عليهِ بالهجوم على حصنهم الايمن لانهُ اقوى حصونهم لكنهُ لم يجسر على ذلك نهارًا فهجم ليلًا فلم ينجح وفي اليوم التالي في ٢١ مارس (اذار) امر ان تهجم الجيوش كلها دفعة واحدة باكرًا بغير ضرب النفير اما الانكليز فكانوا في يقظة تامة ففي الساعة الثالثة بعد نصف الليل سمعوا صوت المدافع من على يسارهم فوجهوا نيرانهم نحوها ثم سمعوا مثلها عن يمينهم فاجابوا بمثلها وبعد معركة كبيرة تقهقر الفرنساويون مجانبة فنهم ابركرومبي غرضهم من ذلك فعزّز ميمنة معسكرهِ واتخذ قيادتها بنفسهِ فاصيب بجرح قتّال القاهُ على الصعيد فقدم السير سدني سميث وانهضهُ وما زالت الحرب قائمـة حتى الساعة الحادية عشرة قبل الظهر وقد قتل كثير من الضباط الفرنساويين فامر الجنرال مينو بالراحة فعادت رجالهُ وعدد قتلاهم وجرحاهم نحو الفين اما خسائر الانكليز فكانت ٢٤٠ قتيلًا و ١٢٥٠ جريحًا من جملتهم السير رلف ابركرومبي فنقلوهُ الى احدى الدوارع فعاش بضعة ايام وتوفي فتحولت قيادة العمارة الى الجنرال هتشنسون

وفي ٢٥ مارس (اذار) جاءت الانكليز نجدة عثمانية تحت قيادة حسين قبطان باشا

فرأى الجنرال هتشنسون ان يبعث اربعة آلاف من الجنود العثمانية وفرقتين من الانكليز وثمانية مدافع تحت قيادة الكولونل سبنسر لاحتلال رشيد . فاتصل ذلك بالجنرال مينو فارسل اركان حربهِ لاستطلاع قوة

تلك التجريدة فقدرها اقلّ مما هي كثيرًا فاستخف مينو بها فلم ينجد رشيد·
اما الكولونل سبنسر فما زال سائرًا حتى اتى رشيد فدخلها بسلام ولما استقر
بها بعث الطبجية بمدافعهم لضرب حصن جوليان وفيهِ حامية من الفرنساويين
فضايقوا عليهم حتى سلموا فامَّنوهم ثم اخرجوهم من الحصن . فاتصل ذلك
بحامية الرحمانية فاستمدَّت الجنرال بليارد في القاهرة فاجاب معتذرًا بعدم
امكانهِ الاستغناء عمَّن لديهِ من الجنود فبعثت الى مينو في الاسكندرية
فامدَّها بما استطاع

فاصبحت الجيوش الفرنساوية بذلك اقسامًا متفرّقة لا تقوى على دفاع
فكان الجنرال بليارد بالقاهرة في خمسة آلاف رجل يتأهب لدفاع الجيوش
العثمانية القادمة عن طريق الصحراء تحت قيادة الصدر الاعظم يوسف باشا
وحامية الرحمانية لما بلغها سقوط رشيد خارت قواها . والجنرال مينو كان
محاصرًا في الاسكندرية لا يبدي حراكًا وقد ضايق عليهِ الانكليز بقطع
الجسر الفاصل بين الملاَّحة وبحيرة مريوط وزد على ذلك انهم قطعوا
المياه عن الاسكندرية فلم يبقَ عندهُ الاَّ مياه الصهاريج . اما الجنود
العثمانية والانكليزية فبعد ما احتلوا رشيد صعدوا في النيل في ٨ مايو (ايار)
حتى اتوا العطف فاستلموها ثم ساروا الى الرحمانية واستلموها ايضًا ففرَّت
الجنود الفرنساوية الى القاهرة واعلموا بليارد بما كان فامر بالتئام مجلس
حربي للمفاوضة بالدفاع دفاعًا نهائيًّا لان العدو قد تكاثر عليهم . هتشنسون
من الجهة الواحدة والصدر الاعظم يوسف باشا من الجهة الآخرى وكان
قد استولى على دمياط وسار قاصدًا القاهرة في ثلاثين الف مقاتل حتى عسكر
في بلبيس في ١١ مايو (ايار) . اما مراد بك فبعد محالفتهِ مع الفرنساويين
على ما تقدم بمدة توفي وتولى مكانهُ على الصعيد عثمان بك البرديسي فلما علم
هذا بقدوم العثمانيين والانكليز نقض المحالفة

فلما اجتمع المجلس الحربي تفاوضوا في جميع ذلك فرأوا ان جميع

الجيوش الفرنساوية الموجودة في القاهرة وفي جملتها حامية الرحمانية لا تزيد عن اثني عشر الفًا نصفهم جرحى ومرضى وليس لديهم من المال الاَّ شيء يسير . فلم يرَ بليارد لحل هذا المشكل الاَّ وجهين اما ان يسير بما لديهِ من الجند في النيل لملاقاة مينو فيتكاتف معهُ على الدفاع او ان يسير الى دمياط . فلم يكن يرى بدًّا على الحالين من اخلاء القاهرة ولكنهُ كان يفضل المسير الى دمياط لانها تصلح للحصار اذا طال . وفيها من المحصولات ما يقوم باحتياجات جيشهِ وهو في الحالين عالم بعجزهِ عن مناهضة عدوّهِ

ثم حدثتهُ نفسهُ ان يلاقي الجنود العثمانية والانكليزية جميعًا عند اقترابهم من القاهرة . فخرج في خمسة آلاف في ١٦ مايو (ايار) متمثلاً بكلابر وعسكر في الخانكاه فوصلت اليهِ مقدمة جيوش يوسف باشا فلم يستطع الوقوف امامها فعاد الى القاهرة

وفي ٢٢ منهُ وصل هتشنسون الى طرامة فقطع في ترعة منوف وسار بنفسهِ الى معسكر يوسف باشا وتفاوض معهُ في الطريقة التي يجب اتخاذها لاتمام مشروعهم فاقرُّوا على طريقة . ثم عاد هتشنسون الى طريقهِ وسار في رجالهِ على فرع النيل الغربي حتى اتى الجيزة في ٣٠ منهُ وواصل يوسف باشا سيرهُ من الجهة الاخرى فانحصر بليارد في القاهرة لا يستطيع حراكًا فعقد مجلسًا حربيًّا اقرَّ فيهِ على تسليم المدينة والانسحاب نحو الاسكندرية او دمياط فبعث الى معسكر الانكليز مندوبًا بشأْن ذلك وبعد المخابرة تقرر من الطرفين ان تنسحب الجيوش الفرنساوية الموجودة في القاهرة انسحابًا قانونيًّا بما لديهم من المهمات والاسلحة الى فرنسا وان يكون ذلك على نفقة الانكليز وكتب بذلك معاهدة امضيت في ٢٥ يونيو (حزيران) سنة ١٨٠١ وتثبَّتت في ٢٦ منهُ على ان تنفَّذ بعد ١٥ يومًا

ففي ١٠ يوليو (تموز) (٤ ربيع اول سنة ١٢١٦ ﻫ) بارح بليارد القاهرة ومعهُ ١٣٧٣٤ من العساكر والضباط قاصدين رشيد على ان يسافروا

منها الى فرنسا فانذهل هتشنسون لما اوتيهِ من الفوز العظيم وكاد لا يصدّق بهِ حتى ٧ اوغسطس (آب) عند ما علم بركوب الجيوش الفرنساوية قاصدين بلادهم

اما مينو فكان باقيًا في الاسكندرية ومعهُ عشرة آلاف مقاتل فتفاوض مع من كان باقيًا لديهِ من القواد فاصرُّوا على المخابرة وفي ٢ نوفمبر من تلك السنة عقدوا معاهدة الانسحاب وانسحبوا اثناء ذلك الشهر على مثل انسحاب بليارد وإذا تأملت ترى انها ومعاهدة العريش التي عقدت في ٢٤ يناير (ك ٢) سنة ١٨٠٠م شيءٌ واحد ولم تكن نتيجة ذلك التأخير الاَّ سفك الدماء

وكانت الحكومة الانكليزية قد امرت الجنرال برد ان يسير من الهند في ستة آلاف من الجنود الهندية المنظمة الى مصر امدادًا لابركرومبي في البرّ فجاء الى القصير على سواحل البحر الاحمر ومنها سار في الصحراء حتى اتى قنا ثم نزل الى القاهرة فوصلها بعد التوقيع على الانسحاب فنزل الى الاسكندرية وحضر انسحاب مينو وجماعتهِ

هذه هي الحملة الفرنساوية فتأمل كيف كانت نهايتها وكيف انها بعد صرف ثلاث سنوات ونيف كلها حروب ومقاومات عادت بخُفَّي حنين

من انسحاب الفرنساويين الى تولية محمد علي باشا

من سنة ١٢١٦ — ١٢٢٠ هـ او من ١٨٠١ — ١٨٠٥ م

فبعد انسحاب الفرنساويين استلم يوسف باشا الصدر الاعظم زمام الاحكام في القاهرة باسم جلالة السلطان بمساعدة الجنرال هتشنسون وكان حسين قبطان باشا اميرال العمارة العثمانية لا يزال في ابي قير والاسكندرية بعد سفر مينو . اما الانكليز فلم يكن غرضهم الاَّ تثبيت

سلطة الباب العالي والانسحاب فجعلوا معسكرهم في مصر القديمة . اما المماليك فكانوا لا يزالون يحاولون التسلط ولم تزل بقية منهم تحت قيادة اثنين من كبارهم وهما عثمان بك البرديسي ومحمد بك الالفي اما معسكرهم فكان في الجيزة

فاخذ القائدان العثمانيان يوسف باشا وحسين قبطان باشا يدبّران مكيدة تذهب بمن بقي من المماليك فاتفقا على ان يدعو قبطان باشا بعض امرائهم الى مكيدة يعدّها لهم في ابي قير وان يهجم يوسف باشا على من بقي منهم في الجيزة فيأتيان على اهلاكهم . فبعث قبطان باشا الى بعض امراء المماليك يدعوهم الى وليمة قال انهُ اعدّها لهم في معسكرهِ بابي قير وان غرضهُ من ذلك الاجتماع المفاوضة معهم فيما يجب اتخاذهُ من الوسائل لاصلاح حالة البلاد فاجابوا دعوتهُ وهم في ريبة من مقاصدهِ على انهم لم يكونوا يستطيعون رفض الدعوة خيفة ان يجعلوا للقوّتين العثمانية والانكليزية بابًا للارتياب بمقاصدهم . فلما وصلوا ابا قير ترحب بهم حسين باشا ودعاهم الى النزول معهُ في قاربهِ الخصوصي ليسيروا معًا الى القومندان الانكليزي على احدى الدوارع للمفاوضة معهُ ببعض الشؤون . فركبوا حتى صاروا على مسافة من البر فالتقوا بقارب آتٍ من جهة الدوارع قال مَن فيهِ ان لديهم تحارير باسم قبطان باشا ومخابرات اخرى مهمة فوثب القبطان عند ذلك الى القارب الآخر وامرهُ ان يسير فسار وبقي المماليك وحدهم فاوجسوا خيفةً ثم سمعوا اطلاق المدافع عليهم من قارب العثمانيين فتاكدوا انها مكيدة فحاولوا الرجوع الى البر ولم يصلوهُ حتى قتل عثمان بك الطنبورجي وثلاثة آخرون وجرح عثمان بك البرديسي واثنان آخران . وفي نحو ذلك الوقت ارسل يوسف باشا في القاهرة فرقة من رجالهِ يهاجمون المماليك في الجيزة فوثبوا عليهم واحرقوا بيوتهم فالتجأ كبارهم الى الانكليز فحموهم رغماً عن اصرار يوسف باشا على طلبهم

ثم انسحبت الجيوش الانكليزية من مصر بامر الاميرال كيت وبقيت

مصر يتنازعها الجنود العثمانية والمماليك . وكان يوسف باشا في القاهرة بمثابة نائب عن الباب العالي . ولما كان لا بد من تولية والٍ عثماني يقوم باعباء الولاية سعى يوسف باشا بمساعدة حسين قبطان باشا الى تولية خسرو باشا كخيا حسين قبطان باشا فكتبا بذلك الى الاستانة فاجاب الباب العالي طلبهما وبعث لهما الفرمان المؤذن بذلك

فتولى خسرو باشا على مصر في ١٢ جمادى الاولى سنة ١٢١٦ هـ ولم يكن بفصة لاستتباب الراحة الاّ ابادة من بقي من المماليك وكانوا مع ما المّ بهم منذ قدوم الفرنساويين لا يزالون قادرين على المقاومة نظرًا لمعرفتهم باحوال البلاد واحزابها وبعد وفاة مراد بك واعتزال ابراهيم بك عن الاعمال اصبحوا تحت قيادة عثمان بك البرديسي ومحمد بك الالفي كما تقدم وقد دانت لهم مصر العليا . فناهضهم خسرو باشا فلم ينجح ولم يكن اذ ذاك في سلطة الباب العالي الاّ القاهرة والاسكندرية وما بينهما . فلم يستطع خسرو باشا تحصيل ما يقوم بدفع مرتبات العساكر فثاروا في ٢ مايو سنة ١٨٠٢ م واحاطوا بالخزندار وحبسوهُ في بيتهِ . فامر خسرو باشا ان تطلق عليهم المدافع حتى علت الضوضاء واشتد الخصام فتداخل طاهر باشا اركان حرب خسرو باشا يريد صرف ذلك المشكل فلم يوافقهُ خسرو على قصدهِ واتّهمهُ باتحادهِ مع العصاة . فاغتاظ طاهر باشا واخذ جانب العصاة وامرهم ان يهدموا الاسوار فخاف الباشا ولم يرَ الاّ الفرار بحريمهِ وحاشيتهِ على ضفة النيل الشرقية نحو المنصورة . ثم سار منها الى دمياط وحاصر هناك . فاغتنم طاهر باشا تلك الفرصة وجمع اليهِ القضاة وارباب الديوان فاقروهُ على مصر بصفة قائمقام موقتًا ليثما ترد الارادة السنية بتولية من يتولى عوضًا من خسرو باشا

ففي ٢٥ مايو (ايار) سنة ١٨٠٢ م لاقى طاهر باشا من القوة العسكرية ما لاقاهُ خسرو باشا وذلك ان اثنين من الاغوات وهما موسى واسماعيل

تشكيا اليهِ من تأخر الرواتب فانتهرهم فاغلظوا لهُ فاشتد الخصام فجردا سيفيهما وقطعا رأسهُ ورمياهُ من الشباك وانتهى الخصام باحتراق السراية

فاصبحت مصر بغير والٍ يدبر اعمالها . وفي هذه الفرصة تأتى لذلك الرجل العظيم المغفور لهُ محمد علي باشا ارومة العائلة الخديوية اظهار ما اختص بهِ من البسالة والاقدام وما جعلهُ الله فيهِ من الفضائل التي قدّر لهُ ان يبثها في هذا القطر السعيد

الدولة المحمدية العلوية

ولاية محمد علي باشا

من سنة ١٢٢٠ ـ ١٢٦٤ هـ او من ١٨٠٥ ـ ١٨٤٨ م

ولد هذا الرجل العظيم في مدينة قواله[1] من اعمال الروملي سنة ١١٨٢ هـ (١٧٦٨ او ١٧٦٩ م) من ابٍ يدعى ابراهيم اغا وكان من ضباط تلك المدينة وفي عهدتهِ رئاسة غفر الشوارع . ويقال ان والدة الصبي رأت رؤية وهي حامل بهِ فاستفسرت المنسرون فبشّروها بعظم الذي هي حامل . ثم توفي ابراهيم آغا ومحمد علي لم يتجاوز الرابعة من عمرهِ ولم يبقَ لهُ الاَّ عمٌّ كان يدعى طوسون اغا متسلم قواله قتل بامر الباب العالي بعد ذلك بيسير فاصبح يتيمًا قاصرًا فرباهُ جربتجي براوسطا احد

(١) مدينة صغيرة واقعة في مكدونية غربي الروملي بقرب خليج قواله تجاورها مدينة فيلبي وهي على مسافة ١٢٨ كيلومتر للجهة الشمالية الشرقية من تسالونيكيا و ٣٢٠ من الاستانة . حسنة التجارة وفيها نحو من ٨٠٠٠ من السكان معظمهم من المسلمين *

اصدقاء والدهِ وجعلهُ بمنزلة اولادهِ . ولكن محمد علي كان يشعر بحالهِ من اليتم الذي يقود الى الذل وضعة النفس . ومما يروى عنهُ بعد ان ارتقى ذروة المجد انهُ كان يحدث اخصاءهُ عما قاساهُ في صبوتهِ من الذلّ الى ان يقول « ولد لابي سبعة عشر ولدًا لم يعش منهم سواي فكان يحبّني كثيرًا ولا تغفل عينهُ عن حراستي كيفما توجهت ثم توفاهُ الله فاصبحت يتيمًا قاصرًا وابدل عزّي بذل وكثيرًا ما كنت اسمع عشراي يكررون هذه العبارة التي لا انساها عمري وهي « ماذا عسى ان يكون مصير هذا الولد التعيس بعد ان فقد والديهِ » فكنت اذا سمعتهم يقولون ذلك اجعل نفسي غافلًا عنهُ ولكني كنت اشعر باحساس غريب يحركني الى النهوض من تحت هذا الذل فاجهد نفسي بكل عمل يمكني معاطاتهُ بهمة غريبة حتى كان يمرُّ عليَّ احيانًا يومان ساعيًا لا آكل ولا انام الاَّ شيئًا يسيرًا . ومن جملة ما قاسيت اني كنت مسافرًا على مركب فطلع النوُ فكسرهُ وكنت صغيرًا فتركني ارفاقي وطلعوا الى جزيرة هناك على قارب كان معنا اما انا فجعلت اجاهد بالماء وسعي تقذفني الامواج وتستقبلني الصخور حتى تجرحت يداي وكانتا لا تزالان ياتعتين وقد قدر لي الله و وصلت الجزيرة سالمًا وقد اصبحت هذه الجزيرة الآن قسمًا من مملكتي »

وكان في قواله عائلة فرنساوية من مرسيليا كبيرها يدعى الموسيو ليون وكان من الوجهاء واصحاب الثروة والمحبين للفضيلة واتفق لهُ انهُ عرف هذا الغلام فكان يظهر لهُ المحبة والحنو لما رأى فيهِ من الذكاء والنباهة الطبيعيتين وهذا اصل وثوق محمد علي بعد ذلك بالشعب الفرنساوي واستخدامهِ اياهُ في مصالح البلاد . ويقال ان محمد علي بعد ان استوى على ولاية مصر بعث الى الموسيو ليون سنة ١٢٣٥ هـ او ١٨٢٠ م يدعوهُ الى مصر ليصرف زمنًا في ضيافتهِ فاجاب دعوتهُ لكنهُ توفي في اليوم المعيّن لقدومهِ . فلما علم محمد علي بذلك اسف اسفًا شديدًا وبعث الى اخت الفقيد هدية

تساوي عشرة آلاف فرنك

فلما ترعرع محمد علي انتظم في سلك الجهادية واظهر على صغر سنهِ نباهة و بسالة عجيبتين وكان برسلة مربيهِ في مأموريات مهمة لجمع الضرائب ويعتمد عليهِ بامورٍ كثيرة حتى اذا بلغ الثامنة عشرة من العمر رقاهُ الى رتبة بلوك باشي وازوجهُ احدى قريباتهِ فولدت لهُ خمسة اولاد منهم ثلاثة ذكور وهم ابراهيم وطوسون واسماعيل . وكانت امرأة محمد علي على جانب من الثروة فتعاطى التجارة وعلى الخصوص في صنف الدخان لانهُ اكثر اصناف التجارة في بلادهِ وبرع فيها كثيرًا حتى انهُ مع قلة معارفهِ العلمية اكتسب شهرة عظيمة بين التجار

فلما كانت الحملة الفرنساوية ارسل الباب العالي يطلب من مكدونية نجدة عسكرية فوردت الاوامر الى جربتجي براوسطا ان يجمع ثلاث مئة مقاتل ففعل وجعل عليهم ابنهُ علي اغا قائدًا ومحمد علي مساعدًا . فسارت تلك الكتيبة المكدونية برفقة العمارة العثمانية تحت قيادة حسين قبطان باشا الى ابي قير وكان الفوز بتلك المحاربة للفرنساويين على ما مرَّ بك . فترك علي اغا كتيبتهُ بعد ان عهد قيادتها لمحمد علي وعاد الى بلادهِ فارتقى محمد علي الى رتبة بيكباشي . ثم كانت محاربة العمارة الانكليزية ونقدمها الى القاهرة في النيل والعساكر العثمانية تحت قيادة الصدر الاعظم في البر من جهة الشرق كما نقدم

فلما انسحبت الجيوش الفرنساوية ثم تبعتها الجيوش الانكليزية احتلّت مصر الجيوش العثمانية وكانت مؤلفة من اربعة آلاف من الالبانيين (الارناوط) الاشداء وكان المماليك لا يزالون يحاولون الاستقلال في الملك ولم يتقرّر لديهم اذا كانوا ينالون هذه البغية او ان مصر ستعود بعد الحملة الفرنساوية لتحت سلطة الباب العالي كما كانت قبلها . اما الباب العالي فكان يرغب ان تكون حكومة مصر بيد من يرسلهُ اليها من

وزراء الدولة فنهى عن اعطاء المماليك القوة العسكرية

وكان المماليك من الجهة الثانية منقسمين فيما بينهم تحت رئاسة اثنين من امرائهم كلٌّ منهما يحاول الاستقلال بنفسهِ كما قد علمت . فلما تولى محمد خسرو باشا على مصر كان مرفوقًا باوامر سرية مآلها ابادة كل من بقي في مصر من المماليك باي وسيلة كانت وكان مخلصًا للدولة وفيهِ عزيمة ونشاط الاَّ انهُ لم يحسن التصرف بما خوِّل لهُ بما يتعلق بالاوامر السرّية فضلاً عما كان بينهُ وبين محمد علي من المناظرة منذ بضع سنين . الاَّ ان هذا لم ينفك عن العمل حتى ارتقى في الجيش الى رتبة قبي بلوك باشي اي رئيس حرس السراي واخيرًا نال من محمد خسرو باشا رتبة سرششمه فاصبح قائدًا لثلاثة او اربعة آلاف من الالبانيين . فجعل من ذلك الحين يظهر ما كان كامنًا فيهِ من المواهب العظيمة فامتلك قلوب رجالهِ امتلاكًا غريبًا واكتسب ثقة كل من عرفهُ

فاتفق اثناء ذلك ان المماليك ثاروا على الدولة فانفذ اليهم خسرو باشا حملة من الجنود العثمانية لقهرهم وفي جملتها فرقة محمد علي . فقدَّر الله انقلاب جنود خسرو باشا قبل وصول رجال محمد علي الى الموقعة فرأى قائد تلك الحملة ان ينسب انكسار رجالهِ لتأخر محمد علي ورجالهِ في الطريق فقدَّم تقريرًا بهذا المعنى الى خسرو باشا فسرَّ بهذه الشكاية واقرَّ عليها لاول وهلة وحكم على محمد علي بالاعدام سرًّا تخلصًا منهُ فكتب اليهِ ان يقابلهُ في منتصف الليل للمخابرة معهُ بشؤون مهمة . فاوجس محمد علي خيانة من تلك الدعوة فاخذ يفكر فيماذا يفعل لينجو من هذه المكيدة مع علمهِ انهُ اذا امتنع عن الحضور يعدُّ عاصيًا فتكون البلية الثانية اشر من الاولى

واتفق اذ ذاك تمرد القوة العسكرية لتأخر مرتباتهم . ثم كان انهزام محمد خسرو باشا الى دمياط وتولية طاهر باشا . ثم قتل طاهر باشا كما

مرّ بكَ فنهض احمد باشا والي الشرطة يطلب ان يولوهِ على مصر بدلاً من محمد خسرو باشا وساعدهُ الانكشارية . وكان محمد علي قد ملك القلعة ومعهُ رجالهُ الارناوط وكانوا لا يريدون ولاية احمد باشا وإنما خافوا ان لا يستطيعوا مناهضتهُ . فلاح لمحمد علي ان يستجلب حزب المماليك اليهِ فكاتبهم الى الصعيد وجهات اخرى فاتوا المدينة وفيهم الاميران عثمان البرديسي وابراهيم بك وغيرهما فتعاهد معهم على اخراج احمد باشا من المدينة فكتب اليهِ ابراهيم بك ان يخرج من القاهرة حالاً واذا بقي فيها لبعد الساعة الحادية عشرة من ذلك النهار لا يلومنَّ الاَّ نفسهُ فخرج احمد باشا من المدينة رغماً عنهُ . ثم طهّروا القاهرة من الانكشارية والبشناق والسجمان ولم يبقَ فيها الاَّ المماليك ومحمد علي ومعهُ الارناوط . ثم اتفق محمد علي مع عثمان البرديسي على استئسار محمد خسرو باشا فسار عثمان الى دمياط وحاربهُ هناك حتى اسرهُ في ١٤ ربيع اول سنة ١٢١٨ ﻫ واتى بهِ الى القاهرة وسلمهُ لابراهيم بك في غاية ربيع اول منها . ثم نقل بعد ذلك الى القلعة

فلما وصلت هذه الحوادث الى الاستانة ارسل الباب العالي علي باشا الجزائرلي (الطرابلسي) ليقوم مقام خسرو باشا ويقتص من الجانبين فلم يصل القاهرة الاَّ بعد شق الانفس ولما جاءها علم بعدم استطاعتهِ القيام بهذه المهمة بالقوة فعمد الى المكيدة فعادت العائدة عليهِ فوقع في ايدي اعدائهِ فقتلوهُ فانتعش المماليك لهذا الانتصار

وفي خلال ذلك عاد رئيسهم الثاني محمد الالفي من انكلترا وكان قد ذهب اليها يطلب مساعدة دولتها فنزل في ابي قير فلما علم البرديسي بعودتهِ اوجس شرّاً خيفة ان يطلب مقاسمتهُ فيما نالهُ بسعيهِ . فاصبح كل منهما يترصد الآخر فكانت هذه الفرصة ثمينة لمحمد علي ونظراً لما كان لهُ من التسلط على افكار البرديسي جعل يثير فيهِ عوامل الحسد لزميلهِ الالفي

وما زال حتى حملهُ على الكيد بهِ . فاعد البرديسي مكيدة لزميلهِ الالفي الاَّ انهُ لم يتمكن من نوال مرغوبهِ لان الالفي فرَّ طالبًا الصعيد فخلا الجو للبرديسي فظن نفسهُ قد تخلص من مناظرٍ ولكنهُ لم يعلم ان هنالك مناظرًا اصعب مراسًا من ذاك . وذلك ان الالبانيين لما رأوا انقسام رؤسائهم بعضهم على بعض خافوا على حقوقهم من الضياع فقاموا بصوت واحد يطلبون مرتباتهم لمدة ثمانية اشهر واصروا انهم اذا لم ينالوا مطلوبهم يقلبون البلاد رأسًا على عقب فخاف البرديسي من ذلك واجابة لطلبهم ضرب على اهل القاهرة ضرائب فوق العادة ليدفع المبلغ المطلوب غير ان ذلك لم يكن الاَّ زيادة الطين بلة لان اهالي القاهرة انفسهم انفوا من تلك المعاملة فثاروا على الحكومة واتحدوا مع القوة العسكرية واضطهدوا البرديسي في سرايتهِ يريدون قتلهُ لكنهُ لحسن حظهِ تمكن من الفرار فترك القاهرة ولم يعد يدخلها فيما بعد وكان ذلك سنة ١٢١٩ ﻫ (سنة ١٨٠٤ م)

وكان الباب العالي عند ما بلغهُ استبداد البرديسي ورفاقهِ في الاهالي وضرب الضرائب الفاحشة معما سبق من قتلهم لعلي باشا الجزائرلي قد امر باعداد اسطول يأتي مصر في البحر . وبعث الى احمد باشا الجزَّار ان يسير بحملة في البر وان تتحد القوَّتان على اولئك المستبدين ويقتصوا منهم فلما بلغهُ خبر الثورة العسكرية وما آل اليهِ امر المماليك عدل عن عزمهِ اكتفاء بما حصل

وكان لمحمد علي باع طولى في كل هذه الحوادث . فلما فرَّ الاميران لم يعد في القاهرة سواه وكانت جميع القوة العسكرية والملكية يدًا واحدة معهُ فاستدعى اليهِ العلماء والمشائخ وتفاوض معهم بشأن اخلاء سبيل خسرو باشا وتوليتهِ على مصر وبعد المفاوضة اقروا على ذلك وبعد تنصيبهِ بيوم ونصف اقرُّوا على ارسالهِ الى رشيد تحت الحفظ ومنها يرسل الى الاستانة وهكذا فعلوا . فقد رأيت كيف تمكن محمد علي بحسن سياستهِ

وبعيد نظره في الامور من اضعاف سلطة الامراء المماليك ولولا ذلك لم يبلغ ما بلغهُ بما بلغهُ . فلما كانت هذه الاحوال في مصر وقد اصبحت بغير نائب عثماني يؤيد سلطة جلالة السلطان عليها صرّح ان مصر لا تمتثل الاَّ لحاكم عثماني يأتيها من لدن الباب العالي واشار بتولية خورشيد باشا حاكم الاسكندرية لهذا المنصب . فوافقهُ العلماء والفقهاء واعيان البلاد والاجناد وطلبوا اليهِ ان يكون هو عليهم بصفة قائمقام وارسلوا الى الباب العالي يخبرونهُ بهذا التعيين فاقر عليهِ . فاستدعوا خورشيد باشا من الاسكندرية واقاموهُ على القاهرة وجعلوا محمد علي قائمقامًا لهُ وذلك في ذي القعدة سنة ١٢١٨ ه (مارس (اذار) سنة ١٨٠٤ م) فورد الفرمان بتثبيت خورشيد باشا في ٢٣ محرَّم ونصهُ

« انا كنا صفحنا ورضينا عن الامراء المصرلية (المماليك) على موجب الشروط التي شرطناها عليهم بشفاعة علي باشا والصدر الاعظم فخانوا العهود ونقضوا الشروط وطغوا وبغوا وظلموا وقتلوا الحجاج وغدروا علي باشا المولى عليهم (يريد علي باشا الجزائرلي) وقتلوهُ ونهبوا اموالهُ ومتاعهُ فوجهنا عليهم العساكر في ثمانين مركبًا حربية وكذلك احمد باشا الجزّار بعساكر برية للانتقام منهم ومن العسكر الموالين لهم فورد الخبر بقيام العساكر عليهم ومحاربتهم لهم وقتلهم واخراجهم فعند ذلك رضينا عن العسكر لجبرهم ما وقع منهم من الخلل الاوّل وصفحنا عنهم صفحًا كليًّا واطلقنا لهم السفر والاقامة متى شاؤا وابنما ارادوا من غير حرج عليهم وولينا حضرة احمد باشا خورشيد كامل الديار المصرية لما علمنا فيهِ من حسن التدبير والسياسة ووفور العقل الخ »

ثم حصلت بعد ذلك مواقع كثيرة بين محمد علي والمماليك في اماكن مختلفة من القطر فاصبحوا بعد ما قاسوهُ من الحروب المتواترة مدة سنين لم يعودوا فيما كانوا عليهِ من النفوذ عن ذي قبل واصبحت قوتهم لا تزيد عن

خمسة او ستة الآف من الفرسان اما ماليتهم فكانت آخذة في الانحطاط .

وكانت العساكر مؤلفة من الالبانيين (الارناوط) وهؤلاء قضوا تحت قيادة محمد علي مدة طويلة وكانوا يحبونهُ ويعتبرونهُ فشقّ ذلك على خورشيد باشا وصار يخاف هؤلاء الالبانيين فاستقدم اليهِ جندًا من الدلاة (المغاربة) فوصلوا مصر في اول سنة ١٢٢٠ هـ وكان محمد علي يوم وصولهم في جهات الصعيد يحارب المماليك فبلغهُ ان احمد باشا خورشيد استقدم هؤلاء الدلاة يستعين بهم على الارناوط فعاد الى القاهرة برجالهِ مظهرًا طلب العلوفة ولولا ذلك لمنعهُ الدلاة من الدخول اليها اما خورشيد فاوجس خيفة من قدومهِ فجعل يراقب حركاتهِ . اما الدلاة فانتشروا في البلاد ينهبون ويقتلون ويصادرون الناس ويأخذون اموالهم فاشتكوا الى خورشيد باشا اولاً وثانيًا وثالثًا وهو يعدهم بكفّ هؤلاء ثم يخلف ولا تزيد الاحوال الّا اضطرابًا فشق ذلك خصوصًا على علماء البلاد ومشائخها وكرهوا خورشيد باشا كرهًا شديدًا وصاروا يتوقعون تخلصهم منهُ وعلم هو بذلك فلم يزدد الّا فجورًا

وفي ٢ صفر سنة ١٢٢٠ هـ ورد الخط الشريف بتولية محمد علي ولاية جدة فبعث اليهِ خورشيد باشا وقلدهُ الولاية والبسهُ الفروة والقاووق المختصين بهذه الرتبة فخرج يريد الركوب فثارت العساكر وطالبوهُ بالعلوفة فقال لهم هذا هو الباشا عندكم فطالبوهُ وسار قاصدًا بيتهُ بالازبكية وصار ينثر الذهب على الناس طول الطريق فازدادوا لهُ حبًّا واعتبارًا ولخورشيد باشا كرهًا واحتقارًا

وفي ٦ منهُ ملّ اهالي البلاد من معاملة خورشيد باشا فسار علماؤهم ومشائخهم وائمتهم ورؤساء الجند الى محمد علي وقالوا لهُ نحن لا نريد هذا الباشا حاكمًا علينا قال ومن تريدون اذًا قالوا لا نرضى الّا بك تكون واليًا علينا لما نتوسمهُ فيك من العدالة والخير فامتنع اولاً ثم رضي واحضروا لهُ

كركًا وعليه قفطان وقام اليه السيد عمر والشيخ الشرقاوي فالبساهُ ثم بعثوا الى خورشيد باشا بذلك فقال «اني مولّى من طرف السلطان فلا اعزل بامر الفلاحين ولا انزل من القلعة الاّ بامر من السلطنة» فحاصروهُ فيها وقد انحازت جميع القوات العسكرية من الارناوط والدلاة لمحمد علي الاّ قليلٌ . وكتبوا بالاشتراك مع العلماء والمشائخ الى الباب العالي يطلبون تنصيب محمد علي عليهم واصروا وما زالوا حتى صدرت الارادة السنية بفرمان يقلهُ القابجي باشي فوصل القاهرة في ١١ ربيع آخر سنة ١٢٢٠ ه‍ (٩ يوليو (تموز) سنة ١٨٠٥ م) فقرأوا الفرمانَ في بيت محمد علي بحضور كل الاعيان والمشائخ ومضمونهُ الخطاب لمحمد علي باشا والي جدة سابقًا ووالي مصر حالاً من ابتداء ٢٠ ربيع اول حيث رضي بذلك العلماء والرعية وان احمد خورشيد باشا معزول عن مصر وان يتوجّه الى الاسكندرية بالاعزاز والاكرام حتى يأتيه الامر بالتوجه الى بعض الولايات الاّ انهُ لم يخرج من القلعة الاّ في ١٥ جمادى الاولى من تلك السنة بعد ان جاءهُ مندوب مخصوص من الاستانة بشأن ذلك

وكان المماليك لا يزالون منتشرين في جهات القطر يحكمون ويستبدون . وكان الالفي مقيماً في الصعيد وقد التفّ حولهُ جمهور من المماليك وعندما علم بتولية محمد علي باشا نزل بفرسانهِ طالبًا خلعهُ وتخابر مع خورشيد باشا ليساعدهُ في غرضهِ وتعهد انهُ اذا فعل ذلك يعيد الاحكام ليدهِ ويكون بعد ذلك خاضعًا لاوامر الدولة العثمانية ضاربًا بسيفها هذا اذا كانت تخلع محمد علي باشا وخابر من الجهة الثانية دولة انكلترا ووعدها انها اذا عضدت مشروعهُ هذا يكون مستعدًا ان يسلمها ابواب القطر المصري حالاً . فعلم بذلك قنصل فرنسا فعرقل مسعاهُ فعكف الى مصالحة محمد علي باشا على شيء يرضى بهِ الاثنان فحصلت المخابرات فلم يتفقا فعاد الالفي الى مسعاهُ ثانيةً بواسطة سفير انكلترا في مصر

فطلب هذا الى الباب العالي بالنيابة عن دولتهِ ارجاع سلطة المماليك الى البلاد وتعهد بامانة الالفي وخضوعهِ لاوامر الدولة . فقبل الباب العالي بذلك فاصدر عفوًا عامًا عن المماليك باسم اميرهم الكبير الالفي فوصلهُ في غرة ربيع آخر سنة ١٢٢١ هـ . وفي ١٤ الشهر المذكور وصل القاهرة خبر قدوم عمارة عثمانية نقلت موسى باشا مرسلاً من قبل الباب العالي واليًا على مصر ومعهُ عدة من العساكر المنظمة على النظام الجديد وخطًا شريفًا الى محمد علي باشا ان ينتقل الى ولاية سلانيك وان يرجع المماليك المصرية الى مراكزهم في الامارات والاحكام فخاف محمد علي من حبوط المسعى فاخذ الامر بالحزم والحكمة فرأى ان احزاب المشائخ والعلماء جميعها معهُ وانضم اليهم بعض المماليك الذين كانوا في الاصل من الجيش الفرنساوي وبقوا في مصر بعد سفر الحملة لعدم امكانهم مرافقتها واعتنقوا الديانة الاسلامية وانضموا الى المماليك فاستكتبهم كتابًا الى الباب العالي يطلبون فيهِ استبقاء محمد علي باشا وارجاع موسى باشا ويبينون الاسباب الموجبة لذلك فكتبوهُ وامضوهُ وارسلوا منهُ نسخة الى الاستانة واخرى الى قبطان باشا قبطان العمارة التي اتت بموسى باشا فاجابهم القبطان ان ما قدموهُ من الاعذار غير مقبول ولا بد من خروج محمد علي باشا من مصر حالاً وكان لسفير فرنسا في الاستانة رغبة شديدة في بقاء محمد علي باشا على مصر لما علم من عزم الالفي على تسليم البلاد للدولة الانكليزية فسعى جهدهُ مع قبطان باشا الى بقاء محمد علي باشا . ثم علم قبطان باشا بعد ذلك ان المماليك لم ينفكوا منذ وجودهم في مصر عثرة في سبيل حقوق الدولة وانهم منقسمون فيما بينهم لا يتفقون على امر فرأى اصوبية طلب البلاد فكتب اليهم ان يعيدوا طلبهم وان يبعثوا الطلب مع ابن محمد علي باشا فكتبوهُ وارسلوهُ مع ابنهِ ابراهيم بك على يد قبطان باشا . وفي ٥ شعبان سنة ١٢٢١ بارحت العمارة العثمانية الاسكندرية وعليها قبطان باشا وموسى باشا

وابراهيم بك

وفي اواخر شعبان (نوفمبر (ت ٢) سنة ١٨٠٦ م) وردت الاوامر الشاهانية بتثبيت محمد علي باشا على ولاية مصر مع الايعاز اليهِ ان لا يتعرض للماليك بعد ذلك لصدور العفو عنهم قبلاً . وفي الشهر التالي مات عثمان البرديسي . وفي ١٩ ذي القعدة سنة ١٢٢١ هـ (يناير (ك ٢) سنة ١٨٠٧ م) توفي محمد الالفي وهما زعيما احزاب المماليك فولَّوا عليهم شاهين بك رئيساً الّا انهم مع ذلك لم تعد تقوم لهم قائمة وقد خلا الجو لمحمد علي باشا

ثم ان الحكومة الانكليزية اعتبرت تثبيت محمد علي مخلاً بنفوذها ومضرًّا بصوالحها فجردت حملة من ثمانية آلاف مقاتل تحت قيادة الجنرال فرازر لارجاع سلطة المماليك وكانوا قد تبعثروا في البلاد فوصل الانكليز الاسكندرية في ٩ محرم سنة ١٢٢٢ هـ (١٧ مارس (اذار) سنة ١٨٠٧ م) مظهرين حماية القطر من الفرنساوية فاستولوا على المدينة في ٢١ محرم وبقوا فيها ستة اشهر لا يستطيعون انتقالاً الى ما وراءها وكانوا قد ارسلوا فرقة منهم الى رشيد فمزَّقتها سيوف الارناوط كل ممزَّق . وفي يوم الخميس ٥ جمادى الآخرة سنة ١٢٢٢ هـ استقال السلطان مصطفى وسنُّهُ ٢٣ سنة فبويع السلطان محمود بن عبد الحميد (محمود الثاني)

وفي ١٢ رجب سنة ١٢٢٢ هـ (١٤ سبتمبر (ايلول) سنة ١٨٠٧ م) انسحبت الجيوش الانكليزية من الاسكندرية باتفاق صلح مع القطر فاستتبت القوة لمحمد علي باشا وقد رضي جلالة السلطان عنهُ ودخلت الاسكندرية في ولايتهِ ثم سعى بعضهم الى المصالحة بينهُ وبين المماليك فتمَّت بقدوم شاهين بك الى مصر بالهدايا الثمينة فاكرمهُ محمد علي وبنى لهُ قصرًا نفيسًا اسكناهُ في الجيزة ثم تبادلوا الزيارات وكل علائق المودَّة وهكذا فعل كل المماليك

فلما رسخت قدم محمد علي باشا في مصر اخذت في تسليم مصالح

حكومتهِ لمن يثق بهم من ذوي قرباهُ لانهُ كان من شديدي المحبة لعائلتهِ ولا شك ان ازره اشتد بهم . ثم نظر الى امر الاراضي ومكوسها فابطل مسموح المشائخ والفقهاء ومعافى البلاد التي التزموها لانهُ لما ابتدع المغارم والشهريات والفرض التي فرضها على القرى ومظالم الكشوفية جعل ذلك عامًّا على جميع الالتزامات والحصص التي بايدي جميع الناس حتى آكابر العسكر واصاغرهم ما عدا البلاد والحصص التي للمشائخ فانهُ اخرجها من ذلك فلا يوخذ منها نصف الفائظ ولا ثلثهُ ولا ربعهُ وكذلك من ينتسب لهم او يحتمي فيهم وكانوا يأخذون الجعالات والهدايا من اصحابها ومن فلاحيهم نظير صيانة حقوقهم . فآل ذلك الامتياز الى تطرف اولئك بانواع المعيشة وزيادة الترف فرأى محمد علي باشا ابطال ذلك الامتياز فابطلهُ رحمة بالرعية

ثم استفحل امر الوهابيين في شبه جزيرة العرب فارسل السلطان محمود خان يعهد الى محمد علي باشا امر اخضاعهم وتخليص البلاد من ايديهم

والوهابيون فئة من المسلمين ذهبوا الى اغفال كل الكتب الدينية الاسلامية الاَّ القرآن الشريف فهم بمنزلة الطائفة الانجيلية عند المسيحيين . زعيمها الاول يدعى محمد عبد الوهَّاب ولد سنة ١١١٠ هـ (سنة ١٦٩٦ م) ولما شبَّ تفقَّه وحج ثم اظهر دعوتهُ فالتفَّت عليهِ احزاب كثيرة فافتتح نجد فالحجاز فالحرمين وما زال ينفخ في بلاد العرب حتى توفي سنة ١٢٠٥ هـ (سنة ١٧٨٩ م) وسنُّهُ ٩٥ سنة فاستمرَّ احزابهُ في اعمالهم حتى سنة ١٢٢٤ هـ (سنة ١٨٠٩ م) تحت قيادة الامير سعود وقد اصبحت حدود مملكتهم من الشمال صحراء سوريا ومن الجنوب بحر العرب ومن الشرق خليج العجم ومن الغرب البحر الاحمر فنهبوا الكعبة وقد استفحل امرهم ولم يرَ الباب العالي بدًّا من تكليف بطل مصر على ما تقدم

فاجاب محمد علي باشا طائعًا وجعل يجمع القوات اللازمة لتلك

الحملة لكنهُ فكر في امر المماليك فخشي اذا سارت الحملة ان لا تكون البلاد في مأمنٍ منهم فيجمعون كلمتهم ويعودون الى ما كانوا عليهِ من القلاقل فعمد الى اهلاكهم قبل مسير الحملة لكنهُ في الوقت نفسهِ عمل على اعداد مواد الحملة فامر بتجنيد اربعة الآف مقاتل تحت قيادة ابنهِ طوسون باشا ثم طلب الى الباب العالي ان يبعث الى السويس بالاخشاب لبناء المراكب اللازمة لنقل الجند ومعدات الحرب فارسل لهُ ما طلب فابتنى ثمانية عشر مركبًا واعدَّها عند السويس في انتظار الحملة . اما المماليك فكانوا قد يئسوا من الاستقلال بالاحكام لما راوا ما حلَّ بسلفائهم وما عليهِ محمد علي باشا من العزيمة فكفوا عن مطامعهم واكتفوا بالتمتع بارزاقهم وممتلكاتهم في حالة سلمية فقطن بعضهم الصعيد وبعضهم القاهرة وتشتتوا في انحاء القطر . وكان شاهين بك وهو الذي تولى رئاستهم بعد وفاة الالفي قد اذعن لمحمد علي باشا كما تقدم فاقطعهُ ارضًا بين الجيزة وبني سويف والفيوم فآوى اليها . وفي محرم سنة ١٢٢٦ ه (فبراير (شباط) سنة ١٨١١م) سار قواد الحملة من القاهرة وعسكروا في قبة العزب في الصحراء ينتظرون باقي الحملة ومعها طوسون باشا . وتعيَّن يوم الجمعة لوداع طوسون والاحتفال بخروجهِ ورجالهِ الى قبة العزب فأُعلن ذلك في المدينة ودعي كل الاعيان لحضور ذلك الاحتفال في الوقت المعين وفي جملتهم المماليك وطُلب اليهم ان يكونوا بالملابس الرسمية

ففي يوم الجمعة في ٥ صفر سنة ١٢٢٦ ه (اول مارس (اذار) سنة ١٨١١ م) احتشد الناس الى القلعة وجاء شاهين بك في رجالهِ فاستقبلهم الباشا في سرايتهِ بكل ترحاب ثم قدمت لهم القهوة وغيرها ولما تكامل الجمع وجاءَت الساعة امر محمد علي بالمسير فسار الموكب وكلٌّ في مكانهِ منهُ جاعلين المماليك الى الوراء يكتنفهم الفرسان والمشاة حتى اذا اقتربوا من باب العزب من ابواب القلعة في مضيقٍ بين هذا الباب والحوش العالي

امر محمد علي فانغلقت الابواب واشار الى الالبانيين (الارناوط) فهجموا على المماليك بغتة فانذعر اولئك وحاولوا الفرار تسلقاً على الصخور ولكنهم لم يفوزوا لان الالبانيين كانوا اكثر تعوداً على تسلقها . واقتحم المشاةُ المماليكَ من ورائهم بالرصاص فطلب المماليك الفرار بخيولهم من طرق اخرى فلم يستطيعوا لصعوبة المسلك على الخيول ولما ضويق عليهم ترجّل بعضهم وفرّوا ساعين على اقدامهم والسيوف في ايديهم فتداركهم الجنود بالبنادق من الشبابيك فقتل شاهين بك امام ديوان صلاح الدين وحاول بعضهم الالتجاء الى الحريم او الى طوسون باشا بدون فائدة . ثم نودي في المدينة ان كل من يظفر باحد المماليك في اي محل كان ياتي بهِ الى كخيا بك فكانوا يقبضون عليهم ويأتون بهم اليهِ افواجاً وهو يقتلهم

وكان عدد المماليك المدعوين الى الوليمة اربعماية فلم ينجُ منهم الاّ اثنان احدهم احمد بك زوج عديلة هانم بنت ابراهيم بك الكبير كان غائباً بناحية بوش والثاني امين بك كان قد اتى الى القلعة متأخراً فرأى الموكب سائراً نحو باب العزب فوقف خارج الباب ينتظر خروج الموكب . ثم لما قفلت الابواب بغتة وسمع طلق النار علم المكيدة فهمز جوادهُ وطلب الصحراء قاصداً سوريا . والمتبادر على الالسنة ان امين بك هذا كان داخل القلعة فعند ما حصلت المعركة همز جوادهُ فوثب بهِ من فوق السور لجهة الميدان فقتل جوادهُ وسلم هو والاقرب للحقيقة ان هذه الاشاعة مختلقة او مبالغ فيها . ثم نودي في الاسواق ان شاهين بك زعيم المماليك قد قتل فخافت الناس ثم طافت العساكر في المدينة ينهبون بيوت المماليك وياخذون حريمهم وجواريهم وعلا الصياح

وفي اليوم التالي نزل الباشا وابنهُ من القلعة وطافا المدينة فامر الباشا بايقاف النهب وقتل كل من حاول ذلك ولكنهُ حرّض على قبض من يظفرون بهِ من المماليك في سائر انحاء القطر فكانوا يأتون بهم افواجاً

يسوقونهم كالغنم الى الذبح فبلغ عدد من قتل من البكوات ٣٢ بيكًا . وفي اليوم التالي نزل طوسون باشا الى الاسواق في فرقة من الجند لتسكين القلوب وإيقاف النهب . اما الجثث التي كانت في القلعة فاحتفروا لها حفرًا جعلوا فوقها التراب وصرح محمد علي باشا بحماية جميع نساء المماليك ولم يسمح بتزويجهنَّ الّا لرجاله

ولما استتبت الراحة وخلت البلاد من المماليك انعكف محمد علي الى المهام الاخرى واخصها الوهابيون فكتب الى غالب شريف مكة يخبرهُ باستعدادهِ الى حملة تنقذهُ من فئة الوهابيين فتفتح طريق الحرمين لجميع المسلمين وطلب اليهِ ان يمهد لهُ السبيل فاجابهُ شاكرًا ووعد بالمساعدة .

اما سعود امير الوهابيين فانبأتهُ الجواسيس بما نواهُ محمد علي فامر فاجتمع حولهُ خمسة عشر الفًا ليدفع بهم جنود مصر . اما محمد علي فسير حملة من ثمانية الآف مقاتل تحت قيادة طوسون باشا فركبت البحر من السويس حتى اتت جنبو على الساحل الشرقي للبحر الاحمر ومنها يتصل الى المدينة . فتملكوا جنبو وساروا منها الى صفر وفيها معسكر الوهابيين وقد تأهبوا للدفاع فهجم طوسون باشا فتقهقر سعود ورجالهُ اولًا ثم ارتدوا على الجيوش المصرية فانهزموا تاركين كل مؤنهم وزخائرهم وجمالهم وعادوا الى جنبو . فأُنبئ محمد علي باشا بذلك فجنَّد جندًا كبيرًا وبعث بهِ مددًا لابنهِ فاشتد ازر طوسون وجمع اليهِ القوتين وسار حتى اتى المدينة فاطلق عليها النار فهدم بعض السور ثم دخلها واثخن في حاميتها حتى سلمت فكف السيف عنها . فانتشر خبر افتتاح المدينة في سائر الحجاز فخاف الوهابيون وفرح اعداؤهم ولا سيما الشريف غالب . وقد كان في جدة لا يدري ماذا يكون من امر تلك الحملة فلما علم بانتصارها كاد يطير من الفرح . واخلى الوهابيون مكة خوفًا من اهلها فجاءها طوسون واحتلها وكتب الى ابيهِ ففرح فرحًا لا مزيد عليهِ لما اتاهُ الله من النصر على يد ابنهِ نصرًا لم يتأتَّ

لغيره من القواد العثمانيين وجيء اليهِ بقائد حامية المدينة من الوهابيين فارسلهُ في غفر الى الاستانة فقتلوهُ حال وصولهِ اليها . اما من بقي من دعاة الوهابيين فكانوا لا يزالون في مأمن خارج مكة تحت قيادة كبيرهم سعود

فلما جاء صيف سنة ١٨١٢ (سنة ١٢٢٨ هـ) علموا ان جنود طوسون لا يحتملون حر تلك البلاد وانهم اذا ناهضوهم اذ ذاك يتغلبون عليهم فجندوا وساروا الى طراباي شرقي مكة فحاربوها واستولوا عليها ثم ساروا الى المدينة وتهددوها بعد ان استولوا على كل ما بين هاتين المدينتين من القرى والمدن فاتصل الخبر بمحمد علي فلم يرَ بدًّا من ذهابهِ بنفسهِ لنصرة الجنود المصرية وقد اصبحت مصر في مأمن من المماليك وغيرهم فسار في جند عظيم حتى اتى جدة فنزلها في ٣٠ شعبان سنة ١٢٢٨ هـ (٢٨ اوغسطس (آب) سنة ١٨١٢ م) فلاقاهُ الشيخ غالب شريف مكة وترحب بهِ وبعد ان ادى فروض الحج رأى ان الشريف غالب ليس ممن يعتمد عليهم في الدفاع فعمد الى خلعهِ بطريقة تضمن حقن الدماء ففاز ثم وضع يدهُ على ممتلكاتهِ وبعث بهِ وبعائلتهِ الى القاهرة ومنها الى سالونيك فعاش فيها اربع سنوات ومات . اما الوهابيون فمات قائدهم سعود في دراية في ٢٦ ربيع آخر سنة ١٢٢٩ هـ (١٧ افريل (نيسان) سنة ١٨١٤ م) فانحطت سطوتهم فاقاموا عليهم ابنهُ عبدالله ولم يكن كفوءًا لرعاية الجند . وحصلت بينهُ وبين الجنود المصرية مناوشات كثيرة لم تأتِ بنتيجة . وفي ٢٨ محرم سنة ١٢٣٠ هـ (١٠ يناير (ك ٢) سنة ١٨١٥ م) حصلت موقعة كبيرة بين جنود محمد علي والوهابيين تحت قيادة فيصل اخي عبدالله شفت عن انتصار المصريين فتقدم طوسون الى نجد . الا انهُ اضطر اخيرًا الى التوقف لقلة المؤن وهو لم يبلغ دراية

ثم اقتضت الاحوال عود محمد علي الى مصر فعاد وقد فتح طريق الحرمين ولكنهُ لم يبِد جميع الوهابيين فوصل القاهرة في ٤ رجب

سنة ١٢٣٠ هـ (يوليو (حزيران) سنة ١٨١٥ م) فاهتم بتدريب الجند على نظام جند اوربا وكان اوّل من فعل ذلك في مصر فاصدر امرًا عاليًا في شعبان سنة ١٢٣٠هـ (يوليو (تموز) سنة ١٨١٥ م) مؤداهُ ان الجنود المصرية ستدرَّب على النظام الحديث وهو النظام الفرنساوي الذي كان متبعًا اذ ذاك في سائر اوربا فعظم على الجهادية ولا سيما الارناوط الامتثال الى هذه الاوامر لانهم اعتبروها بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار . ولما اصرَّ عليهم الَّا ان يتبعوها ثاروا وتجمهروا الى القلعة يطلبون الرفق بهم وانفاذهم من الجور فرأى من الدراية والحزم ان يعاملهم بالحسنى فاجابهم الى ما ارادوا على نية ان يدخل هذا النظام اولًا بين الجنود الوطنية لانهم اقرب الى الطاعة من هولاء الالبانيين ومن كان على شاكلتهم

وفي اثناء ذلك عاد طوسون باشا من الحجاز الى القاهرة فخرج الناس لملاقاتهِ بالاحتفال والاكرام ثم نزل الى الاسكندرية حيث كان ابوهُ مقيمًا فوجد امرأتهُ قد وضعت اثناء غيابهِ غلامًا زكيًّا دعتهُ عباسًا . وبعد يسير اصيب طوسون بألم شديد في رأسهِ لم يعش بعدهُ الَّا بضع ساعات . وكان محمد علي باشا قد توجه الى القاهرة . ولما اتصل بهِ الخبر كان على ضفة النيل الغربية بجوار اهرام الجيزة . فقالوا لهُ ان طوسون مريض فاسرع الى الاسكندرية لمشاهدتهِ فلما دنا من المكان علم بوفاتهِ فوقف مبغوتًا لا يبدي حراكًا وبقي على مثل تلك الحال ثلاثة ايام متوالية ونقلت جثة طوسون باشا الى القاهرة ودُفنت قرب مسجد الامام الشافعي وراء جبل المقطَّم حيث مدفن العائلة الخديوية اليوم

وبعد قليل عاد محمد علي الى روعهِ فاخذ يهتم بامر الوهابيين خشية ان يعودوا الى ما كانوا عليهِ فكتب الى عبدالله بن سعود ان يأتي اليهِ بالاموال التي استخرجها الوهابيون من الكعبة وان يتأهب متى قدم ليسير الى الاستانة . فاجابهُ يعتذر عن عدم امكانهِ الشخوص وقال ان تلك

الاموال قد تفرقت على عهد ابيهِ وارسل لهُ هدايا فاخرة فارجع اليهِ محمد علي تلك الهدايا واوسعهُ تهديدًا . ثم جرَّد اليهِ حملة عهد قيادتها الى ابنهِ ابراهيم باشا (جد سمو الخديوي الحالي) وكان باسلاً شجاعًا مقدامًا لا يهاب الموت شديد الغضب سريعهُ ولكنهُ كان سليم القلب حرّ الضمير ولذلك كانت احكامهُ عادلة صارمة . وفي ١٠ شوال سنة ١٢٣١ ﻫ (٣ سبتمبر (ايلول) سنة ١٨١٦ م) سار ابراهيم باشا بحملتهِ من القاهرة في النيل الى قنا ومنها في الصحراء الى القصير على شواطئ البحر الاحمر ومنها بحرًا الى جمبو ثم الى المدينة وتربّص هناك بجميع قواتهِ يستعد الى هجوم شديد امتثالاً لمشورة ابيهِ . فالتفَّ حولهُ عصبة جديدة من القبائل المحاربة ولما تكاملت قوّاتهُ اقام الحرب سجالاً وما زال بين هجوم ودفاع حتى فاز وقبض على زعيم الوهابيين عبدالله فارسلهُ الى ابيهِ فوصل القاهرة في ١٨ محرَّم سنة ١٢٣٤ ﻫ (١٧ نوفمبر (ت ٢) سنة ١٨١٨ م) فأُذن لهُ بالمثول بين يدي الباشا وتقبيل يدهِ فترحب بهِ كثيرًا لانهُ كان يعجب من جسارة الوهابيين ثم سألهُ ما ظنهُ بابراهيم فاجابهُ قائلاً «انهُ قد قام بواجباتهِ ونحن قمنا بواجباتنا وهكذا اراد الله» . وفي ٢٠ محرَّم أُرسل الى الاستانة فطافوا بهِ في اسواقها ثلاثة ايام ثم قتلوهُ . وخلع جلالة السلطان على ابراهيم باشا خلعة شرف مكافأةً لهُ وسماهُ واليًا على مكة . فاتصلت هذه الاخبار بدراية فخاف اهلها فهدموا المدينة وفرُّوا من وجه الموت فاحتلتها الجنود الظافرة . اما محمد علي باشا فانهُ نال من انعام امير المؤمنين لقب خان مكافأة لاخلاصهِ وبسالتهِ وهو لقب لم يُمنح لاحد من وزراء الدولة الّا حاكم القرم

ولما انهى هذا الرجل الخطير محارباتهِ في بلاد العرب فكر في افتتاح السودان على امل ان يصادف فيها الكنوز الثمينة من معادن الذهب بجوار البحر الازرق ناهيك عما هنالك من المحصولات والواردات العجيبة من الصمغ والريش والعاج والرقيق وغير ذلك . فجنَّد خمسة آلاف من

الجند النظامي وبعض العربان وثمانية مدافع وجعل الجميع تحت قيادة اسماعيل باشا احد اولادهِ فسارت الحملة من القاهرة في شعبان سنة ١٢٣٥ (يونيو (حزيران) سنة ١٨٢٠م) في النيل فقطعت الشلال الاول فالثاني فالثالث حتى السادس فاتت شندي والمتمة وقد اخضعت كل ما مرَّت بهِ من القرى والبلدان بدون مقاومة . ومن شندي سارت الى سنَّار على البحر الازرق وراء الخرطوم . ولم يكن من القبائل التي يعتدُّ بها هناك الاَّ الشائقية فقاوموا قليلاً ثم سلموا ودخلت سنار عاصمة كردوفان في املاك مصر فسار اسماعيل باشا في جنودهِ الى فزقل وهناك ظن انهُ اكتشف معادن الذهب . ثم فشا في رجالهِ الوباء فمات منهم كثيرون ثم انهُ نجدة من ثلاثة آلاف رجل تحت قيادة صهرهِ احمد بك الدفتردار فاشتد ازرهُ فاقام صهرهُ هذا على كردوفان وسار في جيش الى المتمة على البر الغربي من النيل ثم عبر الى شندي في البر الشرقي لجباية المال وجمع الرجال فاستدعى اليهِ ملكها واسمهُ نمر وقال لهُ « اريد منك ان تأتي اليَّ قبل خمسة ايام بملء قاربي هذا من الذهب والذين من العساكر » فجعل ذلك الملك يستعطف اسماعيل باشا ليتنازل عن ذلك القدر فقبل منهُ اخيرًا عوضًا عن الذهب مبلغ عشرين الف ريال من الفضة فاجابهُ الى ما اراد ولكنهُ لم يكن يستطيع جمعها في تلك المدة فطلب اليهِ تطويل الاجل فضربهُ اسماعيل بالشبق (الغليون) على وجههِ قائلاً « لا . ان كنت لا تدفع المبلغ فورًا ليس لك غير الخازوق جزاء » فسكت نمر وقد اضمر لهُ الشرّ وصمم على الانتقام فطيَّب خاطرهُ ووعدهُ باتمام ما يريد وفي تلك الليلة جعل يرسل من التبن الجاف احمالاً الى معسكر اسماعيل باشا علفًا للجمال وانما جعلهُ حول المعسكر كانهُ يريد اشعالهُ . وفي المساء اتى الى اسماعيل في سرب من الاهالي ينفخون بالمزمار ويرقصون رقصة خاصة بهم فطرب اسماعيل وضباطهُ لذلك ثم اخذ عدد المتفرجين من الوطنيين يتزايد شيئًا فشيئًا حتى اصبح

كل اهل المدينة هناك . فلما تكامل العدد امرهم ملكهم نمر بالهجوم فهجموا بغتةً على اسماعيل ورجالهِ ثم داروا بالنيران على التبن فاشعلوهُ فمات اسماعيل باشا وكثيرًا ممن كان معهُ بين قتل وحرق . وفي اليوم التالي اتموا على الباقين وساقوا سلبهم الى المدينة

فاتصل الخبر باحمد بك الدفتردار فاشتعل غيظًا واقسم انهُ لا يقبل اقل من عشرين الف رأس انتقامًا لاسماعيل فنزل بجيشهِ القليل وحارب الملك نمر وتغلب عليهِ ولم ينفك حتى انفذ قسمهُ فقتل ذلك العدد من الرجال متفننًا في طرق قتلهم على اساليب مختلفة فهدأَت الاحوال بعد ذلك وهكذا تم افتتاح السودان . وما زال احمد بك على حكومة سنار وكردوفان الى سنة ١٢٤٠ ه (سنة ١٨٢٤ م) ثم ابدل برستم بك

اما محمد علي باشا فعاد الى ما كان فيهِ من تدريب الجند على النظام الحديث وكانت قد تمهدت لهُ السبل فاسس مدرسة عسكرية في الخانكاه كانت تعلّم فيها اللغات والحركات العسكرية وجعل سراية مراد بك في الجيزة مدرسة للفرسان واقام فيها اساتذة من الافرنج . وانشأَ مدرسة للطبجية وجعل في القاهرة معامل لسكب المدافع ولاصطناع جميع حاجيات الجند تحت مناظرة عملة من الافرنج . والفضل في ادخال النظام الجديد في الجيش المصري لاحد رجال الفرنساويين اسمهُ الحقيقي «ساف» لكنهُ لم يذعن لهُ الجند حتى اسلم ودعى نفسهُ سليمان باشا . ثم عكف محمد علي الى تنشيط الخارجية بحرًا فوجه انتباههُ الى ثغر الاسكندرية . وجعل فيهِ ترسخانة اتى اليها بالسفن والدوارع من مرسيليا وفينيسيا ثم اقام فيها مدرسة اتى اليها بالاساتذة الماهرين من فرنسا وانكلترا وبنى حول الاسكندرية حصنًا منيعًا قد هدم الآن القسم الاعظم منهُ توسيعًا لمساحة المدينة

ثم حوّل انتباههُ الى محصولات البلاد فرأَى ارضها خصبة وقد علم ممن عالجها في الازمنة الخالية انها كثيرة النتاج فجاء اليها بالقطن من

البذار (التقاوي) الاميركاني وجاء بنبات النيلة من جهات الهند وجاء بمن يحسن زرعهُ منهم ومثل ذلك فعل بالافيون فانهُ اتى بهِ وبمن يزرعهُ من اسيا الصغرى . ثم اكثر من غرس الاشجار الكبيرة الى ما يشبهُ الاحراش تلطيفاً لحرارة الهواء واستزادة للغيث . وغرس في جزيرة الروضة بين القاهرة والاهرام حديقة فيها انواع الاشجار والرياحين اتى بها من اقصاء العالم وغرس مغارس الليمون في شوبرا

ومن اعمالهِ من هذا القبيل غرس حديقة الازبكية وقد كانت اثناء الحملة الفرنساوية بركة من الماء كبيرة تنصل اليها مياه النيل ايام الفيضان وكان الناس يأتون اليها في المواسم والاعياد في قوارب عليها الانوار المتعددة الالوان ومعهم آلات الطرب . فاحتفر محمد علي حولها ترعة تنصرف اليها المياهُ فظهرت ارض البركة فجعل حول هذه الترعة صفوفاً من الاشجار تحيط ببقعة كلها غرس طيب . فلما كانت ولاية محمد سعيد باشا اصبحت هذه الحديقة مجموع قهاوي ومحلات لهو على النسق الاوربي حتى اذا كانت ولاية اسماعيل باشا الخديوي السابق احيطت بسور عليهِ شبك حديد بعد ان ردمت الترعة وجعل في وسط الحديقة بركة يأتيها الماء بقناة متصلة بترعة الاسماعيلية ولا يزال هذا شأنها الى اليوم

وبعد ان اكثر محصولات البلاد اخذ في تمهيد سبل التجارة فنظر في امر انشاء مينا امينة تأوي اليها السفن التجارية فلم تعجبهُ رشيد ولا دمياط لخشونة مرساها فاختار الاسكندرية فاحتفر الترعة الموصلة بينها وبين النيل ودعاها المحمودية نسبة الى السلطان محمود الثاني . وكان افتتاح تلك الترعة في ٤ ربيع ثاني سنة ١٢٣٥ هـ (٣٠ يناير (ك ١) سنة ١٨٢٠ م) وكانت كثيرة الاستعمال لنقل البضائع الواردة بحرًا الى الداخل فاكتسبت الاسكندرية بذلك اهمية كبرى فتقاطر اليها التجار من اماكن مختلفة من اوربا وغيرها واقيمت فيها البنايات الكبيرة على النمط

الافرنجي ووجدت فيها الفنادق والنزل للغرباء والمسافرين . واصلح مرفا بولاق . ثم عاد الى الصناعة فرأى ان ينشئ معامل لمعالجة القطن والنيلة وغيرها من محصولات البلاد فانشأ معامل كثيرة في اماكن مختلفة لم ينجح منها الأ معمل الطرابيش الحمراء التونسية لكثرة طلاب هذه البضاعة في الشرق عموماً اما حبوط باقي المعامل فلعدم وجود معادن الفحم والحديد في القطر

ثم جاء الى الاصلاحات الصحية وقد كانت البلاد في غاية الاحتياج اليها لانتشار التدجيل والتطبيب بالكتابة والحجابة وما شاكل . والفضل في ايجاد المدارس الطبية والمستشفيات في القطر المصري للدكتور كلوت (ثم صار بعد ذلك كلوت بك واليهِ ينسب شارع كلوت بك في القاهرة) فانهُ ادى من الخدامات ما استوجب عليهِ ثناء محمد علي وحبهُ فقد تاسست بمساعي هذا الدكتور مستشفيات عديدة في سائر القطر المصري وانشئت مدرسة طبية وصيدلية مع مستشفى في ابي زعبل وراء الخانكاه ومدرسة اخرى في فن القوابل في القاهرة . واجاز محمد علي باشا لسوريا ان ترسل من ابنائها عدداً معلوماً يتعلمون الطب مجاناً . ثم اهتمَّ بالحالة العلمية فشكل مجلساً للمعارف العمومية وقصد بهِ تعليم خدمة الحكومة الملكيين والجهاديين ما يؤهلهم للقيام بمهام اعمالهم . وفتح مدارس كثيرة لتعليم شبان القطر وكان يرسل بعضاً منهم الى اوربا لتتميم دروسهم على مثال الارساليات العلمية في هذه الايام

وقسم القطر المصري الى اقاليم او مديريات جعل على كلٍ منها مديرا وقسم المديرية الى اقسام على الواحد منها مأمور مع بعض القوة العسكرية او الشرطة لمساعدتهِ في جمع الضرائب (الفردة) وكانوا يستخدمون الكرباج في تحصيلها . ومما اتاهُ من الاصلاح الداخلي تنظيم الضابطة فأمن الناس من غائلات السبل ولا سيما الاوربيون فانهم كانوا يقاسون اثناء تجولهم في القطر اهانات ومشاقاً شديدة اما بعد تنظيم الضابطة فاصبحت

السبل في مأمن وتسهلت الصلات التجارية وعلى الخصوص بين انكلترا والهند عن طريق البحر الاحمر فاستعاضوا بها عن طريق رأس الرجاء الصالح في امورٍ كثيرة

ومن مشروعاتهِ الخطيرة القناطر الخيرية على رأس الدلتا وتفصيل ذلك ان محمد علي باشا رأى ان النيل اذا وصل الى رأس الدلتا ينفصل الى فرعين هما فرعا رشيد ودمياط او الفرع الغربي والفرع الشرقي فالغربي يصب عند رشيد وهو اكبرهما ويمرُّ في اراضٍ معظمها لا يصلح للزراعة فيذهب معظم مياههِ هدرًا والشرقي بالعكس فانهُ يخترق اراض واسعة الارجاء حسنة التربة . فاذا كانت ايام التحاريق لا يعود هناك مياه كافية للري فارتأى ان يتخذ وسيلة يتيسر لهُ بها الانتفاع بما يزيد من مياه الفرع الغربي باضافتهِ الى الشرقي ورأى ايضًا ان النيل اذا كانت ايام فيضانهِ يذهب جانب عظيم من مائهِ هدرًا فاذا كانت ايام التحاريق تحتاج الارض الى الري ولا سيما في الصعيد على ان ارض الصعيد لا ترتوي كلها الّا اذا كان الفيضان وافيًا . فاقر على ابتناء قناطر على عرض الفرعين عند اوّل تكونهما في رأس الدلتا وان يجعل لهذه القناطر ابوابًا من الحديد تغلق وتفتح عند الاقتضاء بحيث يمكنهُ سد القناطر وفتحها متى اراد فاذا سدَّ قناطر الفرع الواحد وفتح قناطر الآخر انصرفت المياه الى الفرع المفتوح . وبهذه الواسطة يمكنهُ صرف المياه الى حيث شاء واذا كان الفيضان غير وافٍ تسد القناطر كلها فترتفع المياه في الصعيد وتسقي اراضيهِ ثم لا يصرف منها الّا ما يلزم لري الوجه البحري . فاذا كانت ايام التحاريق تفتح القناطر فتفيض الماء والارض في احتياج اليها . فاقرَّ رأيهُ على مباشرة العمل فوضع الحجر الاول لتلك القناطر سنة ١٢٥١ ه (سنة ١٨٣٥ م) ودعيت القناطر الخيرية او البراج وهي الآن تامة البناء . غير ان ذلك المشروع لم يأتِ بالفائدة المطلوبة تمامًا لان الماء

في الصعيد لم يرتفع الى القدر المطلوب فضلاً عن ان البناء لم يكن متيناً كاللازم فاهتمت نظارة الاشغال مؤخراً في سدّ هذا الخلل . ومن آثاره ايضاً مطبعة بولاق الاميرية وقد زاد فيها من جاء بعده من الولاة وهي لا تزال الى الآن عامرة عاملة تزيد تحسناً كل يوم وتنفق عليها الحكومة المصرية الآن ٢٢٤٠٠ جنيهاً وهي تابعة لنظارة المالية

ولما اتم محمد علي تلك الاصلاحات العمومية فكر في امر راحته الخصوصية فابتنى القصور والسرايات لاقامته في القاهرة والاسكندرية وشاد لهُ بيتاً في القلعة لسكناه في فصل الشتاء . وانشأ جنائن في شوبرا بجوار القاهرة للنزهة وابتنى في الاسكندرية ابنية للمصيف

وقد باشر محمد علي باشا هذه الاصلاحات واتمها والمشاغل السياسية تنتابهُ من كل ناحية وتتخلل مشروعاته فكان لا يلبث ان يباشر عملاً حتى يحدث من القلاقل او المشاغل ما يستدعي اهتمامهُ فيهتم بهِ حتى يصرفهُ فيعود الى مشروعاته كل ذلك مما يدلنا دلالة صريحة على عزيمة ونشاط هذا الرجل العظيم

وفي سنة ١٢٣٩ هـ وسنة ١٨٢٥ م ارسل محمد علي باشا بامر الباب العالي حملة مصرية تحت قيادة ابنهِ ابراهيم باشا لمحاربة المورا فسار وحارب وعاد ظافراً بعد ان بذل في سبيل ذلك عشرين مليون فرنك وثلاثين الف مقاتل . ثم ثارت حكام سوريا على الباب العالي وفي جملتهم عبدالله باشا حاكم عكا فجرَّد محمد علي باشا سنة ١٢٤٧ هـ (سنة ١٨٣١ م) حملة في البر والبحر فارسل البيادة والطبجية عن طريق العريش براً وسار ابراهيم باشا في بطانتهِ بحراً . اما حملة البرّ فاستولت على غزة ويافا بغير شديد مقاومة ثم وصل ابراهيم باشا الى يافا وسار في جيشهِ الى عكا فوصلها في ٢١ جمادى الاولى سنة ١٢٤٧ هـ (٢٦ نوفمبر (ت ٢) سنة ١٨٣١ م) فحاصرها براً وبحراً الى ٢٦ ذي القعدة منها (٢٧ مايو (ايار) سنة ١٨٣٢ م)

فهجم عليها هجمة نهائية شنّت عن تسليمها . ثم سار قاصدًا دمشق فاخضعها ولم تدافع الاّ يسيرًا وبارحها الى حمص حيث كانت تنتظرهُ الجنود العثمانية تحت قيادة محمد باشا والي طرابلس فوصلها في ٩ ربيع اول سنة ١٢٤٨ ه (٨ يوليو (تموز) سنة ١٨٣٢ م) فعسكر فهجم عليهِ محمد باشا وبعد الاخذ والرد استولى ابراهيم باشا على حمص فخافت سوريا سطوة هذا القائد العظيم فسلمت لهُ حلب وغيرها من مدن سوريا . فتغير وجه المسأَلة باعتبار الباب العالي فبعث حسين باشا السرعسكر بجيش عثماني لايقاف ابراهيم باشا عند حدّهِ فجاء وعسكر في اسكندرونة فلاقاهُ ابراهيم باشا وحاربهُ وانتصر عليهِ ولم يعد يلاقي بعد ذلك مقاومات تستحق الذكر . ثم تقدم في اسيا الصغرى تاركًا طورس وراءهُ . وكان الباب العالي قد ارسل رشيد باشا في جيش لملاقاتهِ فجدّ ابراهيم باشا جدًّا كبيرًا من البلاد التي افتتحها وسار نحو الاستانة لملاقاة رشيد باشا فالتقى الجيشان في دسمبر (ك ١) سنة ١٨٣٢ م في كونيه جنوبي اسيا الصغرى فتقهقر رشيد باشا برجالهِ واخترق ابراهيم باشا اسيا الصغرى حتى تهدّد الاستانة

فداخلت الدول وفي مقدمتهنَّ الدولة الروسية وانفذت الى مصر البرنس موارافيف لمخاطبة محمد علي باشا بذلك وتهديدهِ فبعث الى ابراهيم باشا ان يتوقف عن المسير . ثم عقدت بمساعي الدول معاهدة من مقتضاها ان تكون سوريا قسماً من مملكة مصر وابراهيم باشا حاكماً عليها وجابيًا لخراج ادنه وقد تم ذلك الوفاق في ٢٤ ذي القعدة سنة ١١٤٨ ه (١٤ مايو (ايار) سنة ١٨٣٣ م) وهو المدعو وفاق كوتاهيا . فعاد ابراهيم باشا الى سوريا واهتم بتدبير احكامها وجعل مقامهُ في انطاكية وابتنى فيها سراية وقشلاقات وولى اسمعيل بك على حلب واحمد منكلي باشا على اذنه وطرسوس اما الاجرآآت العسكرية فلم يكن يسوغ لاحد

ان يتداخل فيها الأمو

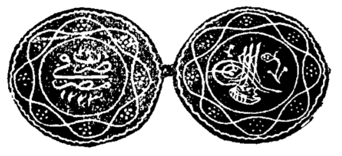
وكان ابراهيم باشا سائرًا بالاحكام بكل دراية وحكمة خشية سوء العقبى الاّ انهُ مع ذلك لم ينجُ من ثورة ظهرت في نواحي السلط والكرك في اواخر سنة ١٢٤٩ هـ (منتصف سنة ١٨٣٤ م) وامتدت الى اورشليم وبعد الاخذ والرد اضطرّ ابراهيم الى المحاصرة في اورشليم لانها ذات اسوار منيعة ثم امتدّت الثورة الى السامرة وجبال نابلس

وفي ١٦ يونيو «حزيران» منها هجم المسلمون على صفد وفيها جماهير من اليهود فهدموا منازلهم وقتلوا رجالهم وفتكوا بنسائهم واصبحت تلك المدينة في حوزتهم ثم اجروا مثل هذه التعديات على المسيحيين في الناصرة وبيت لحم واورشليم ولكنهم لم يتمكنوا مما تمكنوهُ بصفد ويقال بالجملة ان سوريا صبحت بسبب ذلك شعلة ثوروية فاتصل الخبر بمحمد علي باشا فبارح الاسكندرية الى يافا فتقربت منهُ وجهاء البلاد وسراتها ثم عمدت الجيوش المصرية الى قمع الثائرين فتشتت العصاة الاّ النابلسيون فانهم قاوموا طويلاً لكنهم اذعنوا اخيرًا ثم هاجم المصريون السلط والكرك وهدموها وبعد قليل عادت الثورة الى جبال النصيرية فاعترض اهلها فرقة من الجند كانت سائرة من اللادقية الى حلب واعادوها الى حيث اتت . فارسل المصريون سبعة آلاف مقاتل اتحدوا بثمانية آلاف من الدروز والمارونيين تحت قيادة الامير خليل بن الامير بشير امير لبنان وسار الجميع الى النصيرية واخضعوهم ثم سعى ابراهيم باشا الى تجريد السوريين من السلاح خوفًا من عودهم الى الثورة ففعل لكنهُ لم يستطع تجريد اللبنانيين . وكان الامير بشير وابراهيم باشا على وفاق تام وكانهما خلقا ليتحدا ولا يخفى ان ابراهيم باشا قد استفاد من ذلك الاتحاد وكذلك الامير بشير لانهُ كان آخذًا جانب المسيحيين لاعتناقهِ الديانة المسيحية حديثًا . وكان يودُّ اتحادهُ مع يؤمن يد سلطتهُ ويساعدهُ على اعدائهِ الدروز

وبعد ان اتم ابراهيم باشا جمع سلاح السوريين بمساعدة الامير بشير جاء الى بعلبك فوصلها في ١٨ جمادى الآخرة سنة ١٢٥٢ ه (٣ اكتوبر (ت ١) سنة ١٨٣٦ م) وفي تلك الليلة اعد رجالة لمهاجمة الشوف في لبنان (مركز قوات الدروز) في ثلاث فرق وجاءت فرقة رابعة من بيروت تحت قيادة سليمان باشا لمحاصرة بيت الدين فوصل الجميع في وقت واحد . فاندهل الدروز لهذه المباغتة واضطروا الى التسليم . وثار اهالي المتن ثم سلموا . وفي ٢٤ جمادى الآخرة او ٩ اكتوبر (ت ١) اتم ابراهيم تجريد الدروز من سلاحهم وارسل الامير بشير بعض الضابطة الى بيوت المسيحيين وهم في الكنيسة فدخلوها واخذوا ما وجدوا فيها من الاسلحة وحملوا كل ما جمعوهُ منها الى عكا وكانوا يصطنعون منها نعالاً لخيولهم . فاستتبت الراحة في سوريا واذعنت البلاد حتى اصبحت اطوع من الظل الاَّ ان محمد علي باشا لم يقف عند هذا الحد فاحب استخدامها لتوسيع دائرة حكمهِ فجعل يجمع منها الرجال والخيل بطرق زجرية فشق ذلك على الباب العالي فعقد مجلساً في ١٥ ذي القعدة سنة ١٢٥٢ ه (٢٢ يناير (ك ٢) سنة ١٨٣٩ م) للنظر في مقاصد المصريين فاقر المجلس على تجريد حملة من ثمانين الف مقاتل منهم ٣٥ الفاً من الباشبوزق طبقاً لارادة جلالة السلطان محمود خان وان تكون تحت قيادة حافظ باشا وان تسير لمحاربة المصريين

وكان محمد علي باشا قد سار الى السودان تاركاً القاهرة تحت عناية حفيدهِ عباس باشا فلما عاد اليها اول سنة ١٢٥٤ ه علم باعدادات الباب العالي فانذعر لها فكتب الى ابنهِ يستحثهُ فاخذ ابراهيم في الاستعداد للدفاع فحشد جيوشهُ في حلب لدفع الجنود العثمانية القادمة براً . ثم علم ان معظم الاهالي راغبون في دولتهم الاصلية ومستعدون للتسليم وعلى الخصوص الدروز تحت قيادة شبلي العريان احد ابطالهم المعدودين . فحصلت

مواقع شديدة بين الجيوش العثمانية والجيوش المصرية في نزيب انتهت بانهزام الاولى الى مرعش . واتفق في اثناء ذلك وفاة ساكن الجنان السلطان محمود خان في ٢٦ ربيع آخر سنة ١٢٥٤ ه او ٣٠ يونيو (حزيران) سنة ١٨٣٩ م قبل بلوغهِ خبر المواقع فتولَّى الخلافة السلطان عبد المجيد



وترى في شكل ٨٩ صورة نقود السلطان محمود الثاني مضروبة في مصر وعليها من

ش ٨٩ نقود السلطان محمود الثاني

الاسفل تاريخ سنة ١٢٢٣ ه وهي سنة توليتهِ ومن الاعلى تاريخ ٢٣ اي السنة الثالثة والعشرين من حكمهِ فتكون هذه القطعة من المعاملة مضروبة سنة ١٢٤٦ ه . وعليها من الوجه الآخر الطغراء باسم السلطان المشار اليهِ

وكان السلطان محمود قد ارسل عمارة بحرية لمحاربة المصريين فجاءت الاسكندرية فاصابها ما اصاب الحملة البرية

ثم توالت الحوادث الى ٤ جمادى الاولى سنة ١٢٥٥ ه او ١٥ يوليو (تموز) سنة ١٨٤٠ م فانعقدت معاهدة لندرا قاضية باعتبار محمد علي باشا من تابعي الدولة العثمانية . الَّا ان ذلك لم يكن ليوقفهُ عن مقاصدهِ ولديهِ اذ ذاك نحو ١٤٦ الفًا من الجنود النظامية و ٣٢ الفًا من الباشبوزق منها ١٢٠ تحت قيادة ابنهِ ابراهيم في سوريا والباقون متفرقون في الحجاز وسنار وجزيرة كندي ومصر لكنهُ علم بعد ذلك ان هذه القوات قليلة في جانب ما يلزمهُ لاتمام مشروعاتهِ فجعل يضم اليها كل تلامذة المدارس حتى استخدم المرضى والجرحى . ثم عمد الى انشاء عسكر وطني احتياطًا ولكنهُ لم ينجح بهِ كل النجاح على انهُ مع ذلك لما عرضت عليهِ معاهدة لندرا لم

يصادق عليها فعرُض عليهِ ان يأخذ ولاية عكا ترضية لهُ ويضمها الى مصر وينسحب من سوريا فرفض ايضًا

وبعد ذلك بيسير جاءت الجيوش الانكليزية الى صيدا وفرَّ ابراهيم الى الجبل . وكان الكومودور نابير قد سار في عمارة بحرية انكليزية لمحاصرة بيروت وكانت تحت قيادة سليمان باشا وقد حصَّنها تحصينًا منيعًا ومعهُ فرقتان من الجند وانما لسوء الحظ جاءتهُ الانباء ان ابراهيم قتل وتشتت رجالهُ فخاف سليمان ورأى ان لا بد لهُ من تأكيد حقيقة ذلك الخبر حتى اذا تحقق موت ابراهيم يضم اليهِ ما بقي من الجيوش للمدافعة فبارح بيروت بعد ان جعل عليها صادق بك احد اميرالايات الفرقتين اما هذا فلما رأى نفسهُ منفردًا في بيروت خاف فترك المدينة وفرَّ فاستولى عليها الانكليز ثم اتصل بهِ من سليمان ان ابراهيم باشا لا يزال حيًّا ويأمرهُ بالثبات امام العدو ريثما يحضر فخاف صادق بك الوقوع في شر اعمالهِ فانضم الى الانكليز هو ورجالهُ . ثم سار نابير من بيروت الى عكا وحاصرها ففر اسماعيل بك ومن فيها من الرجال وسلمت المدينة

ثم سار الى الاسكندرية بست سفن وعرض على محمد علي باشا الصلح فقبل وعقدوا معاهدة وقَّع عليها الطرفان وعند ما ارادوا تثبيتها مانعت الدول في ذلك وبقيت الاشياء على حالها حتى دارت المخابرات بين الباب العالي ومحمد علي باشا فاراد جلالة السلطان مكافأة محمد علي فاعطاهُ ان تكون ولاية مصر وراثية لنسلهِ بشرط ان يكون لجلالة السلطان الحق المطلق ان يختار من عائلة محمد علي من يريد لتوليتها فتردد محمد علي في بادئ الرأي . ثم امر جيوشهُ ان تنسحب من سوريا وكان عددها عند ذهابها اليها مائة وثلاثين الفًا فلم يرجع منها الا خمسون الفًا وقد اخذ التعب منهم مأخذًا عظيمًا فلم يرَ بدًّا من قبول انعام جلالة السلطان . فبعث الى الباب العالي بذلك فارسل اليهِ خطًّا شريفًا

بتاريخ ٢١ ذي الحجة سنة ١٢٥٦ هـ او ١٢ فبراير « شباط » سنة ١٨٤١م بتثبيتهِ على مصر مع حقوق الوراثة لاعقابهِ وان يكون لجلالة السلطان ان يختار منهم من يريد لهذا المنصب وغير ذلك . ثم صدر فرمان آخر يثبت ولايتهُ على نوبيا ودارفور وكردوفان وسنار فاصبحت حكومتهُ بعد ذينك الفرمانين محصورة في مصر والسودان . وبمقتضى الخط الشريف تنازل محمد علي باشا عن عشرة آلاف من جنود سوريا فلم يبقَ عندهُ الاَّ ثمانية عشر الفًا بين مشاة وفرسان وغيرهم فاضطر اذ ذاك الى الاقتصاد لاصلاح مالية البلاد فاوقف كثيرًا من المدارس العمومية التي كان قد خصص مبالغ معلومة للنفقة عليها ومن ضمنها مدرسة شوبرا الزراعية وابدل الاساتذة الاورباويين لما بقي من المدارس باساتذة اتراك او وطنيين وسار من ذلك الحين في خطة الاصلاح قانعًا بما قسم لهُ من البلدان فعمل على ارضاء جلالة السلطان فانفذ الى جلالتهِ ابنهُ سعيد باشا لتقديم واجب العبودية

فعادت العلاقات الودية واستتبت الراحة وقد انف محمد علي من الحروب وانعكف الى استرجاع ثروة البلاد ورغدها فاهتم بالزراعة على نوع خاص ولما رأى ان الفلاح لا يستطيع من نفسهِ امرًا كافلاً اخراجه مما هو فيهِ من الضيق ورأى انهُ لم يعد من حاجة لبقاء ضباط الجهادية منقطعين الى وظائفهم العسكرية مع بقاء رواتبهم جارية عليهم في حالة السلم وان ليس من التدبير والحكمة ان يتناولوا معيناتهم وهم عطل من الاعمال ورأى من الجهة الثانية ان الفلاح يحتاج الى مرشد يهديهِ الى الطرق اللازمة لاستقامة امره ووازع يدفعهُ الى النهوض بواجباتهِ وعلم ايضًا ان المرء مهما كان صادقًا في خدمة الحكومة يشتغل لنفسهِ اكثر مما يشتغل لغيرهِ ارتأى ان يعهد بامر البلاد الى اولئك الامراء مفوضًا لهم تعميرها واصلاحها بانفسهم ففعل ولم يحرم الفلاح مع ذلك من ثمرة اتعابهِ

بل جعل لهذه الطريقة التي اعتمدها اصولاً وقوانين تقضي بان لا تعطى الاطيان للمتعهد ما دامت رائجة ومقتدرة على اداء ما عليها من الاموال في اوقاتها . اما الاطيان غير الرائجة فتحال الى عهدتهِ باختيار اربابها وهو يتعهد باداء المال المطلوب للحكومة وبهذه الواسطة نشطت الزراعة وتحسَّنت تحسُّناً عظيماً وما زالت الاراضي المصرية في يد المتعهدين الى ايام المغفور لهُ عباس باشا وهو الذي استردها من المتعهدين واعادها الى اربابها . وفي جمادى الآخرة سنة ١٢٥٧ ه او سبتمبر « ايلول » سنة ١٨٤٢ م انعم جلالة السلطان على محمد علي باشا برتبة صدر اعظم مكافأة لمثل هذه الاجراآت النافعة

واصيبت مصر هذه السنة بضربات وبائية في مواشيها وفي السنة التالية سطا عليها الجراد فاهلك مزروعاتها فتصايقت البلاد حتى كثرت مهاجرة الناس سنة ١٢٥٩ ه او ١٨٤٤ م لتعذر دفع الرسوم المطلوبة منهم والحاح الحكومة في طلبها بكل واسطة وكانوا اذا خلت قرية من اهلها اضافوا رسومها على القرية التي بجانبها فكثر اللغط في البلاد . كل ذلك من سوء تصرف العمال ومحمد علي باشا غير عالم بشيء لانهم لم يكونوا يطلعونهُ على حقيقة الامر خوفاً من تاثير الغضب عليهِ لانهُ كان قد طعن في السن وملَّ معاطاة الاحكام . فرأى ابنهُ ابراهيم باشا ان اخفاء تلك الاحوال عن ابيهِ ربما يأول الى خراب البلاد فاخذ على نفسهِ القيام بتبليغ ذلك اليهِ فكلَّف شقيقتهُ في ٢٥ يونيو ان تبلغ اباها بطريقة غير رسمية ما وصلت اليهِ البلاد من العسر وما نتج عن ذلك من التشكيات والتظلمات المتواترة . فاشتعل محمد علي غيظاً وحمل هذا البلاغ على مكيدة اعدُّوها لهُ فبارح سرايتهُ في الاسكندرية وسار تواً الى قرية صهرهِ محرم بك بجانب الترعة المحمودية وجعل يغلظ في القول على مسمع ممن كان حاضراً هناك مصرحاً انهُ محاط بقوم خائنين ولذلك فهو مستعد للتخلي عن الحكومة

والذهاب الى مكة . فحاول ابناه ابراهيم باشا وسعيد باشا مخاطبتهُ واستعطافهُ فلم يصغ فجاء سامي باشا وكان من اعز اصدقائهِ وخاطبهُ فلم يقتنع الاَّ بما سبق اليهِ فهمهُ وان ذالك لم يحصل الاَّ عن يد خائنة تدس السم في الدسم فاستنتج الحضور من تلك الاعمال انهُ أُصيب بتغيير في عقلهِ . ثم ترك محمد علي القرية وسار في بعض حاشيتهِ وطبيبهِ قاصدًا القاهرة فتحدَّث الناس في الاسكندرية وعرضوا على ابنهِ ابراهيم باشا ان يتولى مكانهُ فاجاب انهُ لا يقبل ذالك طالما كان ابوهُ حيًّا

ولما جاء محمد علي القاهرة كان قد عاد الى روعهِ وفطن لنفسهِ فجمع اليهِ رجال ماليتهِ ووبَّخهم لاخفائهم تظلمات الاهالي عنهُ ثم تداخل ابراهيم باشا في الامر وصرف المشكل . وكان على ديوان المالية شريف باشا حاكم سوريا سابقًا وعلى ديوان المدارس ادهم بك

وفي صيف سنة ١٨٤٥ م (١٢٦٠ ه) اصيب ابراهيم باشا بانحراف في صحتهِ فسار الى اوربا ترويحًا للنفس فاصاب ترحابًا عظيمًا في سائر الممالك الاوربية ولا سيما فرنسا وانكلترا وعاد الى مصر في اواخر صيف سنة ١٨٤٦ م (١٢٦١ ه) وكان والدهُ قد توجه قبل وصولهِ بيسير الى الاستانة بدعوة رسمية ليقدم عبوديتهُ لجلالة السلطان فوصلها في ١٩ يوليو (تموز) سنة ١٨٤٦ م (١٢٦٢ ه) ونزل في سراي رضا باشا ثم تشرف بالمثول بين يدي امير المؤمنين فترحب بهِ ولما اراد تقبيل الاعتاب الشاهانية امسكهُ واجلسهُ بجانبهِ ومكث معهُ ساعة يتحادثان ثم انصرف شاكرًا وزار عدوَّهُ القديم خسرو باشا وتصافيا . وفي ١٧ اوغسطس من تلك السنة بارح الاستانة قاصدًا قواله مسقط رأسهِ فاقام فيها عدة ابنية لتعليم الفقراء واعانة الضعفاء والمساكين ثم بارحها الى الاسكندرية فتوصل بالانوار وسار منها الى القاهرة فتقاطر اليهِ المهنئون من الاصدقاء افواجًا فكان يستقبلهم وعلى صدرهِ الطغراء الشاهانية تتلألأ كالشمس

ولاية ابراهيم باشا بن محمد علي

وفي منتصف سنة ١٢٦٤ هـ (سنة ١٨٤٨ م) توعك مزاج محمد علي باشا وازدادت فيهِ ظواهر الخرف فلم يعد ثم بدٌّ من تولية ابراهيم باشا فتوجه هذا الى الاستانة في اوغسطس من تلك السنة لاجل تثبيتهِ على ولاية مصر خلفًا لابيهِ فثبّتهُ السلطان بنفسهِ فعاد لمعاطاة الاحكام وكان مهيبًا اكثر مما كان محبوبًا بخلاف والدهِ الذي كان مهيبًا ومحبوبًا معًا . ثم راجعهُ العياء واشتد عليهِ بغتةً ففارق هذا العالم في ١٠ نوفمبر «ت ٢» سنة ١٨٤٨ م وبعد وفاتهِ باحدى عشر ساعة دفن في مدفن العائلة الخديوية بجوار الامام الشافعي جنوبي القاهرة

وكان عباس باشا غائبًا في مكة فاستُقدم حالًا لاستلام زمام الاحكام فوصل القاهرة في ٢٤ دسمبر بعد ان قضى فروض الحج وبما انهُ اكبر ابناء العائلة لم يكن ثم اعتراض على توليتهِ فجاء الفرمان الشاهاني من الاستانة مؤذنًا بذلك فتولَّى الامور

كل ذلك ومحمد علي باشا في الاسكندرية وقد اخذ منهُ العياء ماخذًا عظيمًا وما زال يهزل جسدًا وعقلًا حتى ٢ اوغسطس «آب» سنة ١٨٤٩ م فتوفي ولم يستغرب الناس ذلك لانهُ مكث في حالة النزاع مدة طويلة . وفي ٣ منهُ تقاطر الناس من الاعيان والفاضل الى سراي راس التين في الاسكندرية لحضور مشهد ذلك الرجل العظيم فاذا بهِ في قاعة الاستقبال موضوعًا في محمل تغطيهِ شيلان الكشمير وعلى صدرهِ سيفهُ والقرآن الكريم وعلى رأسهِ طربوشهُ الجهادي احمر تونسي وحولهُ ٢٢ من العلماء في الملابس الرسمية يتلون القرآن بانغام محزنة . وكان سعيد باشا اكبر من وجد في الاسكندرية من عائلة الفقيد فكانت توجه نحوهُ خطابات التعزية .

ثم نقلهُ سعيد باشا الى القاهرة ودفنهُ في جامعهِ في القلعة ولم يكن الجامع تام البناء بعد ولا يزال هناك الى هذه الغاية

« صفات محمد علي باشا الشخصيَّة في آخر ايَّامهِ »

كان محمد علي متوسط القامة عالي الجبهة اصلعها بارز القوس الحاجبي اسود العينين غائرهما صغير الفم باسمهُ كبير الانف متناسب الملامح مع هيبة ووداعة . ابيض اللحية كثيفها مع استدارة وسعة جميل اليدين منتصب القامة جميل الهيئة ثابت الخطوات منتظمها سريع الحركة . اذا مشى يجعل يديهِ متصالبتين وراء ظهرهِ غالبًا وعلى الخصوص اذا مشى في دارهِ متفكرًا في امر « وكذلك كان يفعل بونابرت » . وقلما كان يتفاخر باللباس فكان لباسهُ غالبًا على زيّ المماليك وعلى رأسهِ الطربوش الجهادي ثم ابدلهُ بالعمامة فرادتهُ هيبةً ووقارًا وابدل اللباس العسكري بلباس واسع بسيط لا يمتاز بهِ عن بعض اتباعهِ

وكان يكره التفاخر بالحاشية فلم يكن على بابهِ الَّا رجل واحد يخفرهُ . واذا استوى في مجلسهِ لا يتقلد السلاح انما يجلس وفي يدهِ حقة العاطوس والمسبحة يتلاهى بها وكان يحب العاب البليارد والداما ولا يأنف من مجالسة صغار الضباط واما جلساؤهُ العاديُّون فالقناصل وكبار السواح وكانوا يحبونهُ ويعتبرونهُ جدًا ويلقبونهُ احيانًا بمبيد المماليك او مصلح الديار المصرية . وكان سليم القلب سريع التأثر لا يعرف الكظم فكثيرًا ما كان ينقاد بدسائس المفسدين وكان كريم النفس سخي العطاء وفي بعض الاحوال مسرفًا . وكان يتفاخر بعصاميَّتهِ ويرتاح للتكلم عن سابق حياتهِ . وكان محبًّا للاطلاع ولا سيما على الاخبار السياسية وكان يعتبر الجرائد وتأثيرها في الهيئة الاجتماعية فكانوا يترجمونها لهُ فيطالعها بتمعن

اما هواجسهُ السياسية فكانت تقلق راحتهُ فلا ينام الَّا يسيرًا وقلما يرتاح في نومهِ ولا ينفك متقلبًا من جانب الى آخر فكان يجعل عند فراشهِ

اثنين من خدمتهِ يتناوبان اليقظة لتغطيتهِ اذا انكشف عنهُ الغطاء من التقلب . ويقال ان من جملة دواعي ارقهِ الشهقة المرتجفة التي كانت تتردد اليهِ كثيرًا وكان قد اصيب بها في حملتهِ على الوهابيين على اثر رعب شديد . على ان ذلك الأرق لم يكن ليضعف شيئًا من سرعة حركتهِ فكان يستيقظ نحو الساعة الرابعة من الصباح ويقضي نهارهُ في المشاغل المختلفة بين مفاوضة مع ذوي شوراه او مراقبة استعراضات العساكر واستطلاع امور اخرى تتعلق بصوالح الامة . وكان بارعًا في الحساب بغير تعلم لانهُ شرع بتعلم القراءة والكتابة وهو في الخامسة والاربعين من عمره ويقال انهُ ابتدأ بتعلم احرف الهجاء على احد خدمة حريمهِ والكتابة على احد المشائخ وهذا مما يزيده شرفًا وفخرًا ويبرهن على ما فطر عليهِ من قوة الادراك والحذاقة والمقدرة على المهام السياسية . وكان صارم المعاملة مع لين ورقَّة وحسن الاسلوب . وكان متمسكًا بالاسلام مع احترام التعاليم الاخرى ولا سيما التعاليم المسيحية فكان يقرّب اصحابها منهُ ويعهد اليهم اهمّ اعمالهِ

ويقال بالاجمال انهُ كان لرعيتهِ ابًا حنونًا وصديقًا مخلصًا ولذوي قرباهُ نصيرًا مسعفًا ولاولادهُ ابًا حقيقيًّا ولذلك تراهُ بعد ان اصيب بفقد اكثرهم غلب عليهِ الحزن حتى اثر في صحتهِ تأثيرًا رافقهُ الى اللحد . اما حبّهُ للرعية فلا يحتاج الى دليل فهذه الديار المصرية عمومًا اذا قصرت السنة اهلها عن تعداد فضائلهِ ينطق جمادها بمزيد فضلهِ هذه الترع والجسور والبابايات والشوارع والجنائن هذه المطابع والمدارس هذه النظامات الجهادية والملكية والقضائية هذه الزراعة والفلاحة هذه شبه جزيرة العرب تردد ما لاقتهُ من نجدتهِ . وقد كان معتبرًا ليس فقط من رعيتهِ او ذويهِ بل من الاجانب البعيدين منهُ وطنًا ودينًا ومشربًا وكثيرا ما تقربوا اليهِ بالنياشين والهدايا اقرارًا بفضلهِ على العالم عمومًا بتمهيد سبل التجارة بين اوربا والهند على الخصوص

ولاية عباس باشا

من سنة ١٢٦٥ — ١٢٧٠ ه او من ١٨٤٨ — ١٨٥٤ م

هو عباس باشا بن طوسون باشا بن محمد علي باشا ولد سنة ١٢٢٨ ه او ١٨١٣ م وربي احسن تربية وكان محبًّا لركوب الخيل فرافق عمهُ ابراهيم باشا في حملتهِ الى الديار الشامية وشهد اكثر المواقع . وفي ربيع آخر سنة ١٢٦٥ اودسمبر « ك ١ » سنة ١٨٤٨ م تولى زمام الاحكام على الديار المصرية واتبع خطوات سابقيه وكان على جانب من العلم والمعرفة لان المرحوم جدهُ كان يحبهُ كثيرًا فاعتنى بتعليمهِ في مدرسة الخانكاه

ومن مشروعاتهِ المهمة الشروع في انشاء الخط الحديدي بين مصر والاسكندرية وتأسيس المدارس الحربية في العباسية ومد الخطوط التلغرافية لتسهيل سبل التجارة وغير ذلك

وكان لهُ غلام يدعى البرنس ابراهيم الهامي وكان على جانب عظيم من الجمال والذكاء واللطف والمعرفة والعلم زار الاستانة سنة ١٢٧٠ ه وتشرف بمقابلة جلالة السلطان عبد المجيد فاحبهُ وزوَّجهُ بابنتهِ وغمرهُ بنعمهِ فرجع الى مصر شاكرًا حامدًا والمرحوم الهامي باشا هو والد ذات العفاف والعصمة حرم سمو الخديوي الحالي توفيق الاول

وعباس باشا هو الذي وضع الحجر الاول لمسجد السيدة زينب بيدهِ وقد كان لذلك احتفال عظيم حضرهُ كثير من الاعيان ورجال الدولة وذبحت فيهِ الذبائح وفرقت الصدقات على الفقراء كميات كبيرة

وفي ايامهِ كانت بين الدولة العلية والروسيين حروب فبعث لنجدة الدولة حملة كبيرة سارت عن طريق بولاق في البحر وسار هو بنفسهِ لوداعها هناك وقبل ركوبها النيل نهض لوداعها فالقى في الجمهور خطابًا

بليغًا منشطًا

وتوفي عباس باشا في شوال سنة ١٢٧٠ او يوليو « تموز » سنة ١٨٥٤ م في سرايتهِ في مدينة بنها العسل ثم نقل ودفن في مدفن العائلة الخديوية في القاهرة

ولاية سعيد باشا

من سنة ١٢٧٠ ــ ١٢٧٩ هـ او من ١٨٥٤ ــ ١٨٦٣ م

هو ابن ساكن الجنان محمد علي باشا ولد في اسكندرية سنة ١٢٣٧ هـ « ١٨٢٢ م » وكان محبًّا للعلم بارعًا فيهِ وعلى الخصوص في اللغات الشرقية والعلوم الرياضية وسلك الابحر والرسم وكان يتكلم الفرنساوية جيدًا . تولّى زمام الاحكام سنه ١٢٧٠ هـ او ١٨٥٤ م بعد وفاة عباس باشا ابن اخيهِ وكان محبًّا للعدل والفضيلة مهتمًّا بالاصلاح الاداري . ومن اعمالهِ المبرورة اتمام الخطوط الحديدية والتلغرافية بين اسكندرية ومصر والشروع في مد غيرها وتنظيم لوائح الاطيان واسترجاعها من المتعهدين الى اربابها . وقد عدل الضرائب فجعلها عادلة ورفع كثيرًا من الضرائب التي كان يتظلم منها الرعايا ونزح ترعة المحمودية وفي ايامهِ تمت معاهدة ترعة السويس وقد نشطها تنشيطًا كبيرًا واقام على طرفها الشمالي مدينة حديثة دُعيت باسمهِ وهي بورت سعيد وغرس الاشجار في طريق المنشية

وفي السنة الثانية من تولّيهِ على مصر وضع الحجر الاول لاساس القلعة السعيدية عند راس الدلتا فيما بين القناطر الخيرية تداعت اركانها الآن وقد عثرت على قطعة فضية مستديرة قطرها قيراطان ونصف على احد وجهيها رسم النيل عند تفرعهِ والقناطر الخيرية يليها على الجانبين برجا القناطر وبينها عند راس الدلتا القلعة السعيدية وكل ذلك في اجمل ما

يكون من الرسم وعلى الوجه الآخر كتابة تركية تفيد ان المغفور لهُ محمد سعيد باشا بن محمد علي باشا المشهور قد وضع اساس القلعة السعيدية وما يليها من الاستحكامات بيدهِ في يوم الاحد ٢٣ جمادى الآخرة سنة ١٢٧١ ﻫ لاجل حماية الديار المصرية . وهاك نص ما هو مكتوب هناك بالحرف الواحد بلغتهِ الاصلية

«قواله لى مشهور محمد علي صلبدن بيك ايكييوز اوتوز يدي سنه هجريه سنده اسكندريه ده دنيايه كلوب يتمش سه سي شوال المكرمنده خطه حسيمه مصره حكمي جاري اولان محمد سعيد محافظه ام دنيا ايجون اشبو استحكامات قويه يه بيك ايكييوز يتمش بر سه سي جمادى الثانينك يكرمي اوجنجي دوشنبه كوني ومولوديلك اوتور دردنجي سه سي كندي يديله وضع اساس ايتمشدر»

وفي ايامهِ ثارت مديرية الفيوم على الحكومة فبعث اليها واخمد الثورة فهدأَت الاحوال . ولما اختتن نجلهُ طوسون بك اطلق كل من كان في السجون من المجرمين حتى القاتلين . وقد زار محمد سعيد باشا الحرمين وادَّى فروض الحج ولذلك يلقبونهُ بالحاج محمد سعيد باشا . وفي ايامهِ اعطيت بلاد السودان بعض الامتيازات وتولَّى عليها البرنس حليم باشا حكمدارًا . وفي سنة ١٢٧٦ ﻫ او ١٨٥٩ م توجه لزيارة سوريا فمكث في بيروت مدة ثلاثة ايام ونزل ضيفًا كريمًا على وجهاء المدينة وكان اثناء مرورهِ في الطرقات ينثر الذهب على الناس

وفي سنة ١٢٧٨ ﻫ او ١٨٦١ م توفي المغفور لهُ السلطان عبد المجيد وتولى الخلافة بعدهُ السلطان عبد العزيز . وفي يوم السبت ٢٦ رجب سنة ١٢٧٩ ﻫ او ١٧ يناير (ك٢) ١٨٦٣ م توفي سعيد باشا في الاسكندرية ثم نقل الى مدفن العائلة في مصر

ولاية اسماعيل باشا خديوي مصر الاول

من سنة ١٢٧٩ — ١٢٩٦ ه او من ١٨٦٣ — ١٨٧٩ م

هو ثاني ابناء المرحوم ابراهيم باشا بن محمد علي باشا ولد سنة ١٢٤٦ ه او ١٨٣٠ م وتربى احسن تربية وتثقفت قواه العاقلة بالعلم والمعرفة فاتقن فن الهندسة وبرع على الخصوص في التخطيط والرسم ثم جال في اوربا واختبر احوالها وعوائدها . وفي ٢٧ رجب سنة ١٢٧٩ ه او ١٨ يناير (ك٢) ١٨٦٣ م تولى زمام الاحكام في الديار المصرية بعد وفاة عمّهِ سعيد وفي سنة توليتهِ شرف هذه الديار بحلول اعتابهِ الشريفة جلالة المغفور لهُ السلطان عبد العزيز خان فلاقى ترحاباً لم يسبق لهُ مثيل . وكان اسماعيل باشا كثير الميل الى تحسين المدن الى ما يقربها من زي مدن اوربا فشرع في ذلك وكان شديد الرغبة فيهِ الى ما يفوق التصديق فتسهلت سبل التجارة في ايامهِ وتقاطر الى الديار المصرية الاجانب افواجاً افواجاً . وفي سنة ١٢٨٣ ه او ١٨٦٦ م نال من الباب العالي خطاً شريفاً مؤذناً بالارث الصريح في عائلتهِ وسيأتي شرح ذلك وفي السنة التالية نال من انعام جلالة السلطان لقب خديوي وهو اول من نال هذا اللقب الذي هو ارفع رتب وزراء الدولة

وفي ١٤ شعبان سنة ١٢٨٦ ه او ١٩ نوفمبر (ت ٢) ١٨٦٩ م كان الاحتفال بافتتاح ترعة السويس وبالنظر لعظم اهمية هذا العمل وفائدتهِ لعالم التجارة في سائر العالم رأيت ان افرد فصلاً مخصوصاً اشرح فيهِ تاريخ الوسائل التي اتخذت منذ القديم لايصال البحر المتوسط بالبحر الاحمر فاقول



ش ٩٠ اسماعيل باشا الخديوي السابق

فصلٌ

في ملخص تاريخ الوسائل التي اتخذت لا يصال البحر المتوسط بالبحر الاحمر

ما زح ملوك مصر من عهد الفراعنة يسعون الى ايجاد مثل هذا الاتصال وقد اتخذوا لذلك سبلاً عديدة تعود الى ثلاثة

(١) بواسطة النيل وفروعهِ
(٢) « النيل والصحراء
(٣) « ترعة مالحة

وقبل شرح كلّ من هذه الوسائط نأتي على شيءٍ من جغرافية مصر القديمة نعني بها الخارطة التي رسمت في عهد اليونان وهي تمتاز عن الخارطات الحديثة على الخصوص بتعداد فروع النيل ومواقعها وامتداد البحر الاحمر وبحيرات اخرى (انظر خارطة مصر في ايام الفراعنة)

فالنيل الآن بعد ان ينقسم بالقرب من القاهرة الى فرعَيهِ الكبيرين يسيران شمالاً فيمر الشرقي منهما بينها فميت غمر فسمنود فالمنصورة وينتهي الى البحر المتوسط بالقرب من دمياط . والغربي يمرُّ بمنوف فكفر الزيات فدسوق الى ان يصب في ذلك البحر بالقرب من رشيد . وهذان الفرعان هما الفرعان الوحيدان للنيل الآن وقلما يتفرع منهما غير الترع الاصطناعية . اما في الازمنة الخالية فكانت لها فروع اخرى كبيرة اكبرها متفرع من الفرع الشرقي . وكيفية ذلك ان هذا الفرع بعد ان يصل الى قرب بنها يسير منهُ فرع غربي ينقسم الى عدة فروع تنتهي الى البحر المتوسط بثلاثة

تصب عند بحيرتَي المنزلة والبرلس . وكيفية ذلك انهُ اذا تجاوز اتريب (اتريبس) قليلاً تفرع منهُ فرعٌ كبير شرقيٌّ يقال لهُ فرع بلوسيوم يسير الى الشمال الشرقي فيمرُّ ببوباستس (تل بسطة) فالصالحية فدفنة الى ان يصب في البحر المتوسط بالقرب من بلوسيوم (طينة) شمالي الفرما و يتفرع ما بقي الى فرعين او اكثر قد اغفلنا ذكرها لاستغنائنا عنها فيما نحن في صددهِ . اما بحر القلزم او البحر الاحمر فكان متصلاً بالبحيرة المرة الكبرى بمضيق صالح لسير السفن وكانت هذه البحيرة خليجًا يدعى خليج هيروبوليس نسبة الى مدينة كانت قائمة على مسافة قصيرة من رأسهِ بالقرب من فيثوم (تل المسخوطة) . واذ قد نمهد ذلك نقول

(١) « الاتصال بواسطة النيل وفروعهِ »

قد مرَّ بك في الكلام عن العائلة التاسعة عشرة الملكية في فذلكة تاريخ مصر القديم من هذا الكتاب ان الملك سيتي الاول هو اول من سعى الى ايصال النيل بالبحيرة المرة الكبرى ويظن ارستوتل وسترابو وبلينيوس ان سيزوستريس (رعمسيس الثاني او الاكبر) هو اول من فعل ذلك في الجيل الرابع عشر قبل الميلاد وربما كان ظنهم هذا مبنيًّا على ان هذا الملك هو الذي اسس مدينة فيثوم المتقدم ذكرها فرجحوا انهُ احتفر اليها ترعة من النيل لريّها وهذه الترعة توصل بين النيل وخليج هيروبوليس فيتم الاتصال المطلوب . اما المعول عليهِ بالاسناد الى المصادر التاريخية الوثيقة ان اول من اخرج ذلك الى عالم الفعل انما هو الملك نخاو الثاني من العائلة السادسة والعشرين (سنة ٦١٠ ق م) فاحتفر ترعة تنشأ من فرع بلوسيوم عند بوباستس بالقرب من الزقازيق وتسير فيما يدعى الآن وادي القنال حتى هيروبوليس ويقال ان امتداد هذه الترعة كان ٦٢ ميلاً من الاميال الرومانية (نحو ٥٧ ميلاً انكليزيًّا)

فلما استولى الفرس على مصر انتهى الملك داريوس (دارا) بن هستاسبس

سنة ٥٢٠ ق م وكان المضيق بين هيروبوليس والبحر الاحمر قد كاد يمتلئ من الرواسب فامر بجرفهِ وتوسيعهِ وكان طولهُ نحو عشرة اميال ولا تزال آثارهُ باقية الى هذا العهد بالقرب من شالوف عند الطرف الجنوبي للبحيرة الكبرى وترعة الاسماعيلية ويشاهد هناك بعض الآثار الفارسية الدالة على صحة ذلك . وكان المعروف اذ ذاك ان البحر الاحمر اعلى من النيل فلم يجسر نخاو ولا داريوس على ايصال ترعتهما هذه الى الخليج تمامًا خشية ان يختلط الماآن او يطوف المالح على العذب . فتمّت المواصلة اذ ذاك على هذه الصورة . تسير السفن من البحر المتوسط في فرع بلوسيوم الى بوباستس ومنها في تلك الترعة الى هيروبوليس ومن هذه كانوا ينقلون المحمولات الى مراكب البحر الاحمر على الدواب اوغيرها وكانوا يقاسون في ذلك بعض المشقة . فلما تولّى بطليموس فيلادلفوس وجّه اهتمامهُ الى اصلاح ذلك الخلل سنة ٢٨٥ ق م فاحتفر ترعة موصلة بين هيروبوليس وراس البحر الاحمر وترعة اخرى من هيروبوليس الى خليج هيروبوليس ووسع المضيق فاصبح هناك ترعتان وكلاهما متصلتان بالبحر الاحمر واتخذ حواجز واحتياطات اخرى لمنع طغو المياه المالحة على العذبة بحيث يمكن للسفن ان تمرّ الى الخليج والى البحر الاحمر مع توقّي الطغيان . وابتنى عند مصب الخليج في البحر الاحمر مدينة دعاها ارسينوا جعلها محطة بحرية تنتهي اليها المراكب القادمة عن طريق النيل ونقلع منها السائرة في البحر الاحمر وبالعكس

ثم اخذ ماء النيل يتحول عن فرع بلوسيوم شيئًا فشيئًا حتى نضح ماؤهُ فبطلت تلك الترعة . حتى اذا كان الاسلام وفتحت مصر على يد عمرو بن العاص كما مرّ بكَ امرهُ الخليفة بانشاء ترعة يسهل نقل المؤن عليها الى الحجاز فاحتفر ترعة دعاها خليج امير المؤمنين فابتدأ بها عند مصر القديمة حيث يبتدئ خليج مصر اليوم فسار بها في ظاهر الفسطاط حتى

القاهرة اليوم ومنها الى المطرية ومنها الى بوباسنس حيث تبتدئ الترعة القديمة ومن بوباسنس الى البحر الاحمر . وما زالت تسير السفن في خليج امير المؤمنين من الفسطاط واليها مدة ١٢٤ سنة حتى ايام الخليفة المنصور ابي جعفر ثاني الخلفاء العباسيين ومؤسس مدينة بغداد فامر بردمهِ منعاً لامداد العلويين الذين ثاروا في المدينة وما زال مردوماً الى الآن ويقال ان الملك الحاكم بامر الله الفاطمي امر بحفرهِ سنة ١٠٠٠ الميلاد لتسير فيهِ السفن الصغيرة ثم اهمل فطمرتهُ الرمال . ولم يبقَ من اثارهِ الآن الاَّ الخليج الذي يقطع القاهرة من الجنوب الغربي الى الشمال الشرقي وهو المعروف بخليج مصر . ينشأ من فم الخليج عند مصر القديمة ويسير نحو الشمال الشرقي وقبل ان يبلغ نظارة المالية ينعطف نحو الشرق الجنوبي حتى جامع السيدة زينب فيعود الى سيرهِ نحو الشمال الشرقي فيمر بجانب بركة الفيل ثم سراي درب الجماميز فتكيَّة الحبانية ثم يقطع شارع محمد علي فيمر بجانب سراي منصور باشا الى ان يقطع السكة الجديدة قرب اتصالها بشارع الموسكي فيمر تاركاً كنيسة اللاتينيين وكنيسة السريان الى يسارهِ وكنيسة الارمن وكنيسة القبط الى يمينهِ الى ان يصل الى بداية سكة مرجوش فيتركها الى يمينهِ ثم يقطع سور القاهرة عند باب الشعرية ويسير خارج القاهرة الى شارع الظاهر فيمر تاركاً جامع الظاهر الى يمينهِ حتى يلتقي بترعة الاسماعيلية وهناك ينتهي . اما فائدة هذا الخليج الآن فمقصورة على ري المدينة وبعض ضواحيها وهو الخليج الذي يحتفلون بفتحهِ سنويّاً عند وفاء النيل بين الخامس والسادس عشر من اوغسطس (آب)

(٢) « الاتصال بواسطة النيل والصحراء »

اوجد هذا الاتصال مربرع احد ملوك العائلة السادسة ثم اتمهُ حنو في ايام العائلة الحادية عشرة كما مرَّ بكَ غير ان بعض المتاخرين يزعم ان بطليموس فيلادلفوس المتقدم ذكرهُ هو الذي اوجد هذا الاتصال ولعلَّ

الصواب انهُ اعادهُ بعد اهمالهِ

والانصال المذكور يتم بطريق في الصحراء بين برنيس على البحر الاحمر وقفط على النيل بقرب قوص بمصر العليا فكانت المنقولات تحمل على الجمال او ما شاكل من برنيس الى قفط ومن هناك تنقل على مراكب نيليَّة الى البحر المتوسط عن طريق دمياط او رشيد وما زالت هذه الطريق عظيمة الاهمية حتى اكتشف راس الرجاء الصالح جنوبي افريقيا سنة ١٤٩٧ م فانحطت اهميتها . ولما فتح خليج السويس كادت تهمل كلية لكنا نرى انها لا تزال تستعمل في بعض الاحوال وقد اصبح الانصال الآن بين القصير على البحر الاحمر وقنا على النيل عوضاً من برنيس وقفط وقد يكون الى قفط ولا تستعمل الاَّ اذا كان المقصود المواصلة بين البحر الاحمر ومصر العليا رأساً

(٢) « الانصال بواسطة ترعة مالحة (ترعة السويس)

كانت التجارة بين اوربا والمشرق في الاجيال الاخيرة محصورة على نوع ما في فينيسيا (البندقية) وكان الفينيسيون ابرع الناس فيها واكثرهم اشتغالاً بالاسفار بين البحرين عن طريق مصر فلما اكتُشف رأس الرجاء الصالح تحولت تلك التجارة الى يد البرتغاليين فشق ذلك على الفينيسيين فاهتموا في امر انشاء ترعة توصل بين البحرين فخابروا سلطان مصر اذ ذاك (قنسو الغوري) وما زالت المخابرات بهذا الشان دائرة حتى الفتوح العثماني سنة ١٥١٧ م فبطلت واهمل المشروع . فلما كانت الحملة الفرنساوية اهتم نابوليون بونابرت بذلك الانصال بواسطة برزخ السويس فاستكشف البرزخ ومعهُ المهندس الشهير موسيو لابير سنة ١٢١٣ هـ او ١٧٩٨ م وتحصاهُ تحصّصاً مدققاً فاكتشف لابير ان البحر الاحمر يعلو المتوسط ٣٠ قدماً ولذلك رأى عدم مناسبة فتح ترعة موصلة بين البحرين رأساً فقدم التقرير الآتي وهو يتضمن افضل ما رآه من الطرق

(١) المواصلة بواسطة النيل وفروعهِ وذلك بترعة من الاسكندرية الى الرحمانية على فرع رشيد . وفي النيل من هناك الى القاهرة وبخليج امير المؤمنين من القاهرة الى البحيرة المرّة حيث يقام حواجز ومن هناك الى السويس بترعة مالحة

(٢) المواصلة بين البحرين رأسًا وكيفية ذلك ان تحفر ترعة بين السويس والبحيرة المرة وترعة اخرى بين البحيرة المرة و بلوسيوم

الّا ان هذا التقرير لم يباشر تنفيذهُ قبل ان قضي على تلك الحملة بالانسحاب من مصر

وفي سنة ١٢٥٥ ه او ١٨٣٧ م اقامت شركة البواخر الشرقية خطًّا للمواصلة بين الهند وانكلترا عن طريق برزخ السويس بكيفية ان تأتي المنقولات في البحر المتوسط الى اول البرزخ فتنقل في البر الى السويس ومنها في البحر الاحمر الى الهند وغيرها

وفي سنة ١٢٦٤ ه او ١٨٤٦ م تعينت لجنة مختلطة للنظر في تقرير لابير فقررت ان الفرق بالارتفاع بين البحرين لا يعبأ بهِ الّا انها انحلت ولم تصل الى نتيجة تاركة ذلك الى احد اعضائها المسيو تالابوت فكان من رأيهِ تتبع الترعة القديمة من السويس الى تل بسطة (قرب الرقازيق) رأسًا واحتفار ترعة من هناك الى رأس الدلتا حيث القناطر الخيرية الآن فتقام لها قناطر تسير عليها مياه تلك الترعة الى البر الغربي ومن هناك تتم الترعة الى الاسكندرية فكأنهُ يريد ايصال البحرين بترعة تمرُّ بين السويس والاسكندرية وتقطع الدلتا عند رأسهِ فلم يصادف مشروعهُ استحسانًا لما كان يحول دون ذلك من المشاق . ثم تقدم تقرير آخر من الخواجات بارولت من مقتضاهُ ان يوصل البحر الاحمر ببحيرة المنزلة الى دمياط ثم يقطع النيل هناك وتتم الترعة الى رشيد فيقطع فرع رشيد ايضًا وتوصل الترعة الى الاسكندرية فلم يصادف هذا نجاحًا ايضًا لمشابهتهِ

بمشروع تالابوت

وفي سنة ١٢٧١ ﻫ او ١٨٥٥ م اهتم لينان بك وموجل بك تحت ادارة الموسيو دلسبس في امر هذه المواصلة بعد ان حصل هذا الاخير على البراءة في ذلك من سعيد باشا والي مصر اذ ذاك فاقروا على وجوب فتح ترعة في خط مستقيم بين السويس وبلوسيوم مارة في البحيرات المرة فبحيرة التمساح فالمنزلة وان تتصل هذه الترعة من طرفيها بحواجز عند التقائها بالبحرين واقروا ايضًا على احتفار ترعة عذبة من بولاق مصر الى منتصف البرزخ ومن هناك الى السويس لاجل حمل المياه اللازمة للشرب والري وترعة توصل المياه الى بلوسيوم . فعمل الموسيو دلسبس تقريرًا في ذلك وعرضهُ سنة ١٢٧٢ ﻫ او ١٨٥٦ م على لجنة دولية مؤلفة من نواب دول اوستريا وانكلترا وفرنسا وايطاليا وهولندا وبروسيا واسبانيا فادخلت فيهِ تحويرات من مقتضاها ان تنتهي تلك الترعة من طرفها الشمالي في نقطة على مسافة ١٧ ١/١٠ ميلًا الى الغرب من بلوسيوم حيث بورت سعيد الآن وسبب ذلك ان مياه البحر المتوسط هناك عمقها بين ٢٥ و ٣٠ قدمًا على مسافة ميلين من الشاطئ اما عند بلوسيوم فلا تبلغ هذا العمق الا على مسافة خمسة اميال . وان تغفل الحواجز عند طرفي الترعة وتحويرات اخرى

ثم تمَّ القرار على ذلك وباشر الموسيو دلسبس حفر الترعة الذي كان انتهاؤهُ في ١٤ شعبان سنة ١٢٨٦ ﻫ (١٧ نوفمبر (ت ٢) ١٨٦٩م) في ايام اسماعيل باشا الخديوي السابق واحتفل الخديوي المشار اليهِ في ذلك اليوم احتفالًا عظيمًا بافتتاحها حضرهُ سائر ملوك اوربا او مندوبوهم وكانت رسوم المرور في تلك الترعة بموجب نص البراءة عشرة فرنكات على التونولاتو ونحو ذلك على الراكب فضلًا عن نفقات اخرى

عودٌ

وفي سنة ١٢٨٩ه او ١٨٧٢م تعدّى اهل الحبشة على الحدود المصرية مما يلي بلادهم واسروا عددًا وافرًا من الاهالي فبعثت الحكومة الخديوية تطلب استرجاعهم وتستفهم عما اقتضى تلك المعاملة . ثم اقتضت الاحوال فجرَدت الحكومة المصرية على الحبشة لكنها لم تنجح بتلك التجريدة

ثم باشر اسماعيل باشا بناء مرفإِ الاسكندرية وارصفتهِ . وفي سنة ١٢٩٠ ه او ١٨٧٣ م زار اسماعيل باشا الاستانة فقوبل بالترحاب ونال التفاتًا عظيماً من لدن الحضرة الشاهانية . وفي هذه السنة ايضًا احتفل بزواج انجالهِ الكرام وهم سمو الخديوي الحالي محمد توفيق باشا والبرنس حسين باشا والمرحوم البرنس حسن باشا وكان اقترانهم جميعًا في شهر واحد ومُنحوا ايضًا في الوقت نفسهِ رتبة الوزارة معًا

وفي ١٢ جمادى الاولى سنة ١٢٩٠ ه (٨ يوليو (تموز) ١٨٧٣ م) جاءَهُ الفرمان الشاهاني يخولهُ كل الحقوق المعطاة لرتبة الخديوية وهي حقوق الوراثة لاول ابنائهِ والاستقلال بالاحكام الادارية واقامة المعاهدات مع الدول الاجنبية واستقراض القروض والجزية التي تدفع للدولة العلية (١٥٠٠٠٠ كيس) . وهاك تعريب الفرمان السلطاني الذي ورد بهذا الشأْن بعد الديباجة

« قد نظرنا بعين الاهتمام الى طلبك باصدار خط سلطاني يجمع بالتفصيل والتغيير اللازم جميع الخطوط الصادرة بعد الفرمان المانح المرحوم الوالي محمد علي باشا الحكومة الارثية سواء كانت تلك الفرامين متعلقة بكيفية الخلافة او بالحقوق والامتيازات الجديدة الممنوحة مراعاة لحال الخديوية وسكانها . فهذا الفرمان من شأْنهِ ان ينسخ في المستقبل حكم تلك الفرامين جميعها بما يتضمنهُ مما سيأْتي بعد ويكون دائمًا نافذًا مرعي الاجراء

« ان كيفية وراثة الحكومة المصرية المقررة في فرماننا الصادر ثاني ربيع الآخر سنة ١٢٧٥ ه قد غيّرت على وجه ان تنتقل الخديوية من متبوئي كرسيها الى كبير ابنائهِ ومن هذا الى بكر ابنائهِ ايضًا وهلمّ جرًّا علمًا بان ذلك ادنى الى المصلحة واشد ملاءمة لاحوال البلاد المصرية . واختصاصًا لك بانعطافي الذي صرت لهُ اهلاً بحسن سعيك واستقامتك واجتهادك وامانتك واثباتًا لذلك اجعل قانون الوراثة لخديوية مصر ومتعلقاتها وما يتبعها من البلاد وقائمقامية سواكن ومصوّع وتوابعهما كما تقدم بيانهُ بحيث تكون الولاية لبكر ابنائك ثم لبكر ابنائهِ من بعده . فاذا لم يرزق من ولّي الخديوية ولدًا ذكرًا كانت الولاية من بعدهِ لاكبر اخوتهِ او لاكبر بني اخيهِ الاكبر كما تقرر ولا تكون هذه الوراثة لابناء البنات . ولاجل تاييد هذه الاحكام ينبغي ان تكون الوصاية في حال كون الوارث قاصرًا على الصورة الاتية وهي

« اذا توفي الخديوي وكان كبير ولدهِ قاصرًا اي غير بالغ من العمر ثماني عشرة سنة يكون هذا القاصر بالحقيقة خديويًّا بحق الوراثة فيصدر اليهِ فرماننا بوجه السرعة واذا كان الخديوي المتوفى قد نظم قبل وفاتهِ اسلوبًا للوصاية وعين كيفيتها وذوي ادارتها بصك مثبت بشهادة اثنين من روساء حكومتهِ فاولئك الاوصياء يقبضون اذ ذاك على ازمة الاعمال عقب وفاة الخديوي . ثم ينهون بذلك الى الباب يثبتهم في مناصبهم ولكن اذا توفي الخديوي بغير وصية وكان ابنهُ قاصرًا فمجلس الوصاية عند ذلك يؤلف من متوليّ ادارة الداخلية والحربية والمالية والخارجية والحقانية وقائد العسكر ومفتش المديريات فيجتمع هولاء الذوات وينتخبون للخديوي وصيًّا باجماع الرأي او باغلبيتهِ فاذا تساوت الآراء لاثنين من المنتخبين كانت الوصاية لارفعهما رتبةً باعتبار الترتيب السابق من الداخلية فما بعدها ويشكل مجلس الوصاية من الباقين فيباشرون جميعًا امور الخديوية

ويعرضون ذلك لسلطنتنا السنية ليصدق عليهِ بالفرمان الشريف . وكما انهُ لا يجوز تبديل الوصي وتغيير هيأة الوصاية قبل انتهاء مدتها في الصورة الاولى اي فيما اذا كان تنظيمها بحكم وصية الخديوي المتوفى فكذلك لا تغيير في الصورة الثانية واما اذا توفي الوصي او احد اعضاء مجلس الوصاية في خلال تلك المدة فينتخب بدل الاول احد اعضاء المجلس وبدل الثاني احد ذوات المملكة وبمجرد بلوغ الخديوي القاصر ثماني عشرة سنة يكون راشدًا فيباشر ادارة امور الخديوية وذلك مما تقرر لدينا واقتضتهُ ارادتنا السلطانية

«ولما كان تزايد عمارة الخديوية المصرية وسعادة حالها ورفاهة سكانها من اهم الامور لدينا وكانت ادارة المملكة المالية ومنافعها المادية المتوقف عليها تكامل وسائل الراحة وتوفر اسباب السعادة عائدة على الحكومة المصرية رأينا ان نذكر كيفية تعديل الامتيازات وتوضيحها على شرط بقاء جميع الامتيازات الممنوحة سابقًا للحكومة المصرية . وذلك انهُ لما كانت ادارة المملكة الملكية والمالية بجميع فروعها واحوالها ومنافعها عائدة بالحصر على الحكومة ومتعلقة بها وكان من المعلوم ان ادارة اي مملكة وحسن انتظامها وتزايد عمرانها وسعادة سكانها مما لا يتم الاَّ بالتوفيق والتطبيق بين الادارة العمومية والاحوال والموقع وامزجة السكان وطبائعهم فقد منحناكم الرخصة المطلقة في وضع القوانين والنظامات الداخلية حسب الحاجة واللزوم . ولاجل تسهيل تسوية المعاملات سواء كانت من قبل الرعية او من قبل الحكومة مع الاجانب ولتوسيع نطاق الصنائع والحرف وتوفير اسباب التجارة منحناكم ايضًا الرخصة التامة في عقد المشاركات وتجديد المقاولات مع مأموري الدول الاجنبية في امور الجمارك والتجارة وسائر المعاملات الجارية مع الاجانب في امور المملكة الداخلية وغيرها على شرط ان لا يكون ذلك موجبًا للاخلال بمعاهدات الدولة السياسية

« ولكون خديوي مصر حائزًا لحق التصرف المطلق في الامور المالية قد اعطيت لهُ الرخصة في عقد القروض من الخارج بغير استئذان عند ما يجد لذلك لزومًا على شرط ان يكون القرض باسم الحكومة المصرية . وبما ان امر المحافظة على المملكة وصيانتها من الطوارق (وهو اهم الامور واحوجها الى العناية) من اقدم الوظائف المختصة بخديوي مصر قد منحناهُ الاذن المطلق بتدارك اسباب المحافظة وتنسيبها على مقتضى ضرورات الزمان والحال وبتكثير او تقليل عدد العساكر المصرية الشاهانية على حسب اللزوم بغير تقييد ولا تحديد . وابقينا كذلك لخديوي مصر امتيازهُ القديم بمنح الرتب العسكرية الى رتبة ميرالاي والملكية الى الرتبة الثانية على شرط ان تكون المسكوكات المضروبة في مصر باسمنا الشاهاني وتكون اعلام العساكر البرية والبحرية في القطر المصري كاعلام عساكرنا السلطانية بلا فرق او تمييز ولا يجوز لخديوي مصر ان ينشئ البوارج المدرعة بغير استئذان اما سائر السفن والبوارج ففي استطاعتهِ ان ينشئها متى شاء

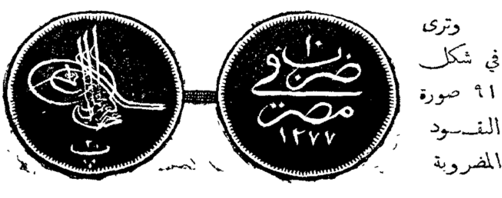
« ولاجل اعلان الاحكام السابق بيانها وتأييدها اصدرنا اليكم هذا الفرمان الجليل القدر من ديواننا الهمايوني واعطيكم متممًا ومعدلاً وشارحًا للخطوط الشريفة والاوامر المنيفة الصادرة الى هذا التاريخ سواء كانت في وراثة الحكومة المصرية وفي كيفية الوصاية او في ادارة الامور الملكية والعسكرية والمالية والمنافع العمومية وسائر المهمات على شرط ان تكون احكام هذا الفرمان الجديد نافذة مرعية الاجراء على ممر الزمان قائمة مقام احكام الفرمانات السالفة على ما اقتضتهُ ارادتنا السلطانية . فينبغي ان تعلموا قدر لطف عنايتنا وتؤدوا الشكر لها وتصرفوا الهمة الى تنظيم الادارة على محور الاستقامة والى الاخذ باسباب وقاية الرعية واصلاح شؤونها وتأييد راحتها على حسب ما فطرتم عليهِ من الغيرة والاستقامة وحسن الاخلاق وما وقفتم عليهِ من احوال تلك الجهات وان تراعوا احكام

الشروط الواردة في هذا الفرمان الجديد مع تأدية المائة وخمسين الف كيس المضروبة على الديار المصرية خراجًا سنويًّا في اوقاتها المعينة الى خزينتنا العامرة السلطانية على القوانين والقواعد المرعية » انتهى

فكان ذلك الفرمان منشطًا لهمة اسماعيل باشا فاخذ في اتمام مشروعاتهِ في الاصلاح وعلى الخصوص فيما يتعلق بتنظيم البلاد وإنشاء البنايات والشوارع والحدائق فتمهدت سبل التجارة فازداد في ايامهِ تقاطر الاوربيين الى القطر المصري وكان يكرم وفادتهم ويحبب اليهم الاقامة في القطر لما كانوا يتمتعون بهِ من الارباح والرغد . وفي سنة ١٢٩٢ هـ (سنة ١٨٧٥ م) ابتاعت الحكومة الانكليزية من اسهم ترعة السويس ما يساوي اربعة ملايين من الجنيهات الانكليزية فكان ذلك حاملاً على تداخلها في المالية المصرية بعد ذلك

وفي سنة ١٢٩٣ هـ او ١٨٧٦ م توفي المغفور لهُ السلطان عبد العزيز وتولى بعدهُ السلطان مراد الخامس مدة قصيرة ثم اعتلى اريكة السلطنة جلالة السلطان عبد الحميد خان ولا يزال على اريكتها الى الان ايَّد الله سلطانهُ وعزَّز انصارهُ واعوانهُ

وترى في شكل ٩١ صورة النقود المضروبة



ش ٩١ نقود السلطان عبد العزيز

على عهد السلطان عبد العزيز بتاريخ ١٢٧٧ هـ وهي سنة توليتهِ السلطنة وهذه القطعة من النقود يقال لها (عشرين خردا) وقد كانت تساوي في اول امرها

نصف غرش اي عشرين بارة ثم انحطت منذ بضع سنوات الى بارتين ثم بعد ان ضربت النقود الحديثة الآتي ذكرها لم تعد لها قيمة معلومة

ومن المشروعات المهمة التي أُتمت او بوشرت في ايام اسماعيل باشا انهُ انشأ المتحف المصري في بولاق والكتبخانة الخديوية المشهورة في درب الجماميز بمصر واصلح الطرق وشيد الابنية العمومية منها الاوبرا الخديوية بقرب الازبكية في القاهرة . والذي يشاهد هذا المرسح الجميل يندهش لما فيهِ من الاتقان وحسن الذوق ولا سيما في النقوش على الستائر مع اتقان الملابس اللازمة للتشخيص ويزيد اندهاشهُ عند ما يعلم انها بنيت وتمت معداتها في مدة خمسة أشهر فقط وسبب ذلك ان الخديوي كان قد اعدَّ سنة ١٢٨٦ ه او ١٨٦٩ م احتفالاً عظيماً دعا اليهِ اكثر ملوك الارض لحضور افتتاح ترعة السويس كما مرَّ بك فامر ببناء هذا المرسح في القاهرة لاحياء اوقات للعب فيهِ ولم يكن لديهِ الَّا مدة خمسة اشهر الصيف فاكثر من العملة البارعين ولا تسل عما انفق في سبيل ذلك من النقود . ومن اعمالهِ انهُ ابتنى ايضاً مرسح زيزينيا في الاسكندرية وسرايات اخرى عجيبة وجرَّ الماء الى العاصمة ووزعهُ في البيوت وعمم زرع الاشجار على الطرق ونوَّر القاهرة بالغاز وتدارك ما ينجم عن الحريق باستجلاب الآلات لاطفاء النيران وفتح المدارس وعمم المعارف وحسَّن مطبعة بولاق الاميرية وامر بترجمة الكتب المفيدة الى العربية وطبعها واسَّس معمل الورق وغيرهُ من المعامل ونظَّم المجالس واصلح ترع النيل ومجاريها واوصل الخطوط التلغرافية والسكك الحديدية الى نوبيا ونظم البوسطة وبنى مدينة الاسماعيلية وزينها بالحدائق والقصور وانشأ المنارات في البحر وابطل تجارة الرقيق وسعى لاكتشاف ما غمض من قارَّة افريقيا بمدد اصحاب الخبرة وزيَّن حديقة الازبكية بغرس اشجارها وتسويرها وترتيب الموسيقى فيها على ما هي عليهِ الان . وغير ذلك من الاعمال الكثيرة التي تفوق الحصر .

وابتنى عدة بنايات بالقرب من طره على طريق حلوان لاجل معامل البارود والاسلحة الصغيرة وانفق على بناءها مبالغ فاحشة ولكنهُ لم يستعملها

وكان اسماعيل باشا لشدة رغبتهِ في التنظيم والتزيين لا ينظر الى نسبة النفقات التي تقتضيها تلك المشروعات الى دخل البلاد فتراكمت الديون على القطر الى حدّ اوجب قلق الدول التي لها يد في تلك الديون فآل الامر الى تعيين لجنة مالية مختلطة لمراقبة دخل ونفقة الحكومة المصرية وذلك في ٢٦ ربيع اول سنة ١٢٩٥ ه (٣٠ مارس (اذار) ١٨٧٨ م) فرأت عجزًا مقدارهُ مليون ومائتا الف جنيه فتنازل اسماعيل باشا عن املاكهِ الخاصة واملاك عائلتهِ ملافاة لما تدارك البلاد من الديون الكثيرة وهي التي تعرف الآن باملاك الدومين . ثم صادق على تعيين ناظر انكليزي للمالية يقال لهُ المستر ريفرس ويلسون وآخر فرنساوي لنظارة الاشغال العمومية يقال لهُ الموسيو بلينير . وكانت اجراآت الحكومة المصرية راجعة الى الخديوي رأسًا فاجراها اسماعيل باشا بواسطة مجلس النظار كما هي الحال الان

وفي تلك السنة تقرر استقراض مبلغ ثمانية ملايين ونصف من الجنيهات فاستدانوها وجعلوا عليها املاك الدومين رهنًا . وهذا هو الدين المعروف بدين روتشيلد . ثم رأى مجلس النظار وجوب توفير شيء من نفقات الجيش فرفت عددًا كبيرًا من العساكر والضباط . وفي ٢٥ صفر سنة ١٢٩٦ ه (١٨ فبراير (شباط) ١٨٧٩ م) ثار المرفوتون وجاء نحوٌ من الفي نفر واربعماية ضابط منهم الى نظارة المالية وامسكوا بنوبار باشا والمستر ويلسون وطلبوا اليهما ما كان متأخرًا لهم من الرواتب ثم علت الغوغاء ولم ينكف الناس حتى اشرف اسماعيل باشا فلما رأوهُ بهتوا رعبة وكأنهُ اثر عليهم تاثيرًا سحريًا فكلمهم وطيّب خاطرهم ووعدهم باجراء مطلوبهم فانصرفوا . ثم استقال الوزيران رياض باشا ونوبار باشا تخلصًا

من المسئولية في حكومة لا يعرف لها رأس . فولّى اسماعيل باشا ابنهُ البرنس توفيق باشا (وهو الآن سمو الخديوي الحالي) رئاسة مجلس النظار

وفي ١٤ ربيع آخر سنة ١٢٩٦ ﻫ (٧ افريل (نيسان) ١٨٧٩م) قلب اسماعيل باشا هيئة مجلس النظار وعزل كل من كان فيهِ من الاجانب وجعل في اماكنهم نظارًا وطنيين تحت رئاسة المرحوم شريف باشا وامر ان تزاد القوة العسكرية الى ستين الفًا فشقَّ ذلك على دولتي انكلترا وفرنسا لانهما اعتبرتا عزلة الناظرين الانكليزي والفرنساوي لغير علّة من الاعمال العدوانية فسعيا الى الانتقام بكل ما لديهما من السُبل . وفي ٦ رجب سنة ١٢٩٦ ﻫ (٢٥ يونيو (حزيران) ١٨٧٩ م) أُقيل اسماعيل باشا من خديوية مصر وولّي ابنهُ محمد توفيق باشا الخديوي الحالي مكانهُ

ولاية محمد توفيق باشا الخديوي الحالي

من سنة ١٢٩٦ ﻫ او ١٨٧٩ م ولا تزال

تولّى سمو محمد توفيق باشا خديوية مصر يوم الخميس الواقع في ٧ رجب سنة ١٢٩٦ ﻫ (٢٦ يونيو (حزيران) ١٨٧٩ م) واعتلى اريكتها بين امور مختلّة واحوال مرتبكة بسبب المصاعب التي طرأت على احوال القطر المصري قبل توليتهِ . ومن اهم اسباب الاختلال اذ ذاك عسر المالية وعدم انتظام الجندية ونحو ذلك مما نشأ عن تداخل الاجانب في امور البلاد على عهد الوزارة المختلطة واشتداد وطأتهم على العسكرية وطموح ابصارهم الى ما اوجب يومئذٍ استحكام الضغائن في صدور الجهادية . ففي الساعة ٤ ١/٢ من نهار الخميس المذكور ورد الى مصر تلغراف من الباب العالي مشعرًا بتوليةِ سموهِ وتعريبهُ . —



ش ٩٣ محمد توفيق باشا الخديوي الحالي

« بناء على ان الخطة المصرية هي من الاجزاء المتممة لجسم ممالك السلطنة السنية وان غاية حضرة صاحب الشوكة والاقتدار انما هي تأمين اسباب الترقي وحفظ الأمن والعمارة في الممالك وبناء على ان الامتيازات والشرائط المخصوصة الممنوحة للخديوية المصرية مبنية على نما الحضرة

الشاهانية من المقاصد المذكورة الخيرية وبناء على تزايد اهمية ما حصل في القطر المصر ناشئًا عما وقع فيهِ من المشكلات الداخلية والخارجية الفائقة العادة وجب تنازل والد جنابكم العالي اسماعيل باشا . ثم انهُ بناء على ما اتصفت بهِ ذاتكم السامية الآصفية من الرشد وحسن الروية وعلى ما ثبت لدى ملجاءِ الخلافة الاسمى من ان جنابكم الداوري ستوفقون الى استحصال اسباب الامنية والرفاهية لصنوف الاهالي والى ادارة امور المملكة على وفاق ارادة الحضرة الشاهانية الملوكانية توجهت الارادة العلية بتوجيه الخديوية الجليلة الى عهدة استئهال آصفاينكم وبناء على الفرمان العلي الشأن الذي سيصدر حسب العادة على مقتضى الارادة السنية السلطانية التي صار شرف صدورها وبناء على ما كتب في التلغراف الى حضرة المشار اليهِ اسماعيل باشا من تخليهِ عن النظر في امور الحكومة وتفرغهِ منها بصورة وقوع انفصالهِ قد تحرر تلغراف هذا العاجز لكي يعلن حال وصولهِ للعلماء والامراء والاعيان واهل المملكة جميعًا وتباشر من بعد امور الحكومة وهذا من التوجيهات الوجيهة الى اثر استحقاق آصفاينكم لتجري التنظيمات والترقيات مبدأً ومقدمة ويصير تكرير الدعاء بتوفيق الذات الجليلة الفخيمة السلطانية ولذلك صارت المبادرة الى ايفاء لوازم التهنئة لحضرتكم ايها الخديوي المعظم والامر والفرمان على كل حال لمن لهُ الامر افندم »

الامضاء

خير الدين

فصدرت الاوامر باعداد ما يلزم للاحتفال بذلك وجلس سموهُ في القلعة يستقبل المهنّين من الوزراء والعلماء يتقدمهم نقيب الاشراف ثم القاضي ثم شيخ الجامع الازهر ثم جاء القناصل وبعد ذلك دخل الذوات وامراء العسكرية والملكية ثم رجال الحقانية ثم النواب ووجهاء البلاد ثم ارباب الجرائد ثم الموظفون والمستخدمون وغيرهم . ومن جملة من وفد للتهنئة

وفد ماسوني جاء بالنيابة عن الشرق الاعظم المصري فقدم عبوديته فنال من سموهِ عواطف الرضاء عنهم وعن اعمالهم ووعدهم رعاية محافلهم وحمايتها فانصرفوا شاكرين . وبعد ذلك ارسل الجناب الخديوي تلغرافًا الى الباب العالي جوابًا على التلغراف المؤذن بارتقائهِ الى كرسي الخديوية

وفي ١١ رجب سنة ١٢٩٦ ه (٣٠ يونيو (حزيران) ١٨٧٩ م) سافر الخديوي السابق من القاهرة الى الاسكندرية ومنها ركب وسافر على الباخرة (المحروسة) الى اوربا وكان لوداعهِ على المحطة في القاهرة ازدحام وفي مقدمة المودعين سمو نجلهِ الخديوي الحالي فكلم اسماعيل باشا الجمهور مودعًا ثم خاطب نجلهُ قائلاً

« لقد اقتضت ارادة سلطاننا المعظم ان تكون يا اعز البنين خديوي مصر فاوصيك باخوتك وسائر الآل برًّا واعلم اني مسافر وبودي لو استطعت قبل ذلك ان ازيل بعض المصاعب التي اخاف ان توجب لك الارتباك على اني واثق بجزمك وعزمك فاتّبع رأي ذوي شوراك وكن اسعد حالاً من ابيك » [1]

ثم عين مجلس النظار رواتب العائلة الخديوية فتنازل سمو الخديوي عن عشرين الف جنيه من راتبهِ الخصوصي على ان يضمها لراتب والدهِ . ثم استعفت الوزارة جريًا على المعتاد فنظمها الامير الجديد تحت رئاسة شريف باشا وكتب اليهِ رقيمًا بذلك وبعث ايضًا الى هيئة النظار منشورًا بتاريخ ١٤ رجب سنة ١٢٩٦ ه يظهر فيهِ افكارهُ وآراءهُ ومستقبل سياستهِ واجرآات حكمهِ

ومضت مدة بعد ورود تلغراف الباب العالي المؤذن بولاية توفيق

---

(١) وقال اخرون انهُ خاطبهُ بذلك في منزلهِ وانهُ بارح العاصمة في ٢٦ يونيو

باشا ولم يرد الفرمان السلطاني المؤيد لذلك فاختلفت اقوال الناس وظنونهم في اسباب تأخر الباب العالي عن اصداره . وفي اثناء ذلك صدر الامر للجهادية بصرف عشرة آلاف من الجند المجتمعين تحت السلاح وجعل الجيش اثنى عشر الفًا واهتمت الوزارة بتسوية الدين السائر وغيره . وفي ٢٦ شعبان سنة ١٢٩٦ ﻫ (١٤ اوغسطس «آب» سنة ١٨٧٩ م) ورد الفرمان الشاهاني الآمر بتولية سموّ محمد توفيق باشا خديوية مصر وتعريبهُ .

« فرمان تولية توفيق باشا المعظم »

«الدستور الاكرم والمعظم الخديوي الافخم المحترم نظام العالم وناظم مناظم الامم مدبر امور الجمهور بالفكر الثاقب متمم مهام الانام بالرأي الصائب ممهد بنيان الدولة والاقبال مشيد اركان السعادة والاجلال مرتب مراتب الخلافة الكبرى مكمل ناموس السلطنة العظمى المحفوف بصنوف عواطف الملك الاعلى خديوي مصر الحائز لرتبة الصدارة الجليلة فعلاً الحامل لنيشاننا الهمايوني المرصع العثماني ولنيشاننا المرصع المجيدي وزيري سمير المعالي توفيق باشا ادام الله تعالى اجلالهُ وضاعف بالتأييد اقتدارهُ واقبالهُ

« انهُ لدى وصول توقيعنا الهمايوني الرفيع يكون معلومًا لكم انهُ بناء على انفصال اسماعيل باشا خديوي مصر في اليوم السادس من شهر رجب سنة ١٢٩٦ ﻫ وحسن خدامتكم وصداقتكم واستقامتكم لذاتنا الشاهانية ولمنافع دولتنا العلية ولما هو معلوم لدينا من ان لكم وقوفًا ومعلومات تامة بخصوص الاحوال المصرية وانكم كفوء لتسوية بعض الاحوال الغير المرضية التي ظهرت بمصر منذ مدة واصلاحها وجَّهنا الى عهدتكم الخديوية المصرية المحدودة بالحدود القديمة المعلومة مع الاراضي المنضمَّة اليها المعطاة الى ادارة مصر توفيقًا للقاعدة المتخذة بالفرمان العالي الصادر في ١٢ محرم سنة ١٢٨٢ ﻫ المتضمن توجيه الخديوية المصرية الى اكبر الاولاد وحيث

انكم اكبر اولاد الباشا المشار اليهِ قد وجهت الى عهدتكم الخديوية المصرية .
ولما كان تزايد عمران الخديوية المصرية وسعادتها وتأمين راحة كافة اهاليها وسكانها ورفاهيتهم هي من المواد المهمة لدينا ومن اجل مرغوبنا ومطلوبنا وقد ظهران بعض احكام الفرمان العلي الشأن المبني على تسهيل هذه المقاصد الخيرية المبين فيهِ الامتيازات الحائزة لها الخديوية المصرية قديمًا نشأت عنها الاحوال المشكلة الحاضرة المعلومة فلذلك صار تثبيت المواد التي لا يلزم تعديلها من هذه الامتيازات وتأكيدها وصار تبديل المواد المقتضى تبديلها وتعديلها واصلاحها فما نقرر اجراؤهُ الآن هو المواد الآتية وهي
«ان كافة واردات الخطة المذكورة يكون تحصيلها واستيفاؤها باسمنا الشاهاني . وحيث ان اهالي مصر ايضًا من تبعة دولتنا العلية وان الخديوية المصرية ملزومة بادارة امور المملكة والمالية والعدلية بشرط ان لا يقع في حقهم ادنى ظلم ولا تعدٍّ في وقت من الاوقات فخديوي مصر يكون مأذونًا بوضع النظامات اللازمة للداخلية المتعلقة بهم وتأسيسها بصورة عادلة . وايضًا يكون خديوي مصر مأذونًا بعقد وتجديد المشارطات مع مأموري الدول الاجنبية بخصوص الجمرك والتجارة وكافة امور المملكة الداخلية لاجل ترقي الحرف والصنائع والتجارة واتساعها ولاجل تسوية المعاملات السائرة التي بين الحكومة والاجانب او بين الاهالي والاجانب بشرط عدم وقوع خلل بمعاهدات دولتنا العلية البولوتيقية وفي حقوق متبوعية مصر اليها وانما قبل اعلان الخديوية المشارطات التي تعقد مع الاجانب بهذه الصورة يصير تقديمها الى بابنا العالي . وايضًا يكون حائزًا للتصرفات الكاملة في امور المالية لكنهُ لا يكون مأذونًا بعقد استقراض من الآن فصاعدًا بوجه من الوجوه وانما يكون مأذونًا بعقد استقراض بالاتفاق مع المداينين الحاضرين او وكلائهم الذين يتعينون رسميًا .
وهذا الاستقراض يكون منحصرًا في تسوية احوال المالية الحاضرة ومخصوصًا

بها وحيث ان الامتيازات التي أُعطيت الى مصر هي جزء من حقوق دولتنا العلية الطبيعية التي خصّت بها الخديوية واودعت لديها لا يجوز لاي سبب او وسيلة ترك هذه الامتيازات جميعها او بعضها او ترك قطعة ارض من الاراضي المصرية الى الغير مطلقًا ويلزم تأدية مبلغ ٧٥٠ الف ليرة عثمانية الذي هو الويركو المقرر دفعهُ في كل سنة في اوانه وكذلك جميع النقود التي تضرب في مصر تكون باسما الشاهاني ولا يجوز جمع عساكر زيادة عن ثمانية عشر الفًا لان هذا القدر كافٍ لحفظ امنية ايالة مصر الداخلية في وقت الصلح . وانما حيث ان قوة مصر البرية والبحرية مرتبة من اجل دولتنا يجوز ان يزاد مقدار العساكر بالصورة التي تستتب فيها حالة دولتنا العلية محاربة وتكون رايات العساكر البرية والبحرية والعلامات المميزة لرتب ضباطهم كرايات عساكرنا الشاهانية ونياشينهم ويباح لخديوي مصر ان يعطي الضباط البرية والبحرية الى غاية رتبة اميرالاي والملكية الى الرتبة الثانية ولا يرخص لخديوي مصر ان ينشئ سفنًا مدرعة الاّ بعد الاذن وحصول رخصة صريحة قطعية اليهِ من دولتنا العلية . ومن اللزوم وقاية كافة الشروط السالفة الذكر واجتناب وقوع حركة تخالفها وحيث صدرت ارادتنا السنية باجراء المواد السابق ذكرها قد اصدرنا امرنا هذا الجليل القدر الموشح اعلاهُ بخطنا الهمايوني وهو مرسل صحبة افتخار الاعالي والاعاظم ومختار الاكابر والافاخم علي فواد بك باشكاتب المابين الهمايوني ومن اعاظم دولتنا العلية الحائز والحامل للنياشين العثمانية والمجيدية ذات الشأن والشرف

« حرر في تاسع عشر شهر شعبان المعظم سنة ١٢٩٦ من هجرة صاحب العزة والشرف »

وفي غاية شعبان (١٧ اوغسطس (آب)) استعفت وزارة شريف باشا استعفاء غير مبني على سبب ظاهر فتألفت وزارة جديدة تحت رئاسة

الجناب الخديوي . وكان رياض باشا اذ ذاك خارج القطر المصري فامر الخديوي ان يستقدم تلغرافيًّا . وفي يوم الاربعاء ٣ سبتمبر (ايلول) سنة ١٨٧٩م الموافق ١٧ رمضان سنة ١٢٩٦ ه وصل رياض باشا الاسكندرية ومعهُ ولدهُ وتوجه توًّا الى المحروسة . وفي ٢١ منهُ كلفهُ الجناب الخديوي بتشكيل وزارة جديدة تحت رئاستهِ بعد ان قدم الوزراء استعفاءهم فلبّى الطلب ونظم وزارة جديدة ولم تمضِ ٣ اشهر على وزارتهِ حتى اخذت حال البلاد في التحسن وهدأَت الامور

وفي ١٨ رمضان سنة ١٢٩٦ ه (٤ سبتمبر (ايلول) ١٨٧٩ م) وقّع سمو الخديوي على الامر الناطق بتعيين الموسيو بارنج والمسيو دي بلينيار بصفة مفتشين ماليَّين . وفي اواخر هذه السنة ايضًا قدم نوبار باشا من اوربا واستعفى غوردون باشا من حكمدارية السودان وكان قد وليها سنة ١٢٩٠ ه (١٨٧٣ م) في عهد الخديوي السابق وتعيّن رأُوف باشا في مكانهِ وفي ايامهِ ظهر المهدي بدعوتهِ . ثم كلّفت الوزارة الجناب الخديوي ان يتجوَّل في انحاء القطر جريًا على المألوف في مثل هذه الحال اي في حال تولية امير جديد فسار سموهُ في ١٠ صفر سنة ١٢٩٧ ه او ٢٢ يناير (ك ٢) ١٨٨٠ م نحو الصعيد ثم الى الوجه البحري وعاد الى المحروسة في ٤ مايو

وفي ١١ يناير من تلك السنة قرر مجلس النظار تشكيل لجنة خصوصية للنظر في مبادي اعمال التصفية ومرجع هذه اللجنة ينحصر في ناظر المالية وكاتب اسرارهِ الثاني . ولما قدم المفتشان العموميان الى مصر نظما لائحة فيما يتعلق بتسوية الدين المنظم . وفي ٥ صفر سنة ١٢٩٧ ه او ١٧ يناير (ك ٢) ١٨٨٠ م صدر الامر العالي بالغاء الضرائب الدنيئة والشخصية التي لا يتجاوز مجموعها ستماية الف جنيه في السنة وذلك بناء على تقرير رفعهُ اليهِ ناظر المالية

وفي ٩ صفر او ٢١ يناير (ك ٢) صدر امرٌ خديوي متعلق بابطال

بون حليم باشا . وفي ٢٥ ربيع آخر او ٥ افريل (نيسان) من هذه السنة تعينت لجنة التصفية مؤلفة من خمسة اعضاء ورئيس اوربا ويين وعضو وطني هو بطرس بك غالي (اليوم بطرس باشا) لينوب عن الحكومة المصرية . وفي ١٨ جمادى الاولى او ١٧ افريل (نيسان) عقدت اللجنة جلستها التمهيدية وجرت المخابرات بين المفتشين الماليين ولجنة التصفية فيما يجب تقريرهُ بخصوص المواد الآتية (١) الدين الممتاز (٢) الموحد (٣) التعيينات (٤) متأخرات كوبونات الموحد (٥) القروض القريبة الآجال (٦) بيان اجمال الدين غير المنظم (٧) لائحة تتضمن مسائل عديدة وديونًا متنوعة . وفي ١٨ جمادى الآخرة او ٢٧ مايو « ايار » رفع رياض باشا الى سموّ الخديوي كتابًا يتضمن بيان احتياج البلاد الى تعميم المعارف . فامر سموهُ بتشكيل لجنة للنظر في ما يتعلق بالتعليم العمومي وما يحتاج اليهِ من التحوير تحت رئاسة علي باشا ابراهيم ناظر المعارف اذ ذاك . وفي ١٦ رجب او ٢٣ يونيو « حزيران » تعين الموسيو كولفن مفتشًا ماليًا بدلاً من المستر بارنج . وفي ١٩ رجب ورد تلغراف من الباب العالي بتوجيه رتبة المشيرية الى رياض باشا

وفي ١٠ شعبان او ١١ يوليو « تموز » أتمت لجنة التصفية اعمالها وانهت قانونها وصادق عليهِ الجناب الخديوي وهاك ملخَّصهُ

(١) ان صافي ايرادات السكك الحديدية والتلغرافات وميناء الاسكندرية يكون مخصَّصًا لتسديد فوائد واستهلاك الدين الممتاز دون غيرهِ اما فائدتهُ فتبقى ٥ بالماية على القيمة الاسمية . والقيمة التي تدفع سنويًّا لفائدة واستهلاك هذا الدين تكون ١١٥٧٧٦٨ جنيهًا سنويًّا

(٢) ان صافي ايرادات الكمارك وعوائد الدخان الوارد ومديريات الغربية والمنوفية والبحيرة واسيوط بما فيهِ جميع الرسوم المقررة الاّ ايراد الملح والدخان البلدي . جميع صافي هذه الايرادات تبقى مخصصة لتسديد الدين

الموحد والفائدة باعتبار اربعة بالماية

(٣) ان املاك الدائرة السنية واملاك الدائرة الخاصة المذكورة في الكشوفات والرهونات العقارية المسجلة وغيرها تكون ملكًا للحكومة وهي تكون مخصصة لضمانة دين الدائرة السنية العمومي

(٤) تسوية الدين السائر تكون من البواقي من سلفة الاملاك الاميرية ومن النقود الباقية لغاية سنة ١٨٧٩ م في خزينة النظارات والمديريات والمصالح التي لم تخصص للدين المنتظم ومن الزائد من دفعات المقابلة وموجود نقدية في صندوق الدين العمومي ومن المبالغ التي يمكن تحصيلها من المتأخرات لغاية ١٨٧٩ م من العوائد والرسوم والاموال من اي نوع كانت ومن العقارات الجائز للحكومة التصرف بها ولم تكن مخصصة وما ينتج من تغيير البونات او السندات ومن سندات الدين الممتاز التي توجد على مقتضى المدون في البند السادس من قانون التصفية ومن الجزء المخصص لاستهلاك الدين المنتظم حسب المدون في البند ١٥ من القانون ومن الزيادات التي تظهر في الموازين كما هو مبين في البند السابع من قانون التصفية

هذه شذرة صغيرة من قانون التصفية ومن احبَّ التفصيل فليراجع القانون نفسهُ فانهُ مؤلف من ٩٩ بندًا وبرفقتهِ كشفان عن التسويات التي حصلت وغيرها

وتكاثر منح الرتب من انعام الحضرة الخديوية في ذلك الاثناء وكانت الرتب تستلزم زيادة المرتبات كما هي الحال الآن في رتب الجهادية فملافاة للتثقيل على المالية اصدرت نظارة الداخلية امرًا مفادهُ ان الرتب الملكية لا توجب زيادة المرتب وانما تكون لتحلية ذويها بحلية الشرف فقط

واشتهر سمو الخديوي بميلهِ الخصوصي الى ابناء البلاد ورفع شأنهم وبث الحرية بين ظهرانيهم فتألفت قلوبهم واتحدت كلمتهم ووجهوا انتباههم

الى اصلاح شؤونهم . وانما كانت تلك الحرية لدى البعض هبة في غير محلها وقبل اوانها فجاءت بامور آلت الى الثورة العرابية التي كانت عثرة في سبيل فلاحهم فاوصلت البلاد الى ما نراها عليهِ الان

الحوادث العرابيَّة

ولد احمد عرابي في سنة ١٢٤٨ه وقيل سنة ١٢٥٧ ه او سنة ١٨٥٩ م في قرية (هرية رزنة) من مديرية الشرقية من عائلة بدوية الاصل وفي سنة ١٢٧٣ ه انتظم في سلك العسكرية في عهد المغفور لهُ محمد سعيد باشا ثم ترقى في ايامهِ الى رتبة الملازم ثم الى رتبة اليوز باشي ولم تأتِ سنة ١٢٧٦ ه حتى بلغ رتبة بكباشي . وفي سنة ١٢٧٧ه نال رتبة القائمقام ثم اعتزل الخدمة ثم عاد اليها في اوائل ولاية اسماعيل باشا سنة ١٢٧٩ه وما زال حتى وقعت بينهُ وبين خسرو باشا الشركسي مخاصمة ادت الى ابعاد عرابي من الخدمة العسكرية مدة سنة وهذا سبب بغضهِ للشراكسة ثم الحق باشغال الدائرة الحلمية واقترن بابنة مرضعة المرحوم الهامي باشا التي هي شقيقة حرم الخديوي الحالي بالرضاع فعفا عنهُ الخديوي السابق وارجعهُ الى وظيفتهِ في احد الالايات سنة ١٢٩٢ ه فاخذ من ذلك الحين في تأليف قلوب الضباط وجمع كلمتهم على ولائهِ بما كان يظهرهُ من الاسف على حرمانهم من الترقيات حال كون غيرهم من الشراكسة والاتراك متمتعين بها الى غير ذلك

وما زال في ذلك الى تولية الخديوي الحالي فارتقى الى رتبة امير الاي سنة ١٢٩٦ ه او ١٨٧٩ م وكان على نظارة الجهادية عثمان باشا رفقي شارعاً في سن قانون عسكري يؤخذ من فحواه حرمان كل من تحت السلاح من الترقي فتذمر عرابي ورفاقهُ وحملوا ذلك على الايقاع بابناء

الوطن وجعلهم انفارًا تحت سلطة الترك والشراكسة فاجتمع ثلاثة من زعمائهم وهم علي فهمي (كان علي باشا فهمي) وعبد العال (عبد العال باشا) واحمد عبد الغفار (احمد بك عبد الغفار) في منزل عرابي وتآمروا على معاكسة ذلك القانون ومنع صدوره فتحالفوا وحثّوا ضباط الالايات على التشيع لهم بعد ان اقنعوهم بنبالة مقصدهم واجمع رأيهم على كتابة تقارير ممضية من جميع الضباط مرفوعة اليهم بالتظلم من ناظر الجهادية وطلب تنزيله فحفظوها عندهم وقدموا تقريرًا منهم رفعوهُ الى مجلس النظار يطلبون تنزيل ناظر الجهادية فصدر امر النظار بسجنهم في قصر النيل فاستُدعوا اليهِ فساروا بعد ان امروا الالايات بالاستعداد للمقاومة عند اول اشارة . فلما وصلوا الى القصر جُرّدوا من سلاحهم وأُودعوا السجن فوصلت الاشارة الى الاي عابدين فسار الى قصر النيل واخرج المسجونين بالعنف وبعثوا الاعلامات الى الاي العباسية والاي طره بالحضور حالاً الى سراي عابدين وبعد يسير اجتمعت الالايات امام سراي عابدين رغماً عما حاولهُ الجناب الخديوي من منع مجيئهم بواسطة الرسل والتهديد ولما تمّ اجتماعهم قام عرابي خطيبًا فيهم فشكرهم على تلك الهمة والغيرة وكانت ساحة عابدين غاصة بجماهير المتفرجين ثم تقدم عرابي امام سمو الخديوي وطلب لهم العفو عما اتوهُ من القحة . وطلب خلع عثمان باشا رفقي ناظر الجهادية . فاجاب سموهُ الطلب وجعل على نظارة الجهادية محمود سامي (كان محمود باشا سامي)

وبعد ان سكنت عوامل هذه الحركة خاف زعماء الثورة من هذا النجاح السريع واعتبروا اجابة طلبهم هذه مكيدة من الحكومة لتسكين جاشهم ثم تحتال للاغتيال بهم فاكثروا من التحفظ وشرعوا في عقد مجالس سرية ليلية في منزل احمد عرابي يدعون اليها خواصهم ويتفاوضون في امر اجتماع كلمتهم والوقاية من الاغتيال فاقترحوا على ديوان الجهادية اقتراحات

عديدة تعزّز جانبهم فتمكن عرابي بذلك من استمالة قوم العسكرية فطفق يبث افكارهُ بين الاهالي من مشايخ العربان وعمد البلاد واعيانها وعلمائها وتجارها استجلاباً لمساعدتهم في مشروعهِ العائد الى نفعهم على ما زعم وكتب اليهم في ذلك منشورات ثوروية ايقاعاً بالوزارة الرياضية

وفي ٢١ جمادى الاولى سنة ١٢٩٨هـ او ٢٠ ابريل (نيسان) ١٨٨١م اصدر الجناب الخديوي بناء على اقتراح رياض باشا رئيس النظار امرًا عاليًا بشأن زيادة مرتبات الضباط والعساكر وتعديل النظامات والقوانين العسكرية بناء على طلب محمود سامي ناظر الجهادية فاحتفل هذا احتفالاً فاخرًا في قصر النيل دعا اليهِ النظار والمفتشين احتفاء بصدور ذلك الامر خطب فيهِ رياض باشا ومحمود سامي واحمد عرابي ثناء طيبًا على المكارم الخديوية لما منحتهُ لجماعة الجهادية من الانعام

وفي ٢٨ شعبان او ٢٥ يوليو (تموز) كان الجناب الخديوي في مصيفهِ في الاسكندرية فاتفق ان عربة احد تجار الاسكندرية صدمت جنديًّا من الطبجية صدمة قضت عليهِ فحملهُ رفقاؤهُ الى سرايْ راس التين وطلبوا الى الخديوي النظر في امرهِ فوعدهم فسكن جاشهم . وبعد بضعة ايام تشكل مجلس حربي اصدر حكمهُ على النفر الذي حمل رفقاءهُ على المسير الى راس التين بالاشغال الشاقة طول حياتهِ . اما رفقاؤهُ وعددهم نحو الثمانية فحكم عليهم بثلاث سنوات في الليمان وبعد ذلك يرسلون الى السودان انفارًا للجهادية . فبعث عبد العال امير الفرقة السودانية الى ناظر الجهادية محمود سامي يشكو من قسوة ذلك الحكم فرفع سامي تلك الشكوى الى الخديوي فتكدر واستدعى في الحال الوزراء تلغرافيًا الى الاسكندرية فاتوها في ٧ رمضان او ٢ اوغسطس (آب) وعقدوا برئاستهِ مجلسًا قدم فيهِ ناظر الجهادية استعفاءهُ فقبل وعين بدلاً منهُ داود باشا يكن واستلم الاعمال وعاد النظار الى العاصمة وهدأَت الاحوال

وفي شوال او سبتمبر (ايلول) بعد عود الجناب الخديوي من الاسكندرية صدر امرٌ من نظارة الجهادية الى الاي القلعة بالتوجه الى الاسكندرية وامرٌ آخر الى الاي الاسكندرية بالمجيء الى المحروسة فاوعز عرابي الى الاي القلعة ان تلك الاوامر لا يقصد بها الّا تفريق كلمتهم فصرَّح ذلك الالاي بعدم امتثالهِ لما أُمر بهِ . وفي خلال ذلك كان عرابي يخاطب الالايات بالاشارة ان يستعدوا للحضور الى ميدان عابدين في اول سبتمبر ثم ارسل كتابة الى الجناب الخديوي والى نظارة الجهادية يخبرهم فيها ان الجيش سيحضر الى سراي عابدين لابداء اقتراحات عادلة تتعلق باصلاح البلاد وكتب مثل ذلك الى قناصل الدول مبينًا ان لا خوف من هذه الحركات على ابناء تابعيتهم لانها متصلة الغاية بالاحوال الداخلية . فارسل الجناب الخديوي وفدًا الى زعماء الثورة وهم عرابي وعبد العال واحمد عبد الغفار ينصحهم ان يكفوا عن اجراآتهم وتوجه سموهُ بنفسهِ الى الاي عابدين واخذ ينصحهم فتظاهروا بالانتصاح وتوزعوا في نوافذ السراي وقاية لها ثم توجه وفي معيتهِ النظار الى القلعة للغرض عينهِ . فاجابهُ الجيش هناك «نحن مطيعون لاوامر ولي نعمتنا غيرانا اخبرنا بان المقصود من تسفيرنا اغراقنا في كري كفر الزيات» فقال سموهُ لمن معهُ يظهر ان العساكر مغرورون ثم تركهم وقصد العباسية لايقاف عرابي فلم يجدهُ وقيل لهُ انهُ سار في جندهِ الى عابدين فعاد سموهُ ايضًا اليها

ولما تكامل اجتماع الالايات في ميدان عابدين في ١٠ شوال سنة ١٢٩٨ هـ (٩ سبتمبر (ايلول) ١٨٨١م) كانت الساحة غاصة بجماهير المتفرجين وقناصل الدول داخل السراي فاشرف الجناب الخديوي من السلاملك وامر باحضار عرابي فحضر على جواده مشهرًا سيفهُ وحولهُ ضباط السواري فامرهُ باغماد السيف والترجل وابعاد الضباط ففعل

فقال الخديوي الم اك سيدك ومولاك
« عرابي نعم
« الخديوي الم ارقّك الى رتبة الميرالاي
« عرابي نعم ولكن بعد ترقية نحو الاربعماية
« الخديوي وما هي اسباب حضورك بالجند الى هنا
« عرابي لنوال طلبات عادلة
« الخديوي وما هي هذه الطلبات
« عرابي هي اسقاط الوزارة وتشكيل مجلس النواب وزيادة عدد الجيش والتصديق على قانون العسكرية الجديد وعزل شيخ الاسلام
« الخديوي كل هذه الطلبات ليست من خصائص العسكرية

فكف عرابي واشارت القناصل على الخديوي ان ينقلب الى داخل . ثم قال قنصل انكلترا الى عرابي بالنيابة عن الجناب الخديوي « ان اسقاط الوزارة من خصائص الخديوي وطلب تشكيل مجلس النواب من متعلقات الامة ولا وجه لزيادة الجيش لان البلاد في طمأنينة فضلاً عن ان مالية البلاد لا تساعد على ذلك اما التصديق على القانون فسينفذ بعد اطلاع الوزراء عليه اما عزل شيخ الاسلام فلا بد من اسناده على اسباب »

فاجاب عرابي . اعلم يا حضرة القنصل ان طلباتي المتعلقة بالاهالي لم اقدم عليها الاَّ لانهم انابوني في تنفيذها بواسطة هؤلاء العساكر لانهم اخوتهم واولادهم فهم القوة التي ينفّذ بها كل ما يعود على الوطن بالمنفعة . واعلم اننا لا نتنازل عن هذه الطلبات ولا نبرح من هذا المكان ما لم تنفذ

القنصل . اذًا تريد تنفيذ اقتراحاتك بالقوة الامر الذي يخشى منهُ ضياع بلادكم

عرابي . ذلك لا يكون ومن ذا الذي ينازعنا في اصلاح داخليتنا

فاعلم اننا نقاومهُ اشد المقاومة الى ان نفنى عن آخرنا

القنصل . واين هذه القوة التي ستقاوم بها

عرابي . في وسعي ان احشد في زمن يسير مليونًا من العساكر طوع ارادتي

القنصل . وماذا تفعل اذا لم تنل ما طلبت

عرابي . اقول كلمة ثانية

القنصل . وما هي

عرابي . لا اقولها الاَّ عند القنوط

ثم انقطعت المخابرات بين الفريقين نحوًا من ثلاث ساعات تداول القناصل والخديوي اثناءها داخل السراي واستقر الرأي على اجابة طلبات عرابي وانفاذها تدريجيًّا لان بعضها يحتاج الى مخابرة الباب العالي فاصرَّ عرابي على تنزيل الوزارة قبل انصرافهِ فتنزلت واستدعي شريف باشا وبعد اللتيا والتي قبل بان يشكل وزارة جديدة بشرط ان يتعهد لهُ رؤساء الحزب العسكري بالامتثال لاوامرهِ وان يتقدّم عمد البلاد ضمانة على ذلك فحصل وتشكلت الوزارة وجعل محمود سامي ناظرًا للجهادية .

فاوعز شريف باشا الى عرابي ان يتوجه بالايهِ الى راس الوادي في مديرية الشرقية والى عبد العال ان يسير بالايهِ الى دمياط فامتثلا وسارا الى حيث أُمرا باحتفال عظيم وخطب عبدالله نديم محرر جريدة الطائف وحسن الشمسي محرر جريدة المفيد في المحطة خطبًا هنأ وا بها الحزب الوطني على فوزهِ

ولما استقر عرابي في رأس الوادي جعل يتجول في انحاء المديرية يبثُّ مبادية في نفوس عمد البلاد ومشائخ العربان فاستدعتهُ الحكومة الى العاصمة وعرضت عليهِ رتبة لواء و وظيفة وكيل نظارة الجهادية فقبل الثانية ورفض الاولى ليبقى الالاي في عهدتهِ . ولما استوى على منصبهِ

الجديد جعل يعقد المحافل في منزلهِ علانية وتوسط بالعفو عن حسن موسى العقاد احد تجار المحروسة وكان مبعدًا في السودان فاجابهُ الجناب الخديوي الى ذلك ثم سعى الى عزل الشيخ العباسي من مشيخة الاسلام واستبدالهِ بالشيخ الامبابي

وفي ٢٨ شوال سنة ١٢٩٨ ه (٢٢ سبتمبر (ايلول) ١٨٨١ م) صدقت الحكومة المصرية على القوانين العسكرية الجديدة وهي من ضمن طلبات الجهادية يوم حادثة عابدين تحتوي على قانون الاجازات العسكرية البرية والبحرية وقانون المستودعين وقانون معاشات الجهادية البرية والبحرية وفروعها وقانون القواعد الاساسية في النظامات العسكرية وقانون الترقي وقانون الضائم والامتيازات والاعانة العسكرية . وبعد التصديق عليها جاء الى شريف باشا وفد جهادي وقدموا لهُ الشكر على اعتنائهِ بمطاليبهم وبينوا ارتياحهم الى وزارتهِ واكدوا لهُ اخلاصهم

وفي ١١ ذي القعدة او ٤ اكتوبر (ت ١) من تلك السنة صدر الامر العالي باعتماد اللائحة في انتخاب مجلس النواب بناء على تقرير رفع الى شريف باشا مذيلاً بالف وستمائة توقيع يتضمَّن طلب تشكيل المجلس النيابي ومن مقتضى تلك اللائحة ان يكون النواب واحد او اثنين من كل قسم من اقسام المديرية و٣ من مصر و ٢ من الاسكندرية وواحد من دمياط على شروط مذكورة في اللائحة . ووزعت نظارة الداخلية منشورات بشأن ذلك في المديريات

وفي ١٧ ذي القعدة سنة ١٢٩٨ ه او ١٠ اكتوبر (ت ١) ١٨٨١ م وصل الى الاسكندرية وفد عثماني وهو عبارة عن لجنة مخصوصة مبعوثة من الاستانة بامر الجناب السلطاني مؤلفة من نظامي باشا وراضي باشا وعلي فؤاد بك وصفر افندي فاستُقبلوا في الاسكندرية وفي يوم وصولهم قدموا العاصمة فانزلهم الجناب الخديوي في قصر النزهة في شبرا وفي اليوم التالي

ساروا لمقابلة سموهِ في سراي الاسماعيلية وبلغوهُ رضى الجناب السلطاني عما توجهت اليهِ همم الحضرة الخديوية من تحسين الاحوال وحفظ النظام وإن حضور هذا الوفد انما هو عنوان ما للذات الملوكية من الاعتماد وشدة الوثوق بحضرة الخديوي المعظم وإن المقصد الاول من حضورهم انما هو تأبيد نفوذهِ وتعزيز موقعهِ وتثبيت مركزهِ فشكر سموهُ لتعطفات الحضرة السلطانية وابتهل الى الله تعالى بدوام بقائها . ثم قاموا وانصرفوا وبعد يسير سار الجناب الخديوي لرد تلك الزيارة . ثم سار علي نظامي باشا لزيارة الالاي قصر النيل فاحتفل بهِ محمود سامي احتفالاً عظيماً وبعد ان لاحظ نظامي باشا حركات الالاي اثنى على اميرهِ . ثم زار شيخ الاسلام ونقيب الاشراف . وإقام رجال الوفد في مصر بضعة عشر يوماً ادبت لهم فيها المآدب وكان الناس يرحبون بهم . ثم ظهر للوفد ان ليس في مصر ما يوجب الاضطراب فعادوا الى الاستانة راضين مقتنعين عن طريق الاسكندرية في ٢٦ ذي القعدة سنة ١٢٩٨ﻫ (١٩ اكتوبر (ت ١) ١٨٨١م)

ثم توجهت عناية شريف باشا الى تنظيم المحاكم الاهلية فانصرفت الانظار الى مشروع تنظيمها وفي ٢٥ ذي الحجة سنة ١٢٩٨ﻫ (١٧ نوفمبر (ت ٢) ١٨٨١م) صدر الامر العالي مؤذناً بذلك مع لائحة ترتيب المحاكم . وبتاريخهِ أُلغيت جريدتا الحجاز والجيبت الاولى لانها طعنت في الاجانب والثانية لخروجها عن الحد في التعبير عن الحضرة النبوية . وفيهِ انفذ الخديوي الى الاستانة وفداً مصرياً رداً للوفد العثماني الذي جاءهُ . وفيهِ انشئ صندوق للادخار في ديوان الجهادية يجعل فيهِ من ماهيات الضباط خمسة في المائة يشترى بمجموعها قراطيس مالية وتضم الفائدة الى الاصل كل عام ويشترى بالمجموع قراطيس وهكذا . ومثل ذلك فعل مستخدمو الدائرة السنية

وفي ١٩ محرم سنة ١٢٩٩ﻫ (٩ دسمبر (ك ١) ١٨٨١م) صدر الامر

العالي بتولية العلاّمة الشيخ الامبابي مشيخة الجامع الازهر بدلاً من الشيخ العباسي وقد تقدم ان عرابي كان ساعيًا الى ذلك . وفيهِ طلبت نظارة الجهادية ان يزاد في ميزانيتها مبلغ ١٢٠ الف جنيه فاجيب طلبها رغمًا عن امساك المالية عن اجابة مثل هذه الطلبات

وفي ٥ صفر سنة ١٢٩٩ ﻫ (٢٦ دسمبر (ك ١) سنة ١٨٨١ م) تم انتخاب اعضاء مجلس النواب بمقتضى اللائحة التي اشير اليها فكان مؤلَّفًا من اثنين وثمانين عضوًا أُقيم منهم المرحوم سلطان باشا رئيسًا وعبدالله باشا فكري رئيسًا للكتبة وأُعدّت قاعة المجلس في ديوان الاشغال لتكون مقرَّ انعقادهِ . وحضر تلك الجلسة الجناب الخديوي وقال المقالة الافتتاحية بيّن فيها شدة رغبتهِ في تأليف ذلك المجلس وتنشيطهِ . وقال انهُ يرجو ان يكون مساعدًا لهُ في نشر العلوم والمعارف بين افراد الامة مخلصًا في خدمة المصالح . وحضر تلك الجلسة ايضًا جميع الوزراء ورجال الدولة فتكلم كل منهم حسب مقتضى المقام . ثم نظر المجلس في بعض الامور الداخلية وارفضت الجلسة . وعكف مجلس شورى النواب على الاهتمام بشؤونهِ فرتب اقلامهُ وانتخب رؤساءها ثم وجه التفاتهُ على الخصوص الى اللائحة الاساسية الجديدة التي كان موعودًا من مجلس النظار بارسالها اليهِ لينظر فيها لان مجلس النواب افتتح بمقتضى اللائحة الشوروية القديمة

وفي ١١ صفر سنة ١٢٩٩ ﻫ (٢ يناير (ك ٢) ١٨٨٢ م) وفد شريف باشا على مجلس النواب لتقديم اللائحة الاساسية الجديدة التي اعدّها لهُ فقدمها وخطب في ذلك خطابًا اثر في اذهان النواب وقد جاءت هذه اللائحة مشتملة على احكام حرة وحدود مطلقة يكون بمقتضاها للنواب حق النظر في القوانين والمصروفات العمومية وان لا يُنفذ قانونٌ ولا يُعتبر نظام ما لم يصادق عليهِ في مجالسهم مع الحرية التامة لهم في ابداء ارائهم . فتعينت لجنة من اعضاء المجلس لمراجعة هذه اللائحة . وبعد الاجتماع مرات

عديدة قررت اكثر بنود اللائحة ووقع الخلاف بين النواب والنظار في شأن ما يتعلق بالميزانية من تلك اللائحة . وفي ٢٧ صفر من تلك السنة اعاد النواب اللائحة المذكورة الى النظار بعد ان بينوا ما يريدون تحويرهُ فيها . فرأى النظار ان يغيروا شيئًا من تحويرات النواب فلم يقبل أولئك وأصروا الَّا تنفيذ تحويرات لجنتهم . وفي ١١ ربيع اول سنة ١٢٩٩ ه (٣١ يناير (ك ٢) ١٨٨٢ م) اعاد النظار اللائحة الى النواب مرفوقة بافادة مفادها ان وكيلي الدولتين فرنسا وانكلترا يريان ان لا حقَّ لمجلس النواب في تقرير الميزانية ولكنهما مع ذلك يقبلان المخابرة في هذا الشأن بشرط ان يستقر الاتفاق بين النواب والحكومة على سائر بنود اللائحة . وبناء على ذلك تطلب الحكومة من النواب تصديقهم على اللائحة مع اغفال ما يتعلق بالميزانية ريثما يعطي النواب رأيهم النهائي فيهِ . فنظر النواب في تلك الافادة عدة ساعات فقرروا احالتها الى اللجنة التي كانت مكلفة بتنقيح اللائحة وطلبوا اليها اعادة النظر في التعديلات التي أدخلها مجلس النظار فصدقت على بعضها ورفضت البعض الآخر وادخلت على البند المتعلق بالميزانية تعديلاً على مقتضى ما ارادت . وقررت في الوقت نفسهِ عدم قبول تداخل القنصلين في ذلك الامر

وفي يوم الخميس ١٢ ربيع اول (٢ فبراير « شباط ») سارت لجنة مؤلفة من ١٥ نائبًا الى الجناب الخديوي يطلبون تنفيذ ما قرروهُ او استعفاء الوزارة فوعدهم سموهُ الى صباح السبت وانصرفوا فتقابل مع شريف باشا بحضور القنصلين فاصر شريف باشا على رأْيهِ واستعفى للحال فاستدعى الجناب الخديوي لجنة النواب وكلفها ان تختار رئيسًا للوزارة فقالوا ان ذلك من حقوق الجناب الخديوي فالح عليهم فامتنعوا ولكنهم قالوا نريد وزارة تنفذ لائحتنا فاختار لهم محمود سامي وقلَّدهُ منصب الوزارة وعهد اليهِ تشكيل وزارة جديدة فشكلها وجعل احمد عرابي ناظرًا للجهادية .

فسرَّ الحزب الوطني بذلك كل السرور ووردت لهم التهاني من سائر القطر من وطنيين واجانب واقام النواب احتفالاً لفوزهم . وفي ١٥ وبيع اول او ١٤ فبراير « شباط » اجتمع ضباط الجهادية من رتبة الصاغقول آغاسي فما فوق ومثلوا بين يدي الجناب الخديوي للتشكر واظهار الطاعة فشكرهم سموهُ وخاطبهم بما شفَّ عن حبهِ لاصلاح البلاد . وفي ١٩ ربيع اول حضر محمود سامي الى مجلس النظار فقوبل بالتعظيم والتكريم وسرَّ النواب بنفوذ رأيهم فخطب فيهم ونشطهم واقرَّ لهم على اللائحة كما حوروها . فلما علم الناس بالتصديق على لائحة النواب اقاموا الاحتفالات في مصر والاسكندرية سروراً بفوز الحزب الوطني واصبح الجهاديون القوة المتسلطة في البلاد واليهم بوجه الثناء كأن تلك المنى قد أُدركت بمساعيهم

ولما جلس عرابي على مسند نظارة الحربية والبحرية أُحسن عليهِ وعلى عبد العال برتبة لوا « باشا » ثم سعى الى ترقية كثيرين من رفقائهِ الضباط وقرر قانون الضمائم والمعاشات بصفة جمعت القلوب على ولائهِ . وتخلصاً من الحزب الشركسي الذي كان لا يزال متخللاً الجهادية شكل لجنة لفرز الضباط المستودعين ففرزت نحو الستماية منهم واكثرهم من الاتراك والشراكسة فاصبحت الجهادية وطنية محضة . وذكرت جرائد اوربا اذ ذاك ان الحزب الوطني وفي مقدمتهِ عرابي كان يتهدد مجلس النواب ويتوعدهُ بالسوء اذا لم يسر على غرضهِ فنشر رئيس المجلس المذكور في الجريدة الرسمية ما ينفي تلك التهمة . ثم تخصصت جريدة الطائف لنشر محاضر مجلس النواب والتكلم بافكار اعضائهِ والدفاع عنهم . وفي اواسط ربيع آخر او مارس « اذار » استعفى بلينيار احد المراقبين الماليين فعين بدلاً منهُ الموسيو بريديف . وفي ٦ جمادى الاولى سنة ١٢٩٩ هـ او ٢٦ مارس « اذار » سنة ١٨٨٢ م انفض مجلس النواب من اعمالهِ لتلك السنة وقد قرر فيها (١) القانون الاساسي (٢) لائحة الداخلية

(۳) لائحة الانتخاب (٤) امورًا اخرى مهمة . وقد تقرر في لائحة الانتخاب ثبوت حق الانتخاب والنيابة معًا لاي من كان من رعايا الحكومة سواءٌ كان مولودًا في القطر المصري او مقيمًا فيهِ منذ عشر سنين . ولما ودع النواب الجناب الخديوي سلم سموهُ كلاًّ منهم امرًا مؤذنًا بتعيينهِ عضوًا في المجلس المشار اليهِ الى خمس سنوات

ثم بلغ عرابي ان بعض ضباط الشراكسة المتأهبين للسفر الى السودان تكلموا بشأنهِ بما لا يليق وان في عزمهم الكيد بهِ فامر بالقبض عليهم فقُبض على اربعين منهم وفي جملتهم عثمان باشا رفقي ناظر الجهادية سابقًا واودعهم السجن في قصر النيل وعاملهم بالقسوة والغلظ . ثم تشكل مجلس حربي لمحاكمتهم برئاسة راشد باشا الشركسي فصدر الحكم عليهم بالنفي الى اقاصي السودان ثم خفف الجناب الخديوي هذا الحكم الى الابعاد عن القطر المصري . وبعد صدور ذلك الامر وقع الخلاف بين الخديوي والنظار في هذا الشأن فاجتمع النظار في ١١ مايو «ايار» اجتماعًا طويلاً حضر اثناءهُ وكلاء الدول وسألوا النظار عن حال الاوربيين في القطر المصري وعما اذا كان يتوعدهم خطر فاكدوا لهم ان لا شيء في الامر من مثل ذلك

ثم بعث النظار يستقدمون النواب من بلادهم للاجتماع والنظر في امرِ ذلك الخلاف فاجتمعوا وحاولوا اصلاح الخلاف فلم ينوزوا وسار وفدٌ منهم الى الجناب الخديوي يرجونهُ اجابة سؤلهم فاجابهم آسفًا لعدم امكانهِ ذلك فعادوا واخبروا بما كان فتعينت لجنة ثانية في ٢٥ جمادى الاخرة سنة ١٢٩٩ هـ و١٤ مايو «ايار» ١٨٨٢ م لتعرض على سموهِ قبول الاقتراح بشرط ان يتنزل رئيس النظار فقط وان يجعل مكانهُ مصطفى باشا فهمي فتوجهوا وعرضوا ذلك على سموهِ فقبل بعد التردد . فساروا الى مصطفى باشا فهمي يسألونهُ اذا كان يقبل تلك الرئاسة فابى

فعادت المسألة الى مركزها الاول بل زادت تجسّماً فوقفت حركة الاعمال وبانت العيون شاخصة الى ما سيكون . واجتهد سلطان باشا الى توفيق ذلك الخلاف بكل طريقة ممكنة وساعدهُ ناظر المعارف وناظر الاوقاف فلم ينجح . وبينما هم في ذلك ورد تلغراف من لندرا منبئ بصدور الامر الى الاسطول الانكليزي الراسي في بحر المانش ان يتأهب ليسافر في ٢٨ مايو الى البحر المتوسط فاوجس الناس خيفة

وما زال النواب يسعون الى حل ذلك المشكل بدون نتيجة فاستدعوا العلماء والوجهاء لعقد اجتماع عمومي يتخارون فيهِ ويتشاورون في كيفية حلهِ . فاجتمعوا في ٢٧ جمادى الآخرة او ١٥ مايو «ايار» وسارت منهم لجنة الى الجناب الخديوي وما زالوا يستعطفونهُ حتى وافقهم على ما ارادوا مع استبقاء الوزارة . وفي اليوم التالي سار النظار الى دواوينهم وبعثوا الى الجهات يبشرون بزوال الخلاف الا ان الهواجس لم تهدأ تماماً . ثم كثرت الاشاعات عن قرب وصول الاسطول الانكليزي واسطول آخر فرنساوي فازداد الاضطراب وتلونت الاقاويل . ثم ورد تلغراف من اكريت ينبئ بخروج الاسطول الفرنساوي منها قاصداً ثغر الاسكندرية وان الانكليزي باقٍ فيها ينتظر قدوم الاسطول العثماني فيأتي الاثنان في وقت واحد وينضمّان الى الاسطول الفرنساوي

وفي مساء الجمعة غرة رجب او ١٩ مايو «ايار» وفدت على مينا الاسكندرية دارعة انكليزية وفي الصباح التالي دارعتان اخريان وثلاث دوارع فرنساوية فاطلقت المدافع للسلام كالعادة . ثم جعلت البواخر ترد الى ذلك الثغر حتى تكامل الاسطولان ولم يكن معهما اسطول عثماني فكثر تقول الناس في سبب قدوم هذه العمارات على هذه الصورة . ثم اشيع ان قدومها كان بوفاق مع الباب العالي وبارتياح الدول عموماً بشرط ان تسرع بعد انهاء المشاكل الى الانسحاب

وفي ٧ رجب او ٢٥ مايو «ايار» قدَّم قنصلا انكلترا وفرنسا بلاغًا نهائيًّا من دولتيهما تطلبان فيهِ سقوط الوزارة وخروج عرابي من القطر المصري بان تضمنا لهُ حفظ رتبهِ ورواتبهِ ونياشينهِ وإبعاد عبد العال حلمي وعلي فهمي الى الارياف في جهات لا يخرجان منها مع حفظ رتبهما ورواتبهما ونياشينهما وان الدولتين عازمتان على تنفيذ كل ذلك وهما تكلفان الجناب الخديوي ان يصدر عفوًا عامًّا على جميع الذين لهم دخل في المسألة . فرفض النظار هذا البلاغ ولم يجيبوا عليهِ بدعوى قولهم « ان لا علاقة للدول الاوربية معنا فاذا شئن فليخابرن الاستانة اما نحن فاننا مستعدون للمقاومة » فاخذ سلطان باشا يسعى الى التوفيق فحبط مسعاهُ . وفي ٨ رجب او ٢٦ مايو «ايار» استعفت الوزارة محتجة على بلاغ الدولتين وطلباتهما فكُلِّف شريف باشا بتشكيل وزارة جديدة فابى واصرَّ على الاباءة فاطلعهُ قنصل فرنسا على تلغراف وارد اليهِ من وزارة فرسا ونصهُ

« الامل ان يقبل شريف باشا رئاسة الوزارة واكدوا لهُ اننا نعضدهُ ونؤيّدهُ بكل جهدنا » فلم يقنعهُ ذلك واصرَّ على الرفض

ثم عُقدت جلسة عند الجناب الخديوي حضرها بعض رؤساء الجهادية وفي مقدمتهم طلبة عصمت فقال شريف باشا انهُ يقبل ان يشكل وزارة جديدة بشرط ان تنفذ الجهادية ما كل طلبات الدولتين فقال طلبة « نحن مطيعون انما يستحيل علينا تنفيذها ولا حق للدولتين بطلب ذلك لان هذه المسائل من اختصاص الباب العالي » قال ذلك وخرج فتبعهُ الضباط . وبتاريخهِ ورد تلغراف من راس التين بالاسكندرية ان العساكر هناك لا يقبلون غير عرابي ناظرًا عليهم وانهم اذا مضت ١٢ ساعة ولم يرجع الى منصبهِ لا يكونون مسئولين عما يحدث مما لا يستحب وقوعهُ فزاد الاشكال والاضطراب فتمكن شريف باشا وغيرهُ من اصرارهم على رفض تشكيل وزارة جديدة . وعند الغروب اجتمع النواب ورئيسهم وحضر

عرابي وجعل يخطب فيهم وخطب ايضًا عبد العال وغيرهُ يطلبون تنازل الخديوي فتفاقم الخطب فارسل الجناب الخديوي يخبر الباب العالي ان الجند غير راضين عن استعفاء الوزارة وانهم اقاموا الحجة على طلب الدولتين . فاجابهُ ان الحضرة السلطانية امرت بتشكيل لجنة عثمانية تأتي مصر بعد ثلاثة ايام للنظر في هذا الامر . فامر الجناب الخديوي ان يرجع عرابي الى مركزهِ موقتًا للتأمين على الاجانب ليثما يصل الوفد العثماني فسرَّ الجند بذلك . وبعث عرابي منشورًا الى قناصل الدول يضمن لهم تأييد الامن لجميع سكان القطر المصري من وطنيين واجانب مسلمين وغير مسلمين وفي الوقت عينهِ اقترح ثلاثة امور

(١) اعادة لائحة الدولتين وانسحاب اسطوليهما

(٢) وضع قانون اساسي تبيَّن فيهِ حدود كل من الجناب الخديوي ووزرائهِ

(٣) قطع المخابرات والعلاقات توًّا مع الدولتين ومع سائر الدول الّا بواسطة الدولة العثمانية

ثم عمل العرابيون على خلع الخديوي وتولية البرنس حليم باشا وكثيرًا ما كانوا يصرحون بذلك في مجالسهم . ثم صرفوا الهمَّة الى الاهبة والتحصين كأنهم يتوقعون قتالاً فصرَّح المستر غلادستون وزير انكلترا اذ ذاك ان دولتهُ تريد ان تؤيّد كلمة الجناب الخديوي توفيق باشا لما اظهر من ادلة الصداقة والاخلاص . وفي ٢٠ رجب او ٧ يونيو (حزيران) وصل الى ثغر الاسكندرية اليخت الشاهاني يقلُّ درويش باشا المعتمد العثماني فسار توًّا الى العاصمة للنظر فيما هو واقع بين الخديوي وجندهِ

«حادثة ١١ يونيو (حزيران)»

وما انقضى شهر مايو حتى بلغ الاضطراب والقلق من ساكني مصر مبلغًا عظيمًا فكثرت الاشاعات وزادت بواعث الايجاس فنزع النزلاء

الاجانب الى الجلاء والمهاجرة الى اوربا خوفًا من امر يأتي او فرارًا من بلاء محسوب . فاصبحت الاسكندرية ملجأ للوافدين من جالية الريف على امل ان يكونوا فيها آمنين غوائل التعدي اكثرة من فيها من الاجانب او بالحري احتماء بجوار الاسطولين الانكليزي والفرنساوي

ثم احسّ الاجانب فيها ان سفلة الاهالي ومعظم الجهاديين قد اغلظوا في معاملاتهم واستبدوا في امورهم فكانوا يخطرون في الازقة تيهًا ينهنون الرفيع ويستعبدون الوضيع ثم لاح لهم ان اولئك الاجانب يريدون بهم شرًّا فجعلوا يتوقعون منهم ما يتذرعون بهِ الى الوقيعة بهم توهمًا منهم ان اولئك من الدّ الاعداء لوطنهم . فعلم الاجانب بتلك المقاصد فجعلوا يتأهبون سرًّا للدفاع بما امكنهم من اقتناء الاسلحة والرجال واخفائهم في منازلهم واستشاروا اميري الاسطولين فوافقاهم ثم عرضوا الامر على القناصل الجنرالية في القاهرة بواسطة مندوب مخصوص فانكروا عليهم ذلك فلبثوا يتوقعون المقدور

اما اهل الفتنة فادركوا تحذر الاجانب منهم فهمّوا بهم في ٢٤ رجب او ١١ يونيو وابتدأوا الفتنة بخصام بين حمار ومالطي انصلوا منها الى الغارة على البيوت والمنازل والفتك بكل من مروا بهِ في السبل فلم تكن ترى الاّ اخلاطًا من السفلة بين صعيدي وسوداني وبدوي وفيهم الحمارة والحمالون وامثالهم يهجمون جماعات على من لقوهُ في طريقهم فقتلوا نحوًا من ٢٠٠ نفس وقُتل منهم نحو هذا العدد . كل ذلك والاسطولان لم يحركا ساكنًا وتمارض مأمور الضابطة المدعو السيد قنديل ولم ينزل يومئذٍ الى المدينة وجرح في هذه الموقعة عدد كبير من كبار الاجانب وفيهم قنصل اليونان والمستر كوكسون قنصل انكلترا في الاسكندرية وقنصل ايطاليا وفيس قنصلها وقنصل الروسية وكثيرون غيرهم . فامر محافظ الاسكندرية (عمر باشا لطفي) الاميرالاي سليمان داود ان يبعث الجند لايقاف الاهالي

ومنعهم من ارتكاب تلك الفظائع . فاجاب انهُ لا يستطيع ذلك الّا بعد ان يأتيهُ امرٌ من عرابي فجاءهُ الامر نحو الساعة الخامسة بعد الظهر فسار الجند والمحافظ امامهم ساعيًا على قدميهِ يسكنون الخواطر وينادون باعادة الراحة فرأوا المخازن قد نهبت والارزاق قد تبعثرت على قارعة الطرق وعند الغروب هدأت الغوغاء وكف الناس فدخل كلٌّ منزلهُ وانقضى الليل ولم يحدث شيء . وفي اليوم التالي كثر عدد المهاجرين بحرًا حتى خيل للناس انهُ لم يبق في المدينة احد من الاجانب فنزل من المدينة في يوم واحد نحو من عشرة آلاف وتفرقوا في السفن . كل ذلك خوفًا مما كانوا يخشون حدوثهُ من مثل ما قاسوهُ . واتصلت هذه الاخبار بالداخلية فانتشر الاضطراب وعمّت البلوى وتقاطر الناس من سائر الاقطار الداخلية الى السواحل يطلبون الفرار كما فعل الاسكندرانيون واستمرت الحال على ذلك بضعة ايام حتى كاد يخلو القطر من النزلاء وقد عدّل بعضهم عدد من هاجر في تلك المدة فبلغ زهاء ماية وخمسين الفًا . فقفلت الحوانيت وبطلت المعاملات ولم يبق في البلد شغل الّا لارباب العربات واصحاب الصنادل وادارات البابورات والسكة الحديدية وما شاكل

« عود »

ولما اتصل خبر هذه الحادثة بالعاصمة اضطرب اهلها وفي صباح ١٢ يونيو خاطب القناصل درويش باشا معتمد الحضرة السلطانية بكلام عنيف وسألوهُ ان يتخذ التدابير الفعالة لصيانة الاوربيين واموالهم في جميع انحاء القطر فعقد مجلسًا في عابدين حضرهُ الجناب الخديوي ودرويش باشا ومن معهُ وشريف باشا ووكلاء الدول العظمى السياسيون وبعد المذاكرة اقروا ان تعطى للقناصل ضمانات اكيدة تكفل اعادة الامن والمحافظة على ارواح الاوربيين واموالهم ومن اخص هذه الضمانات ان يمتثل عرابي لاي الاوامر التي تصدر لهُ من الخديوي فدعي وسئل فاجاب بالقبول وتعهد

باجراء ما يضمن الراحة واخذ درويش باشا على نفسهِ تبعة تنفيذ الاوامر الخديوية بمعنى ان يكون مشتركًا مع عرابي ومسئولاً معهُ في تنفيذ تلك الاوامر فرضي وكلاء الدول بذلك وانصرفوا واخذ عرابي يهتم قيامًا بتعهدهِ فنشر المنشورات بمنع الاجتماعات وابطال كل ما يوجب الارتياب . وكانت قد تعينت لجنة بامر الجناب الخديوي للنظر في امر حادثة الاسكندرية تحت رئاسة عمر باشا لطفي محافظها وفيها مندوبو القناصل فاجتمعت اللجنة في الاسكندرية وباشرت اعمالها وقرَّرت ما خيّل لها انها تدابير فعالة لاعادة الامنية

وفي ٢٦ رجب او ١٢ يونيو (حزيران) وصل سمو الخديوي الى الاسكندرية بصحبة درويش باشا مندوب الحضرة السلطانية فصفَّت لها الجنود من المحطة الى سراي راس التين وأُطلقت المدافع تحية لها ثم زارهُ قناصل الدول الاَّ قنصلا انكلترا وفرنسا فانهما بقيا في مصر فابدى لهم اسفهُ الشديد لما حدث ووعدهم بصرف العناية الى اخماد الفتنة وخاطبهم درويش باشا ايضًا بمثل ذلك وزاد عليهِ انهُ واثق الثقة التامة باخلاص الجهادية . الاَّ ان الخديوي اسرَّ الى المستر كولفن المراقب العمومي الانكليزي انهُ غير واثق باستمرار الامن والراحة وانهُ يعتبر مهمَّة درويش باشا كانها قد انتهت ولم تنجح وانهُ لا يرى بدًّا من مجيء جنود عثمانية لاعادة الراحة . وكان في ثكنات الاسكندرية نحو من ثمانية آلاف من الجند بالاسلحة الكاملة ولديهم من المهمات ما يكفي خمسين الفًا

ثم بلَّغت القناصل رعاياها ان يتخذوا اقرب السبل للنجاة مما ربما يحدث فاوعزت اليهم ان يهاجروا من المدينة فتناقلت الالسن هذه الاخبار فتأكد الناس ان الساعة آتية لا ريب فيها وعينت كلُّ دولة من الدول الاجنبية سفنًا لنقل رعاياها المهاجرين مجانًا فتسارع الفقراء من كل ناحية قاطرين من مدن الداخلية والارياف الى الاسكندرية وبورت سعيد

حيث كانت تلك السفن معدة لنقلهم الى بلادهم . وكان المستر مالت وكيل انكلترا السياسي لا يزال في العاصمة فجاءهُ امرٌ من لندرا بان يحضر الى الاسكندرية ويرافق الخديوي حيثما توجه فاتاها واتى معهُ المسيو سنكوفينش وكيل فرنسا فخلت العاصمة من رجال السياسة وخلا جوُّها لعرابي وجماعتهِ واستفحل امرهم ولا سيما لما بلغهم من انقسام دول اوربا في المسألة المصرية فظنوا انهم في مأمن من الاغتيال . ثم حسب القناصل ان تغيير الوزارة يأتي بحل هذه المشكلة فاشاروا على الجناب الخديوي بذلك فشكل وزارة جديدة تحت رئاسة اسماعيل راغب باشا وبقي عرابي ناظرًا للجهادية والبحرية فكان رأْي هذه الوزارة ان الطريقة المثلى لملافاة الامران يصدر عفو عمومي وان يعلن في الجرائد الرسمية « ان كل من عليهِ مسئولية او اشتراك بالحوادث الاخيرة فعليهم العفو الّا المشتركين في حادثة الاسكندرية وهم تحت المحاكمة » فوافقها الجناب الخديوي على ذلك . وفي ٥ شعبان سنة ١٢٩٩ هـ او ٢١ يونيو (حزيران) سنة ١٨٨٢ م بعث الجناب الخديوي مشورًا الى راغب باشا يطلب اليهِ التحري الحسن في مسألة حادثة الاسكندرية فاجابهُ بتلبية الطلب

ثم جاءت الاخبار بعزم الدول على عقد مؤتمر في الاستانة لاجل البحث في المسألة المصرية وتمنَّع الباب العالي من ذلك بدعوى ان ليس في مصر ما يوجب الاضطراب اعتمادًا على تقارير درويش باشا المرسلة منهُ وكان ذلك مما شدَّد عزائم الحزب الوطني ولا سيما لما رأْى الباب العالي واثقًا بهم يأبى عقد مؤتمر دولي . وكان عرابي يؤكد لاتباعهِ ان وجود هذه الاساطيل في مينا الاسكندرية لا يخشى منهُ البتة لانها انما اتت هذا البحر للتنزه كما فعلت مرات عديدة قبل هذه . اما انكلترا فلم تنفك ساعية الى عقد المؤتمر بدعوى انهُ يستحيل اعادة الامن الى مصر بغير واسطة فعالة وكان الباب العالي يجيب على ذلك بقولهِ انهُ

بعد تشكيل الوزارة الجديدة صار يرجو استقرار السلام ووافقة على رأيه هذا دول المانيا واوستريا وإيطاليا والروسية وهذه الموافقة كانت مبنية على خوف الدول من مطامع انكلترا في مصر . فلما علمت هذه بنياتهم اكّدت لهم انها تتعهد متى عقد المؤتمر مع سائر الدول ألّا تسعى البتة الى ضم ارضٍ ما اليها او الاستيلاء على مصر او قسم منها او الحصول على امتياز ما سياسي او تجاري بدون ان يكون فيهِ نصيب لسائر الدول فوافقها الجميع على عقد المؤتمر اما الدولة العلية فاصرّت على عدم لزومهِ

وفي ٧ شعبان او ٢٤ يونيو «حزيران» عقد المؤتمر في الاستانة ولم يكن للدولة العلية معتمد فيهِ فقرر ما يأتي ممضيًّا من سائر المعتمدين . «ان الحكومات التي وقّع وكلاؤُها بالنيابة عنها على ذيل هذا البروتوكول تتعهد انها لا تقصد البتة اغتنام ارض ما ولا الحصول على امتيازات ما ولا ان يكون لرعاياها من الامتيازات المتجرية ولا يستطيع ان ينالهُ غيرهم من رعايا اي الدول في مصر وذلك في اي مسألة حصل التوافق عليها بسعيها واشتراكها في المخابرات لتنظيم امور تلك البلاد » . وقد كانت انكلترا اثناء سعيها الى عقد المؤتمر تحشد الجنود استعدادًا للحرب مدّعية ان تلك الاستعدادات انما هي من قبيل التهديد لعرابي وكانت في الوقت عينهِ تلحُّ على سائر الدول ان تساعدها في ذلك . اما دول اوربا فكانت شديدة الحذر من انفراد انكلترا في المسألة المصرية لكنها لم تكن تستطيع معارضتها بالعنف

وجاء في اثناء ذلك الى عرابي نيشانٌ من لدن الحضرة السلطانية فاتخذهُ الناس ذريعة الى اثبات رضاء الباب العالي عن اعمالهِ وكان هو يحاول اقناعهم ان جميع الدول تساعدهُ على مقاومة انكلترا اذا مسّت الحاجة . وفي ٥ شعبان او ٢٢ يونيو «حزيران» تمارض المستر مالت وكيل انكلترا فأنزل الى احدى السفن وبقي فيها بضعة ايام ثم سافر الى

برندزي . وفي ٢٥ منهُ تنحى المستر كوكسن قنصل انكلترا في الاسكندرية بدعوى مرضهِ بسبب الجراح التي كان قد اصيب بها اثناء حادثة ١١ يونيو وهكذا فعل قنصل مصر اما باقي القناصل فبقوا في الاسكندرية الى ٩ يوليو . وكان الخديوي ودرويش باشا مقيمين في سراي راس التين وعرابي مقيمًا في الترسخانة وتحت امرهِ في ثغر الاسكندرية تسعة آلاف مقاتل

وفي جلسة المؤتمر السابعة اقرَّ الدول على كتابة لائحة مشتركة يقدمونها الى الباب العالي يطلبون منهُ ارسال جنود عثمانية الى مصر لاخماد الفتنة ففعلوا فابى فاتخذت انكلترا ذلك ذريعة لتداخلها بالقوَّة وكان بهِ نجاح سياستها فاخذ الاميرال سيمور قومندان العمارة الانكليزية يتخل سببًا ولو طفيفًا لمباشرة العدوان فادعى ان الجهادية يحصنون القلاع في الثغر وينقلون احجارًا ضخمة يلقونها عند فم المضيق وان القصد بها سد مدخل الميناء فيمنع المدد ويحصر الاسطول وقال ان هذا التحصين منافٍ لحقوقهِ فكلف الحكومة المصرية ان تكف عن تقوية الاستحكامات حالاً والاَّ اضطرتهُ الحال الى اطلاق مدافعهِ عليها فيدكّها عن آخرها . فاجابهُ طلبة باشا عصمت ان لا صحة لما يقول وان الجهادية لم يهتموا قط بتحصين القلاع . وشاع ذلك فخافت الناس وأُوعز الى الجناب الخديوي بواسطة المستر كولفن ان يتنحّى صيانة لحياتهِ فاجابهُ «لا يليق بي ان اترك الكثيرين من رعيتي الامناء في اوان الشدة ولا يليق بي ايضًا ان اترك البلاد في اوان الحرب» ثم توسطت قناصل الدول في الاسكندرية بين الاميرال سيمور وبين الجهادية المصرية فلم ينجحوا . فسعى عرابي وسامي الى كاتب سر مجلس النظار وطلبوا اليهِ ان يكتب تقريرًا في المسألة مفادهُ «ان الاميرال تجاوز الحدود فيما يطلب وانهُ لا بدَّ من مقاومتهِ وان عرابي وقومهُ مفوضون في امر الدفاع عن البلاد» وداروا بهِ على منازل النظار وطلبوا التوقيع عليهِ فوقع بعضهم اختيارًا والبعض اضطرارًا ويقال ان الخديوي

نفسهُ صدَّق عليهِ او الجئ للتصديق ثم ارسلوهُ الى الاميرال سيمور . وارسل عرابي منشورًا الى المدراء يطلب اليهم ان يكونوا مستعدين للامداد بالجند والمال

وفي مساء ٢٢ شعبان او ٩ يوليو «تموز» جاء المستر كارترايت الى الخديوي واعلنهُ رسميًا عن عزم الاميرال سيمور على مباشرة القتال صباح الثلاثاء في ١١ يوليو «تموز» والح عليهِ ان يترك سراي راس التين ويلجا الى سراي الرمل ففعل . ثم حرر رسميًا الى درويش باشا يطلب اليهِ ان يحافظ على حياة الجناب الخديوي والقى عليهِ التبعة اذا أُصيب بسوء

وفي ٢٣ شعبان او ١٠ يوليو «تموز» ارسل الاميرال سيمور كتابات رسمية الى كلٍّ من درويش باشا وراغب باشا رئيس الوزارة يعلمها عن خروج رجال الوكالة الانكليزية من القطر المصري اشارة الى قطع العلائق الودية واعلنت خارجية انكلترا سائر الدول بذلك بدعوى «انها لم ترَ بدًا من ذلك غير انها مع ذلك تصرح ان ليس لها ارب خفي او نيَّة غير بيِّنة وانما عملها هذا من قبيل الدفاع وحرصًا على مصلحة الجناب الشاهاني» وفي مساء ذلك اليوم سافر الاسطول الفرنساوي متقهقرًا تاركًا سفينتين من سفنهِ فقط

وفي الساعة السابعة من صباح الثلاثاء ٢٣ شعبان سنة ١٢٩٩ هـ او ١١ يوليو «تموز» ١٨٨٢ م اطلقت العمارة الانكليزية مدافعها على حصون الاسكندرية وما زالت الى الساعة واحدة ونصف بعد الظهر فهدمت معظمها وانفجر مستودع البارود في قلعة أطه . فجاء راغب باشا الى الجناب الخديوي في الرمل واخبرهُ ان الحصون قاومت اشدَّ المقاومة وان كثيرًا من سفن الانكليز قد غرقت وكان يقول ذلك مسرورًا ولكن قولهُ هذا ما لبث ان نقض بورود الخبر الصحيح . ثم جاء عرابي فوقف بين يدي سموّهِ فسألهُ عن حالة الحصون فقال «لم يعد في وسعنا المقاومة ولا بد لنا من

تدابير اخرى او ان نتساهل مع الاميرال» وبعد المخابرة تقرر ارسال طلبة عصمت الى الاميرال وعاد عرابي من حيث اتى . فعاد طلبة باشا من عند الاميرال واخبر الجناب الخديوي ان الاميرال يطلب احتلال ثلاث قلع والاّ يستأنف القتال الساعة ٢ بعد الظهر . ثم قال « ولكني قلت له ان هذه المدة لا تكفي لاتمام المخابرة بشأن ذلك فطلبتُ تطويلها فابى فاتيت لاعلم سموّكم ملتمسًا رأيكم» فعُقد مجلس تقرر فيه انه لا يحق للحكومة المصرية الترخيص في احتلال جنود اجنبية بدون مخابرة الباب العالي الاّ ان الوقت لم يسمح بتبليغ ذلك القرار للاميرال

ولما رأى رجال الحصون المصرية عدم استطاعتهم مقاومة السفن الانكليزية رفعوا العلم الابيض اشارة الى ايقاف العدوان فانقطعت السفن عن قذف النار وكانت الحصون قد تهدمت فعلم الثائرون ان ذلك التسليم يعقبهُ احتلال الجيوش الانكليزية المدينة فوزعوا في غلس ١٢ يوليو « تموز » فرسانًا في احياء المدينة يأمرون الوطنيين بالخروج من الاسكندرية على الفور وكانت هذه الاوامر تصدر من الاميرالاي سليمان داود وامر ايضًا زمرًا من الرعاع ان تطوف المدينة وتحرقها فابتدأوا من الساعة الاولى بعد الظهر فكانت الاسكندرية مساء الاربعاء مضطرمة الجوانب منهوبة المخازن لا ترى فيها الاّ لهبًا متصاعدة واناسًا حاملين الامتعة والمصاغ فارّين الى داخلية البلاد

وكان الخديوي في سراي الرمل وبمعيته عثمان باشا واسماعيل باشا الشركسيان وزبير باشا السوداني والجنرال ستون باشا وفدريكو بك وطونينو بك ودي مارتينو بك واباتي بك وتيكران باشا وزهراب بك « اليوم زهراب باشا » وغيرهم لا يزيد عدد الجميع عن الخمسين . وبعد ظهيرة ذلك اليوم جاء الى سراي الرمل نحو اربعماية فارس وبعض المشاة واحاطوا بها فسئلوا عن الغاية من مجيئهم فقالوا « قد اتينا للمحافظة على

السراي » والحقيقة انهم جاءوا مامورين باحراقها وقتل من يخرج منها وفي الساعة ٧ مساء بعث عرابي يستدعيهم اليهِ فساروا وتخلف منهم احد البكباشية ومعهُ ٢٥٠ فارسًا فمثل بين يدي الجناب الخديوي واقسم انهُ يموت بين يديهِ وافتدى رجالهُ بهِ واخبرهُ انهم كانوا قد اتوا يريدون شرًّا .

وفي خلال ذلك ارسل الاميرال سيمور ثلاث دوارع من اسطولهِ لترسو بجوار سراي الرمل صيانةً لحياة الحضرة الخديوية ويقال انها هي التي كانت السبب في انسحاب الفرسان العرابيين . ثم جاء المحافظ الى الخديوي يخبرهُ بما كان من النهب والحرق في احياء المدينة فارسل سموهُ كامل باشا الشركسي ورفقتهِ زبير باشا ليمنعوا الناس من ذلك

ونحو الساعة ٣ ١/٢ بعد ظهر ٢٦ شعبان او ١٢ يوليو (تموز) كانت جنود عرابي قد انجلت عن الاسكندرية . فجاء زهراب بك بهذا النبأ الى الخديوي وان الاميرال سيمور عازم على انزال جنود بحرية الى راس التين وانهُ يدعو الحضرة الخديوية الى سفينتهِ حيث يكون آمنا فتفضَّل سموهُ التوجه الى سراي راس التين فسار وبمعيتهِ درويش باشا حتى جاء السراي فوجد هناك الاميرال سيمور وبعضًا من جنودهِ ينتظرونهُ في ساحة القصر . وفي المساء نزل بعض وكلاء الدول وهنأُوا سموهُ بسلامتهِ وكان في السراي ٢٠٠ من الحامية الانكليزية . وفي الصباح التالي انزل الاميرال فرقًا اخرى من رجالهِ يطوفون الشوارع ومعهم عدد من المدافع تسكينًا لخواطر الباقين فيها

وقد قدرت الخسائر فبلغت نحو ستماية من الوطنيين وخمسة من الانكليز على الدوارع هذا فضلاً عن المذابح التي حصلت في اثناء ذلك في طنطا والمحلة الكبرى وسمنود وجهات اخرى . وبعد انتقال العائلة الخديوية الى راس التين استدعى الجناب الخديوي زهراب بك وجعلهُ ترجمانًا بين السراي والضباط الانكليز وعهد اليهِ ان يمنع أيًّا كان من

الدخول الى القصر لان العرابيين كانوا قد عينوا نفرًا من الجواسيس لاستطلاع حالة السراي . اما عرابي واتباعهُ ففروا الى كفر الدوار وعسكروا هناك على نية الدفاع

ولما استتب المقام للانكليز في الاسكندرية جعلوا ينظرون في تنظيف الاسواق ونقل جثث القتلى ودعوا المهاجرين ان يعودوا الى منازلهم لاعادة الراحة والطمانينة واستدعي اثناء ذلك درويش باشا الى الاستانة فتوجه .

وحرر راغب باشا الى الاميرال سيمور يخبرهُ ان اجراءات عرابي من الآن فصاعدًا مخالفة لاوامر الخديوي وانهُ هو وحدهُ (عرابي) المسئول عنها

ثم كتب الجناب الخديوي الى احمد عرابي يأمرهُ بالامساك عن جمع العساكر واعداد التجهيزات لان الحكومة الانكليزية لا خصومة بينها وبين الحكومة المصرية وانها مستعدة لتسليم المدينة متى رأت فيها قوة منتظمة والبلاد في أمن وامرهُ ان يأتي الى سراي راس التين حالاً

فاجاب عرابي «ان مقاومة العمارة الانكليزية حصل باقرار مجلس النظار ودرويش باشا وان النظار هم الذين اعلنوا باقامة الحرب مع الانكليز وهكذا حصل فاذا كان الاميرال الآن قد عدل عن المحاربة الى المسالمة بعد وقوع الحرب فذلك يعد طلبًا للصلح ولا يجوز ان يكون انكارًا للحرب» الى ان قال «انهُ يميل الى الصلح ولكن مع حفظ شرف البلاد والحكومة فاذا كان الاميرال يريد تسليم المدينة فليسلمها ولتبارح مراكبهُ مياه الاسكندرية وانهُ للمحافظة على شرف الحكومة الوطنية ينبغي الاستمرار على الاستعداد العسكري حتى تفارق المراكب السواحل المصرية وانهُ يعتبر قول الانكليز هذا مكيدة لان الاسكندرية ما برحت محتلة بالانكليز ولذلك لا يمكنهُ الحضور اليها» ثم طلب التئام مجلس النظار في مركز الجيش للمداولة في الامر وبعد ذلك يصرف الجيش ويحضر

فيظهر ان اصرار عرابي هذا هو السبب في اتساع الخرق لان الحكومة الانكليزية لم تكن تطمع باحتلال هذه البلاد على ما يظهر من اقوالها .

وحرر عرابي الى وكيل الجهادية يعقوب سامي في القاهرة ايقاعًا في الحضرة الخديوية واتهمها انها متحاملة على الجهادية الوطنية وانها هي التي جلبت كل هذه المتاعب الى القطر المصري ويطلب اليهِ ان يتروى في الامر وينظر في صلاحية هذا الوالي للتولية عليها او عدمهِ . فلما وصل تحرير عرابي هذا الى يعقوب سامي جمع اليهِ الذوات والاعيان والرؤساء الروحانيين في ديوان الحربية في غرة رمضان سنة ١٢٩٩ ﻫ (١٧ يوليو (تموز) ١٨٨٢ م) وعقدوا جلسة تحت رئاسة وكيل الداخلية قام فيها عدة خطباء اتهموا الجناب الخديوي ببيع الوطن . واستقر الرأي اخيرًا على لزوم الاستمرار على اعداد التجهيزات الحربية وان تعيّن لجنة من ستة اشخاص يتوجهون الى الاسكندرية لاستدعاء النظار الى العاصمة للاستعلام منهم عن حقيقة ما حصل . وبناء على ذلك القرار سار الوفد فمرَّ بكفر الدوار وتداول مع عرابي ورؤساء الجند فاختير منهُ اثنان هما علي باشا مبارك واحمد بك السيوفي للتوجه الى الاسكندرية للغرض المتقدم ذكرهُ . فوصلا اليها وقابلا الجناب العالي صباح الاثنين في ٢٤ يوليو وعرضا لهُ الحالة فاصدر امرًا عاليًا يقضي بعزل عرابي عن نظارة الجهادية واعلن ذلك في البلاد . ثم ارسل الى الباب العالي يخبرهُ بعصيان عرابي وان الجند انحاز اليهِ وهو المسئول عنهُ

اما عرابي فلم ينفك عن اعداد المعدات والتحصين بمساعدة رفقائهِ فحاول سدَّ ترعة المحمودية بجهة كفر الدوار فلم يفلح وجعل يشيع في البلاد ان الخديوي مشترك مع الانكليز على اضاعة البلاد الى غير ذلك اثارةً لخواطر الاهلين ولما وصل الامر بعزل عرابي الى العاصمة اجتمع المجلس المتقدم ذكرهُ في نظارة الداخلية وقرروا بقاء عرابي للمدافعة عن الوطن

وايقاف اوامر الخديوي بدعوى انهُ خرج عن قواعد الشرع الشريف .

واستولى العرابيون على الخطوط الحديدية والبرقية فجعل الاميرال سيمور سلكًا تلغرافيًا بين الاسكندرية وبورت سعيد واعلن الخديوي ثانية بعصيان عرابي . غير ان جميع هذه الاوامر والمنشورات كانت تذهب ادراج الرياح لان الاهالي اصبحوا منقادين للحزب الوطني انقيادًا امست البلاد بهِ آلة بيد زعيم الثورة يديرها كيف شاء

ثم نزل العرابيون نحو الاسكندرية وعسكروا في الرملة فخرجت اليهم فرقة من الانكليز في ٥ اوغسطس فلم تقوَ عليهم فتقهقرت الى الاسكندرية ثم عادت اليهم ثانية وقد تشددت فتقهقر العرابيون وتحصنوا بين ابي قير وخطوط الرملة ثم تقهقروا الى كفر الدوار فاعتبر الانكليز من ذلك الحين حالتهم في مصر حالة حربية يحتاجون فيها الى الامداد فاستمدوا انكلترا فامدتهم بقوات كانت تتوارد اليهم عن طريق السويس . اما عرابي فكان في كفر الدوار في اربعة الايات من المشاة والاي من الفرسان والاي من الطبجية وبطارية من مدافع الرش وكثير من العربان وقد قدرت الجنود الانكليزية التي سارت لمحاربة عرابي فبلغت اربعة عشر الفًا من المشاة واربع فرق من الفرسان والف من الطبجية معهم ٣٦ مدفعًا ونحو ست فرق من المهندسين . ثم انضم الى هذه القوة بعد ذلك قوة هندية مؤلفة من تسعة آلاف جندي ويقال بالاجمال ان جميع الحاميات الانكليزية التي كانت في مالطا وقبرص وجبل طارق انضمت الى حملة مصر

الا ان كل هذه الاعدادات لم تكن لتثني العرابيين عن عزمهم فان عرابي حرر الى المديرين بتاريخ ١٢ اوغسطس ان يجمعوا جندًا يبلغ مجموعهُ ٢٥ الفًا وطلب ان يكون فيهم الخفراء لانهم اقرب الناس الى الحركات العسكرية تلبية لما تدعوهُ اليهِ الحالة من السرعة في حشد الجيوش

وفرض ايضًا على المديرين اموالاً يجمعونها من الاهالي امدادًا للحرب فلا تسل عن الطرق التي كانوا يجمعون بها تلك النقود . واخذ في تقوية الاستحكامات وتشييد الطوابي فمدّها فيما بين ما فوق الرملة باربعة كيلومترات الى كفر الدوار وانشأ في كفر الدوار سدًّا عرضهُ ٣٠ مترًا وخندقًا عرضهُ اربعة امتار وجعلهُ فاصلاً بين السد وارض اكثر فيها من مواقع الاستحكام وكان الخط الدفاعي الاول ممتدًّا مما بعد المحلة بمسافة الف متر على طول الخط الممتد من الرملة الى البيضة وجعل ما وراء هذا الخط من المرتفعات والتلال مواقع محصنة الى كفر الدوار فكانت كلها نحو ٥٠٠ موقع واتم مثل هذه الاعمال الدفاعية من كفر الدوار الى ابي حمص ويوجد بين ابي حمص ودمنهور تل ينفصل سائر التلال مساحة وارتفاعًا فاختارهُ عرابي موقعًا يقيه من الانكليز اذا قضت عليهِ الحال بالتقهقر الى دمنهور وعزز دمنهور بالمدافع

وقد قام بين الوطنيين من افاضلهم من خطب فيهم او حرر لهم ايضاحًا لما اتوهُ ويأتونهُ من الاغلاط في سيرهم فلم يفقهوا بل كان يقوم من بينهم من يخطب خطبًا تهييجية مدحًا في عرابي ومشروعاتهِ . وكان عرابي اثناء قيامهِ بالاعمال الحربية معتمدًا على مساعدة الباب العالي في مشروعهِ ولكن خاب املهُ اثر صدور المنشورات الخديوية واتصال الخبر بهِ ان القوم في دار السعادة عدّوهُ عاصيًا ولم تمض مدة حتى تحقق ذلك الخبر بمنشور اصدرهُ الباب العالي بعصيان عرابي واتباعهِ ووجوب الرضوخ لاوامر الجناب الخديوي

وفي اواسط اوغسطس وصل الجنرال السير ولسلي الى الاسكندرية واستلم قيادة الجيش . ثم اخذت تتوارد القوات الانكليزية فبلغت في اواخر الشهر المذكور نحو ٢٥ الفًا وكان قدوم هذا القائد العظيم داعيًا لتيقن الناس بفوز الحملة الانكليزية نظرًا لما اشتهر بهِ من البسالة والدراية

العسكرية . وبعد وصولهِ الى الاسكندرية نشر اعلانًا مآلهُ انهُ لم يأتِ الى مصر الاّ لتاييد سلطة الخديوي وهو لا يحارب الاّ الذين يخالفون اوامر مليك البلاد . ثم اخذت العساكر الانكليزية تستكشف مراكز العرابيين في كل يوم فكانوا اذا ظفروا بشرذمة من العرابيين ولقوا منها مقاومة قابلوها بقوة السلاح فتولّي الادبار تاركة في ساحة القتال من جرح منها فينقلونهُ الى معسكرهِ اما القتلى فكانوا يدفنونهم

وفي ٥ شوال سنة ١٢٩٩ ه او ٢٠ اغسطس (آب) ١٨٨٢ م حصلت بين الفريقين موقعة في كفر الدوار استمرت ساعتين وكان فيها عدد العرابيين ضعفي عدد الانكليز وانجلت عن انهزام قسم عظيم من العرابيين وانقلابهم الى تل الوادي واحتل الانكليز بعض مواقع العصاة بعد ان قتلوا منهم ١٦٨ واسروا ٦٢ . وحصلت موقعة اخرى في اليوم التالي لم يفز بها احد الطرفين . اما في اليوم الثالث ٧ شوال فاقتتل الفريقان في كفر الدوار اقتتالاً تعزز فيهِ جانب الانكليز بنجدة جاءتهم على قطار مخصوص فتنكص العرابيون وتربصوا تحت امرة طلبة عصمت في مواقعهم يتوقعون فرصة . وكان العرابيون بعد كل موقعة يكتبون الى اخوانهم في العاصمة وغيرها انهم ظافرون . اما عرابي فذهب لتحصين التل الكبير في مديرية الشرقية

وبعد سير الاحوال وزارة راغب باشا على الاستعفاء فاستقدم الجناب الخديوي رياض باشا من اوربا حيث كان متغيبًا فقدم في اواسط اوغسطس وبعد قدومهِ دعا الخديوي شريف باشا الى تشكيل وزارة جديدة فلبّى الدعوة وتعين رياض باشا ناظرًا للداخلية وعمر باشا لطفي ناظرًا للجهادية

وارسل الانكليز فرقًا من جيوشهم عن طريق الاسماعيلية ليقدموا مصر فاشتبكوا في ٩ شوال سنة ١٢٩٩ ه او ٢٤ اوغسطس سنة ١٨٨٢ م مع

العرابيين بين المحفوظة والاسماعيلية وكان الفوز للانكليز واستولى الانكليز ايضاً على المحسمة فاصبحوا على عشرة اميال من التل الكبير وفي ٢٨ اوغسطس حصلت موقعة القصاصين بين المحسمة والتل الكبير . وفي ٢٩ شوال او ١٢ سبتمبر (ايلول) ورد للجناب الخديوي في الاسكندرية تلغراف من سلطان باشا منبئ باستعداد الانكليز لمهاجمة التل الكبير حيث تحصّن العصاة ثم ورد تلغراف آخر من الاسماعيلية يعلن هجوم الانكليز على التل من كل ناحية وصوب في الساعة الرابعة والدقيقة ٣٠ افرنجي بعد منتصف الليل وان العرابيين لم يقفوا امام الانكليز الاّ ٢٠ دقيقة استولى الانكليز بانقضائها على التل فغنموا ٤٠ مدفعاً وقتلوا الفي رجل واسروا الفين واستولوا على المؤن والزخائر ثم اخذوا يتعقبون الجند المنهزم

وتفصيل ذلك ان عرابي كانت قد وصلت اليهِ نسخة من جريدة الجوائب وفيها منشور جلالة السلطان باعتباره عاصياً فاغتاظ وكاد يقع في اليأس لان حجتهُ الكبرى كانت انهُ مدافع عن حقوق الدولة العلية في مصر فتشاور مع عبدالله نديم واقرّ على اخفاء ذلك عن الجند . فلما كانوا في التل الكبير وقد تحصنوا فيهِ بقوّة ٢٠ الف مقاتل و٧٠ مدفعاً زحفت الجنود الانكليزية تحت قيادة الجنرال وولسلي بقوة ١٢ الفاً و٦٠ مدفعاً وقبل وصولهم الى معسكر العرابيين ارسلوا جواسيس من المصريين ومعهم نسخاً من الجريدة المشار اليها ففرقوها في الضباط وكبار الجيش . فلما اطلع اولئك عليها خارت قواهم ويئسوا من الفوز لان معظمهم كان يقاتل لاجل السلطان فعلم عرابي بذلك فجمع اليهِ الضباط وتشاور معهم فاقرّوا على استمرار الدفاع محاباةً ورياء . وفيهِ كتب علي بك يوسف اميرالاي المقدمة الى عرابي انهُ قد تحقق ان العدو لا يخرج في هذه الليلة فاصدر عرابي امرهُ ان يرتاح الجيش اما العساكر الانكليزية فسارت من

اول الليل لا تفتر لها عزيمة وفي مقدمتها بعض الضباط المصريين الذين كانوا من حزب الجناب العالي وامامهم عربان الهنادي يرشدونهم الى الطريق فبلغوا المقدمة في آخر الليل فاخلى لهم علي بك يوسف الطريق ومرّوا بين العساكر لا رادّ يردهم فاطلقوا النار على الاستحكامات واوقعوا بالجند الراقد فالقت الاجناد اسلحتها وفرّت فاستيقظ عرابي من نومهِ على دوي المدافع وخرج من خيمتهِ فارتاع لما علم ان العدو قد استولى على الاستحكامات وانهزمت الجنود المصرية فاخذ يناديهم فلم يلبهِ مجيب ثم رأى خيمتهُ قد أُصيبت بقنبلة فطارت فعلم انهُ لا ينجيهِ من الموت الاّ الفرار فركب جوادًا كريمًا وفرَّ وتبعهُ نديم فحاول بعض خيالة الانكليز ادراكهما فما استطاعوا وما زالا حتى وصلا محطة ابي حماد فنزلا في القطار وامرا السائق بالمسير فتعلّل فهدداهُ فسار حتى وصل القاهرة

فتوجه عرابي توًّا الى قصر النيل وعقد مجلسًا من امراء العسكرية والملكية واخبرهم بما كان واستشارهم فاختلفت الاراء فنهض البرنس ابراهيم باشا (ابن عم الجناب الخديوي) وخطب في الناس محرضًا على الدفاع فوافقوهُ بحسب الظاهر واستقرّ الرأي على انشاء خط دفاعي في ضواحي المحروسة فسار عرابي في فرقة من المهندسين نحو العباسية يستشيرهم عن انسب المواقع لبناء ذلك الخط فقال لهُ احد الضباط « انك بجهلك وسوء تدبيرك قد احرقت الاسكندرية وتريد الآن ان تحرق مصر فاذا لم يكن لك فيها ما يهمّك فاعلم ان لنا فيها نساء واطفالاً واملاكًا لا نسلّم بضياعها تنفيذًا لاغراضك ألا تدري انك تعرض مصر للخطر بانشاء الاستحكامات وتجعل منازلها هدفًا لكرات المدافع فنحن لا نوافقك على ذلك واني اقول لك ذلك بالاصالة عن نفسي وبالنيابة عن جميع الضباط الحاضرين فلا ترجُ منا مساعدة ويكفي ما قد جرى »

فاندهل عرابي وارتبك في امرهِ لا سيما لما رأى الباقين مستحسنين ما

فالهُ رفيقهم فكرّ راجعًا على عقبيهِ كئيبًا فاجتمع باصدقائهِ ودعاهم الى النظر في الامر فلم يجدوا افضل من رفع عريضة الى الجناب الخديوي يعتذرون بها عن افعالهم ويقدمون لهُ الخضوع فحرروا عريضة وارسلوها مع وفد مؤلف من بطرس باشا غالي وعلي باشا الروبي ومحمد رأوف باشا ثم اردفوها بعريضة اخرى ارسلوها مع عبدالله نديم في قطار مخصوص وكان ذلك في غرة ذي القعدة سنة ١٢٩٩ﻫ او ١٤ ستمبر (ايلول) سنة ١٨٨٢م فابى الخديوي قبول العريضة وامر بالقبض على الروبي وسجنهِ . اما نديم فانهُ ركب القطار الذي قدم عليهِ وعاد من فورهِ بعد ان وصل كفر الدوار ثم اختفى بعد ذلك ولم يتيسر للحكومة القبض عليهِ الى الان

اما الجنود الانكليزية فانها بعد استيلائها على التل الكبير سارت فمرّت ببلبيس فالزقازيق واستولت عليها ثم سارت حتى اتت العباسية خارج القاهرة في مساء الخميس ١٤ منهُ وعسكرت في سفح الجبل المقطم فاوجس الناس خيفة ان يدخل الانكليز مصر محاربين ولكن الامر جاء بخلاف ما كانوا يتوهمون لان الجيوش الانكليزية دخلت العاصمة بحالة سلمية في يوم الجمعة ١٥ ستمبر طبقًا لما تنبأ بهِ الجنرال وولسلي والقت القبض على عرابي . وبعد وصول الجنرال وولسلي الى القاهرة انفذ السير الجنرال افلن وود الى كفر الدوار فوصلها في ١٦ منهُ فسلمت فامر بنسف الطابية التي كان قد بناها العرابيون في قرية اصلان ومثل ذلك سلمت باقي الحصون في بورت سعيد ورشيد واخيرًا دمياط فانها لم تسلم الاَّ في ٢١ ستمبر (ايلول)

وبعد وصول الجنود الانكليزية الى القاهرة احتلوا قشلاقات العباسية والقلعة والمقطم وقصر النيل ونزل الجنرال السر وولسلي في سراي عابدين وكان من جملة قواد هذه الحملة البرنس دي كنوت ابن ملكة انكلترا . وأُودع عرابي ومحمود سامي في سجن العباسية والاسرى من الملكية في سجن

الضبطية والجهادية في القلعة

ثم صدرت الاوامر الخديوية بتعيين حكام المديريات من اهل النزاهة والاخلاص وصدرت اوامر اخرى بتعيين لجنة مخصوصة في الاسكندرية لتحقيق مواد السرقة والقتل والحرق التي وقعت فيها في حادثتي ١١ يونيو و ١١ يوليو الى غاية ١٦ منهُ وتقديم التقارير بما تستطلعهُ . واوامر اخرى بتعيين مثل هذه اللجنة في طنطا لتحقيق مثل هذه الحوادث التي حدثت خارج الاسكندرية . وارسلت نظارة الداخلية منشورات الى المديرين يستقدمون من يجدون ممن وقعت عليهم الشبهة بالاشتراك مع العرابيين . ولا نسل عن التهاني التلغرافية التي وردت للجناب الخديوي وللجنرال وولسلي بما اتاهما الله من النصر المبين . وفي ٢٣ سبتمبر أُلغيت جريدتا الزمان والسفير وفي ٢٥ منهُ اقبل الجناب الخديوي الى العاصمة وبصحبتهِ شريف باشا وسائر النظار فتواردت الجماهير لملاقاة سموهِ في المحطة ثم سار والى يسارهِ ابن الملكة وامامهُ الجنرال وولسلي والمستر مالت حتى اتى سراي الاسماعيلية فنزل وفي اليوم التالي سار الى سراي الجزيرة لاجراء التشريفات الاعتيادية واستمرت الزينة في القاهرة ثلاث ليال متوالية

وفي ١٥ ذي القعدة سنة ١٢٩٩ هـ او ٢٨ سبتمبر (ايلول) سنة ١٨٨٢ م امر سموهُ بتشكيل لجنة مخصوصة بالقاهرة تحت رئاسة اسماعيل باشا ايوب لتحقيق قضية كل من كان لهُ يدٌ في الحوادث الاخيرة وان تقدم ما تقررهُ لنظارة الداخلية لتنفذهُ . واصدر امرًا آخر بتشكيل محكمة شرعية في القاهرة تحت رئاسة محمد راوف باشا للحكم بالدعاوي التي تقدم من اللجنة المخصوصة وان تكون احكام هذه المحكمة قطعية لا تستأنف . واصدر امرًا آخر بتشكيل لجنة عسكرية بالاسكندرية للحكم في الدعاوي التي تقدم لها من اللجنتين المخصوصتين اللتين تشكلتا في الاسكندرية وطنطا وان تكون احكامها قطعية تحت رئاسة عثمان نجيب باشا . فشرع كل من هذه اللجنات والمحاكم

في اجراء ما عُهد اليهِ . وفي ١٨ ذي القعدة سنة ١٢٩٩ هاو ٢ اوكتوبر (ت ١) سنة ١٨٨٢ م تعين الشيخ محمد العباسي لمشيخة الجامع الازهر بدلاً من الشيخ الامبابي . وكافأ الجناب الخديوي سلطان باشا بمبلغ عشرة آلاف جنيه على صداقتهِ التي ابداها اثناء الثورة . ثم اصدر الجناب العالي امرًا بالغاء الجيش المصري بقصد صرف العساكر التي جاهرت بالعصيان والاكتفاء بمحاكمة الضباط وكبار قادة الجيش كعرابي وعبد العال وغيرهما ثم امر بتجديد تنظيمهِ . وفي ١١ ذي الحجة او ٢٤ اوكتوبر (ت ١) صدر العفو عن الملازمين واليوزباشية الذين كانوا في جيش عرابي مع بعض الاستثناء . وانعم الجناب الخديوي بالنيشان المجيدي والعثماني من رتب مختلفة على ٥٢ ضابطًا من ضباط الجيش الانكليزي . واخذت الحكومة المصرية بمشاركة قناصل الدول تسعى الى تسكين البال وتوطيد الراحة والقبض على من اشترك بتلك الثورة ومكافأة الذين ساعدوا في اطفائها ورهنوا على اخلاصهم لمليك البلاد . وعينت في الاسكندرية لجنة للنظر في تعويض الخسائر التي تكبدها اهاليها بسبب الحرق والنهب

ثم جاء اللورد دوفرين معتمدًا من قبل دولة انكلترا لتسوية المسائل المصرية وتنظيم تقرير بشأنها ولم يكن ذلك برضاء الباب العالي . واخذ اللورد دوفرين منذ وصولهِ الى القاهرة يجتمع بالخديوي والوزراء ويتداول معهم في المسائل التي يجب النظر فيها ذلك بعد ان درس احوال البلاد وبحث بنفسهِ عن الامور التي كان عازمًا على وضعها . ثم حرّر تقريرهُ المشهور وارسلهُ الى لندرا في ٦ فبراير سنة ١٨٨٣ م بحث فيهِ بحثًا دقيقًا في حالة مصر السياسية والقضائية والمالية وعلى نوع خاص بديون الفلاحين

ثم شرع الانكليز في الغاء المراقبة الانكليزية الفرنساوية بقصد الانفراد بالعمل فكبر ذلك على فرنسا ولكنها لم تستطع امرًا يمنع الغاءها فأُلغيت وجعل في مكانها بامر الحضرة الخديوية مأمور مصريٌّ دعوهُ مستشارًا

ماليًّا وله الحق ان يحضر في جلسات مجلس النظار فتعيّن السير اوكلاند كولفن في هذا المنصب · وكانت الحكومة قد باشرت محاكمة زعماء الثورة العرابية بواسطة اللجن التي سبق ذكرها وكان الفراغ من تلك المحاكمة في ١٩ شوال سنة ١٢٩٩ ه (٣ دسمبر (ك ١) ١٨٨٢ م) ثم التأمت اللجنة مرارًا للنظر في تثبيت تلك الاحكام ثم عُرضت على الجناب العالي فتكرّم بالعفو عمّن حكم عليهم بالقتل فاصبحت الاحكام بعد ذلك العفو تقضي بتجريدهم من الرتب والالقاب والنياشين ونفيهم وهاك ما صدر بشأن ذلك

« (١) الحكم الصادر على كلٍّ من احمد عرابي وطلبة عصمت وعبد العال حلمي ومحمود سامي وعلي فهمي ومحمود فهمي ويعقوب سامي المقتضي جزاؤهم بالقصاص وقع تبديله بالنفي الى الابد من الاقطار المصرية وملحقاتها

« (٢) ان هذا العفو يبطل ويقع اجراء الحكم على المذكورين بالقتل اذا رجعوا الى الاقطار المصرية او ملحقاتها » · ثم ارتأى مجلس النظار ان تضبط املاكهم المنقولة وغير المنقولة وان يعين لهم في مقابل ذلك راتب سنويٌّ كافٍ لمعيشتهم فصدر بذلك امر عالٍ في ٢٠ شوال او ١٤ دسمبر (ك ١) من تلك السنة فعينت لجنة لاجراء ذلك ثم صدرت الاحكام المختلفة على من بقي من اتباع عرابي كلٍّ بحسب استحقاقهِ · وكان الامر بالنفي على ما تقدم يقضي بتسفيرهم حالاً وانما رات الحضرة الخديوية امهالهم الى ١٦ صفر او ٢٧ دسمبر (ك ١) وعند ذلك ركبوا في قطار مخصوص مع من ارادوا استصحابهُ من ذويهم الى السويس ومنها الى جزيرة سيلان محل منفاهم ولا يزالون هناك الى اليوم · ثم اصدر الجناب الخديوي امرًا عاليًا بتاريخ ٢٢ صفر سنة ١٣٠٠ ه الموافق ٢ يناير (ك ٢) سنة ١٨٨٣ م بالعفو عن كل اهالي القطر المصري الذين اشتركوا في الثورة العرابية ما عدا الذين سبق صدور الحكم عليهم لغاية تاريخهِ

ولاحظ رياض باشا بعين الناقد ان نيات الانكليز منصرفة الى

مساعدة عرابي ورفقائهِ اثناء محاكمتهم فابت نفسهُ الكظم على ما في ضميرهِ فقدم استعفاءَهُ من نظارة الداخلية فكان ذلك مكدرًا لعموم الاهالي . وقد خاضت الجرائد بهذا الشأن ولا سيما جريدة الديبا وإبانت ما لهذا الوزير الخطير من المآثر الغراء في التنظيمات الادارية وحرية التصرف بالاحكام وقد اجمعت تلك الجرائد على استحسان فعلهِ مؤثرًا الاستعفاء على قبول خدمة لا يستطيع فيها التصرف بالحرية التي تقتضيها مصالح الامة التي هو اكثر الناس غيرة عليها . فلما قبل استعفاؤهُ عين بدلاً منهُ اسماعيل باشا ايوب ثم توفي هذا بعد يسير فعين بدلاً منهُ خيري باشا

وفي ٢٢ جمادى الآخرة سنة ١٣٠٠ هـ (١ مايو (ايار) ١٨٨٣ م) صدر الامر العالي بتشكيل (١) مجالس المديريات مجلس في كل مديرية ويكون لها ان تقرر رسومًا فوق العادة لصرفها في منافع عمومية تتعلق بالمديرية انما لا تكون قراراتها في هذا الشأن قطعية الا بعد تصديق الحكومة عليها (٢) مجلس شورى القوانين . وفائدتهُ النظر في القوانين التي تسنّ حديثًا قبل نشرها ولا يجوز اصدار قانون او امر يشتمل على لائحة ادارة عمومية ما لم يتقدم ابتداء الى هذا المجلس لاخذ رأيهِ فيهِ وإن لم تعول الحكومة على رأيهِ فعليها ان تعلنهُ بالاسباب التي اوجبت ذلك انما لا يترتب على اعلانهِ بهذه الاسباب جواز مناقشة فيها (٣) الجمعية العمومية . وهذه لا يجوز ربط اموال جديدة او رسوم على منقولات او عقارات او عوائد شخصية في القطر المصري الاّ بعد مباحثة الجمعية العمومية في ذلك وإقرارها عليهِ (٤) مجلس شورى الحكومة . صدر الامر بتشكيلهِ وتأجل بيان وظائفهِ

ثم شرعت الحكومة في تنظيم الجيش المصري الجديد بعد ما ألغت الجيش القديم على ما تقدم فانتخبت من الضباط من لم يكن لهُ يدٌ في الحوادث العرابية وإخذت بعد ذلك في تنظيم الجندرمة والبوليس وجعلت

السير افلن وود قائدًا عامًّا للجيش المصري وباكر باشا قائدًا للجندرمة والبوليس فكان عدد الجندرمة ٣٠٠٠ فارس و٣٠٠٠ ماش . ثم تعين الجنرال السير افلن وود سردارًا للجيش المصري ورئيسًا لاركان حربهِ فاختار لمساعدتهِ عددًا من الضباط الانكليز جعلهم في اركان حربهِ وعهد اليهم قيادة الفرق لتعليمها الحركات العسكرية . ثم نظمت المجالس المحلية ووُضع لها قوانين عادلة وتعين لها رجال يقبضون على ازمَّتها وقد انصرف اليها هم اللورد دوفرين فتشكلت لجنة تحت رئاسة فخري باشا لانتقاء اللائقين الذين يجب انتخابهم ليعهد اليهم بالعمل والادارة . ثم اهتم مجلس النظار في مسألة القضاة الاوربيين فقررت لجنة التعديل ان يكون في كل مجلس ابتدائي اوربيان وفي الاستئنافي اربعة . وفي ٨ شعبان سنة ١٣٠٠ ﻫ (١٤ يونيو (حزيران) ١٨٨٣ م) صدر الامر الخديوي بترتيب هذه المحاكم ولائحة قوانينها . ثم صدر الامر الكريم بكل من القانون المدني والتجارة البرية والبحرية والمرافعات وتحقيق الجنايات

وفي صيف سنة ١٨٨٣م ظهر في هذا القطر السعيد الوباء المشوم المعروف بالكوليرا (الهواء الاصفر) فاقيمت الحجور الصحية واعتنت الحكومة بتنظيف البلاد وبلغ عدد الوفيات بهذا الداء نحوًا من ستين الف نسمة

الحوادث السودانيَّة

ظهر في رمضان سنة ١٢٩٨ ﻫ اوائل اوغسطس (آب) سنة ١٨٨١م رجلٌ نوبيُّ المنشإِ يدعى احمد محمد بن عبدالله وادَّعى انهُ المهدي المنتظر وكان مقيمًا في جزيرة ابا من اعمال السودان فالتفَّ حولهُ عصابة قوية وكان على حكمدارية السودان رأُوف باشا فانفذ اليهِ احد رجال بطانتهِ

يطلب حضورهُ الى الخرطوم عاصمة السودان فابى فبعث اليهِ ثلاثمائة مقاتل على باخرتين فعادوا خاسرين فاستمسك الرجل بمهدويتهِ وكثر انصارهُ فبعث محمد سعيد باشا مدبر كردوفان جيشًا كبيرًا يقتفي اثرهُ وكان قد نزح الى جبل الغور شمالي فشوده واستنجد باهلهِ فعاد ولم ينل منهُ وطرًا . ثم جرد اليهِ راشد بك مدبر فشوده وقاتلهُ فشنَّت المقاتلة عن قتل راشد بك وتشتت رجالهِ واكتسب المهدي كل ما كان معهم من المؤن والذخائر . وانتشر اتباع المهدي المعروفون بالدراويش بين القبائل السودانية يحثُّونهم على الجهاد في سبيل الله وما زالت الفتنة تقوى وتنتشر حتى اوائل سنة ١٨٨٢ م حينما استُقدم رأُوف باشا من السودان واقيم عبد القادر باشا مكانهُ

وفي ربيع اول سنة ١٢٩٩ ﻫ اوائل افريل سنة ١٨٨٢ م تقدم احد اقارب المهدي في شرذمة من رجالهِ الى سنار فسارت نجدة من رجال الخرطوم لمساعدة حامية سنار فشُتّت شمل العصاة وأُنقذت سنار . وظهر في ذلك الاثناء رجل يدعى محمد طاها ادعى انهُ وزير المهدي وجمع اليهِ عصابة زادت اتباع المهدي قوة لكنهُ ما لبث ان ظهر حتى تبدد شملهُ وشمل رجالهِ

وفي شوال من تلك السنة نزل المهدي الى العُبَيد في ستين الفًا وكانت حاميتها ستة آلاف بالاسلحة التامة و ١٢ مدفعًا فحاصرها بعد ان هاجمها دفعتين ولم يفز منهـا بشيءٍ . فوجه عبد القادر باشا عنايتهُ الى تحصين الخرطوم خوفًا من الغائلة . وفي اواخر هذه السنة أُرسل القائمقام ستيوارت الى الخرطوم ليرفع للحكومة تقريرًا عن احوال السودان . وفي اوائل سنة ١٨٨٣ م ملَّت حامية العبيد الحصار فسلَّمت فصارت كردوفان ومن فيها انصارًا للمهدي . ثم استُقدم عبد القادر باشا الى مصر واقيم مقامهُ علاء الدين باشا وتولّى حسين باشا قيادة جيش سنار . ثم توالت

الحوادث الى اوائل فبراير من هذه السنة فانفذت الحكومة المصرية حملة من ١١ الف مقاتل تحت قيادة قائد انكليزي النزعة يقال لهُ هيكس باشا لانقاذ العُبيد وقمع العصاة المهدويين وما زالت حتى انت الخرطوم فمكثت مدة للراحة ونهضت منها قاصدة العبيد فهلكت عن آخرها بمكيدة كانت منصوبة لها في وسط الصحراء وهلك معها قائدها ولم يرجع منها مخبر

وفي اثناء ذلك كان توفيق بك محافظ سواكن محاصرًا في سنكات لاحتدام نار الثورة في تلك الاقطار تحت قيادة احد قواد المهدي المدعو عثمان دجنا . واشتد الحصار على توفيق بك ولم يكن لديهِ الاَّ ستون مقاتلاً واما عدد العصاة فلا يقدَّر لكثرتهِ فطلب عثمان من توفيق بك ان يسلم والاَّ قتلهُ ومن معهُ فطاولهُ حتى تحصَّن فهجم عليهِ عثمان فقتل بعضًا من رجالهِ ولكنهُ لم يفز بهِ . فانتشر سمُّ الثورة في تلك الانحاء وحاصر العصاة طوكار وهي على ٤٥ ميلاً من سواكن ثم تقدموا حتى هاجموا سواكن نفسها وعادوا خائبين . وفي اواخر سنة ١٣٠٠ هاو سنة ١٨٨٣م أعدت الحكومة المصرية حملة تسير الى جهات سواكن تحت قيادة باكر باشا لانقاذ الحاميات ثم تسير الى بربر وتعيد المواصلات بينها وبين سواكن . فسار اولاً الى مصوع ليتحالف مع روساء القبائل ليعدَّ طريقًا لانسحاب حامية الخرطوم عن طريق كسالا ثم عاد الى سواكن واخذ في اعداد ما يلزم لتخليص حاميات طوكار وسنكات وحصلت مواقع كثيرة انتهت باستيلاء العصاة على سنكات وقتل توفيق بك حاميها وبطلها بعد ان اظهر من البسالة وعلو الهمة ما يفتخر التاريخ بذكرهِ وعاد باكر باشا بجيشهِ الى سواكن وحصنها ثم انيطت حكومتها بالاميرال هيوت واستُقدم باكر باشا الى القاهرة وبقيت طوكار محاصرة

وفي اثناء ذلك اشارت الحكومة الانكليزية على الحكومة المصرية ان تخلي السودان وتسحب جيوشها منها فلم يصادف ذلك قبولاً لدى شريف

باشا رئيس النظار فاصر الانكليز ومن ذهب مذهبهم على الاخلاء واستمسك شريف برأيهِ علمًا منهُ بامكان اخضاع السودانيين واستبقاء السودان فلما رأى اصرار الفئة المضادة لرأيهِ استقال من رئاسة النظار في ٥ ربيع اول سنة ١٣٠١ هـ (٤ يناير (ك٢) سنة ١٨٨٤ م) ورضي نوبار باشا بتشكيل وزارة جديدة قابلاً بما اشار بهِ الانكليز على شرط استبقاء سواكن فلم يعد على الحكومة الاَّ سحب حاميتها ورعاياها المقيمين في الاقطار السودانية فدار البحث على انسب طريقة لذلك . وفي ٩ ربيع اوَّل او ٨ يناير (ك٢) منها انتدبت الحكومة الانكليزية غوردون باشا احد رجالها المشهورين ليسير الى السودان يرفع عنها تقريرًا مفصلاً وعلى الخصوص عن حالتها الحربية والوسائط المناسبة لسلامة من بها من الحاميات والسكان الاوروباويين وعن احسن طريقة لاخلاء داخليتها وتثبيت حكومة منتظمة على سواحل البحر الاحمر وابطال تجارة الرقيق التي كانت قد عادت الى ما كانت عليهِ واسلم طريقة لانسحاب الجيش المصري . وكان غوردون عالمًا باحوال السودان لانهُ تولاَّها في عهد الخديوي السابق

فبارح الجنرال غوردون انكلترا مستصحبًا الكولونيل ستيوارت كاتم اسرارهِ فوصل القاهرة في ٢٥ يناير (ك٢) فاخبرهُ السير افلن بارنج وكيل انكلترا السياسي في مصر ان الحكومة الانكليزية قد فوضت اليهِ اخلاء السودان وانها تطلب اليهِ اعادة حكم الامراء الذين كانوا يحكمون فيها عند ما فتحها المغفور لهُ محمد علي باشا . وفي اليوم التالي اصدر الجناب الخديوي امرًا عاليًا بتولية غوردون على الاقطار السودانية وفوَّض اليهِ امر اخلائها ثم سافر غوردون فوصل بربر في ١١ ربيع آخر او ٩ فبراير (شباط) وهناك اباح للاهالي جهارًا الاتجار بالرقيق بدعوى ان السودان اصبحت دولة مستقلَّة عن مصر وان المهدي قد اقيم سلطانًا على كردوفان .

وفي ١٨ فبراير (شباط) وصل غوردون الى الخرطوم فتلقاهُ اهلها

وحاميتها بالترحاب فقال لهم «اني اتيت لانقاذ السودان مما رزئت بهِ ولم آتِ بجيش بل اتكلت على معونة الله فلا احارب الاَّ بسلاح العدل» وكانوا يحبونهُ فوقع كلامهُ من قلوبهم موقع الاستحسان واستتبت الراحة في الخرطوم

ثم رأى الناس قد عادوا الى الثورة فحرر الى انكلترا مشيرًا بوجوب كسر شوكة المهدي قبل اخلاء السودان لانهُ يخشى منهُ اذا ملك الخرطوم ان يسير الى حدود مصر واشار بترك سواكن ومصوَّع. واخذ من الجهة الثانية يبشر السودانيين بالسلم وبانهُ لم يأتِ الاَّ مسالمًا فلم تنجح دعواه فناهضهم فلم يفز وكان عند وصولهِ قد ارسل الى المهدي يخبرهُ انهُ قد عينهُ سلطانًا على كردوفان فرفض تلك العطية وتهددهُ بالقتال والمسير الى مصر فاخذ في عدوانهِ وجعل يرسل بواخرهُ الى البحر الازرق لمحاربتهِ ولم ينتهِ مارس (اذار) من تلك السنة حتى اصبحت الخرطوم في حصار تام فجعل غوردون يستحث الحكومة الانكليزية على انهُ لا بد من محاربة المهدي وكسر شوكتهِ وانهُ يكفي لذلك ٣ آلاف من مشاة الاتراك وبعض خيالتها

وفي اثناء ذلك بعثت الحكومة الانكليزية جيشًا من رجالها لانقاذ طوكار وحاميتها تحت قيادة الجنرال غرام. ولكن «لم يأتِ الترياق من العراق حتى كان العليل فارق» الاَّ ان الجنرال غرام ما انفك حتى جاء طوكار بعد مقاساة شديدة وانقذ حاميتها وكانت قد أُسرت واستعبدت ورجع الى سواكن. ثم عاد ثانية لمحاربة العربان ففتك بهم ولكن لم تكن ثم نتيجة لتلك الغلبات الاَّ زيادة الرعب للقبائل المسالمة ولا سيما بعد انسحاب غرام من سواكن في ٢٧ جمادى الاولى سنة ١٣٠١ ﻫ او ٢٥ مارس (اذار) سنة ١٨٨٤ م

وتماهلت الحكومة الانكليزية في اجابة طلب غوردون فكتب الى صديق لهُ في لوندرا يدعى السير صموئيل باكر يقول «الا يقرضنا اغنياء انكلترا واميركا ميئتي الف ليرة انكليزية فنستأجر بها الفين او ثلاثة

آلاف من الباشبوزوق التركي ونرسلهم الى بربر » . ثم كتب الى السير افلن بارنج في القاهرة يقول « قد علمت منك ان قصدك ان لا تمدّنا بنجدة الى هنا او الى بربر فلذلك اراني حرًّا ان افعل بحسب ما تقتضيهِ الاحوال فسابقى هنا ما امكن وساخمد الثورة اذا استطعت والاَّ فاني ارجع الى خط الاستواء ويبقى العار على الذين اهملوا حامية سنار وكسالا وبربر ودنقلة عالمًا حق العلم انهُ لا بدَّ لكم من محاربة المهدي وقهرهِ في ظروف وعرة واحوال عسرة اذا كان قصدكم حفظ السلام في القطر المصري »

وقد قال انهُ سائر الى خط الاستواء لانهُ ظنها الطريق الافضل للنجاة بمن معهُ لان الاعداء كانوا قد احاطوا بهِ من كل الجهات وقد سقطت بربر وما جاورها

الاَّ ان الحكومة الانكليزية أقرَّت اخيرًا على ارسال حملة من رجالها دعتها الحملة النيلية لتسير الى السودان عن طريق النيل لانقاذ غوردون ومن معهُ جعلتها مؤلفة من سبعة آلاف جندي تحت قيادة الجنرال اللورد ولسلي قائد حملة سنة ١٨٨٢ م . فبارح لندرا في ٩ ذي القعدة سنة ١٣٠١ ه او ٢١ اوغسطس (آب) سنة ١٨٨٤ م وبارح القاهرة في ٢٧ سبتمبر منها . وكان قد سار في مقدمة الجيش الماجور كتشنر (اليوم كتشنر باشا) ليستطلع الاحوال فأُخبر ان الكولونيل ستيوارت كاتب اسرار غوردون بينما كان نازلاً في باخرة مرَّ ببربر فانكسرت بهِ الباخرة وغدر العربان بهِ وبمن معهُ وقتلوهم . اما الحملة النيلية فسارت حتى انت حلفا عند الشلال الثاني وقاست اشر العذاب في تطليع مراكبها فوق الشلالات وعلى الخصوص الشلالين الاول والثاني ومن حلفا مدُّوا سكة حديدية الى سرس على مسافة ٣٠ ميلاً منها ومن هناك سار ولسلي حتى اتى دنقلة فلاقاهُ مديرها مصطفى بك ياور (اليوم مصطفى باشا ياور) فسلمهُ لقب ورتبة (سير) من انعام جلالة ملكة

انكلترا مكافأة على خدامتهِ في محاربة العصاة لانهُ بثباتهِ مع قلّة رجالهِ منعهم من التقدم الى ما وراء بربر

ثم اخذ اللورد ولسلي رسالة من غوردون باشا بتاريخ ٤ نوفمبر يقول فيها انهُ لا يمكنهُ حفظ المدينة (الخرطوم) اكثر من اربعين يومًا ويشير عليهِ ان يأتي برجالهِ عن طريق امبوكول فالمتمة عن طريق الصحراء. فرأى وجوب الاسراع فسار الى كورتي قرب امبوكول وهناك جعل جيشهُ قسمين ارسل احدهما تحت قيادة الجنرال إرل ليسير على النيل حتى ابي حمد وبربر فيقهر العربان الذين قتلوا الجنرال ستيوارت ثم يفتح طريق الصحراء بين ابي حمد وكروسكو لتسهيل نقل المؤن. والقسم الثاني ارسلهُ عن طريق الصحراء الى المتمة تحت قيادة الجنرال ستيوارت ليفتح طريق الخرطوم ويسرع الى غوردون فينقذهُ. وبين كورتي والمتمة مسير ١٢ يومًا في ارض رملية قاحلة لا ماء فيها الاّ في بعض الآبار التي ماء معظمها مجتمع من الامطار وهي افضل طريق موصلة الى الخرطوم من امبوكول. فسار الجنرال ستيوارت في ١٢ ربيع اول سنة ١٣٠٢ ه او ٣٠ دسمبر «ك ١» سنة ١٨٨٤ م في فرقة من الجند لاستكشاف احوال الآبار فجاء اولاً آبار الهوائر ثم آبار جكدول فرأى فيها ماء كافيًا لحملتهِ مع الجهد فعاد الى كورتي

وفي ٢١ ربيع اوّل سنة ١٣٠٢ ه او ٨ يناير «ك ٢» ١٨٨٥ م عاد قاصدًا المتمة في الف وستماية مقاتل ونحو الفين من الجمال وثلاثماية من الهجانة المصريين فوصل جكدول في ١٢ يناير وبارحها في ١٤ منهُ بعد ان ترك فيها حامية قليلة وبعد يومين قابل التلال التي تحيط بآبار ابي طليح فارسل بعض الفرسان لاستطلاع حالة الآبار فعادوا واخبروا انها محفوفة بالخيام والاعلام المهدوية ومعظم السواد الى غربيها. فعسكر ستيوارت في منخفض وسيع واحاط معسكرهُ بزريبة وباتوا تلك الليلة ساهرين وفي

الصباح التالي انتظروا هجوم العدو فلم يهجم احدٌ منهم فأمر الجنرال سنيوارت رجالهُ ان يترجلوا تاركين مطيهم في الزريبة وليسيروا على هيئة مربع لامتلاك الآبار لان الماء لا يلبث ان ينفد من معسكرهم وترك في الزريبة ١٥٠ جنديًّا لحراسة المتاع وسار نحو العدو فمشى ساعة ثم هجم عليهِ العربان فلاقاهم بعزم ثابت فتقهقر واقتبعهم المربع حتى تواروا فوصل الآبار واستولى عليها وفي صباح اليوم التالي استقدم من كان باقيًا في الزريبة . وقد قُتل من الانكليز في هذه الموقعة تسعة ضباط وستون جنديًّا وقتل من العربان ثمانماية

وفي غاية ربيع اول او مساء ١٧ يناير «ك ٢» بارح الجنرال سنيوارت آبار ابي طليح تاركًا عندها حامية وسار في ظلام الليل قاصدًا المتمة حيث ينزل على النيل الى الخرطوم وكان ليلاً حالكًا وقد أُتيح لي ان اكون من رفقاء تلك الحملة في تلك الليلة الليلاء فكنّا سائرين لا نرى شيئًا من آثار الطريق المؤدي الى المكان المقصود لشدة الظلام فاضطررنا الى الاستدلال عليها بالابرة المغنطيسية (البُصلة) والنجم القطبي وكنا تارة نصعد على آكام متلمّسين وطورًا تعثر ارجل جمالنا باعشاب او أنجم شوكية ولم نكن نخرج صوتًا ولا نقدح نارًا لئلاّ يكون بالقرب منا من الاعداء من يستطلع احوالنا فتحبط مقاصدنا ولم يأتِ آخر الليل حتى اصبحنا وليس فينا من لم يأخذ منهُ النعس مأخذًا عظيمًا . وكانت تأخذ من احدنا سنة الوسن وهو على ظهر الجمل فينتبهُ وهو على وشك السقوط فيعتدل

وعند ما اصبح يوم غرة ربيع آخر او ١٨ يناير «ك ٢» اشرفنا على النيل المبارك عن بعدٍ والمتمة عن يسارنا ولم نكد نقف والغزالة في الضحى حتى خرج الينا من اسوار المدينة (المتمة) جيش جرار من العربان وقفوا على مرمى رصاص منّا وقد حالوا بيننا وبين النيل وجعلوا يطلقون علينا النار من وراء الاشجار والصخور فامر الجنرال سنيوارت بالترجل

وانشاء زريبة وما كدنا نفعل حتى احتدمت نيران العدو فامر الجنرال بتشكيل مربَّع ثم وقف وراء احد المدافع وبيدهِ المنظر يراقب حركات العدو فاصابتهُ رصاصة في بطنهِ فسقط على الارض وسقطت قلوبنا معهُ وكان بجانبي المستر سانكي هربرت كاتب سر الجنرال فسألتهُ ما ظنُّهُ بحياة الجنرال فاجاب متأسفًا انهُ لا يرجو لهُ شفاء . وما اتمَّ كلامهُ حتى اصيب هو برصاصة في رأسهِ فشهق وسقط ميتًا لا حراك بهِ وكان خادمهُ بجانبهِ يخاطبهُ في بعض حاجاتهِ فلما رآهُ ساقطًا رفع يدهُ مناديًا يا سيدي يا سيدي ولم يتمَّ قولهُ هذا حتى اصيبت يدهُ عند المعصم برصاصة ثقبتها من الجانب الواحد الى الآخر وكنا نرى كثيرين غيرهُ يسقطون مثل تلك السقطة . فلا تسل عما حل بالجند من اليأس الاَّ انهم تجلدوا واقاموا عليهم اكبر ضباطهم قائدًا فاتمُّوا تشكيل المربع بعدان رفعوا الجنرال جريحًا جرحًا بليغًا لم يعش بعدهُ اكثر من شهر واحد فمات عند انسحاب الحملة ودفن عند آبار جكدول في وسط الصحراء

فسار المربَّع ونحن داخلهُ قاصدًا النيل فهاجمنا الاعداء ببسالة غريبة ثم ما لبثوا ان اقتربوا من مربعنا حتى تشتَّت شملهم فسرنا حتى ادركنا النيل عند الظلام بعد مفارقتنا اياهُ نحوًا من اسبوعين فحيَّيناهُ تحية ملتاح وعسكرنا على ضفتهِ المبيت تلك الليلة . وفي الصباح التالي جاءت العساكر مع من كان معهم في الزريبة ثم انتقلنا الى قرية جنوبي المتمة يقال لها القبَّة وقد دعاها بعض الكتبة «جوبات» غلطًا . وهناك التقى الجيش باربع بواخر كان قد ارسلها غوردون من الخرطوم لملاقاتهم فاستلموها وكان فيها نصحي باشا وخشم الموس بك «اليوم خشم الموس باشا» وكلاهما من المخلصين لغوردون باشا والحكومة المصرية

وفي ٧ ربيع آخر او ٢٤ يناير «ك ٢» ركب السير شارلس ولسن رئيس قلم المخابرات في سريَّة من الجند على باخرتين ومعهُ خشم الموس

بك وسار قاصدًا الخرطوم وفي اليوم التالي وصلوا الى الشلال السادس «شلال السبلوكا» فانكسرت احدى الباخرتين فاحتشد الجند في الباخرة الباقية ثم ساروا قليلاً فلاقاهم اعرابيٌّ واخبرهم ان الخرطوم قد سقطت فلم يصدقوا حتى وصلوا اليها ورأوا الاعلام المهدوية تخفق فوق اسوارها فعادوا وقد يئسوا مما ارادوا . ثم علموا ان سقوطها كان بخيانة فرج باشا اكبر قواد الاسوار وان غوردون قد قُتل وقتل معهُ كثيرون من الاوربيين وغيرهم فعاد السير شارلس بباخرتهِ وعند وصولهِ الى الشلال المعهود صدمت الباخرة الباقية صخرًا فانكسرت فنزل من كان معهُ من الجيش الى البر فاتاهم اعرابي وفي يدهِ كتاب من المهدي يطلب اليهم التسليم فطاولوهُ الى ان اتتهم باخرة من المتمة ولم تصلهم الاَّ بعد شق الانفس لما كان يتهددها من الطوابي القائمة على الضفتين وكانوا قد ارسلوا احد الضباط لاستجلائها وتبليغ ما كان من الخرطوم وسقوطها . فركبوا الباخرة حتى اتوا القبة وهم لم يصدقوا انهم نجوا . فأُرسلت هذه الاخبار الى اللورد وولسلي في كورتي فاستشار حكومتهُ فامرتهُ بالانسحاب فبعث بتلك الاوامر الى حملتي المتمة وابي حمد

اما حملة ابي حمد التي كانت تحت قيادة الجنرال إرل فكانت قد حاربت العربان في اماكن متعددة قتل فيها الجنرال ارل واميرالايان وسبعة عساكر ثم تقدموا الى ابي حمد فظفروا ببقية باخرة الكولونيل ستيوارت وبعض اوراقهِ ثم ادركتهم اوامر اللورد وولسلي بالانسحاب فانسحبوا الى كورتي . ومثل ذلك فعلت حملة المتمة فانها عادت حتى اتت كورتي وفي ٢٢ جمادى الاولى سنة ١٣٠٢ ه او ٨ مارس «اذار» سنة ١٨٨٥ م التقت عساكر اللورد وولسلي مرة ثانية في كورتي فاعلنهم ان الحكومة الانكليزية قد عزمت على سحب كل الحملة في الخريف القادم

وكان الانكليز قد ارسلوا حملةً ثانيةً الى سواكن تحت قيادة الجنرال

غرام لفتح طريق بربر ومد سكة حديدية فمدوها الى عطوة وطنبوك بكل مشقة لما كان يحول دون ذلك من مناوشات العربان وتعدياتهم

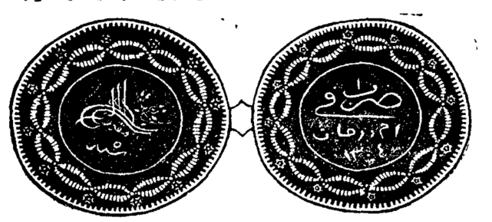
وفي رجب سنة ١٣٠٢ ه او اوائل مايو «ايار» سنة ١٨٨٥ م جاء اللورد ولسلي الى سواكن وشاهد تلك الاجراءات وفي اواخر هذا الشهر اعتمدت الحكومة الانكليزية على اخلاء السودان من عساكرها لاسباب دعتها اليها سياستها الخارجية فاخذت الجيوش بالانسحاب وفي شوال او يوليو (تموز) شرعوا بالانسحاب من دنقلة على نيّة ان يتحصنوا في وادي حلفا وكروسكو واصوان ويتركوا للعصاة ما وراء ذلك من البلاد

اما المهدي فبقي في حصن ام درمان بجوار الخرطوم يحشد جيشاً لافتتاح القطر المصري . وفي ٦ رمضان سنة ١٣٠٢ ه او ١٩ يونيو (حزيران) ١٨٨٥ م اصيب بالجدري ومات في مساء اليوم التالي بعد ان استخلف ابن اخيهِ . ولم يُضعف موت المهدي شيئاً من الثورة بل بقيت على ما كانت عليهِ قبل موتهِ وظل العصاة يتجمعون ويتفرقون ويقتفون اثر الانكليز حتى احتلوا دنقلة فصارت تجارة الرقيق الى ما كانت عليهِ وتكاثر عدد النخاسين

اما الجيوش الانكليزية فاصبحت بعد سفر اللورد ولسلي تحت قيادة الجنرال غرانفيل ومعهُ بعض الجيوش المصرية وقد احتلت الحدود المصرية الى وادي حلفا فكانت تهاجمهم الدراويش مرةً ويهاجمونهم اخرى حتى كانت واقعة جنس ثم مواقع اخرى وكان الفوز دائماً للعساكر الانكليزية والمصرية الى ان خمدت ولم نعد نسمع الاَّ بمناوشات طفيفة وقد اصبحت آخر الحدود المصرية الآن وادي حلفا ولا يزال العربان في ما وراء ذلك على نية مقاومة الحكومة المصرية وقاها الله من كل غدر وحرسها بعنايتهِ .

وقد استقلَّ الدراويش المهدويُّون بالاقطار السودانية وتشبَّهوا بالدول الأُخرى فخطبوا لمهديهم وخلفائهِ وضربوا النقود بامرهم في ازمنة

مختلفة فمنها ما هو مضروب في سنة الهجرة وهي هجرة المهدي على ما يزعمون ومنها ما هو مضروب بعد ذلك . وقد عثرت على قطعة فضية من هذه النقود ترى رسمها في شكل ٩٢ بحجمها الطبيعي على احد وجهيها اسم المدينة التي ضربت فيها « ام درمان » بجوار الخرطوم قد اتخذها المهدي عند افتتاح الخرطوم مقرًّا له وعند اسفل ذلك تاريخ ١٣٠٤ ه وهي سنة استقلالهم بالاقطار السودانية والى اعلاها رقم واحد يقصدون به السنة الاولى من سلطانهم وعلى الوجه الآخر ما يشبه الطغراء يقرأ منها كلمة « مقبول » كأنهم يريدون بها ان هذه النقود مقبولة عند حكومتهم وعند اسفل الطغراء يقرأ سنة ٥ ربما يقصدون بها السنة الخامسة من ظهور المهدي او هجرته



ش ٩٢ نقود محمد احمد المهدي

هذا ملخص الحرب السودانية التي انتهت بخروج معظم الاقطار السودانية من حوزة الحكومة المصرية بعد ان هدرت في سبيل ذلك دماء غزيرة وأُنفقت مبالغ جسيمة تفوق ما بذله المغفور له محمد علي باشا على افتتاحها فقدصح فيها قول الشاعر

ويلاهُ ان نظرت وإن هي اعرضت وقع السهام ونزعهنَّ اليمُ

« عودٌ »

اما ما كان من امر مصر فان الاشاعات تكاثرت بعزم الحكومة

الانكليزية ان تضع حمايتها على هذا البرّ ثم اثبت الزمان كذب تلك الاشاعات . ثم تكاثر القول بقرب انجلاء عسكرها عن مصر . وفي شعبان سنة ١٣٠١ ﻫ او يونيو (حزيران) ١٨٨٤ م تشكّل مؤتمرٌ دولي من جميع الدول وانعقد في لندرا تحت رئاسة اللورد غرانفيل ناظر خارجية انكلترا للبحث في امور كثيرة تتعلق بمصر فقرّر تحويرات كثيرة انتهت الى غير نتيجة فلا حاجة الى ذكرها

وفي ذي القعدة سنة ١٣٠١ ﻫ (اوائل سبتمبر (ايلول) ١٨٨٤ م) وفد على القطر المصري اللورد نورثبروك معتمدًا من انكلترا للنظر في المسألة المالية واحوال الادارة الداخلية مستصحبًا معهُ القاضي الهندي سميع الله خان بناء على رغبة اللورد في انتخاب قاض مسلم يصحبهُ الى مصر ويكون شريكًا لهُ في هذه المهمَّة فتحدثت الناس كثيرًا بسبب قدوم هذا المعتمد اما هو فاخذ في ملاحظة ما اتى من اجلهِ وطاف البلاد شمالاً وجنوبًا وبعد ان قضى اياما طوالاً عاد الى بلادهِ ونظم تقريرًا رفعهُ الى حكومتهِ فلم يُجز قبولاً فنسجت عليهِ عناكب النسيان

ورأت الحكومة المصرية انها لا تقوى على القيام بالتعهدات وبذل النفقات وكانت الاحوال تستدعي التخفيف عن المالية بقدر الامكان فرأت ان تعمد الى توقيف استهلاك الدين الموحد بالرغم عمّا في ذلك من مس قانون التصفية ففعلت . ثم عمدت ملافاةً لعسر المالية ايضًا الى الاقتصاد وعلى الخصوص في نفقات الدوائر فاخذت في رفت مستخدميها الذين ترآءى لها امكان استغناء مراكزهم عنهم فرفتت منهم ما يعد بالآلاف ومعظمهم من اصحاب الرواتب القليلة والذين لم يعد يمكنهم معاطاة اشغال أُخرى تجاريّة او صناعية اوغيرها فتظلموا على اساليب مختلفة وقد جالت الجرائد المحلية في هذا الشأن واكثرت من تعنيف الحكومة ولومها على ذلك . وانما ذلك لم يكن ليسد عوز المالية ويكفي الحكومة

مؤنة الرفت فهي رغماً عن رغبتها في الرحمة بالرعايا لا تزال آخذة بالاقتصاد من باب الرفت وغيره

وفي اواخر عام ١٨٨٤م أنشأت الحكومة المصرية المعرض القطني وأصدرت نظارة الداخلية لائحة عمومية في تعيين يوم افتتاحه وتنظيمه وإدارة اعمالهِ . وفائدتهُ ان تُعرض فيهِ كل المحصولات الّا ما كان فيها داخلاً في نطاق الصناعة الداخلية ويُعطَى لمن ياتي باجود المحصولات جائزة . وفي ٨ ربيع آخر سنة ١٣٠٣ ه او ٢٤ يناير (ك٢) ١٨٨٥م افتُتح هذا المعرض بحضور الجناب الخديوي والنظار والقناصل

ثم اهتمت الحكومة الخديوية باستبدال النقود المصرية القديمة بنقود جديدة وما زالت المسألة تحت البحث حتى اواخر سنة ١٨٨٥م فصدر امر عالٍ بتاريخ ٧ صفر سنة ١٣٠٢ ه او ١٤ نوفمبر (ت ٢) ١٨٨٥م موذنٌ بضربها وفي اواخر سنة ١٨٨٧م ظهرت وتداولتها الايدي وهي مبنية على حساب الكسور العشرية تسهيلاً للمعاملة . وكيفية ذلك انهم جعلوا الجنيه المصري بقيمة مائة غرش كما كان قبلاً وقسموهُ الى الف جزء دعوا الواحد منها مليمًا اي جزء من الف فالمليم هو جزءٌ من الف من الجنيه المصري والغرش عشر مليمات والريال مايتا مليم (عشرون غرش) وهكذا والجنيه واجزاؤهُ مصنوعة من الذهب والريالات واجزاؤها من الفضة والمليم ومركباتهُ الى ابي الخمس مليمات من النكل وقسموا المليم الى نصفين يعرف الواحد منهما بنصف عشر الغرش وقسموا كلاًّ من هذين القسمين الى نصفين يعرف الواحد منها بربع عشر الغرش اي جزء من اربعين من الغرش وهي البارة وجميع اجزاء المليم مصنوعة من النحاس

وترى في شكل ٩٤ مثال النقود المضروبة حديثًا وهذه القطعة تعرف بنصف ريال وقيمتها عشرة غروش او ماية مليم وترى على احد وجهيها من الاسفل تاريخ سنة ١٢٩٣ ه وهي السنة التي تولّى بها جلالة السلطان

عبد الحميد خان الخلافة العثمانية ومن الاعلى رقم عشرة وهي السنة العاشرة من تولية جلالتهِ وفيها ضربت هذه النقود . وترى على الوجه الآخر الطغراء العثمانية باسم جلالتهِ ايضًا والى اسفلها رقم عشرة تحته حرف شين للدلالة على قيمة هذه القطعة اي عشرة غروش



ش ٩٤ النقود المصرية الجديدة

اما قيم النقود الاجنبية بالنسبة للنقود المصرية فعلى الوجه الاتي

	بارة	غرش صاغ	او مليما
الليرة الانكليزية تساوي	٣٠	٩٧	٩٧٥
الليرة العثمانية «	٣٠	٨٧	٨٧٧ ١/٢
الليرة الفرنساوية (فانتي)	٠٦	٧٧	٧٧١ ١/٢

ومتى عرفت قيم الليرات يمكنك استخراج قيم اجزائها

وفي ١٧ ربيع آخر سنة ١٣٠٤ ه او ١٢ يناير (ك ٢) سنة ١٨٨٧ م الحّ الباب العالي على الحكومة الانكليزية ان تعين زمن انجلاء جيوشها عن القطر المصري فاجابت انها لا يمكنها ذلك الاّ متى استتبّ النظام فيها وفي ٣ فبراير تقرر ان يكون جيش الاحتلال محصورًا في ثلاثة مراكز فيقيم في القاهرة الفان وتسع مئة جندي وفي الاسكندرية ٩٠٠ وفي اصوان ٤٠٠٠ . وفي ١٥ جمادى الاولى او ٩ فبراير اقترح السير وولف معتمد انكلترا في الاستانة على الباب العالي الاقتراحات الاتية بما يتعلق بمصر وهي

(١) استقلال مصر تحت سيادة جلالة السلطان والغاء العهود والامتيازات القنصلية

(٢) ان تكون حالة مصر من قبيل الحيادة على مثال حالة بلجيكا

(٣) حرية المرور في قنال السويس في زمني الحرب والسلم

(٤) اخلاء انكلترا للقطر المصري بعد ان تجمع الدول على وجوب ذلك

فتلقى جلالة السلطان هذه الاقتراحات بفتور وطلب ان يتقدم كل ذلك تحديد انكلترا زمن الانجلاء وبعد النظر في هذه الاقتراحات مدة يومين رفضت

وفي ٢٥ رجب سنة ١٣٠٤ هـ او ١٩ افريل (نيسان) ١٨٨٧ م توفي شريف باشا رئيس مجلس النظار سابقًا بينما كان في اوربا يسعى الى ترويح النفس فاسف الجميع على فقدهِ وحملت جثتهِ الى مصر ودفنت فيها

وفي ١١ شعبان او ٥ مايو منها عرضت انكلترا على الباب العالي ان يكون زمن احتلالها في مصر خمس سنوات فطلب الباب العالي ان يكون ٣ سنوات ولم يتقرر شيء . وفي اوائل يونيو عرض على الباب العالي وفاق بينهُ وبين انكلترا بخصوص مصر وهاك نصّهُ

(١) تبقى مصر كما هي حسب نصوص الفرمانات السلطانية

(٢) يبقى خليج السويس على الحيادة وتضمن الدول سلامة مصر

(٣) تبقى العساكر الانكليزية في مصر مدة ثلاث سنوات وعند انقضائها يلبث الضباط الانكليز في رئاسة الجيش المصري سنتين

(٤) لا تخرج انكلترا عساكرها من مصر بعد ختام السنة الثالثة من التوقيع على هذا الوفاق اذا حدث اضطراب جديد في مصر داخليًا كان ام خارجيًا

(٥) يحق لانكلترا احتلال مصر بمساعدة العساكر العثمانية اذا وقع اختلال بها او خشي ان ترسل دولة اجنبية عساكرها الى مصر

(٦) تستدعي الدولة العلية وإنكلترا بقية الدول للتصديق على هذا الوفاق وتطلبان من الدول اجراء بعض التعديلات في المعاهدات الدولية المخولة للاجانب في مصر جملة امتيازات .

وبعد المخابرات الطويلة بشأن هذا الوفاق رفض الباب العالي المصادقة عليهِ

وفي ١٨ رمضان سنة ١٣٠٤ هـ او ١٠ يونيو (حزيران) ١٨٨٧ م توفي خيري باشا رئيس الديوان الخديوي . وزاد ارتفاع النيل في هذه السنة فطاف على كثير من الاراضي وخشي الناس فتكهُ . وفي ٢٢ سبتمبر منها طاف الجناب الخديوي في جهات القطر متفقدًا احوال الاهالي ومعزّيًا الذين اصيبوا بطغيان النيل فسار اولاً الى الوجه البحري ثم القبلي فاستغرقت السياحة المشار اليها ١٦ يومًا

واهمُّ حوادث سنة ١٨٨٨ م سقوط الوزارة النوبارية وتشكيل الوزارة الرياضية لان الناس ما فتئوا منذ اعتزال رياض باشا عن الاعمال بعد حادثة عرابي يشخصون اليهِ بابصارهم وقد احاطت بهِ آمالهم لما اشتهر بهِ هذا الوزير الخطير من الحب الشديد للشعب المصري ورغبتهِ الفائقة في اصلاح البلاد ولما لهُ من الولع الخاص بالزراعة وهو مشهور بذلك شهرة تضاهي شهرتهُ في حب العلم وتنشيط ذويهِ . ومن مبادئهِ حرية الضمير والصرامة في اتباع الحق من حيث هو وكثيرًا ما قادهُ ذلك الى التنحّي عن قبول منصب الوزارة في الاحوال التي كان يخشى معها تقييد افكارهِ ومخالفة مبادئهِ . فعندما سقطت الوزارة النوبارية في ٢٠ رمضان سنة ١٣٠٥ هـ او ٩ يونيو «حزيران» ١٨٨٨ م لم يكن يصدق الناس ان رياض باشا يقبل ان يشكل وزارة جديدة . فلما انبأهم البرق بجلوسهِ على

دسنها وتقلّده اعمال نظارتي الداخلية والمالية كادوا يطيرون على اجنحة الآمال وتطاولت اعناقهم استطلاعاً لما سيكون من امر هذه الوزارة الجديدة . وقد تحققت بعض الامال الآن ولا يزال الناس ينتظرون تحقق الباقي مع الزمن

ومن اعمال الوزارة الرياضية انشاء المحاكم في جهات الصعيد وهي مأثرة لا تخفى اهميتها على احد . وقد باشرت اموراً كثيرة تعود بالخير والفلاح على الامة المصرية وحكومتها نطلب الى الله ان يعضدها في مشروعاتها وينفعنا بسعيها ونشاطها تحت ظل الحضرة الخديوية الفخيمة ورعاية جلالة مولانا امير المؤمنين السلطان عبد الحميد خان أيّد الله سلطانهُ وعزّز جودهُ واعوانهُ

تمّ الجزء الثاني

(فائدة) اذا تأملت بصور النقود المطبوعة في هذا الكتاب وقابلت اشكال خطوطها بعضها ببعض متدرجاً بذلك من قديمها الى حديثها يتمثل لك كيفية انتقال الخط العربي من الشكل الكوفي الى ما هو عليهِ الآن

جدول عامّ

وهو يتضمن اسماء الذين حكموا في مصر منذ فتوح الاسلام الى هذه الايام . وهم على ثمانية اقسام

(١) الامراء العرب . وهم الذين تولوا مصر منذ فتوحها الى مجيء الخليفة المعزّ لدين الله الفاطمي الى القاهرة . وقد تولوها تحت رعاية الخلفاء الراشدين والامويين والعباسيين من سنة ١٨ ــ ٣٦٢ ه او من ٦٤٠ ــ ٩٧٢ م وقد دعوناهم عربًا لان معظمهم من العرب

(٢) الخلفاء . وهم الخلفاء الفاطميون اولهم المعزّ لدين الله وآخرهم العاضد بن يوسف من سنة ٣٦٢ ــ ٥٦٧ ه او من ٩٧٢ ــ ١١٧١ م

(٣) السلاطين . وهم سلاطين الدولة الايوبية ودولة المماليك الاولى والثانية . اولهم السلطان صلاح الدين الايوبي وآخرهم السلطان الملك الاشرف طومان باي من سنة ٥٦٧ ــ ٩٢٣ ه او من ١١٧١ ــ ١٥١٦ م

(٤) الباشوات . وهم الولاة الذين تولّوا مصر باسم الدولة العثمانية منذ فتوحها اياها الى استبداد الامراء المماليك من سنة ٩٢٣ الى ١١١٩ ه اوّلهم خير بك باشا وآخرهم حسن باشا

(٥) الامراء المماليك . وهم مشائخ البلد الذين كانوا يتولون حكومة القاهرة وقد كانت سلطتهم في بادىء الرأي محدودة ثم قويت شوكتهم فاستبدوا اما مرجعهم فالى الدولة العثمانية اوّلهم قاسم عيواظ بك وآخرهم ابراهيم بك ومراد بك من سنة ١١١٩ الى ١٢١٣ ه

(٦) الامراء الفرنساويون . وهم قواد الحملة الفرنساوية اولهم نابوليون بونابرت وآخرهم الجنرال مينو من سنة ١٢١٣ الى ١٢١٦ ه

(٧) باشوات آخرون . وهم الولاة الذين تولوا مصر باسم الدولة العلية منذ خروج الحملة الفرنساوية الى ايام محمد علي . اوَّلهم خسرو باشا وآخرهم خورشيد باشا من سنة ١٢١٦ الى ١٢٢٠ هـ

(٨) الدولة المحمدية العلوية . وهم سلالة رجل الاصلاح المغفور لهُ محمد علي باشا من سنة ١٢٢٠ هـ ولا تزال

وهاك جدولاً شاملاً لاسماء الذين حكموا في مصر مرتبة حسب سنيّ تولياتهم مع مراعاة التقسيم المتقدم ذكرهُ والاشارة الى الاماكن المذكورة فيها تلك التوليات من هذا الكتاب ثم اذا كانوا امراءاو ولاةً تذكر بجانب ذلك اسماء الخلفاء او السلاطين الذين حكموا تحت رعايتهم

(١) الامراء العرب

تحت رعاية الخلفاء الراشدين

اسم الامير	سنة هـ	الصفحة جـ ١	الخليفة
عمرو بن العاص	١٨	٩٤	عمر بن الخطاب
عبدالله بن سعد	٢٥	١٢٤	عثمان بن عفان
محمد بن ابي حذيفة	٣٥	١٢٨	»
قيس بن سعد	٣٦	١٣٢	علي بن ابي طالب
محمد بن ابي بكر الصديق	٣٧	١٣٤	»

تحت رعاية الخلفاء الامويين

اسم الامير	سنة هـ	الصفحة جـ ١	الخليفة
عمرو بن العاص (ثانيةً)	٤١	١٤٠	معاوية بن ابي سفيان
عتبة بن ابي سفيان	٤٣	١٤٠	»
عقبة بن عامر	٤٤	١٤١	»

اسم الامير	سنة ه	الصفحة ج ١	الخليفة
مسلمة بن مخلد	٤٥	١٤١	معاوية بن ابي سفيان
سعيد بن يزيد الازدي	٦٣	١٤٣	يزيد بن معاوية
عبد الرحمن بن عتبة	٦٤	١٤٥	عبدالله بن الزبير
عبد العزيز بن مروان	٦٥	١٤٦	مروان بن الحكم
عبدالله بن عبد الملك	٨٦	١٤٨	عبد الملك بن مروان
قرة بن شريك	٩٠	١٤٩	الوليد بن عبد الملك
عبد الملك بن رفاعة	٩٦	١٤٩	»
ايوب بن شرحبيل	٩٩	١٥١	عمر بن عبد العزيز
بشر بن صفوان	١٠١	١٥٣	يزيد بن عبد الملك
حنظلة بن صفوان	١٠٣	١٥٣	»
محمد بن عبد الملك بن مروان	١٠٤	١٥٣	»
الحر بن يوسف	١٠٥	١٥٣	هشام بن عبد الملك
حفص بن الوليد	١٠٨	١٥٣	»
عبد الملك بن رفاعة (ثانيةً)	١٠٩	١٥٣	»
الوليد بن رفاعة	١٠٩	١٥٣	»
عبد الرحمن بن خالد	١١٧	١٥٣	»
حنظلة بن صفوان (ثانيةً)	١١٩	١٥٣	»
حفص بن الوليد (ثانية)	١٢٤	١٥٤	»
حسان بن عتاهية	١٢٧	١٥٦	مروان بن محمد
حفص بن الوليد (ثالثةً)	١٢٧	١٥٧	»
الحوثرة بن سهل الباهلي	١٢٨	١٥٧	»
المغيرة بن عبيدالله	١٣١	١٥٧	»
عبد الملك بن موسى	١٣٣	١٥٧	»

تحت رعاية الخلفاء العباسيين

اسم الامير	سنة ه	الصفحة ج ١	الخليفة
صالح بن علي	١٣٣	١٥٩	ابو العباس ابن محمد
ابو عون عبد الملك بن يزيد	١٤٠	١٦٠	المنصور بن محمد
موسى بن كعب	١٤١	١٦٠	»
محمد بن الاشعث	١٤١	١٦٠	»
حميد بن قحطبة	١٤٣	١٦٠	»
يزيد بن حاتم	١٤٤	١٦٠	»
عبدالله بن عبد الرحمن	١٥٣	١٦١	»
محمد بن عبد الرحمن	١٥٥	١٦٢	»
موسى بن علي	١٥٦	١٦٢	»
عيسى بن لقمان	١٦١	١٦٣	محمد المهدي
واضح مولى ابي جعفر	١٦٢	١٦٣	»
منصور بن يزيد الرعيني	١٦٢	١٦٣	»
يحيى بن داود	١٦٣	١٦٣	»
سالم بن سوادة	١٦٤	١٦٣	»
ابراهيم بن صالح	١٦٥	١٦٣	»
موسى بن مصعب	١٦٧	١٦٣	»
اسامة بن عمرو	١٦٨	١٦٤	»
الفضل بن صالح	١٦٨	١٦٤	»
علي بن سليمان	١٦٩	١٦٥	»
موسى بن عيسى	١٧١	١٦٦	هارون الرشيد
مسلمة بن يحيى	١٧٢	١٦٦	»

اسم الامير	سنة ه	الصفحة ج ١	الخليفة
محمد بن زهير	١٧٢	١٦٦	»
داود بن يزيد بن حاتم	١٧٢	،	هارون الرشيد
موسى بن عيسى (ثانية)	١٧٥	"	»
ابراهيم بن صالح «	١٧٦	"	»
عبدالله بن المسيب	،	•	»
اسحق بن سليمان	١٧٧	"	»
هرثمة بن اعين	١٧٨	"	»
عبد الملك بن صالح	"	١٦٧	»
عبدالله بن المهدي	١٧٩	"	»
موسى بن عيسى (ثالثة)	١٧٩	"	»
عبيدالله بن المهدي (ثانية)	١٨٠	"	»
اسماعيل بن صالح	١٨١	"	»
اسماعيل بن عيسى	١٨٢	"	»
الليث بن الفضل	١٨٢	"	»
احمد بن اسماعيل	١٨٧	١٦٨	»
عبيدالله بن محمد	١٨٩	١٦٨	»
الحسين بن جميل	١٨٩	١٦٨	»
مالك بن دلهم	١٩٢	١٦٨	»
الحسن بن جميل	١٩٢	١٦٨	»
حاتم بن هرثمة	١٩٤	١٧٠	محمد الامين
جابر بن الاشعث	١٩٥	١٧٠	»
عباد بن محمد	١٩٦	١٧١	»
المطلب بن عبدالله الخزاعي	١٩٨	١٧١	عبدالله المأمون

اسم الامير	سنة ه	الصفحة ج ١	الخليفة
عباس بن موسى ابن عيسى	١٩٨	١٧١	عبدالله المأمون
المطلب بن عبدالله (ثانيةً)	١٩٩	١٧٢	»
السري بن الحكم	٢٠٠	"	»
محمد بن السري	٢٠٤	"	»
عبيدالله بن السري	٢٠٦	١٧٣	»
عبدالله بن الطاهر	٢١١	"	»
عيسى بن يزيد الجلودي	٢١٣	"	»
عمير بن الوليد التميمي	٢١٤	"	»
عيسى بن يزيد الجلودي (ثانيةً)	٢١٤	"	»
عبدويه بن جبلة	٢١٥	"	»
عيسى بن منصور	٢١٦	١٧٤	»
كيدر الصفدي	٢١٧	"	»
المظفر بن كيدر الصفدي	٢١٩	١٧٧	محمد المعتصم
موسى بن ابي العباس	"	"	»
مالك بن كيدر الصفدي	٢٢٤	"	»
ابو جعفر اشناس	٢٢٥	"	»
علي بن يحيى الارمني	٢٢٨	١٨١	الواثق بن المعتصم
عيسى بن المنصور (ثانيةً)	٢٢٩	"	»
هرثمة بن نضر الجبلي	٢٣٣	١٨٣	المتوكل بن المعتصم
حاتم بن هرثمة (ثانيةً)	٢٣٤	"	»
علي بن يحيى الارمني (ثانيةً)	"	"	»
اسحق بن يحيى الجبلي	٢٣٥	"	»
خوط عبد الواحد بن يحيى	٢٣٦	"	»

اسم الامير	سنة ـ هـ	الصفحة ج ١	الخليفة
عنبسة بن اسحق	٢٣٨	١٨٣	المتوكل بن المعتصم
يزيد بن عبدالله	٢٤٥	"	»
مزاحم بن خاقان التركي	٢٥٣	١٨٨	المعتز بن المتوكل
احمد بن مزاحم	٢٥٤	١٨٩	»
باكباك	٢٥٤	"	»

الدولة الطولونية

تحت رعاية الدولة العباسية

اسم الامير	سنة ـ هـ	الصفحة ج ١	الخليفة
احمد بن طولون	٢٥٥	١٨٩	المعتز بن المتوكل
خمارويه بن احمد	٢٧١	٢١٨	المعتمد بن المتوكل
ابو العساكر جيش بن خمارويه	٢٨٢	٢٢٥	المعتضد بن الموفق
هارون بن خمارويه	٢٨٣	"	»
شيبان بن احمد	٢٩٢	٢٢٨	المكتفي بن المعتضد

تحت رعاية الدولة العباسية الثانية

اسم الامير	سنة ـ هـ	الصفحة ج ١	الخليفة
محمد بن سليمان	٢٩٢	٢٢٨	المكتفي بن المعتضد
عيسى بن محمد النوشري	"	٢٢٣	»
محمد بن الخليج	٢٩٥	"	المقتدر بن المعتضد
عيسى بن محمد النوشري (ثانيةً)	٢٩٥	"	»
تكين الخزري ابو منصور	٢٩٧	"	»
زكا الرومي ابو الحسن الاعور	٣٠٣	"	»
تكين الخزري (ثانيةً)	٣٠٧	٢٣٢	»
محمد بن تكين	"	"	»

اسم الامير	سنة ه	الصفحة ج ١	الخليفة
محمد بن طغج	٣٢٠	٣٢٣	القاهر بن المعتضد
احمد بن كيغلغ	٣٢١	٣٢٥	»

الدولة الاخشيدية

تحت رعاية الدولة العباسية

اسم الامير	سنة ه	الصفحة ج ١	الخليفة
محمد بن طغج (ثانيةً)	٣٢٣	٣٢٥	الراضي بن المقتدر
انوجور بن الاخشيد	٣٣٤	٣٤٣	المطيع بن المقتدر
علي بن الاخشيد	٣٤٩	٣٤٤	»
كافور الاخشيدي	٣٥٥	٣٤٥	»
ابي الفوارس ابن علي	٣٥٧	"	»

(٢) الخلفاء

الدولة الفاطمية

اسم الخليفة	سنة ه	الصفحة ج ١
المعز بن المنصور	٣٦٢	٣٤٦
العزيز بالله ابن المعز	٣٦٥	٣٥٤
الحاكم بامر الله ابن العزيز	٣٨٦	٣٥٨
الظاهر لاعزاز دين الله ابن الحاكم	٤١١	٣٦٢
المستنصر بالله ابن الظاهر	٤٢٧	٣٦٣
المستعلى بالله ابن المستنصر	٤٨٧	٣٨٤
الآمر باحكام الله ابن المستعلي	٤٩٥	٣٨٩
الحافظ لدين الله ابن محمد	٥٢٤	٣٩٣
الظافر بامر الله ابن الحافظ	٥٤٤	٣٩٥
الفائز بنصر الله ابن الظافر	٥٤٩	٣٩٦

العاضد لدين الله ابن يوسف	٥٥٦	٢٩٨

(٣) السلاطين

الدولة الايوبية

اسم السلطان		
الملك الناصر صلاح الدين يوسف الايوبي	٥٦٧	٣١٥
" العزيز عماد الدين ابن يوسف	٥٨٩	٣٣٤
" المنصور بن العزيز	٥٩٥	٣٣٧
" العادل بن ايوب	٥٩٦	٣٣٨
" الكامل بن العادل	٦١٥	٣٤١
" العادل بن الكامل	٦٣٥	٣٥٠
" الصالح بن الكامل	٦٣٧	٣٥٠
" المعظم بن الصالح	٦٤٧	٣٥٥

دولة المماليك الاولى

اسم السلطان	سنة ٥	الصفحة ج ٢
شجرة الدر الصالحية	٦٤٨	٠٠٥
الملك المعز ايبك الجاشنكير	٦٤٨	٠٠٦
" الاشرف بن يوسف	٦٤٨	٠٠٦
" المنصور نور الدين علي بن ايبك	٦٥٥	٠١١
" المظفر سيف الدين قطوز	٦٥٧	٠١٣
" الظاهر بيبرس البندقداري	٦٥٨	٠١٤
" السعيد برقة خان ابن بيبرس	٦٧٦	٠٣٣
" العادل سلامش بن بيبرس	٦٧٨	٠٣٤

اسم السلطان	سنة ٠هـ	الصفحة جـ ٣
الملك المنصور قلاون الالفي	٦٧٨	٠٢٣
" الاشرف خليل بن قلاون	٦٨٩	٠٢٧
" القاهر بيدرا	٦٩٣	٠٢٧
" الناصر ابن قلاون (اولاً)	٦٩٣	٠٢٨
" العادل زين الدين كتبوغا	٦٩٤	٠٢٨
" المنصور حسام الدين لاجين	٦٩٦	٠٣٠
" الناصر ابن قلاون (ثانيةً)	٦٩٨	٠٣١
" المظفر بيبرس الجاشنكير	٧٠٨	٠٣٣
" الناصر ابن قلاون (ثالثةً)	٧٠٩	٠٣٤
" المنصور ابو بكر ابن الناصر	٧٤١	٠٣٧
" الاشرف كجيك بن الناصر	٧٤٢	٠٣٧
" الناصر احمد بن الناصر	٧٤٢	٠٣٧
" الصالح اسماعيل بن الناصر	٧٤٣	٠٣٧
" الكامل شعبان بن الناصر	٧٤٦	٠٣٧
" المظفر حاجي بن الناصر	٧٤٧	٠٣٧
" الناصر حسن بن الناصر	٧٤٨	٠٣٨
" الصالح صلاح الدين بن الناصر	٧٥٢	٠٣٨
" الناصر حسن بن محمد بن قلاون	٧٥٥	٠٣٩
" المنصور محمد بن حاجي	٧٦٢	٠٣٩
" الاشرف شعبان بن حسين	٧٦٤	٠٤٠
" المنصور علي بن شعبان	٧٧٨	٠٤١
" الصالح حاجي بن شعبان	٧٨٣	٠٤٢

دولة المماليك الثانية

اسم السلطان	سنة . هـ	الصفحة جـ ٣
الملك الظاهر برقوق	٧٨٤	٠٤٤
" الناصر فرج بن برقوق (اولاً)	٨٠١	٠٤٧
" المنصور عبد العزيز بن برقوق	٨٠٨	٠٤٨
" الناصر فرج بن برقوق (ثانيةً)	٨٠٨	٠٤٩
الخليفة الامام المستعين بالله	٨١٥	٠٥٠
الملك المؤيد الشيخ المحمودي	"	٠٥١
" المظفّر احمد بن المحمودي	٨٢٤	٠٥٢
" الظاهر سيف الدين نتر	"	"
" الصالح محمد بن نتر	"	"
" الاشرف برس باي	٨٢٥	"
" العزيز يوسف بن برس باي	٨٤١	٠٥٣
" الظاهر جقمق	٨٤٢	٠٥٤
" المنصور عثمان بن جقمق	٨٥٧	٠٥٤
" الاشرف ينال	"	٠٥٥
" المؤيد احمد بن ينال	٨٦٥	"
" الظاهر خوش قدم	"	٠٥٦
" الظاهر بلباي	٨٧٣	"
" الظاهر تمار بوغا	"	"
" الاشرف قايت باي	"	٠٥٧
" الناصر محمد بن قايت باي	٩٠١	٠٥٩
" الظاهر قنسو خمسمية	"	٠٦٠

اسم السلطان	سنة ه	الصفحة ج ٢
الملك قنسو ابو سعيد	٩٠٤	٦٠
« الاشرف جان بلد	٩٠٥	«
« العادل طومان باي	٩٠٦	«
« الاشرف قنسو الغوري	«	٦١
« « طومان باي	٩٢٢	٦٣

(٤) الباشوات

تحت رعاية الدولة العثمانية

اسم الباشا	سنة ه	الصفحة ج ٢	السلطان
خير بك باشا	٩٢٣	٦٦	سليم بن بيازيد
مصطفى «	٩٢٦	٧١	سليمان بن سليم
احمد «	٩٢٧	٧٢	«
قاسم «	٩٣١	«	«
ابراهيم «	٩٣٢	«	«
سليمان «	٩٣٣	«	«
داود «	٩٤٥	«	«
علي «	٩٥٦	٧٣	«
محمد «	٩٦١	«	«
اسكندر «	٩٦٣	«	«
علي « الخادم	٩٦٨	«	«
مصطفى « (٢)	٩٦٩	«	«
علي « الصوفي	٩٧١	«	«
محمود «	٩٧٣	«	«

اسم الباشا		سنة ٠هـ	الصفحة جـ ٢	السلطان
سنان باشا		٩٧٥	٠٧٤	سليم بن سليمان
حسين "		٩٨٠	٠٧٥	"
مسيح "		٩٨٣	٠٧٦	مراد بن سليم
حسن "	الخادم	٩٨٨	"	"
ابراهيم "	(٢)	٩٩١	"	"
سنان "	"	٩٩٣	٠٧٧	"
عويس "		٩٩٤	"	"
حافظ احمد باشا		٩٩٩	"	"
قورط باشا		١٠٠٣	٠٧٨	محمد بن مراد
السيد محمد باشا		١٠٠٤	"	"
خضر باشا		١٠٠٦	٠٧٩	"
علي "	السلحدار	١٠٠٩	"	"
ابراهيم "	(٣)	١٠١٢	٠٨٠	احمد بن محمد
محمد "	الكورجي	١٠١٣	٠٨١	"
حسن "		"	٠٨٣	"
محمد "	الصوفي	١٠١٦	"	"
احمد "	(٢)	١٠٣٣	٠٨٤	"
مصطفى "	لفغلي	١٠٣٦	٠٨٥	مصطفى بن محمد
جعفر "		١٠٣٧	"	عثمان بن احمد
مصطفى "	(٤)	١٠٣٨	"	"
حسين "	(٢)	"	٠٨٦	"
محمد "	(٤)	١٠٣١	"	"
ابراهيم "	(٤)	"	"	مصطفى بن محمد (٢)

اسم الباشا	سنة ه	الصفحة ج ٢	السلطان
مصطفى باشا (٥)	١٠٣٢	٠٨٦	مصطفى بن محمد (٢)
علي « (٥)	«	٠٨٧	مراد بن محمد
مصطفى « (٥) (ثانية)	«	«	«
بيرام «	١٠٣٧	٠٨٩	«
محمد « (٥)	«	٠٨٩	«
موسى «	١٠٤٠	٠٩٠	«
خليل «	١٠٤١	٠٩١	«
احمد « الكورجي	١٠٤٣	٠٩٣	«
حسين « (٣)	١٠٤٣	٠٩٣	«
محمد بن احمد باشا	١٠٤٥	٠٩٤	«
مصطفى باشا البستانجي	١٠٤٩	٠٩٥	ابراهيم بن احمد
مقصود «	١٠٥١	٠٩٦	«
أيوب «	١٠٥٤	٠٩٩	«
محمد « ابن حيدر	«	«	«
احمد « (٤)	١٠٥٨	١٠١	محمد بن ابراهيم
عبد الرحمن باشا	١٠٦٣	١٠٣	«
عدّة باشوات	....	١٠٣	«
حسن باشا (٣)	١١١٩	«	احمد بن محمد

(٥) الامراء المماليك

تحت رعاية الدولة العثمانية

اسم الامير	سنة ه	الصفحة ج ٢	السلطان
قاسم عيواظ بك	١١١٩	١٠٣	احمد بن محمد

اسماعيل بك		١١٢٦	١٠٤	احمد بن محمد
شركس بك		١١٢٦	١٠٦	"
ذو الفقار "		"	١٠١	"
عثمان "		١١٤٣	١٠٨	محمود بن مصطفى
ابراهيم كخيا		١١٥٦	١١٣	"
رضوان بك		١١٦٨	١١٦	عثمان بن مصطفى
حسين "		"	١١٧	"
خليل "		"	"	"
علي "	الكبير	١١٧٧	١١٩	مصطفى[3] بن احمد
محمد "	ابو الذهب	١١٨٦	١٢٨	"
اسماعيل "	(٢)	١١٨٩	١٣٧	عبد الحميد بن احمد
ابراهيم بك ومراد بك		"	"	"

(٦) الامراء الفرنساويون

تحت رعاية الجمهورية الفرنساوية

بونابرت		١٢١٣	١٦٨	
كلابر		١٢١٤	٢٠٣	
مينو		١٢١٥	٢١٠	

(٧) باشوات آخرون

تحت رعاية الدولة العثمانية

خسرو باشا		١٢١٦	٢١٧	سليم بن مصطفى
علي باشا الطرابلسي		١٢١٨	٢٢٣	"
خورشيد باشا		"	٢٢٤	"

(٨) العائلة المحمدية العلوية

تحت رعاية الدولة العثمانية

اسم الباشا	سنة ه	الصفحة ج ٢	
محمد علي باشا	١٢٣٠	٢٢٦	سليم بن مصطفى
ابراهيم "	١٢٦٤	٢٥٠	عبد المجيد بن محمود
عباس "	١٢٦٥	٢٥٢	"
سعيد "	١٢٧٠	٢٥٤	"
اسماعيل "	١٢٧٩	٢٥٦	عبد العزيز بن محمود
محمد توفيق باشا	١٢٩٦	٢٧٢	عبد الحميد بن عبد المجيد

فهرس الجزء الثاني من تاريخ مصر الحديث

دولة المماليك الاولى

صفحة

صفحة

دولة المماليك الثانية

الحملة الفرنساوية

الدولة المحمدية العليوية

فهرس عامٌّ

قد رأيت ان اضع فضلاً عن الفهرس لكلِّ جزءٍ من جزئي الكتاب فهرسًا عامًّا يتضمن اهمَّ مواد هذا الكتاب مرتبة على الحروف الابجدية تسهيلاً للاهتداء الى اماكنها

(ا)

« حالة مصر الادبية »

قد وعدنا في مثال نشرناهُ من هذا الكتاب اننا سنذيلهُ بشرح موجز عن حالة مصر الادبية الحاضرة فنعدد ما فيها من الجرائد والمدارس والجمعيات على اختلاف نزعاتها وقد سعينا الى انجاز هذا الوعد جهدنا فاعلنّا بطرق مختلفة نطلب الى المدارس والجمعيات في القطر المصري ان تبعث الينا

بما يفيدنا عن تاريخها فاجابنا بعضها ولا نزال في انتظار البعض الباقي . فالآن قد نجز طبع الكتاب ولم تتم لدينا المعدّات اللازمة لاستيفاء الكلام بهذا الشان فارجأ نا ذلك الى فرصةٍ اخرى فنفرد لهذا الموضوع كتاباً مخصوصاً مستوفياً ان شاء الله تعالى

اصلاح خطاء

الجزء الاول

صفحة	سطر	خطاء	صواب
١٢٤	١٨	اخيه	اخاهُ
١٨١	٠٧	٢٨٨	٢٢٨
٢٣٤	٢٣	خلفًا	خلعًا
٢٣٩	١٤	بابي هور	بانوجور

الجزء الثاني

صفحة	سطر	خطاء	صواب
٠٦٥	٠٣	١٢٠٣	١٢١٣
٠٦٥	٠٢	١٧٨٩	١٧٩٨
١٠٧	٢٢	موقعة (ضعها في آخر سطر ٢١)	
١٤٣	٢٠	جعل يعيثا	جعلا يعيثان
٢٣٣	١٣ و١٤	جنبو	ينبع
٢٣٥	"	"	"
٢٤٣	٢٤	يؤمن يد	من يؤيد

مكتوب تحت صورة محمد علي باشا انهُ « خديوي مصر » وذلك خطاء من حافر الرسم يجب اصلاحهُ لان المذكور لم يكن خديويًا كما يفهم من تلاوة هذا التاريخ . وقد وقع سهو في ترتيب الصفحات في الجزء الثاني فوضعت صفحة ٧٩ قبل ٧٨ فعلى المطالع الانتباه الى ذلك . وربما يعثر القارئ على اغلاط اخرى مطبعية كزيادة او نقصان حرف او حركة او ابدال احدها بما يماثلهُ شكلاً مما لا يخفى اصلاحهُ على اللبيب ولذلك اغضينا عن ايرادهِ هنا

تمّ الكتاب بعون الله